هذا العالم الجديد

حضارة أمريكا اللاتينية

[illegible]

[illegible]

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي ذكي

القاهرة

هذا العالم الجديد

حضارة أمريكا اللاتينية

نشر هذا الكتاب بالاشتراك
مع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
القاهرة ـ نيويورك
مايو سنة ١٩٧٠

رقم الايداع بدار الكتب ٣٣٠٢/١٩٧٠٠

هذا العالم الجديد
حضارة أمريكا اللاتينية

تأليف

وليم ليتل شورز

ترجمة

محمد سيد نصر

الناشر
دار نهضة مصر
١٨ شارع كامل صدقى – بالفجالة

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة
والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is an authorized translation of THIS NEW WORLD by William Lytle Schurz. Copyright 1954 by William Lytle Schurz. Published by E. P. Dutton, Inc., New York, New York.

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : وليم ليتل شورز

مؤرخ لامع وصحفى وموظف سابق بوزارة الخارجية . له معرفة أصيلة واسعة بحياة أمريكا اللاتينية . فقد عرف الفلاحين ورجال الأعمال والعمال والمهنيين والجنود والموظفين الحكوميين ، وكون صداقات مع الهنود الذين يقطنون الأرجاء الداخلية فى أمريكا الجنوبية ، وقطع فى أسفاره ما يزيد على خمسة وعشرين ألفا من الأميال خلال الأدغال ونحو منابع أنهار وادى الأمزون . ونظرا إلى كونه دبلوماسيا وصحفيا ومستكشفا ووكيل أعمال تجارية ومديرا للتصدير فى شركة صناعية كبيرة ، ومستشارا اقتصاديا لحكومة من حكومات أمريكا اللاتينية ، فمن المحتمل أنه قد رأى أمريكا اللاتينية من زوايا أكثر عددا من تلك التى استخدمها أى أمريكى آخر . وقد كان للدكتور شورز علاقة فى وقت من الأوقات بالمعهد الأمريكى للتجارة الخارجية فى مدينة فينكس بولاية أريزونا

المترجم : محمد سيد نصر

تخرج فى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٢٧ ، وجامعة ليفربول (درجة الشرف فى الجغرافية سنة ١٩٣١) . عمل مدرسا فى المدارس الثانوية ، ثم مدرسا فأستاذا مساعدا بجامعة القاهرة (كلية التجارة فالآداب) ثم كبيرا لمفتشى المواد الاجتماعية بوزارة التربية والتعليم . وهو عضو الجمعية الجغرافية المصرية ، والجمعية التاريخية المصرية ، ولجنة البيان العربى .

ألف عدة كتب منها « أصول الجغرافية العامة » و « جغرافية النقل — جغرافية المواد الخام » و « جغرافية المعادن والقوى » و « وحدة الجغرافية الطبيعية للوطن العربى » كما ترجم عدة بحوث وكتب ، واشترك مع آخرين فى ترجمة أطلس العالم والأطلس العربى .

مصمم الغلاف : أمين لبيب

(يعمل مصمم ديكور بالمتحف الزراعى . صمم كثيراً من أغلفة كتب المؤسسة . يقوم بإعداد المعارض التى تقيمها وزارة الزراعة فى مدن وقرى الجمهورية .

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزى زكى بطرس

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل الأول

البيئة

البرازيل ٥
الأنديز ٧
البمبا ١٢
اللانوس ١٦
الغابة ١٨
الزلازل والزوابع ٣٣

الفصل الثاني

الهندى

طرق المعيشة عند الهنود ٥١
السياسة والحرب عند الهنود ٥٧
الثقافات الهندية ٦٠
الفتح ٦٧
الإسبانى والهندى ٧١
اختلاف الشعوب ٨٢
الهنود فى ظل الجمهوريات ٨٦

الصفحة

الفصل الثالث
الأسبانى

الرواقية الإسبانية ١١٤
أنماط إسبانيا ١١٧
الأندلس ١١٩
الإسبان فى العالم الجديد ١٢٢
الفردية الإسبانية ١٢٦
الزهو الإسبانى ١٣٥

الفصل الرابع
الفاتح

الموت والفاتحون ١٥١
الجندى الإسبانى ١٥٦
« القصة السوداء » ١٦١
البحث عن الذهب ١٦٥
مشروع الفتح ١٦٨
العدالة فى الفتح ١٧٢
الفتح بوصفه حربا ١٧٥
فتح المكسيك ١٨٤
فتح بيرو ١٨٦
الأقطار النائية ١٩٣
مهمة الاستعمار ١٩٧
البرتغاليون فى البرازيل: ٢ ٣

الصفحة

الفصل الخامس
الـزنجي

تجارة الرقيق ٢١٦

الزنجي في البرازيل ٢٢٣

الزنجي في المستعمرات الإسبانية ٢٣٤

الزنجي في المجتمع الاستعماري ٢٤٠

المولد ٢٤٥

الزنجي في هايتي ٢٤٨

الزنجي في حضارة أمريكا اللاتينية ٢٥٤

الفصل السادس
الأجنبي

الإيطاليون في الفتح ٢٧٢

الفرنسيون ٢٧٥

الإنجليز ٢٧٩

الإيرانديون ٢٩٥

الألمان ٢٩٩

الفلمنكيون والهولنديون ٣٠٥

البرتغاليون في المستعمرات الإسبانية ٣٠٧

الهجرة في ظل الجمهوريات ٣١٠

الصفحه

الفصل السابع

الكنيسة

التصوف الإسبانى ٣٢٧
الدولة والكنيسة فى إسبانيا ٣٢٩
الكفر ومحكمة التفتيش ٣٣٠
الكنيسة فى العالم الجديد ٣٣٧
الجهاز التنظيمى ٣٣٩
رجال الدين ٣٤٩
الكنيسة والدولة فى ظل الجمهوريات ٣٥٨

المراة

الفصل الثامن

المرأة الهندية ٣٧٠
المرأة الإسبانية فى الفتح ٣٧٦
الفتح والمرأة الهندية ٣٩٩
المرأة الإسبانية فى فترة الاستعمار ٤١١
الليماوية ٤١٨
خمس من نساء المستعمرات ٤٢٤
المرأة والأسرة فى الجمهوريات ٤٣١

الصفحة

الفصل التاسع

المدينة

تخطيط المدن الإسبانية ٤٥٤
أسماء الشوارع ٤٥٨
ليما فى عهد الاستعمار ٤٦٢
بوتوس ٤٧٢
العواصم ٤٧٦
مشكله التحضر ٤٧٩
المدينة والريف وجها لوجه ٤٨٢
المدينة فى حضارة أمريكا اللاتينية ٤٨٦
عمارة المدن ٤٨٨
الشوارع والميادين ٤٩٣
مدينة المكسيك ٥٠٠
بوينس ايريس ٥٠١
ساو باولو ٥٠٣
ريو ٥٠٥

الفصل العاشر

البرازيلى

سكان البرازيل ٥٢٠
نظام المزارع . : ٥٢٣
الثقافة الاستعمارية ٥٢٤

الصفحة

البرتغاليون ٥٢٧
الولايات البرازيلية وسكانها ٥٢٨
الأخلاق البرازيلية ٥٣١
ثقافة البرازيل ٥٣٩

خاتمــــة ٥٤٨

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزى زكى بطرس

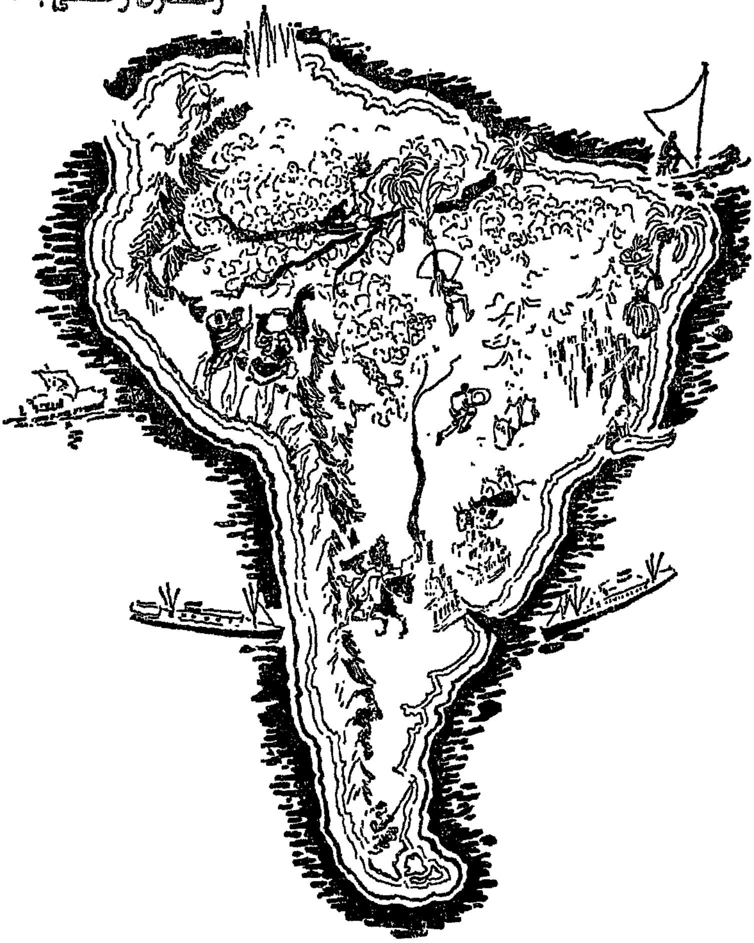

الفصل الأول

البيئة

عندما يرحل قوم عن مسقط رأسهم إلى بلد آخر فإنهم ينزعون إلى الحكم على بيئتهم الجديدة بالأساليب المألوفة التى تعودوها فى وطنهم القديم وقد ترك الإسبانيون الذين نزحوا إلى العالم الجديد وراءهم أرضاً صعبة شحيحة ، إذ تتوسط بلادهم هضبة تكاد تخلو من الأشجار ، تلفحها حرارة الشمس القاسية فى الصيف ، وتبردها الرياح القارسة التى تهب من وراء الجبال العابسة التى تعترض سطح هضبة قشتالة فى كل مكان . وقد اعتاد معظم الإسبانيين الحياة دائماً على مرأى من الجبال ، وأصبحوا يشعرون بالغربة وهم يلمحون الأفق على شكل خط مستقيم ؛ ذلك أن الجبال كانت تمثل أمام ناظرهم اتجاهات ثابتة يرونها فى غدوهم ورواحهم ، وعلامات على السطح يهتدون بها عند الرؤية . فعلى الرغم من أن وجه الطبيعة فى إسبانيا يبدو للأجنبي عن البلاد منفراً وغير كريم بصفة عامة ، فإنه لم يصل إلى الحد الذى ينال من شخصية الذين ترعرعوا فى نطاقه العبوس . ومن الناحية الروحية نجد أن طريقة حياتهم الخشنة تبدو مناسبة لقوتهم وعظمتهم . ونفذ جزء من الصفة الصلبة للجبال إلى أرواحهم وأجسامهم ، كما قد يشاهد المرء اليوم الفلاحين فى أراجون وقشتالة القديمة الذين يبدون وكأنهم قطعة من نفس الأرض المحيطة بهم . وقد ارتضى الإسبانيون الذين فتحوا واستقروا فى الهند الغربية المعيشة فى كنف الجبال ، ولم ينتظروا الإفادة منها كثيراً بجانب أنها تحمى ظهورهم فى وقت الخطر . فقد كانوا يعرفون طريقهم فى مسالكها وجبالها ، بل إنهم كانوا أحياناً يقيمون مدنهم على قمم التلال ، كما فعلوا عند سيبولفيدا وسوريا . وفى العصور الوسطى عندما

كان الإسبانيون يحاربون بعضهم بعضا ، وعندما اتفقوا جميعا على محاربة المسلمين ، كانوا يتوجون النتوءات الجبلية بالقلاع ، كتلك الموجودة فى ألمانسا وبنيافيل وسيجوفيا . وتبدو قسوة الأرض الإسبانية مصورة فى خلفية أعمال الرسامين من الجريكو إلى ثولواجا .

وحول حافة شبه جزيرة أيبيريا تبدو الطبيعة أكثر سخاء . فمع أن الجبال فى كثير من البقاع ولمسافات طويلة تصل إلى البحر ، إلا أنها فى بعض الأحيان تتفتح عن مساحات سهلية كسهل فيجا عند بلنسية ، وعن قطاع ساحلى متسع بين أليكانتى وقرطاجنة ، والجزء الأدنى لنهر الوادى الكبير. وأشهر من كل هذه مثلا ، الجانب الغربى للبرتغال . وبينما نجد أرجاء إسبانيا المطلة على الأطلنطى مثل أستورياس وولايات الباسك جبلية ، إلا أنها أكثر خضرة من مرتفعات قشتالة وأراجون الجرداء ، وكذلك الحال فى أرجاء البرتغال المرتفعة . وفى الريفييرا الإسبانية المحمية ، التى تطل شرقاً على البحر المتوسط الدفىء ، يتغير النبات السائد ، فتنمو أشجار البرتقال وغابات نخيل التمر وحقول قصب السكر .

هذه كانت الخلفية الطبيعية التى حمل ذكرياتها معهم الإسبانيون والبرتغاليون إلى جزر الهند ، والتى أصبحت قطعة من تكوينهم الجنسى ، فلم يكونوا ليجدوا فى العالم الجديد إلا القليل من الصور المناظرة لما فى وطنهم ، فإذا وجدوا شيئا منها تعلقوا به بحنين وتعاطف . غير أن الطبيعة كانت فى أغلب الأحوال على نطاق أكبر بدرجة مطلقة مما عهدوه فى شبه الجزيرة ، فكل شىء أكبر : الجبال ، الغابات ، السهول ، المستنقعات ، بل إن مظاهر الطبيعة كانت أعنف وأكثر مباغتة ، فى غضبها انفجرت فى بعض الأحيان فى صورة زلزال وعواصف وثوران براكين .

واتسمت انطباعات العالم الجديد الأولى بالنشوة والإعجاب . فدهش

المستكشفون من نضارة النبات وتنوعه ومواقع الأرض البهيجة كلما أبحروا بين الأنتيل . لقد اعترت كولمبس — وهو الإسبانى المتبنى — نشوة عندما شاهد هسبانيولا(١) وسمع منها الأصوات فقال : « إن البلبل كان يغنى ، وكذلك غيره من صغار الطير ، كما تغنى فى ذلك الشهر فى إسبانيا . . . لقد كان ذلك أعظم بهجة فى الدنيا . وأطلق على الجزيرة اسم « إسبانيا الصغيرة » لأن سهول السيباو الغنية ذكرته — بضغط واضح على مخيلته — « بخصبها » على الأقل « بأراضى قشتالة » ، بل لقد أشاد أكثر بجزيرة كوبا ووصفها بأنها « أبدع ما وقعت عليه العين من الجزر » ، وهى عبارة استغلتها مصلحة السياحة فى جمهورية كوبا إلى أقصى حد . ولقد عرف بيتر مارتر ، الراهب الإيطالى الذى عاش فى البلاط الإسبانى ، كثيراً عن الجزر الشاعرية من كولمبس ورفاقه ، ومن المحتمل أنه فى أثناء كتابته عن شتاء قشتالة القاسى كان يفكر فى مفاتن هسبانيولا : « ماذا يبغى المرء من السعادة فى هذه الدنيا أكثر من أن يعيش فى بلاد توجد بها مثل هذه العجائب التى تراها العين وتستمتع بها النفس ؟ وهل هناك معيشة أرضى من تلك التى يعيشها المرء فى بلاد لا يجبر فيها على أن يحبس نفسه فى حجرات ضيقة هربا من البرد القارس أو الحرارة الخانقة ؟ بلاد ليس من الضرورى فيها أن يحمل الإنسان جسمه بالملابس الثقيلة فى الشتاء أو يحمر رجليه على نار مستمرة ، وهى عادة تقدم العمر فى لمح البصر ، وتسبب ألف مرض مختلف . ومع ذلك فقد كان قلقا لأن « عبير هذه البلاد وروائحها الرقيقة » قد تؤدى إلى الكسل والتأنث والحياة المترفة .

وعندما توغل الإسبانيون فى داخل القارة تغير وجه العالم الجديد . وفى بعض الأحيان كانوا يلقون الطبيعة فى أسوأ مظاهرها، وكثيرا ما اضطروا إلى شق طريقهم إلى موطىء قدم ثابتة على « الأرض الصلبة(*) » خلال النباتات المائية والمستنقعات الأخرى التى تحف بالسواحل . وفيما وراء نطاق

(*) Tierra Firme أو الأراضى الساحلية الشمالية لأمريكا الجنوبية .

المستنقعات الذى لم يكن أرضاً ولا ماء ، ولكنه عنصر مكون من كليهما، امتدت ، لمئات الأميال ، الغابة المطيرة والجبال غير المطروقة كالتى عبرها فرانسسكو سيزار فى طريقه الشاق إلى هضبة كنديناماركا فى كولومبيا، وتلك التى قابلها كورتيس فى رحلته الطويلة من المكسيك إلى هندوراس .

غير أن كورتيس وجد فى المكسيك أرضاً محببة إليه . وكانت فيها صفات كثيرة تذكره وغيره من الإسبانيين بإسبانيا. فقد كتب إلى الإمبراطور شارل يقول : « مما رأيت وعلمت خاصا بالشبه بين هذه البلاد وإسبانيا ، فى الخصب ، والحجم ، والمناخ ، وفى مظاهر أخرى كثيرة بها ، بدا لى أن أليق اسم يطلق على هذه البلاد هو إسبانيا الجديدة (المكسيك فى البحر المحيط ، وهذا باسم جلالتكم — ما أسميتها) . وعلق «الفاتح المجهول الاسم» فى نغمة مماثلة بقوله : « إن أرض إسبانيا الجديدة تشبه إسبانيا ، والجبال ، والتلال ، والأودية ، والسهول ، ولها نفس المظاهر تقريبا ، باستثناء كون الجبال أكثر فظاعة ووعورة ». وأضاف : إن الحقول فى المكسيك كانت « مرضية للغاية » ، فهنا فى الحقيقة أرض تحوز القبول .

وفى نصف الكرة الجنوبى أيضا ، كان الإسبانيون دائبى البحث عن أرض تشفى حنينهم إلى الوطن . فقد كتب سييثا دى ليون عن الإقليم المحيط بكيتو يقول : « الأرض جميلة جدا وتشبه على وجه الخصوص إسبانيا فى مراعيها ومناخها » . وقال عن إقليم ريو بمبا البعيد المنحدر عن الهضبة: « إن سهوله الجميلة تشبه كثيراً سهول إسبانيا فى المناخ ، وفى الأزهار والحشائش ، وأشياء أخرى » .

غير أنه فى وادى تشيلى بالذات ، فى الطرف الجنوبى لمسار الفتوح الطويل ، وجد الإسبانيون أرض الميعاد . حيث لا عودة منها ولا رغبة فى العودة منها . فهنا ، فى الحافة البعيدة للعالم ، بين حائط الأنديز العظيم

والمحيط الهادى ، وجد الإسبانيون خاتمة المطاف لحلمهم (*) ، وأطلق عليها الفاتح بدرو دى فالدفيا « أحسن بقعة أرض فى العالم . . . . صحية جداً ، وخصبة للغاية ، وجميلة ، وذات مناخ جميل جدا » ، فقد كانت أرضا تتصف « بالرضا الكثير » ، وهواؤها كان « بهجة » ولم يوجد هناك كثير من الذهب وكان الهنود محاربين أشداء ، ولكنها كانت أرضا طيبة للرجال ليحيوا فيها حياتهم ، وكان امتلاكها يستحق القتال . وكتب عنها الأب أكوستا يقول : « إن البلاد التى تشبه فى الحقيقة إسبانيا أكثر ما يمكن ، والتى تشبه أقاليم أوروبا ، فى جميع الهند الغربية ، هى منطقة تشيلى التى تعد خارج القاعدة العامة لهذه المناطق الأخرى فى كونها تقع دون المنطقة المحرقة ومدار الجدى . وهذه البلاد معتدلة وخصبة وتنتج جميع أنواع الفواكه التى يمكن أن تنمو فى إسبانيا ، وتنتج مقادير وافرة من الخبز والنبيذ ، وتكثر بها المراعى والماشية . فالهواء صحى ونقى وحرارتها بين الحر والبرد » .

البرازيل

وكما حدث فى فتوحات إسبانيا حدث كذلك فى البرازيل ، إذ بدأ البرتغاليون يهتمون جديا بالمستعمرة الشاسعة التى كانوا أهملوها زمناً طويلا ولم تكن خضرة الشواطى المدارية الغضة جديدة عليهم كما كانت على الإسبانيين ، فقد سبق أن اتبعت سفنهم السواحل الغربية لإفريقية ، وكان عليهم وقتذاك أن ينفذوا فى البحار إلى الشرق حتى المحيط الهادى قبل أن يولوا اهتمامهم نحو « أرض الببغاوات » . ومن الجدير بالذكر أن دوارتى كويلو «صاحب التزام» برنامبوكو (**) وأكثر مستعمرى البرازيل الأوائل

(*) Ultima Thule : الحد الأقصى ، والأصل جزيرة كشفها بثياس الإغريقى فى القرن الرابع ق . م على مسيرة ستة أيام شمال جزر أوركنى ، ولعلها جزيرة من جزر شتلند ، أو أيسلند أو النرويج أوجتلند .

(**) الآن رسيفى : Recife

نجاحا ، كانت له تجربة مماثلة فى الشرق . وفى الحقيقة كانت الخبرة القريبة العهد فى إفريقية وآسيا ذات قيمة عظيمة للبرتغاليين فى إيجاد مجتمع ريفى فى شمال البرازيل . فقد كان لهم سابقة معرفة بالظروف المدارية التى وجدوها فى العالم الجديد .

وبعد أن تكفل البرتغاليون باستعمار البلاد وتطورها أحسوا بسحرها. فقد كتب بيرودى ماجاليس يقول : إنها كانت « أنسب مقاطعة فى أمريكا للجنس البشرى ، لأن الهواء عادة طيب، والتربة خصبة للغاية ، و(الأرض) ذات منظر يعد أبهج وأجمل ما وقعت عليه عين بشرية ».

وقال الأب الجزويتى أنشيتا : « إن البرازيل كلها حديقة مزدهرة يانعة وشجر وارف ، ويمضى العام دون أن تقع العين على شجرة جرداء أو نبات يابس . وتبدو الغابات كما لو كانت تلمس السحاب ، وحجم الأشجار يثير الإعجاب ، وهناك اختلاف كبير فى أنواعها. وكثير منها يغل فاكهة طيبة ، وإن الشىء الذى يكسبها سحراً خاصاً هو كثرة الطيور الجميلة من كل صنف يمكن مشاهدته فيها ، تشدو بأنغام لا تقل جمالا بأى حال من الأحوال عن أنغام البلابل والزقيقة والكناريا البرتغالية . وهذه العصافير يصدر عنها توافق فى النغم لدرجة أن من يمر بها يجد نفسه مضطرا إلى تسبيح الرب. والغابات معتدلة ويانعة لدرجة لا يمكن أن تقارن بها الغابات الجميلة الصغيرة التى غرسها الإنسان فى البرتغال » (٢) : ويضيف قوله : « ولا تمل العين النظر إلى كل هذا السناء المتغير » . أما للأب بتا فقد كانت البرازيل « جنة أرضية » ولم يكن هناك « بحر أجمل » فى أية بقعة من بقاع العالم . وقال هانز ستادن — وهو الألمانى الذى كان يحن إلى وطنه — « إنها أرض تسر الناظرين ، فالأشجار دائمة الخضرة ، ولكن ليس هناك غابة تشبه غاباتنا» وقال . « إن المتوحشين يمشون عراة » كما لو كانوا جزءاً من الطبيعة .

وكانت مظاهر الطبيعة الثلاثة التى وجدها الإسبانى أو البرتغالى فى القارة الجديدة هى الأنديز وغابة الأمازون والبمبا الأرجنتينية ، ولم يحب واحداً منها ، إذ فقد سيطرته على جسمه نفسه فى الأنديز الشاهقة ، وفى الغابة عوقت الأشجار سيره ، وراعته الأنهار ، وانهالت فوق رأسه الأمطار. وكانت البمبا خاوية للغاية ، وتسببت الجبال العالية فى « توترات » عصبية لم يستطع التحكم فيها ، وبدا فى الغابة المطيرة جو من الكآبة ، وعلى مروج البمبا خشى أن يصبح عقله خاويا فى فراغها اللانهائى أو إذا انكب على التفكير فمن المحتمل أن تصبح أفكاره بلا هدف أو تتشتت فى دوامة . وأجمعت المظاهر الثلاثة على التقليل من شخصيته ، وانتقصت جزءاً من شعوره بالأهمية. ولذلك تجنبها واتجه نحو أراض أصغر توافق روح إسبانيا الجديدة — نحو أراض قد يستطيع السيطرة عليها أو يعيش معها فى وئام . وكانت هذه هى المشكلة التى كتب عنها همبولدت يقول : « فى العالم القديم تكون الأمم والفوارق التى بين حضاراتها الصفة الرئيسية فى الصورة ، أما فى العالم الجديد فالإنسان يكاد يختفى هو وما ينتجه وسط المظهر الهائل الذى تبديه الطبيعة الموحشة الجبارة » .

الأنديز

لقد شعر الإسبانى أنه غريب فى الأنديز العالية ، ولكن الكورديليرا كانت موطناً للرعية من الإنكا ، ولم يتركوها أبدا دون أن يشعروا بالندم أو بالمخاطرة بصحتهم . وكلما أعاد الإنكا إسكان شعوبهم أراضى جديدة فى امبراطوريتهم لأسباب اقتصادية وسياسية كانوا حريصين على ألا يحركوا فريقا منهم إلى منطقة يختلف ارتفاعها عن المنطقة التى تعودوا عليها زمنا طويلا . فقد تلاءم الهندى لآلاف السنين بيولوجيا وروحيا مع موطنه المحلى ، فصدره الذى يشبه البرميل ، بفراغ رئتيه الشاذ ، إنما هو نتيجة تطور نشأ لتعويض قلة الأكسيجين فى الجو المخلخل . وحملت اللاما أثقاله وقدمت له رفقة فى فيافى الهضبة الصامتة ، وأمده صوفها بالملبس الذى

وقاه البرد وفراؤها بالفراش الذى ينام عليه فى الليل . وفى أغلب الأحيان كان روثها وقوده الوحيد . وكانت الكوكا(*) مسكنا للجوع والتعب والألم الذى كان يشعر به فى جسمه . وكانت الشمس تطلع فتدفئه بعد برد الليل وتخرج من أطرافه خدر الفجر . واتخذ نقطتى الانقلاب علامة للفصول . وكانت الشمس الخيرة الهدف الرئيسى لعبادته . وغير وجه الجبال بالمدرجات وقنوات الرى حتى جعلها ملائمة لاستخداماته . أما القمم العالية مثل اليمانى وسوراتا وهواسكاران التى ارتفعت فوق مستوى السهول العالية فقد كانت ملاجىء للأرواح لا يقترب منها ، بل ينظر إليها برهبة واحترام . فهذه وجميع مظاهر السطح — السهول المرتفعة المقبضة ، والأودية اليانعة بين سلاسل الجبال ، والسطح الفسيح لهضبة الكولاو ، والأنهار ذات الماء القارس التى تنبع من حقول الثلج ، والبحيرة ذات الجزيرة المقدسة وخلفيتها المهيبة — كلها كانت مألوفة ومحبوبة لديه كإطار خالد لحياته القصيرة .

ولم تكن الأنديز بأى حال من الأحوال وطنا للإسبانى ، فقد كانت بالنسبة إليه ، مهما حسنت الأمور ، بمثابة مثوى فى معسكر كبير للتعدين . وكان إغراء المعادن هو الذى استطاع أن يجتذبه لفترة طويلة من الأراضى المنخفضة ، ولم يرتض الإقامة فترات طويلة نسبيا فى الأماكن الكئيبة مثل بوتوسى أو كاستروفيرينا أو أورورو ، سوى الباسك ومواطنى أستورياس . وحتى هؤلاء كانوا يرجعون إلى المستويات المنخفضة ، كما كانت الحال عند شوكيساكا أو لاپلاتا وكوشابمبا حيث كانوا يميلون إلى قضاء معظم وقتهم ، وحيث نزحوا نهائيا ليستمتعوا بثرواتهم فى راحة . أما أهل الأندلس ذوو الدم الدافىء فقد تجنبوا السهول المرتفعة ، وأما القشتالى فلم يكن يغريه عادة للمعيشة فترة بين النسور الفحاحة تاركا السهل سوى الحصول على وظيفة نائب الحاكم الجزية .

(*) Coca : عشب تستخلص من أوراقه مادة مخدرة ومنشطة هى الكوكايين (الاصل بيروفى) .

وكان الكفاح لتهيئة الحياة للبيئة الطبيعية فى الجبال العالية أمراً صعباً على الإسبانى ، وكثيراً ما قاسى الفاتحون الأمرين ، كما قاسى الذين جاءوا من بعدهم ، من برد المرتفعات . فقد كتب سييثا دى ليون عن جنود بشارو فى مطاردتهم لألماجرو يقول : « لقد استمروا فى سيرهم متهاونين ، دون أن يحملوا معهم خيامهم لتحميهم من تساقط الثلج الثقيل ، ولم يستطيعوا تحمل البرد . . . ولم يكن سوى نفحة من الحظ أنهم لم يموتوا جميعاً فريسة للجليد » . وقد انتاب رجال بشارو أيضاً دوار الجبال أو « مرض الجبال » . يقول سييثا : « لقد انتابهم الدوار وأثر فيهم لدرجة تسبب عنها فى ترنح ، بل لقد ألقوا بأسلحتهم إلى الأرض » (٣) وهذه بعض أعراض واحد من الأمراض الكريهة الناتجة عن عدم التوازن بين ضغطى الجسم والجو فى المرتفعات العليا ، ويزيد تفاقمه نقص الأكسيجين اللازم للتنفس . ويميل القادم الجديد إلى السلاسل الجبلية إلى الشكوى من التوترات العصبية الحادة . فالحياة المضطربة فى بوتوسى فى أوقات الرخاء لم تكن الشرط الطبيعى الوحيد لمعسكر تعدين غنى بالثروة المعدنية ، فالارتفاع الشاهق إلى درجة غير معهودة ، تكاد تصل إلى اربعة كيلو مترات فوق سطح البحر ، جعل مزاج الناس أميل إلى الإثارة والتشاجر الذى كان ينشب فى بعض الأحيان فى عنف هائج لا هدف منه . ومن معوقات الحياة فى الأنديز العالية قاسى الرجال من العقم (٤) . فقد مضى وقت طويل قبل أن تحمل النساء وتلد فى بوتوسى ، ومضى وقت أطول قبل أن يستطيع الأطفال المولودون تحمل أخطار الطفولة فى مهد « المدينة الامبراطورية » الممقوتة . وإلى الآن تعد هذه العوامل معوقا لتكاثر السكان البيض فوق المستويات العليا فى هضاب الأنديز حيث لا تزال الغالبية للسكان هنوداً أو مولدين .

وإلى أسفل ، على ارتفاع قريب من ٢٧٠٠ متر فى العروض المدارية تبتدىء منطقة يمكن أن يعيش فيها المرء عيشة تقرب من الحياة الطبيعية

العادية ، إذ يقل الضغط على القلب والرئتين كثيرا ، ويمكن للمرء أن يحتفظ بالدفء دون جهد كبير إلا فى الليل . وعلى مستوى الارتفاع العام توجد مدن قديمة هامة مثل كشكو ، وكوشابمبا ، وكيتو ، وبوجوتا ، وكثير من المدن الصغرى حيث استقر الإسبانيون وعاشوا فى راحة واطمئنان — وإنجاب الأطفال .

وإذا استثنينا الجزر المنخفضة فى الأنتيل والأرجاء الجنوبية المعتدلة من القارة أظهر الإسبانيون ميلا نحو الأراضى التى ترتفع من ٩٠٠ إلى ٢١٠٠ متر فمدينة المكسيك وأريكيبا يزيد ارتفاعهما قليلا على هذا النطاق . وتقع سانتياجو وسان سلفادور تحت هذا المستوى .

ولكن فى هذا النطاق تقع معظم المدن الكبرى فى المكسيك وكولومبيا وعواصم جواتيمالا وهندورس وكستاريكا وفنثولا (فنزويلا) ومدن كثيرة غيرها فى أمريكا الإسبانية . وهنا فى وسط هذا النطاق من الأرض الوسطى وجد الإسبانى مناخا ينشطه بدل أن يخدره أو يثبطه ، وأكسبه إحساسا بتركيب جسمى سليم لا تهدده الملاريا ولا دوار الجبال . وهنا يمكنه أن يزرع المحصولات والنباتات الأخرى التى ألفها فى إسبانيا . وفضلا عن ذلك ففى هذه الارتفاعات كان حجم الجبال مما يستطيع معه أن يقيس أبعادها ويدركها ويشترك معها على قدم المساواة .

والمكسيك بلاد جبلية كإسبانيا . ومع أن الجبال هى المورد التقليدى — والخادع — لثروتها المعدنية ، فإن الغالبية العظمى للسكان قد اعتمدوا فى معيشتهم دائما على الزراعة . ولم تكن حياتهم التى حبوها طيبة أو سخية ، لأن منظر الطبيعة القاسى والواضح يحوى بين ربوعه أرضا قليلة صالحة للزراعة . ويزدحم معظم السكان فى أحواض بين جبال الهضبة الوسطى حيث تتركز الأرض القليلة القابلة للزراعة (٥) . ولكن السباق الذى

يجرى بين كثرة إنجاب الأطفال واستهلاك التربة أجبر الجمهورية على إدخال سلسلة من مشروعات الرى فى الأرجاء الشمالية للبلاد ، الغرض منها زيادة مقادير الطعام القليلة اللازمة لأبناء الأمة . وتسقط الأمطار فوق الهضبة فى فصل بالذات ، وينتج عن عدم التثبت من سقوطها إيمان كبير بالقضاء والقدر لدى الشعب المكسيكى الذى كان تهديد الجوع ماثلا أمامه دائماً كما كان فى إسبانيا .

وقد شجعت الجبال التى قطعت البلاد إلى جيوب وسورت الأودية والسهول ، تفصلها بعضها عن بعض ، على العزلة وجمود الجماعات الذى أسس فى الأصل على فروق جنسية. وتأصل بالقصور الذاتى لمئات السنين. وفى جهدها لتثبيت الروح القومية فى الشعب اضطرت حكومة الجمهورية إلى محاربة الروح المحلية المتأصلة ذات الجذور الجنسية والطبوغرافية معا ، وأفادت أقلية من السكان فقط من الخطوط الحديدية والطرق الرئيسية والطائرات التى أحدثت ثورة فى هذه الأرض الوعرة . ولا تزال الأغلبية متعلقة بالقرى كما كانوا يفعلون قبل مجىء الإسبانيين غير عابئين بالتوسلات التى تبعث بها العاصمة للاندماج فى مجتمع المكسيك الأكبر . وتتسع البلاد فى الشمال ، وتبدو المناظر أكبر . وهناك نجد الأهالى أكثر حبا للمخاطرة ويتوقون إلى معرفة مادون الأفق ، ويتحركون فى نطاق أوسع . بيد أنه ، حتى فى هذه الأرجاء ، ترتفع سييرا مادرى بخوانقها مكونة مانعا يكاد يستحيل معـــه السفر بين الداخل والولايات التى تطل على المحيط الهـادى .

وإذا كانت هذه المظاهر مما تتصف به أمريكا الجنوبية فقلما نستطيع أن نضفى على مرتفعات البرازيل صفة الجبال . ومع ذلك فكثير من هـــذه الهضبة الشاسعة الوعرة يقع فوق ارتفاع أربعة آلاف قدم . وهذا هو

الظرف الذى يشرح لنا المناخ المعتدل الذى يتمتع به جزء كبير من البلاد كان يصبح ، لولا ذلك، مدارياً كما هى الحال فى العروض المماثلة فى إفريقية. فى ساو باولو نجد هضبة ممتدة نحو الغرب ، وتدعو الناس إلى قلب القارة. كما فعل المستكشفون البرتغاليون (*) الأوائل الذين اخترقوا قلب القارة النائى إلى حوضى باراجواى ومادريا . وإن مواقع الأنهار التى تصب فى بارانا الأعلى هى التى خلقت طرقا طبيعية إلى ماتو جروسو لأهالى ساوباولو (**) المخاطرين . أما ميناس جيرايس فمعظمها ذو صفة جبلية بالفعل ، وغالبية سكانها الذين يعيشون بين سلاسل الجبال يتصفون بالحذر والرجعية التى يمتاز بها الجبليون . وقد كانت دائما موردا لمعظم ثروة البرازيل المعدنية — الذهب والماس والحديد والمنجنيز والميكا وبلورات الكوارتز — ولو أن الزراعة هى التى وطدت أهالى ميناس (***) فى موطنهم الجبلى .

البمبا

البمبا الأرجنتينية سهل شاسع يمتد من ساحل الأطلنطى ونهر بارانا حتى السفح القارى الذى يعد أول إشارة توحىء إلى الاقتراب من الأنديز ويحيط ، جهة الشمال ، بتلال كوردوبا حتى ينتهى عند سفح الجبال التى تهبط من بوليفيا ، أو يندمج بعيداً نحو الشرق فى السهول المنخفضة التى تكسوها الغابات فى إقليم شاكو الأرجنتينى . وينتهى نحو الجنوب فيما وراء ريو نجرو ليحل مكانه إقليم الاستبس الذى تكتسحه الرياح فى بتاجونيا وتعد الأراضى الخصبة بين النهرين بارانا وأوروجواى امتداداً للبمبا ، ولكن لها صفاتها المحلية الخاصة . ومن المحتمل أنه إلى الأسفل من سطحها المكسو بالحشائش توجد أغنى تربة على سطح الأرض . ولا يوقف

(*) Bandeirantes مستكشفو الأرجاء الداخلية من البرازيل : حملة الأعلام .

(**) Paulistas

(***) Mineiros

استواء سطحها لمئات الكيلومترات ارتفاع ولا علائم سطحية يعرف بها الناس اتجاهاتهم .

واخترق الإسبانيون الأوائل هذا الفراغ الطبوغرافى من أربعة اتجاهات : من شواطىء مصب اللابلاتا ، وبالممرات المرتفعة من ناحية تشيلى ، والتى أدت إلى سفوح إقليم كويو الجذاب ، ومن هضبة تشاركاس فى بيرو العليا ، وباتباع مجرى النهر من المستعمرات الهندية فى باراجواى . وقد روعهم اتساع الأرجاء الداخلية الهائل فى أول الأمر ، فتشبثوا بأطرافه حيث وجدت الجبال أو الأنهار أو المحيط لتعطيهم بعض الإحساس بالشخصية فى العالم الذى عرفوه (٦) . وقد روعهم كذلك الهنود المتوحشون الذين اقتسموا فيافيه مع الجواناكا الصغير الذى ينتمى إلى اللاما ، والفسكاشا الحفار (*) والإيمو أو نعامة العالم الجديد . وانضم إلى هذه الحيوانات فى زمن مبكر الخيول والماشية التى ترعرعت وتكاثرت بدرجة مدهشة فى حالتها البرية كلما توغلت فى البمبا . وسبب الحصول على الحصان ثورة فى النقل بين هنود البمبا الذين وجدوا فيه وسيلة للسيطرة على أعدائهم ، وكانوا لا يزالون يترجلون فى تحركاتهم ، ووسيلة فعالة للهجمات المباغتة على المستعمرات المنعزلة التى استقر فيها الإسبانيون ولم يستطع الرجل الأبيض أن يشغل البمبا وينهض بها قبل أن يندمج الهندى دما بالإسبانى فى عملية تهجين بطيئة ، أو قبل أن زحزح عن الأرض بالقوة الحربية فى منتصف القرن الماضى . وفى هذه الفترة الطويلة ظل دخيلا وحيداً فى بيئة كانت غريبة عن جميع ذكرياته وتقاليده ، ومنفرة لما تتوق إليه نفسه الإسبانية من شوق دفين . وعندما تلاءم أخيراً مع موطنه لم يصبح إسبانيا بعد ، ولكن مخلوقا من مخلوقات البمبا لا يستطيع قشتالى أن يرى فيه قرابة . فى

(*) حيوان قارض .

القرون الثلاثة ، من خوان دى جاراى إلى مارتن فييرو ، طرأ عليه تحول عميق جدا .⁽٧⁾

وكانت البمبا كلها فى نظر الجوشو (*) وهو خلاصة هذه العملية التطورية « عشبا وسماء »⁽٨⁾ ، وقد وصفها مواطن أرجنتيني معاصر بأنها عالم بلا وجهة أو علامات أو أبعاد . وأطلق على الإسبانيين الأوائل الذين دخلوها « سادة الفراغ » (**) فراغ لاحد له ، حيث كانت رؤية الجواناكو (اللاما الوحشية) أو النعامة لابد أن تسبب فى بعض الأحيان إحساسا بحقيقة وجود هذا العالم . فهنا وجد الإنسان نفسه مقيداً فى لا نهائية الفضاء . وعندما سورت البمبا وأقيمت البوابات المقفلة على حدود حظائر الماشية المحاطة بالأسلاك الشائكة ، أصبحت شيئا محدوداً يمكن قياس أبعاده ، وعرف الجوشو حينذاك أن يومه قد انقضى .

ويصف و . ه . هدسن التغير الذى طرأ على أولئك الذين سكنوا البمبا فيقول : « جاء المستعمرون الأوائل من أراض تعود الناس فيها الجلوس فى ظلال الأشجار ، حيث افترضوا أن الحنطة (القمح) ، والنبيذ ، وزيت الزيتون ، كانت من الضروريات ، وحيث كانت « السلطة » موجودة فى الحديقة . فمن الطبيعى أنهم أنشأوا الحدائق وغرسوا الأشجار للظل والفاكهة معا فى أية بقعة بنوا فيها بيتا فى البمبا ، ولقرنين أو ثلاثة قرون ، بدون شك ، حاولوا أن يعيشوا كما يعيش الناس فى إسبانيا ، فى الأقاليم الريفية . اما الآن فقد كان شغلهم الشاغل فى حياتهم هو تربية الماشية . ولما كانت الماشية تتجول ماشاءت فوق السهول الشاسعة وكانت أشبه بالحيوانات البرية منها بالمستأنسة ، فقد أصبحت حياتهم فوق ظهور الخيل . ولم

(*) راعى البقر فى البمبا .

(**) Senores de nada .

يستطيعوا بعد ذلك حفر الأرض، أو حرثها، أو حماية محصولاتهم من الحشرات والطيور ومن حيواناتهم نفسها. وتركوا زيتهم ونبيذهم وخبزهم وعاشوا على اللحم وحده، وجلسوا تحت الظل، وأكلوا ثمار الأشجار التى غرسها آباؤهم أو أجدادهم، حتى ماتت الأشجار طاعنة فى السن أو اجتثت من فوق الأرض، أو أهلكتها الماشية، ولم يعد هناك ظل ولا فاكهة.

«ولذلك حدث أن المستعمرين الإسبانيين فى مروج البمبا تجنبوا حياة الشعب الزراعى وانخرطوا فى حياة الرعى أو حياة الصيد الصرفة، وبعد ذلك عندما اهتز النير الإسبانى، كما كان يسمى، نشبت الحروب والاغتيالات التى كانت تشنها الطوائف المختلفة باستمرار، والتى كانت تشبه قتال «الغربان مع القنادس» فيما عدا أن القتال هنا كان بالمدى بدلا من المناقير، وأوغلت بهم فى ظروف حياتهم الوحشية والهمجية».

وكانت هذه هى «الوحشية» التى كان دومنجو فاوستينو سارمينتو يقابلها «بمدينة» الكابيتول الأرجنتينى. ولما كان الجوشو قد تقيدوا بركوب الخيل، فقد أصبحوا شعباً من القنطاريين(*)، يثقله ويقلقه السير على الأقدام، قليل الكلام، سيء الظن، ولكن له شريعة وخلقا يتضمنان وقار مظهره الفطرى وكرمه العربى نحو عابر سبيل ضال أسلم نفسه لرحمته، جواب آفاق لا يستقر له مقام، وفوضويا من ولادته، حانقاً على كل القيود والسيطرة، سواء من قبل الدولة أم الأسرة أم الكنيسة، أشعث، فظا، غير مهندم، يحتقر زخرف سكان المدن وتفاهتهم، كثير أكل اللحم، ولكن معتدلا فى احتسائه الخمر، يعوض من تعاطيه اللحم نصف النيء الإكثار من تناول الماتى(**)، وقويت فيه حاستا البصر والسمع إلى حد

(*) من قنطورس Centaurs حيوان خرافى إغريقى، نصفه آدمى ونصفه حصان.

(**) maté أو شاى باراجواى، أوراق نوع من شجرة «عيد الميلاد» يشرب فى أمريكا الجنوبية كالشاى.

بالغ ، بأذنين تلاءمتا مع السكون ، وعينين كمقلتى الصقر ، يمضى وقت فراغه فى استرخاء كالكلب المجهد فى حظيرة كوخ أو تحت ظل شجرة أومبو فى تبادل الذكريات مع بنى قومه فى أحد الأدغال المنعزلة على الطريق ، أو ألعاب خشنة مملة على ظهور الخيل أو ، إذا ندر وكان ذا مزاج للإنشاد ، فى تقاسيم شاقة لأشعار حزينة مملة على رنين القيثارة . أما حبه فيشبه شيئاً عارضا ألم ببشرته ، ومنزله سرج حصانه . .

فلقد ابتعد كثيرا عن النمط الأصلى لحياة سلفه الإسبانيين الذين حاولوا فلح البمبا كأنها حقل فى إستريما دورا . وفى الأجيال المتعاقبة غيرته البمبا بالتدرج وصبته فى قالبها هى . ولما انتهى إلى وفاقه مع مطالب الأرض التى لا تلين انتهى كذلك ، دون تيقظ وعلى كره منه ، إلى وفاق مع عدوه الهندى ، واستعار من الهندى مهارته وطرق معيشته ، واستعار نساءه ، لأن المرأة التى حملت أطفاله وقامت بالعمل فى البيت فى أثناء تجواله فى السهول كانت تنتمى إلى أصل تيهلش ، أو كاشيكل ، أو جوارانى .

وانسل الجوشو مع الماشية الطويلة القرون والمراعى الطلقة(٩) ، فلم يكن له مكان فى عصر المجتمع الريفى الجديد وملاك المزارع العظام . وبذلك أصبح حادثا تاريخيا عارضا وجزءاً من أساطير وقصص أرجنتينا ليس إلا . وفى عصر أكثر سوفسطائية كثرت حوله الكتابات الأدبية التى تحن إلى الماضى . فلقد صوره سيزاريو برنالدودى كيروس فى خيامه المحترقة ، أما رانسسكو مولينا كامبوس فقد صور أحواله الخاصة وبطولاته الخشنة فى صورة هزلية .

اللانوس

وفى مؤخرة الكتلة الإسبانية توجد مساحة أخرى من الأرض تشبه فى طبوغرافيتها العامة البمبا الأرجنتينية . وهذه هى لانوس فنشويلا وكولومبيا

التى تستوعب قسماً كبيراً من حوض الأورينوكو الأعلى وخصوصا الأراضى التى توجد عند نهرى أبورى وأروكا . وهى « بحر من الحشائش » مثل البمبا كما وصفها همبولدت . ولكنها تتلاشى على طول مجارى الأنهار عندما تحل محلها الأشجار القصيرة والأعشاب . وهى ليست مهيأة لمعيشة الإنسان معيشة راضية ، كما أحزنت الإسبانيين الأوائل الذين جابوا فيافيها بلا هدف باحثين عن أرض الذهب(*). فلم يكن من المستطاع إقامة مجتمع متمدن فى مثل هذه البيئة. فالمناخ مدارى إلى حد بعيد ، وتجد الحشرات فيه بيئة صالحة لها . ففى أغلب أيام السنة تلفح الشمس السهول وتشققها بعد انتهاء فصل الأمطار . وفى سائر الأيام تتحول مساحات شاسعة من الأرض إلى محيط ضحل مثل سهول ولاية بنى فى بوليفيا . أما الوقت الذى يقع بين هذين الفصلين فهو وقت الأوحال والملاريا ، ويستمر حتى يختفى الجما والمستنقعات من فوق الأرض الغرقى .

وظلت اللانوس لعصور طويلة مركزاً لتربية الماشية ، ويشبه سكان اللانوس (اللانيرو) ، بأجسامهم الهزيلة ، الماشية نصف البرية التى يرعونها وهم مهرة فى ركوب الخيل، وقد أدوا خدمة قيمة كرماحين لكل من الجانبين فى حروب الاستقلال . وفى العهود التالية كثيرا ما كان كبار الساسة يجدون من السهل تجنيد خيالة غير منتظمين من صفوفهم. ولما كان الأفق فى اللانوس مفتقرا إلى إغراء البمبا المديد، فانهم لم يتعودوا التجوال بعيدا كما فعل الجوشو الذى كان رحالا صميما ، تدور أفكارهم تقريبا فى نفس دوائر الفكر والانفعالات البسيطة كما هى عند الجوشو ، كما تمتاز حياتهم بنفس الخشونة وتتضاءل شخصية كل منهم بجانب عالمهم الطبيعى الشاسع . وبينما استسلم الجوشو لطغيان « مدنية » سارمينتو، بقى اللانيرو على حاله لم يتغير إلا قليلا فى الأراضى الخلفية الآسنة فى الجمهوريتين. وقد تكاتفت صعوبة الوصول

El Dorado (*)

إلى اللانوس ، والجاذبية الفائقة التى تضفيها أحوال المعيشة فوق المرتفعات وانشغال فنزويلا المذهل بالبترول ، على تركه دون إزعاج فى عزلته وتخلفه(١٠) .

واللانوس مسرح قصة « السيدة بربارا » لمؤلفها رومولو جايجوس ، وهى من أشهر قصص أمريكا اللاتينية . فقى تأملات سانتوس لوشاردو فى أحوال آبائه الأوائل ، وهو الأرستقراطى الصغير الذى عاد لتوه إلى أرض أسرته التى استوطنها الأجداد ، يصور جايجوس طبيعة وأحوال اللانوس وسكانها . ويكتب عن « كفاح اللانيرو ضد الطبيعة وضد الوبالة التى تبيد الجنس، وضد الفيضان والجدب اللذين يتناوبان الأرض فيما بينهما وضد الوحشة التى تحجبها عن المدنية » . ويقول عن المتناقضات فى مزاج قاطن هذه الأماكن الماحلة إنه « جموح يتحمل العذاب ، كسول لا يمل ، فإذا خاض المعارك نجده مندفعا وحريصا ، وأمام رئيسه نظاميا ومخلصا ، ونحو صديقه سيئ الظن أريحيا ، ونحو المرأة شهوانيا وجافا ومع نفسه مخلوقا له حواسه ومعتدلا ، فإذا خاطبك فهو شخص تهكمى وشريف ، متشكك ويؤمن بالخرافات ، ويجمع بين البهجة والكآبة ، واقعى ومخترع للأوهام ، وإذا ترجل تواضع . أما إذا امتطى الخيل داخلته الكبرياء » .

الغابة

كانت الغابات المطيرة آخر الأرجاء التى استعمرت فى أمريكا اللاتينية. ومعظمها لا يزال حتى الآن فراغا سكانيا، فبعد أربعة قرون يقطن سلفا(*) الآمزون سكان أقل عددا من سكان بورتو ريكو . وإذا استثنينا الرحال المتأصل ، والمبشر ، وطريد المجتمع ، كان هناك إغراء قليل للهجره من

(*) Selva : اللفظ الذى يطلق على غابة الامزون الاستوائية وتسمى به الغابات الحارة عموما .

الأرض المسكونة فى الجبال أو على طول السواحل نحو الفيافى القاحلة إلى أن جاء رواج المطاط فى أوائل القرن العشرين فأوجد دافعاً مربحاً كبيراً يجذب الناس نحو الغابة .

ويعد وادى الأمزون أكبر مساحة غابية شاسعة فى العالم . ويندمج نحو الشمال فى حوض نهر أورينوكو ، ويندمج فى الجنوب ، بعد عبور خط تقسيم مياه منخفض غير واضح ، فى الأراضى التى تحيط بمنابع مجموعة نهر بلات . وهناك غابات مطيرة أخرى فى أمريكا اللاتينية — فى جنوب المكسيك ، وفى السهول الساحلية فى أمريكا الوسطى ، وفى إقليم شوكو الكثير البلل فى كولومبيا ، ثم إلى الجنوب على طول المحيط الهادى إلى حافة صحراء بيرو . فإذا بعدنا نحو الشرق اندمج فى أجزاء من ولايتى باهيا واسبيرتو سانتو البرازيليتين اللتين تطلان على المحيط الأطلنطى . ولكنها ، جميعاً أو شتى ، لاتقارن فى الحجم بمساحة غابة الأمزون الشاسعة وخطوط تقسيم مياه أورينوكو وباراجواى المتاخمة .

وقد توغل الإسبانيون والبرتغاليون مبكرين فى الطرق المظلمة، ولم يحبوا مالاقوه إلى درجة كافية ترغبهم فى الإقامة فيها أو العودة إليها . فلم يجدوا ذهبا فى ركاز أو حائط معبد على الرغم من أنهم بحثوا فى طول تلك الأرجاء وعرضها عن أرض الذهب (الدورادو) أو المدينة الخيالية ذات الثروة التى كانت تجعل ثروة كسكو وتينوشتتلان(*) ضئيلة بجانبها . فلم تقدم لهم الأمزونيا تعويضاً يروق لهم نظير ماعانوه من الإرهاق والملل اللذين لانهاية لهما . ولقد شن كورتيس وخمينيث دى كيسادا غارات طويلة وشاقة فى أعماقها ، وكان جنثالو بشارو وفرانسسكو دى أوريانا يتقابلان جيئة وذهابا عند مفترق طرقها . كذلك فعل كثير من الفاتحين الأقل شأنا والواقعيين

(*) عاصمة الازانقة Ogatecs : الآن مدينة المكسيك.

أمثالهما . فقد أبحر پدرو دى تيشيرا نحو منابع النهر ليعلن البلاد ومياهها للبرتغال، ولكن إلى الوقت الذى نزل فيه الأب أكونيا من الآنديز فى سنة ١٦٣٩ لم يكن لدى أحد كلمة طيبة يقولها عن أرض الأمزون . أما القس الجزويتى فقد أشاد حتى بالمناخ ، ولو أن « شعاع القمر القليل » كان يسبب له الصداع ، وكان يرى أن البلاد « جنة » لولا « وباء البعوض ». وكان أتباعه الذين أسسوا الإرساليات على نهر مارانيون الأعلى أول الأوربيين الذين استقروا فى وادى الأمزون . وعبر المستكشفون من أهالى ساو باولو خط تقسيم المياه إلى حوض نهر ماديرا فى نزوحهم الذى أشادت به الأساطير ، ولكنهم وجدوا دافعا ضئيلا يربطهم بتلك الفيافى النائية . وفوق ذلك فإنهم لم يتركوا سجلا عن أسفارهم ، شأنهم شأن معظم الرجال المجهولين الذين سلكوا مؤخرا مجارى الأنهار بحثا عن المطاط . ولم يذع الرجال الذين تعلموا القراءة والكتابة قصة أمزونيا للعالم إلا بعد أن دخل همبولدت العظيم الوادى سالكا طريق قناة كاسكيارى من الأورينوكو . ومن ذلك الوقت كتب فريق ممتاز من العلماء والرواد والمراقبين عن عجائبها الطبيعية ، ومن بينهم الضباط البحريون الأمريكان هردن ، وجبن ، وبتس العالم الطبيعى الإنجليزى ، وأجاسيس وولاس ، وأرتن وهيث وتشيرتش ، وسبكس ومارتش الألمانيان ، والأخوان كودرو ، وجنرال رندن رئيس الخدمة البرازيلية الهندية المشهور ، وپول لى كوانت الفرنسى الذى أسهم فى دائرة المعارف ، ويوكليدس داكونا وجوزيه فيرسيمو البرازيليان . وتيودور روزفلت وليوملر ، وديكى وهانسن وتوملنسن (مؤلف كتاب « البحر والغابة ») . وفى أثناء ذلك دخل البرتغاليون الوادى فى أعداد متزايدة فى القرن الثامن عشر بحثا وراء الرقيق الهندى ومحصولات الغابة الأخرى . واستمر التسرب الضئيل فى القرن التالى ونمت مستعمرات جديدة على الأنهار ، ولكن لم تصبح الهجرة على نطاق كبير حتى أوائل هذا القرن . وحتى فى ذلك الوقت كان ميدان الاستعمار شاسعا لدرجة أن تلك القفار كانت تغلق أبوابها وراءهم

كلما رق التيار البشرى فى مداخلها الكثيرة ، فبدت كأنها خاوية كما كانت دائماً .

فقد كانت بيئة لايستطيع أن يختارها وطنا بحرية سوى المخاطرين أو المهيأين لها جسميا . ومن القادمين الجدد امتاز البرتغالى على الإسبانى فى تهيئة نفسه لها ، وهنا ، كما كانت الحال فى أى مكان آخر فى المدارين أظهر سهولة مشهودة ليتلاءم مع الظروف الغريبة المجهدة . أما الإسبانى ، الذى تعود دائما المعيشة فى الأرض المكشوفة ، فقد تحاشى الغابة كما لو كانت سجنا أخضر . فلما حاول فعلا أن يعيش فى المدارين أصر على أن يحمل معه كثيراً من ثقافته التى لم تكن ملائمة للوسط الجديد بأى حال من الأحوال . وعلى النقيض من ذلك كان البرتغالى يترك وراءه من ثقافته مالم يخدم غرضاً ينفعه . أما الزنجى فى أمزونيا ، وقد ألف آباؤه بيئة شبيهة فى إفريقية المدارية ، فقد كان فى موطنه ، وفى الحقيقة كان شعوره بأنه فى موطنه ، يفوق شعور الهندى الذى لم يهيء نفسه تماما للبيئة التى عاش فيها زمانا طويلا . واتضح فى آخر الأمر أن خليطا من الثلاثة — البرتغالى والزنجى والهندى — كان أكثر مايلائم المطالب الخاصة التى تستلزمها الحياة فى الغابة المطيرة . وكان المولد من المزيج الثلاثى قويا وصلبا ، لايساور نفسه الحنين إلى وطن أصلى ، بخلاف الهندى الذى بدا دائماً ، وبصورة غامضة ، كأنما يحن إلى أرض ما ، كان يقطنها أجداده ولايستبقى فى ذاكرته شيئا عنها . وعلى النقيض كان المولد المختلط جزءا أساسياً من البيئة المحلية ، كما كان المستوطن فى الغابات الكندية .

والحقائق البيئية الأساسية فى الأمزونيا هى الأنهار والغابة والأمطار والحرارة . وتأتى أوقات تبدو فيها هذه المظاهر الأربعة شيئاً واحداً لاعناصر متفرقة فى عالم فطرى وغير منتظم الشكل لايجد فيه الإنسان مقاما .

فالأنهار هى الطرق ، ولكن إذا اشتدت تيارات الماء فإن السفر فى اتجاه واحد يكون أشد بكثير منه فى الاتجاه الآخر . ويسافر الناس فوقها بالسفن البخارية أو الزوارق وعلى الأطواف وبشتى أنواع المراكب ، غير أن أغلبها قوارب محفورة من جذوع الأشجار . ولكن مهما يكن نوع المركب فعادة ما كان الشخص يستخدم الماء إذا أراد الانتقال من مكان إلى آخر. وربما يفقد قاربه فى النهر الجياش، أوقد يوجهه بمهارة خلال المندفعات المائية حيث تعترض المجرى التلال البازلتية . وهو ملاح ماهر ، خصوصا كلما كان يجرى فى عروقه الدم الهندى ، لأن الهندى يتجنب الغابة نحو النهر المكشوف الذى يفهم مسالكه . ومن أكثر الأمور الشائقة التى يتصف بها ملاحو النهر المرشد الذى يقود الجايولا أو السفن البخارية ذات القاع المستوى من بليم إلى مناوس. فهو يعرف أسرار ونزوات نهره — جوانب النهر المتحركة ، الحواجز المغطاة بالماء ، التيارات والدوامات التى فى المجرى ارتفاع الماء المفاجىء وانخفاضه الذى قد يترك سفينة جانحة على شاطىء مرتفع من الليل حتى الصباح . وهو يستطيع أن يقرأ ضوء الشمس فوق سطح الماء ، وحيث يبدو كل شىء متشابها للغريب نجده هو يعرف علامات الشاطىء سواء بالنهار أم فى ظلال القمر .

وإذا كان النهر وسيلة للنقل فهو كذلك مصدر للطعام ، لأن أنهار الأمزون غنية بالأسماك . ففى بعضها — كنهر برانكو — تكثر السلاحف المائية ، ولحمها وبيضها لايزالان غذاء رئيسيا لسكان النهر . وكذلك يستطيع الإنسان أن يشرب وهو مطمئن من الأنهار بخلاف جداول الغابة التى قد يلوث ماؤها بالسموم النباتية .

والحياة على ضفاف الأنهار أكثر راحة من الحياة فى الغابة خصوصاً حيث تكون هذه الضفاف مرتفعة ، كما هو الشأن غالبا ولمسافات طويلة . وكثير من المدن فى الأمزون ذات مواقع جميلة ، كما هى الحال فى سانتارم

عند مصب نهر تاپاجوس وأوبيدوس وتفيه ، حيث عاش بيتس العالم الطبيعى سنوات عدة . فالجو أبرد على ضفاف النهر ، وفى الليل قد يهب منه نسيم منعش نحو الأرض . فإذا امتد البصر على طول النهر ، وهو منظر عميق ومتسع فى بعض الأحيان ، اكتسبت النفس انطلاقه مريحة من ضغط الغابة الغلاب فى الخلف . ثم إن النهر كذلك يوجد اتصالا بالعالم فى الخارج، ولذلك قل الشعور بالعزلة واحتفظ الشخص إلى حد ما بشعوره بأنه مشترك مع زملائه . وحتى جامع المطاط عند منابع الأنهار الصغيرة يدرك أنه ليس منعزلا إلى حد اليأس ، وأن الأنهار ستقوده أخيراً إلى المدن حيث يركب الناس العربات فوق الإطارات التى قد يستمد مطاطها من الأشجار التى يشرطها فى ركنه النائى من الغابة الكبيرة. والأنهار كذلك تدعو إلى عدم الاستقرار، فعادة التنقل عند سكان الأمزون الذين يترددون فى تثبيت مساكنهم فى مكان واحد إنما هى نتيجة للدعوة إلى الحركة التى تمنحها لهم الطرق المائية المتدفقة .

وتتضاءل أمام الأمزون سـائر أنهار العالم الأخرى . وكان اسمه البارانا جواسو ، أى « النهر الكبير » عند شعب التوبى ، أما عند البرتغاليين فقد كان اسمه ريو — مار، أى البحر « النهر أو العذب » ، « بحر أمريكا الجنوبية المتوسط »⁽¹¹⁾ . ولكن لايمكن لأية مغالاة أن تعطينا فكرة حقيقة عن عظمته وقوته — عن فيضانه الأصفر الذى لا يرحم ، والذى يصرف نصف قارة فى مساحتها الأغزر مطرا ، والذى ينتهى بعد أن يغير لون الأطلنطى لأكثر من مائتى كيلو متر من الشاطىء .

وهو من الضخامة بحيث لايكفى أن يطلق عليه اسم واحد . فقبل التقائه بمصب نهر نجرو فهو الأمزون الحقيق . ومن هناك حتى حدود بيرو يسمى سوليموس أو نهر السولوموز . وفى مجراه فى بيرو حتى منبعه

فى الآنديز اسمه مارانيون . وليس من المستغرب أن ينزع الناس إلى رهبته والتواضع فى حضرته، لأنه يجسم قوة حركية دائمة لا يوجد مثلها فى أى مكان آخر فى الطبيعة .

وفى رأى هـ. م. توملنسن الذى كان يرى فى الأمزونيا شيئا من أبعاد الفلك ، أن النهر نفسه « شجرة مهولة » ذات مجار مائية متشعبة لا نهاية لها تغذى أنهاره . وتعد بعض فروع الأمزون الكبرى نفسها مثل ماديرا ونجرو وبوروس وجوروا وتاباجوس وتوكانتنس — أراجوايا ضمن أنهار العالم الكبيرة. ومع ذلك فعلى الرغم من ملل الأمازونيا الخادع — لأنه تشابه ظاهرى أكثر منه حقيقة واقعة — فإن للأنهار شخصيات خاصة بها ، تكسب سكانها أو المترددين عليها أمزجة خاصة . وهى تختلف فى لون مائها. فنهر نجرو ، وكذلك جوتاهى ومجار ثانوية أخرى ، على درجة من سواد اللون يبدو معها كما لو كان ينبع من عين مليئة بالمداد ، ثم خفف لونه فى أثناء الجريان بواسطة أفرعه الشاحبة . أما نهرا بوروس وجوروا كثير الثنيات فأصفران كالمجرى الرئيسى نفسه . أما تاباجوس وشنجو وتوكانتنس — أراجوايا التى تنحدر من هضبة البرازيل الوسطى وتجرى بين التلال الصخرية فى أجزاء طويلة من مجاريها وحيث تكثر المندفعات المائية فيها فمياهها رائقة تسر الناظرين .

ولبعض الأنهار مسيلات محدودة بوضوح كنهر أوهيو ، حيث كونت لها مجار نهائية وطبيعية ، فى حين أن غيرها، مثل جابورا الأدنى أو الأفرع المضطربة فى المثلث الواقع بين ماديرا الأدنى والأمزون ، معقدة ومتاهات مضطربة . ويتدفق الأمزون نفسه بمجرى واحد فقط فى خانق أوبيدوس العميق . ومع أنه قد يوجد مجرى رئيسى واحد فإن هناك على كل جانب

مجارى جانبية(*) تصلها بعضها ببعض قنوات عرضية(**) وفى فصل الفيضان ، عندما تذوب الثلوج فى الانديز ينتشر البحر العذب فوق السهل الفيضى الشاسع بين سفوح « الارض الصلبة » إلى الشمال والجنوب . أما السكان البرمائيون الذين يعيشون عادة على مسطحات السهل الفيضى(***) فيلجأون حينئذ إلى الأرض الأعلى أو يسكنون فى منازلهم التى يبنونها على قوائم حتى يهبط الفيضان تاركا عالمهم المغمور مكسوا بطبقة سميكة من الطمى والفضلات .

وعلى الرغم من أن هذه العملية لا تنقطع ألبتة ، ففى فصل الطوفان السنوى يغير النهر بعنف تقليدى على الأرض التى يجرى فيها . ففى بعض الأحيان يمزق أرجاء كبيرة منها فيفصلها عن أماكنها ويحملها مع التيار ، وهى أشبه بجزر طافية مكتملة بالأشجار التى على أفرعها قد تجلس القردة أو تحط الطيور . وفى الطريق قد تتكسر الجزيرة أو تجد مستقرا فى دوامة فى الفيضان حيث تتصل ثانية بالأرض المزعزعة . وفى الليل قد يسمع المرء أحيانا صوتا كقصف الرعد تحدثه ضفاف النهر الهاوية التى قوضها الفيضان الذى لا يرحم لمسافات طويلة . وفى نفس الوقت ، إذا ما اتجهنا إلى ماوراء المصب الفاغر الذى يتسع بين اليابس وجزيرة ماراجو يبنى النهر العظيم فى جهد أخير جزرا أخرى أكبر فى مياه البحر . فليس هناك وسط آخر ، إذا استثنينا وسط المحيط وحده ، يجعل المرء شاعرا بصغره وتفاهته كما فى هذا الاضطراب المتحرك من الماء والأرض .

ومن ناحية أخرى هناك شقات طويلة من مجارى الأنهار يتحكم فيها الناس فى الماء ويشعرون بالطمأنينة فى حضرته. فعلى نهر تاباجوس الجذاب

(*) paranas

(**) furos

(***) varzea

مثلا، هناك شواطئ رملية واسعة ومدرجات جميلة تصلح أرضا للسكنى ، وعلى نهر برانكو تمتدشطوط(*)رملية لكيلو مترات على ضفافه، وقد توجد جروف عالية قائمة فوق النهر لمسافات طويلة يمكن للمرء من فوق قممها أن يرى منظرا رائعاً فوق المساحات البعيدة من الماء المكشوف . وفى بعض الأحيان توجد شقات من الماء الهادىء تتوسطها جزر نظيفة كما فى نهر ترمبيتاس وموويس . وهناك نوع آخر يناقض النبات الصاخب الذى تتصف به الغابة المطيرة فى السهول الفيضية ، ألا وهو منظر الطبيعة الميت الذى تبدو فيه الجزر المكتئبة المتناثرة فى مجـــرى بواسو فى نهر نجرو فوق مناوس .

وهناك نوعان من الغابة : غابة تنمو فى الأرض الصلبة ، أو الأرض المرتفعة ، وأخرى تنمو فى السهل الفيضى . وغالبا ماتكون الأولى مكشوفة ونباتاتها الأرضية قليلة قد يستطيع المرء السير فيها دون مشقة . وتغلب فيها الأشجار ذات الخشب الصلب . وإلى أعلى يوجد ستر لا تنفذ منه الشمس إلا حيث توجد فتحة طبيعية . أما غابة السهل فتمثل الأدغال فى أسوأ مظاهرها . وهى تخطر على بال الذين يكتبون عن « النار الخضراء » . وهى تتكون من نبات كثيف متلبد فيه يكثر النخيل الاستوائى وشجر الأنبوب(**) وأنواع أخرى من الأشجار ذات الخشب اللين مختلطة بنباتات أرضية سميكة، وأعناب لا تستطيع شق طريقها فيها سوى السكين الصلبة .

وفى أسوأ الظروف يشعر المرء فى الغابة بدهشة وإعجاب عندما يشاهد ثروة الحياة النباتية الهمجية ، وحيوية الطبيعة المدارية المذهلة والمتفتقة . وقد وصفها توملنسن بأنها الأرض المفرطة « الغزيرة الإنتاج » وكان للعالم

(*) praias

(**) أو شجر الأبواق ، وسمى كذلك لان كثيرا من أفرعه مفرغة ياوى اليها النمل . وهو من فصيلة التوت : (cecropias)

الطبيعى بيتس لحظات استعلاء أو نشوة فى أركانه المفضلة فى البرية . غير أن ظروف الغابة المطيرة لا تجلب السعادة ، فهى لم تكن أبدا مضيافة ولا كريمة ، وفى أعماقها قد يصبح من السهل جدا أن يموت المرء جوعا أو ظمأ ، أو يضل طريقه بلا رجاء . وكتب بول لى كوانت يقول : « إنها مظلمة وساكنة إلى درجة منفرة بسبب ما بها من كثرة الهوام . وتدخل فى نفس المسافر وقعا من الحزن الغامض ، والقلق ، ونوعا من الضيق يجعله يصدر لهفة امتنان وصيحة من الفرح إذا صادفته بقعة مكشوفة (*) أو عندما يصل إلى شاطىء مشمس لنهر من الأنهار » وكتب توملنسن عن منظر الغابة المشئوم والمتوعد الذى يجعل الناس فيها دائمى اليقظة تلقائياً تجاه غوايتها ، يقول : «ظللنا نسير ، وعندما استيقظنا لم نستطع أن نفكر فى كلمات تعبر عما شعرنا به عندما نظرنا إلى تلك الأبهاء الطويلة الصامتة فى ذلك المنزل بلا اسم ، فقد عرفنا أن هناك شيئاً، ولكن لم يكن هناك ما يدل على الشكل الذى يبدو فيه هذا الشيء عندما يظهر » . وإذا أرخى الليل سدوله على الغابة يشتد شعور الإنسان باليأس . وفترة الغسق بصفة خاصة مجلبة للضيق ، نظرا إلى أن الظلام العادى يتطور إلى حلكة دامسة . وبينما تكون الغابة فى سكون أثناء النهار ، إذا استثنينا صيحة عارضة لطائر أو طنين الحشرات فإن الحياة تدب فيها أثناء الليل. فالحيوانات الكبيرة تأخذ فى التجول ، وفى بعض الأحيان يسمع الإنسان صراخ الحيوانات التى تقع فريسة لها مختلطة بأصوات غريبة لا يمكن التعرف على مصدرها . يضاف إلى ملابسات الليل فى الغابة إمكان هبوب زوبعة مدارية تعد تجربة مرعبة لأى شخص عدا قاطن الغابة العتيد الذى هيأ حياته لظروفها .

وإلى حيوانات الأمزونيا ، كبيرها وصغيرها ، يرجع طابعها الخاص .

---

campinarana (*)

فآكلة اللحم الكبيرة الوحيدة هى النمر الامريكى ، والأبواغ السوداء منه ذات منظر بغيض ، والبيومة الذى يعرف محليا « بالأسد » ، وكلاهما لا يعتدى ، ولكنهما مع القطط المفترسة التى تجوب الأدغال بالليل ، يضيفان كثيرا إلى الأحداث التى تمثل على مسرح الغابة فى الظلام . وكثيرا ما يستدل على حلول الليل بعواء الجواريبا فى أعالى الأشجار . والاسم العلمى اللائق لهذه القردة الكبيرة والجوحة الحمراء هو القردة العواءة(*) . ولما كانت أصواتها تسمع فوق الرءوس فى غسق الليل المدارى المحدق، فإن زئيرها يعد أعظم الأصوات التى تثير الرعب فى الطبيعة .

ومن بين مظاهر الغابة المتآلفة الأخرى لغط القردة الصغيرة المصرصع، والصياح الشاكى الذى يصدر عن التوقان(**) وصراخ الماكو (البغباء الأمريكى) ذى الشكل الجميل وهو طائر والضحك الساخر الذى يصدر من الأوراتاوى، أو عصفور الطيف الذى يسميه الأهالى «أم القمر»(***) و«الأنغام المرائية» الصادرة من النسر الأسود أو الكاراكاراى ، والصفير الأجش المصلصل الذى تحدثه السيجانا أو الطائر المنتن الذى يبدو أقرب إلى العظاءة «السحلية» منه إلى الطير ، ونقيق صفادع الأشجار الكبيرة . ومن الحشرات صفير الجاكيرانامبويا الذى يشبه صوت القاطرة ومن حسن الحظ أن هذه جميعاً لا تسمع فى وقت واحد ، ولكن كلا منها يبعث بنصيبه ليزيد من توتر أعصاب القادم الجديد إلى الغابة . وحتى أولئك الذين يعيشون خارج الغابة العظيمة لا يقابلون هذه الأصوات بالرضا ، ولو أنهم قد يحاولون تفسيرها من بين أساطير شعب التوبى .

ومن رفاق الإنسان فى البرية الأفعى القماطة(+) والانا كندا (السوكر

(*) mycetes beelzebub

(**) طائر له منقار طويل .

(***) mae la luna

+ boa constrictor سميت كذلك لأنها تقتل فريستها بالالتفاف حولها والضغط ..

روجو) أو الحية المائية الضخمة. والأولى تسلك فى حياتها مسلكا لا تستأهل معها سمعتها الرديئة ، ففى بعض الأحيان يحتفظ بها الأهالى فى أكواخهم لصيد الجرذان . أما الاناكندا التى تقتسم الأنهار مع التماسيح والأسماك المتوحشة فتكبر حتى تصبح ذات أبعاد كبيرة ، ويخشاها سكان الغابة كثيرا. وأخطر منها الجاراراكا السامة وغيرها من الأفاعى الصغيرة التى تختبىء فى الأشجار القصيرة فى السهل الفيضى . أما الوطواط المصاص وهو أكثر إيذاء ، وقد يمتد جناحه أكثر من نصف متر ، وله منظر فظيع جعل بيتس يطلق عليه اسم « عفريت» الخرافات الساحر فقد عده « أقل الوطاويط ضررا » أما الوطواط الصغير الرمادى اللون(*) فهو المسخ الحقيقى الذى يمتص الدماء .

ولعنة الأمزونيا الحقيقية هى الحشرات. فقد فرهت حياتها بشغلها زمنا طويلا وهى تسيطر على أرجائها المنعزلة فالبعوض، سواء البعوضة الصغيرة(**) وبعوضة الملاريا (***) ، يتجول الى مسافات بعيدة وبشراهة، ولو أن وباء البعوض أشد فى بعض الأرجاء منه فى البعض الآخر . وتخلو منه إلى درجة ما أجزاء من الوادى ، ولكن هناك أماكن مثل كارابانا توبا أو « البعوض الكثير على السوليموس حيث يزيد البعوض من حدة الحياة . وفى فترة النهار ينشط الذباب العضاض ، وهو نقمة رهيبة لأن عضته تترك خدوشا من الحكاك الملح على الجلد ، وذبابة المتيوكا الكبيرة المهاجمة التى تفضل الهجوم على الجفون . والبرغوث الصغير الذى يشبه نظيره الأمريكى فى أثر اللدغ .

والنمل سيد الأرض. فالنوع المعروف بنمل السوبا يهلك زراعات سكان النهر ، وقد تسبب فى جلاء السكان عن مساحات برمتها . أما النمل الأحمر المتوهج صغير الحجم فيتشبث بنبات السهل الفيضى ، فإذا أسند شخص

Phyllostoma (*)

Culex (**)

anopheles (***)

جسمه إلى شجرة، أو احتك بفرع منها، غطى جسمه فى الحال بهذا العذاب المتوهج الذى لا مهرب منه سوى القفز فى أقرب الأنهار. أما علق الكلأ فيتحرك فوق الأرض فى جيوش ضخمة وحشية، وكما يقول: بيتس « حيثما يتحرك تأخذ دنيا الحيوانات جميعها فى الهرج والمرج، ويحاول كل كائن حى أن يبتعد عن طريقه». ومن أنواع النمل الأخرى النمل المارد(*)، وطوله يبلغ سنتيمترين ونصف سنتيمتر، وعضته تسبب ألما مبرحا.

وليست الحياة الحيوانية كلها معادية للإنسان أو منفرة فى مظهرها مثل حيوان الكسلان القديم(**) أو « قرد الليل » ذى الوجه الشبيه بالبومة. وفى النهر درافيل وردية اللون لعوبة (بوتو). فإذا تعمقنا فى الغابة نجد الغزلان القزمية والذباب المضىء الكبير الحجم الذى تشع عيناه بالضوء الأبيض والأحمر، والأخضر والقشة(***) التى يبلغ طولها نحو سبعة عشر سنتيمترا، والقوطى السعادين (الباريجودو) كما يوجد ديك الصخر البرتقالى الفاقع أو «طائر الأرغن»(****) وتغريده الصفيرى يبدو كما لو كان منبعثا من آدمى، والفيرابورو ولتغريده أنغاماً حلوة وفضية كالتى تنبعث من صندوق موسيقى عتيق. ويرى الإنسان فى ممرات الغابة الأجنحة الزرقاء المتألقة للفراش المعروف باسم مورفو والذى يبلغ عرضه فى بعض الأحيان عشرين سنتيمترا. وقد رأى توملنسن واحدة فى وهج الضوء فى ممر من غابة « فراشة فاخرة، لامعة وسريعة إلى درجة لا يمكن معها إلا أن تكون هاربة من الجنة ».

لذلك ينزع الذين يعيشون فى الأمزونيا إلى الكآبة والسكون والقلق.

---

tucandeira (*)

antedeluvian (**) أى من قبل الطوفان.

(***) من السعادين الامريكية

realejo (****)

فظلام الغابة يرهق أنفسهم ، وسكونها يكبت عندهم الدافع الطبيعى للكلام . وهم جوالون بغريزتهم، ويشجعهم إغراء الأنهار الدائم على تشردهم . ونظراً إلى كونهم جوالين فى الصميم ، ولطول تعودهم على ذلك ، فلا يعول عليهم فى تكوين قوة عاملة لمشروع مزرعة كبيرة تتطلب عمالة مستمرة لنجاح خططها الطويلة الأمد . وكذلك نظرا إلى أن الإنسان هنا صغير فى هذه البيئة الضخمة نجده يشعر بتفاهته ، وتبدو جهوده ضئيلة ، وهناك مقومات قليلة يكون بها شخصيته حتى أصبح متواضعا بصفة عامة .

وفى الوقت الذى يبتعد فيه قاطن الأمزونيا عن المراكز التى تعد نقطة أمامية للمدينة على حافة البرية العظيمة ، يصبح أحيانا فوضويا من الناحية الأخلاقية . لقد تحرر من القيود الأخلاقية التى تنظم المجتمع ، والتى تتمثل فى العادات القومية والكنيسة وسلطة الدولة . فقد يميل إلى السلب والتلذذ بالقسوة ويفتك بمواطنيه بوحشية كما تفعل حيوانات الغابة . وهذا يفسر « الثورات » العنيفة التى قام بها البوتومايو فى غابات بيرو وحوادث مشابهة على نهر جافارى وبوروس وأرض الأبونا المتنازعة خلال رواج المطاط فى أوائل القرن الحالى ، ويفسر كذلك نزوات الظلم التى كان يسلكها سادة الأنهار الذين سيطروا زمنا طويلا على بعض الصناعات الرئيسية فى الأمزون أو على مساحات كبيرة من احواض الأنهار . وكان يطلق على جزيرة ماراپاتا فى نهر نجرو عند مناوس اسم «محجر الأرواح» ، حيث كان الرجال الذين كتب عليهم الذهاب إلى غابات المطاط قد تركوا ضمائرهم من ورائهم كأنها سقط المتاع . وفقدت جزيرتان عند مصب نهر جوروا وپوروس اسميهما وأصبحتا تعرفان باسم « جزيرتى الضمير » * . يقول لى كوانت : « حقيقة إنها صورة مؤكدة ، إن الشخص الذى يوشك أن يعبر عتبة الباب المؤدى إلى جنة « أرض المطاط » الشيطانية يترك وراءه أنبل غرائزه . ويعبر هو نفسه فى ضحك عن هذا التهكم الفظيع » .

Ilhas da Consciencia (*)

وأكبر مساحة صحراوية فى أمريكا اللاتينية هى تلك التى تمتد على طول بيرو ، ثم إلى الجنوب حتى خط عرض كوكيمبو فى تشيلى . وهذه المنطقة الجدباء تشتمل على قطاع ساحلى يختلف فى الاتساع ، وعلى الجبال المنخفضة المجاورة على الجانب الباسيفيكى للكورديليرا ، وكثير منها صحراء صرفة ، أى إنها عديمة المطر فى الواقع وقفر تماما ، كلها رمال وصخور لا ينمو بها نبات ما(١٢) وهناك نحو من ثمانين مجرى تنحدر من الأنديز عبر هذا القطاع الصحراوى ، منها نحو النصف ييبس فى بعض أيام السنة . وكل هذه المجارى فى الواقع موجودة فى بيرو ، ومن أشهرها اثنان هما : سانتا الذى ينحدر خارجا من « خانق » كاييجون دى هوايلاس « الصندوقى » الرائع فى سلسلة جبال بيرو العالية ، وريماك ، وبالقرب من مصبه تقع مدينة ليما . وقبل مجىء الإسبانيين بوقت طويل عممت الشعوب الأصلية التى قطنت السهل الساحلى مياه هذه الأنهار على الأراضى لإطعام عدد كبير من السكان وللمساعدة على نمو مدن عظيمة مثل شان شان فى أرض الشيمو ، وقد اندثرت من قديم . وعلى هذه الأراضى اليوم تقوم مزارع القطن وقصب السكر وحقول البرسيم الحجازى (*) ، كما فى واحة أريكيبا الجميلة. فلقد شعر الإسبانى الذى عاش من قبل بين الحقول المروية فى سهول غرناطة وبلنسية وفى غيرها فى شبه الجزيرة أنه فى موطنه تماما كما كان فى مندوثا وتوكومان على الجانب الآخر من الأنديز . وعلى خلاف مع العربى الذى اختلط دمه بدمه لم يرض بحياة البدو الصحراوية فى أى مكان ، ولو أنه فى كاليفورنيا السفلى وأرجاء أخرى فى شمال غربى المكسيك أصبح وقد عود نفسه ، وتلاه المكسيكى ، على الأحوال الصحراوية حيث كان الماء شحيحا ، كما فى صحراء فى بيرو .

(*) الفصفصة : Alfalfa.

وفى سرتاو (*) شمال شرقى البرازيل الذى يتركز فى ولاية سيارا يوجد إقليم كبير تستبين فيه الصفات الصحراوية ، وهذا هو إقليم فترات الجدب المديدة(**) حيث كانت المجاعات تفتك بالسكان أحيانا، وتسببت فى نزحات سكانية ضخمة إلى أجزاء أخرى فى الجمهورية ، خصوصاً وادى البرازيل ، وفى سنة ١٩٥٢ إلى جنوب البرازيل ، وفى أرض الكاتنجا هذه ، أو الأشجار القزمية والنباتات الملحية ، لايتأكد الناس من حلول الأمطار ، وفى بعض الأحيان ، كلما لفحت الشمس بلا رحمة تلك الأرجاء ، يمضى السكان الجائعون بتثاقل نحو الساحل بحثاً عن الطعام والماء .

وظروف المعيشة المزعزعة فى المنطقة «بروز» التى تقع خلف البرازيل أدت إلى صفات خاصة فى حياة أهالى سيارا وجيرانهم جعلتهم يختلفون عن بنى وطنهم الذين يعيشون فى مواطن أفضل . فهم الشعب الذى يصفهم يوكليدس دا كونا فى كتابه « رجال السرتاو » ، وهو قصة عصيان المتصوف أنطونيو كونسليرو وأتباعه المتعصبين ضد سلطة الحكومة(١٣). وهم شعب يتصف أفراده بالشدة والشجاعة والتماسك ، قليلو الكلام ، شديدو التمسك بالحمية الدينية المتطرفة ، وعلى وجه الاحتمال ، أقرب الشعوب إلى قبائل الصحراء من أى شعب آخر فى أمريكا اللاتينية .

الزلازل والزوابع

كانت السهول والجبال والغابات مظاهر ثابتة للبيئة الطبيعية فى أمريكا اللاتينية ، واستمر تأثيرها فى مدنية القارة ثابتاً إلا من تغيير طفيف من قرن إلى آخر . ولكن من ناحية أخرى ، فإن مظاهر الطبيعة العنيفة — الزلازل وثورات البراكين والزوابع — لم يستطع أحد التنبؤ بحدوثها ،

(*) Sertão مراعى فقيرة تنمو فوق الأراضى المرتفعة تتخللها أشجار

(**) Seccas

وكانت سريعة الزوال إذا حدثت ، ومع ذلك فعلى الرغم من أن حدوثها كان عرضيا ومتقطعا فإن آثارها على الحياة فى البلاد قد تعيش طويلا .

ومن هذه العوامل الجائحة تعد الزلازل أهمها من ناحية عواقبها المادية والنفسية . يقول جوب هورتب — وهو أحد رجال هوكنز ، والذى تخلف فى فيرا كروث فى عام ١٥٦٨، وقضى بضع سنين فى المكسيك —: «تحدث فى الأنديز ثلاث مرات فى السنة زلازل عجيبة تجعل الناس فى ذعر بالغ وتعرضهم للخطر» . وتنتاب إقليم الكورديليرا من المكسيك إلى تشيلي هزات زلزالية عنيفة . ونظراً إلى حداثته نسبياً من الناحية الجيولوجية، فإن الجمع بين ضيقه وارتفاعه الشاهق فى جزء كبير من امتداده هو سبب الضغط والشد اللذين تسببا فى كون هذه المنطقة مهددة بالزلازل فى الوقت الحاضر . وكذلك فإن وجود البراكين النشيطة أو الهادئة فى جهات معينة كما فى أمريكا الوسطى وأكوادور دليل مستمر آخر على ذلك التهديد .

وقد قاست سبع عواصم فى أمريكا اللاتينية من الزلازل العنيفة .. ويذكر خوان وأيووا ، الضابطان البحريان اللذان كانا فى بيرو فى منتصف القرن الثامن عشر ، ستة عشر منها فى تاريخ ليما(١٤) . وقد كانت هناك فى الواقع زلازل مدمرة فى السنوات ١٦٣٠ و ١٦٨٧ و ١٧٤٦ . وفى زلزال ١٦٨٧ حدثت الهزات الأولى فى الساعة الرابعة صباحا بينما كانت المدينة لا تزال نائمة ، ثم تلتها هزات أعنف بعد انقضاء ساعتين ، وبعد أن هرب معظم الباقين على قيد الحياة مذعورين إلى الميادين والشوارع . وفى نفس الوقت اكتسحت كياو وهى المدينة التى تعد ميناء ليما موجة مدية . وإلى الشمال فى مرتفعات كولومبيا أخذت «الضجة الكبرى» تدخل الرعب فى نفوس الناس . وفى الساعة العاشرة والنصف من ليلة ٢٨ من أكتوبر سنة ١٧٤٦ تهدم معظم مدينة ليما فى نحو ثلاث دقائق . وبلغ عدد الهزات أكثر من مائتين فى الأربع والعشرين الساعة ، واستمرت

لبضعة أشهر ، ثم اكتسحت مدينة كياو موجة مدية ولم ينج سوى مائتين من السكان الذين كانوا يبلغون أربعة آلاف ، بينما غرقت تسع عشرة سفينة فى الميناء . وكتب خوان وأيووا عن أريكيبا ثانى مدينة فى بيرو يقولان : « إن المسرات والمزايا تضيعها هزات الزلازل المخيفة التى كثيراً ما تتعرض لها ، لدرجة أنها تحولت أربع مرات إلى خرائب من جراء هذه التقلصات(١٥) » .

وحدث أول تدمير للمدينة فى ١٥٨٢ ، وفيها قتل آلاف من السكان . وفى سنة ١٦٠٠ ثار بركان المستى بعنف ، وقاست المدينة من مصيبة مزدوجة : الثوران البركانى والزلزلة . وبعد أربع سنوات حدث زلزال آخر ، ثم آخر فى سنة ١٧٢٥ .

وفى ١٧٩٧ بعد تدمير كومانا على ساحل فنشويلا دمرت كاراكس تدميرا فعليا فى ٢٦ من مارس سنة ١٨١٢ . ومن مجموع السكان الذين كان عددهم يبلغ ٥٠ر٠٠٠ شخص قتل ١٢ر٠٠٠ منهم ٤ر٠٠٠ كانوا قد لجأوا إلى الكنائس ، ومات ٨٠٠٠ آخرون فى أرجاء أخرى من البلاد . وبعد هذه الكارثة بدا ربع لاترنداد وكأن منجماً قد انفجر فى أسفله . وتوالت الهزات لأسابيع ، وفى ٥ أبريل بلغت من الشدة درجة الهزات الأولى ، وكانت الأرض فى حركة مائجة لبضع ساعات .

ولم تقاس بلاد من الزلازل قدر ما قاست أكوادور ؛ ففى عام ١٦٩٨ دمرت أمباتو من ثوران كوتوباكسى الذى صحبه انفجار بركان كارهوا يراسو . وفى نفس الوقت دمرت لاتاكونجا تماما من الزلازل ولم يبق قائما فى المدينة سوى أربعة منازل من سبعمائة ، وفى سنة ١٧٤٣ ثم فى سنة ١٧٥٧ دمرت لاتاكونجا كلية ، وفى سنه ١٧٩٧ دمرت المدينتان ومعهما مدينة ريوبمبا . وقد وصف همبولدت الزلزال الذى دمر ريوبمبا بأنه أعنف ما وعته

الذاكرة والأحاديث ، فقد هلك جميع السكان فعلا بالإضافة إلى الكثيرين فى أرجاء الولاية الأخرى . وقال ستيفنسن : « لقد تغير وجه الأرض كلية . . . . فبرزت جبال حيث كانت توجد أودية مزروعة ، واختفت الأنهار أو غيرت مجاريها . . . . وقد بلغ من تغير وجه الأرض الكامل أنه لم يعد هناك شخص يتعرف على أكبر مزرعة فى المقاطعة » . وبعد فترة توقف طويلة ألم الخطر من جديد بأكوادور فى سنة ١٩٤٩ حين دمرت أمباتو ثانية .

وقد عانت مدن تشيلى كذلك تكرارا وبقسوة من الاضطرابات الزلزالية . وأعنف زلزال ألم بسانتياجو حدث فى ١٦٤٧ وفيها اهتزت المدينة من قواعدها ، ودفن آلاف الناس تحت الأنقاض ، ودمرت كونسبسيون فى ١٥٧٠ بعد تأسيسها بعشرين سنة فقط ، ثم فى ١٧٣٠ ، ١٧٥١ ، بعدها تم نقل المدينة إلى موقعها الحالى لتصبح أنقاضا فى ١٨٣٥ ليس إلا ، وحدثت سلسلة مديدة من الهزات فى الجزء الأوسط من تشيلى سنة ١٨١٩ فيها حولت كوبيابو التى تقع إلى مسافة بعيدة فى الشمال إلى أنقاض ، بعد أن دمرت على فترات طول كل منها ثلاث وثلاثون سنة منذ ١٧٧٣ . وداهم الخطر أريكا ثلاث مرات على الأقل من جراء الزلازل المصحوبة بالموجات المدية . وقد شاهد الأب فاسكيث دى اسبينوسا الأولى فى ١٦١٨ . وأكبر الفواجع فى تاريخ المدينة حدثت فى ١٨٦٨ ، ويرجع السبب الرئيسى فيها إلى الموجة المدية أو « زلزلة البحر » ، وكانت عنيفة إلى درجة غير عادية بحيث دمرت حركة الشحن فى الميناء وأودت بزورق حربى أمريكى إلى مسافة بعيدة فى داخل الصحراء حيث يمكن رؤية هيكله حتى الآن . وأحدث زلزال عنيف فى تشيلى حدث فى سنة ١٩٣٩ الذى حول مدينة شيان فى الجنوب إلى كومة من الأنقاض ، وهلك نحو من ٣٠ر٠٠٠ من سكانها(١٦) .

ومن البلاد الأخرى ، مندوشا فى أرجنتينا وقد دمرت تماما فى

سنة ١٨٦١ من زلزال صحبه حريق ، وتسبب فى موت عدد يتراوح بين ١٠,٠٠٠ و١٢,٠٠٠ شخص ، ومدينة سان خوان فى الولاية المجاورة ، إذ بعد أن هدمها زلزال فى سنة ١٨٩٤ بنيت من جديد لا لشىء إلا لتدمر ثانية فى هذا القرن . أما مدن أمريكا الوسطى التى كانت فريسة للزلازل الخطرة فى القرن الحالى فهى كارتاجو فى كستاريكا ، ومدينة جواتيمالا ، وماناجوا ، وسان سلفادور .

وبلغت الخسارة المادية التى سببتها الزلازل درجة جسيمة، فهى لا تشمل فقط الخسارة فى المبانى المهدمة ، بل قد تصل فى بعض الأحيان إلى درجة الدمار الكلى لمدينة بأكملها . وفى أحيان أخرى يصحب هذه النكبات تخلخل فى سطح الأرض نفسه ، وتحويل الأنهار من مجاريها العادية وتمزق فى نظام الرى . ففى زلزال واحد فى بيرو رجت الأرض رجا عنيفا أمحلت بسببه أرجاء كثيرة من الأراضى الزراعية الممتدة على طول الساحل ، فكان لزاما أن ينقل الطعام من تشيلى حتى إصلاح قنوات الرى واستعادة خصب الأرض .

وإليك مثلا لسلسلة الكوارث المترتبة على حدوث زلزال بالأنديز فى بيرو فى سنة ١٩٤١ ، عندما تسببت هزة فى إضعاف الحائط الطمى الذى كان يحتفظ بمياه بحيرة جليدية فى كاييجون دى هوايلاس ، وفى نفس الوقت تفكك جسم النهر الجليدى نفسه ، ثم انزلق فى البحيرة فدفع بشدة ماءها إلى الوادى فى أسفل .

وغمر حائط عال من الماء مدينة هواراث فأغرق نحو ١٢,٠٠٠ من السكان ، ونشر الدمار فى مساحة واسعة من الأراضى الخصبة التى انتزعت من فوقها التربة السطحية وتناثرت فوقها الصخور .

ولهذه الكوارث آثار نفسية عميقة جدا على السكان المكلومين ،

وتسبب لهم قلقا بالغا . وهذه حقيقة واضحة بصفة خاصة عندما تستمر الهزات فترة أسابيع أو شهور قبل أن تهدأ الأرض ويستطيع الناس المشى فوقها ثانية فى ثقة . فالهوس الجماعى ونوبات الرعب تتلو غالبا حالة من القدرية والاستسلام . وتوتر الأعصاب البالغ الناتج من الذعر قد يؤدى إلى انفجار من التحمس الدينى المتعصب ، أو ينتهى إلى جنون دفعة واحدة إذا اختل العقل من تذكر الأهوال ، أو إذا توقف انتظار التكرار الخطر .

ولدينا دليل من مصدر أصلى على نتائج الزلازل من الناحيتين العقلية والاجتماعية . فلدى الكابتن بازل هول الضابط البحرى البريطانى الذى كان فى تشيلى فى أثناء حروب الاستقلال كثير يمكنه قوله عنها . فهو يكتب عن الزلزال الذى دمر مدينة كوبيابو الإقليمية فى سنة ١٨١٩ يقول : « بعد الهزة الأولى العنيفة التى محت المدينة استمرت الأرض فى حركة مدة سبع دقائق ، وكانت فى بعض الأحيان تعلو وتهبط ، ولكن كثيراً ما كانت تتأرجح بسرعة هائلة ، ثم سكتت لبضع دقائق ، ثم ارتجت ثانية وهكذا ، بدون فترة من الهدوء تزيد على ربع الساعة لبضعة أيام . وقد هدأت الزلزلة قليلا الآن . واستطالت فترات الهدوء وضعفت الهزات عن شدتها السابقة ، غير أنه لستة أشهر تالية لم يستطع أحد القول إنها قد انتهت تماما ، لأن الأرض خلال هذه الفترة لم تستقر طويلا ، وكانت الأصوات المخيفة المنبعثة من الأرض نذيراً مستمرا لمصائب جديدة » . وقد أبدى له أحد المواطنين ملاحظة قائلا : « إن هذه الزلازل مروعة جدا ... فقبل أن نسمع الدوىّ ، أو على الأقل عندما نشعر تماما أننا نسمعه ، نصبح فى حالة إدراك لما يحدث ، ولا أعرف تماما كيف أن شيئا غير عادى سوف يحدث ؛ فكل شىء يبدو كما لو كان يغير لونه ، ويهبط مستوى تفكيرنا نهائيا ، وتبدو الدنيا كلها فى غير انتظام ، والطبيعة كلها مختلفة عما اعتادت أن تفعله ، ونشعر أننا قد خضعنا تماما

وأحيط بنا من قوة خفية لايستطيع كبح جماحها أحد أو أن يدرك كنهها أحد ثم يأتى الدوى المروع ، فيسمع بوضوح ، وفى الحال تصبح الأرض الصلبة جميعها فى حركة تموج ذهابا وجيئة كسطح البحر . خذها منى كلمة ياسيدى : إن الزلزال الشديد يكفى ليضطرب أكثر الناس رجاحة عقل » .

ويحكى الكابتن هول قصة توضح التوترات العصبية التى تنتاب الناس فى جهات معرضة للزلازل . فقد كان حاضراً فى حفل فى إحدى ضواحى ڤلباراييسو عندما شعر بهزة أرضية طفيفة . وكانت نساء الأسرة يغنين ، وواحدة تلعب على المعزف ، وأخرى على القيثارة ، وفجأة قفز الجميع يصيحون « الرحمة » واندفعوا إلى الشارع .

وكتبت مسز جريهام من بنات وطنه ، وكانت فى تشيلى فى نفس الوقت وشاهدت تجارب كثيرة مشابهة : « أنا أستطيع أن أفهم تماماً الآن تأثير الكوارث الكبيرة العامة فى تدهور معنويات المجتمع وتفكك عراه » . وتحكى عن تفجر الحماسة الدينية ، التى تلت سلسلة من الهزات الأرضية . « من اليوم التاسع عشر وشابات سانتياجو يجبن الشوارع يغنين الترانيم والأوراد فى مواكب ، وعلى كل المذاهب كافة التى يعرفنها ، وهن لابسات ثيابا بيضاً . وحافيات الأقدام ، حاسرات الرؤوس ، شعث الشعور ، تتدلى عليهن الصلبان السود . وفى بادىء الأمر اكتظت الكنائس وقرعت الأجراس تنذر بالغم دون انقطاع إلى أن فطنت الحكومة أن كثيراً من الأبراج وبعض الكنائس قد تشققت ، فأوصدتها لكيلا تنهار على رؤوس الناس ، ولذلك فهن يؤدين مراسم عبادتهن فى الشوارع ، وتهب كل أسرة بناتها لهذه الخدمة المقدسة » .

وقد جرت عادة الناس أن يفسروا هذه الكوارث بأن الله يأخذهم بها على ما اقترفوا من آثام ، ولذلك كانت تتبعها عادة مظاهر التوبة والاستغفار. فبعد تدمير سانتياجو فى سنة ١٦٤٧ عكف الباقون من السكان على استغفار جماعى لإله غاضب ، وأقام الأسقف أمكنة لأربعين أو خمسين أباً لتقبل الاعتراف والتوبة فى الميادين العامة . وأقيمت المحاريب ومنابر الوعظ فى العراء ومن فوقها يدعو القساوسة السكان إلى الاستغفار . وتحركت المواكب فى الشوارع تنبعث منها أصوات الولولة وقرقعة السياط تلهب ظهور المستغفرين العارية . وحدثت مثل هذه المناظر فى « ليما » بعد زلزال سنة ١٦٥٥ . وذات مرة بعد أن ألقى أحد القساوسة الموعظة على الناس استسلموا إلى حالة مديدة من الألم الناتج عن هوس الإخلاص وإذلال النفس لدرجة جعلت الكثيرين يعانون من سقم التفكير ، ودفعتهم إلى حافة اختلال العقل. ويقال إن زلزال سنة ١٦٨٧ أدى إلى إحياء التحمس الدينى الشديد بين سكان بوجوتا المذعورين .

ويروى بويل قصة انطباعاته عن الزلازل التى حدثت فى جرانادا بأرض نيكاراجوا ، فى سنة ١٨٦٥ ، يقول : « كان الجو عبارة عن صياح فظيع من الرعب. وحتى أصوات الزلزلة كانت تضيع وسط هوس الصراخ... ولوثة شعب بأكمله أفقده الرعب صوابه » . وكتب عن الاهتزازات التى حدثت بعد ذلك ببضعة أسابيع يقول : « لقد حدثت ثمانون هزة واضحة بين الساعة التاسعة ليلا والرابعة من بعد ظهر اليوم التالى .... وكان الشجعان من الرجال فى حالة وحشية من الرعب والانهيار ، فى حين كان مئات من الناس قد اختلت عقولهم . وحاصرت الجموع المهووسة كراسى الاعتراف ليل نهار ، ولم ينقطع قداس من محراب » . ويضيف: « من ذا الذى يستطيع أن يعجب إذا كانت المدينة كلها قد جن جنونها ؟ » .

والأنتيل هى الجزء الوحيد من أمريكا اللاتينية الذى يتعرض للزوابع

المدارية . ولو أن الرياح العاصفة قد تجتاح الساحل الشرقى للمكسيك وأمريكا الوسطى حيث تسببت فى بوار مساحة كبيرة من مزارع الموز فى جواتيمالا سنة ١٩٥١ . وتنشأ الزوابع عادة فى مساحة محدودة من المنخفضات البارومترية مركزها إلى الجنوب من كوبا . ومن هناك تتحرك بتقوس شمالى فى اتجاه الجزر الكبيرة وتصل فى بعض الأحيان إلى الولايات المتحدة قبل أن تهدأ قوتها . وقد مر كولمبس بتجربة من غضب إحدى هذه العواصف فى رحلته الثانية ، ومنذ ذلك الوقت تعد هذه العواصف سببا فى الخسارة الكبيرة التى تلحق بالممتلكات والأرواح فى جزر الهند الغربية. ومن الزوابع المدمرة بصفة خاصة تلك التى اجتاحت هافانا فى سنة ١٩٢٦، وتلك التى دمرت مدينة سانتو دومنجو القديمة تدميراً تاماً . وعلى الرغم من أنها تترك المحصولات والبساتين قفراً، وتمحو المبانى الواهية التى تعترض طريقها ، فإن الخدمات المترولوجية فى الجمهوريات الجزرية تمكن المدن من أن تستعد لملاقاتها فى حذر وحرص أكثر من ذى قبل ، وتمكن السفن من التحرك بعيداً عن منطقة الخطر فى الوقت المناسب .

وهكذا تعلم الناس كيف يعيشون مع الأرض كما وجدوها . وفى بعض الأحيان نراهم حصلوا على هذا التعلم بسهولة ويسر ، كما حدث فى وادى تشيلى وفى باراجواى والأحواض الموجودة فى مرتفعات المكسيك ووادى الكوكا فى كولومبيا ، حيث كانت الطبيعة صديقة ورحيمة . وفى بعض الأحيان — كما فى البمبا وفى الأنديز العالية والأمزونيا — حيث كانت الطبيعة على نطاق شاسع لا يستطيع استيعابه عقل إنسان ، وحيث كان الوضع ضخما لا تتحمله أنانيته المتغطرسة ، جاء هذا التعلم صعباً ، وطالت فترة التوفيق بينه وبين البيئة . وبصفة عامة ، كان تعلم البرتغالى الذى اتصف بالمرونة أسهل كثيراً من تعلم الإسبانى شديد الصلابة . وحيث كانت الطبيعة زائدة الشح استطاع الإنسان فى بعض الأحيان أن يغيرها فى حدود طاقته ومهارته كما فعل الأزاتقة والإنكا من قبل .

وفى طور زادت فيه الطاقة كثيراً بالوسائل الهندسية والعلمية الحديثة تحكم الناس فى كثير من الأماكن الممحلة بالرى واستئصال الأمراض. ولكى يجعلوا الحياة أكثر سخاء وإرضاء أو أكثر بهجة، جلبوا من العالم القديم إلى الجديد المحصولات والحيوانات والفواكه والأزهار التى كانت جزءاً أساسياً من صميم حياتهم فى شبه الجزيرة. فقد كان منظر شجرة برتقال أو تين عند الباب، أو كرم ناضج فى الشمس، وجواد عربى مربوط من عقاله على القرب، والورود فى الفناء، وقطة بجوار الموقد، والبصل معلقاً بخيط فى سقف المطبخ، يجعلهم يشعرون بانتمائهم إلى هذا العالم الجديد. وإذا كان الخلف من بعدهم قد تباينوا فى بعض النواحى، فإن هذا التغير لا يرجع إلى حوادث أربعة قرون من التاريخ وتسرب عناصر اثنوجرافية إلى دمائهم فحسب، بل إلى تأثير البيئة الصامت الرهيف كذلك.

هوامش الفصل الأول

(١) يقول الأب أكوستا الذى يعد أول من دون بإسهاب وألمعية ما يختص « بالتاريخ الطبيعى » للعالم الجديد : « عند ما نخرج من أوربا الى الهند الغربية نعجب حين نرى الأرض لطيفة ويانعة » .

José de Acosta, "The Natural and Moral History of the Indies" Vol. I., p. 163.

(ترجم عن الإسبانية فى جزءين — لندن ، ١٨٨٠) .

(٢) يذكر هذه العبارة صمويل پوتمان ، ص ٣ فى مؤلفه :

Samuel Putman, "Marvelous Journey : A Survey of Four Centuries of Brazilian Writing" — (New York, 1948).

(٣) Cieza de Leon, "Civil Wars in Peru : The War of Las Salinas".

(ترجم عن الإسبانية ، لندن ، ١٩٢٣) ، ص ١٧٩ .

(٤) Carlos Monge, Acclimatization in the Andes : Historical Confirmations of "Climatic Aggression,, in thedevelopment of Andean man".

ودكتور مونج ، وهو من علماء الطب فى بيرو ، قام بأبحاث عميقة فى الآثار البيولوجية للارتفاع فوق الأنديز . وقد لاحظ الملازمان هيرندن وجبن عن ثرو دى پاسكو فى أنديز بيرو أن « الحرارة شديدة هنا إلى درجة تمنع الدجاج من أن يفقس بيضه ، واللاما من أن تلد ، وتضطر النساء فى فترة النفاس أن يلجأن إلى منطقة ذات طقس ألطف ، ولإتمام أطفالهن » — عن :

Herndon and Gibbon, "Exploration of the Valley of the Amazon" (2 vols., Washington, D. C., 1854), II, 108.

(٥) « الإنسان فى المكسيك ، مع جميع ما قام به من أعمال ، ليس سوى مخلوق ضئيل مختبىء فى خندق يصعب الوصول إليه ، يخدش الأرض بعصى خشبية أو فأس حديدية ، إذ تطغى الكتلة الجبلية على جميع مجهوداته . . . وكموطن بشرى . . . يهيىء هذا الإطار مسرحا فخما لعالم صعب وحياة شاقة . . . ولا يمكن ، اللهم إلا بأقصى مشقة ، أن يحصل المرء على كفاف العيش الذى قد تقدمه له أرضه وهى تبتسم له ولكنها تقاومه » — عن :

Frank Tannenbaum, "Mexico : The Struggle for Peace and Bread" (New York,1950). p. 8.

(٦) « والبمبا شاسعة لدرجة أنه حتى أولئك الذين يعرفون حدود أراضيهم تمام المعرفة يتيهون فى أرجائها » — عن :

Lucio V. Mansilla, "Una Excursion a los Indios Ranqueles", (Buenos Aires), p. 26.

وقد كان العقيد مانسيا ضابطا فى الجيش الأرجنتينى ، ويعد كتابه مرجعا كلاسيكيا فى الفنون الهندية فى أمريكا اللاتينية .

(٧) خوان دى جاراى هو الثانى وذو الأثر الفعال فى تأسيس بوينس أيريس ، أما مارتن فييرو فكان شخصية صورها شعر خوسيه هيرنانديث وأنموذجا للجوشو .

(٨) Robert Bontine Cunninghame Graham, “The Conquest of the River Plate” (London 1924), p. 57 :

« فراغ مستو من الشمس والعشب والرياح » .

و Christopher Isherwood, “The Condor and the Cows: A South - American Travel Diary” (New York, 1949), p. 198.

(٩) عن تاريخ الجوشو انظر

Madaline Wallis Nichols, “The Gaucho, Cattle Hunter, Countryman, Ideal of Romance” (Durham, N. C., 1942).

(١٠) عن اللانوس انظر .

Miguel Triana, “Bulletin of the Pan - American Union”.

واقتبس منه :

A. C. Wilgus, ed., “Readings in Latin—American Civilization (New York, 1946), p. 248.

(١١) W. L. Schurz, “The Amazon, Father of Waters”, The National Geographic, Magazine April, 1926.

(١٢) « الصحراء ، شيء من الجمال ، وأريزونا ، بهجة إلى الأبد ، إذا قيستا بساحل بيرو» ، عن :

Ephraim George Squier, “Peru: Incidents of Travel and Exploration in the Land of the Incas” (New York, 1877), p. 25.

(١٣) ترجم القصة إلى الانجليزية Samuel Putnam تحت عنوان :

“Rebellion in the Backlands”.

ونشرتها مطبعة جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٤ .

(١٤) Jorge Juan y Santacilla and Antonio de Ulloa, “A Voyage to South America” (London, 1806), Vol. II, 81.

ترجمت عن الاسبانية فى جزءين .

(١٥) المرجع المذكور Juan and Ulloa, op. cit., II, 138.

انظر أيضا :

Antonio Vazquez de Espinosa, "Compendium and Description of the West Indies", p. 505.

ترجمت عن الإسبانية ، واشنطن D. C. ، ١٩٤٢ .

(١٦) Benjamin Subercaseaux, "A Geographic Extravaganza"

ترجمت عن الإسبانية ، نيويورك ، ١٩٤٣ ، ص ١٦٠ .

انظر أيضا تقريرا عن آثار الزلازل كتبه :

Norman Armour, "Bulletin of the Pan - American Union", March, 1939.

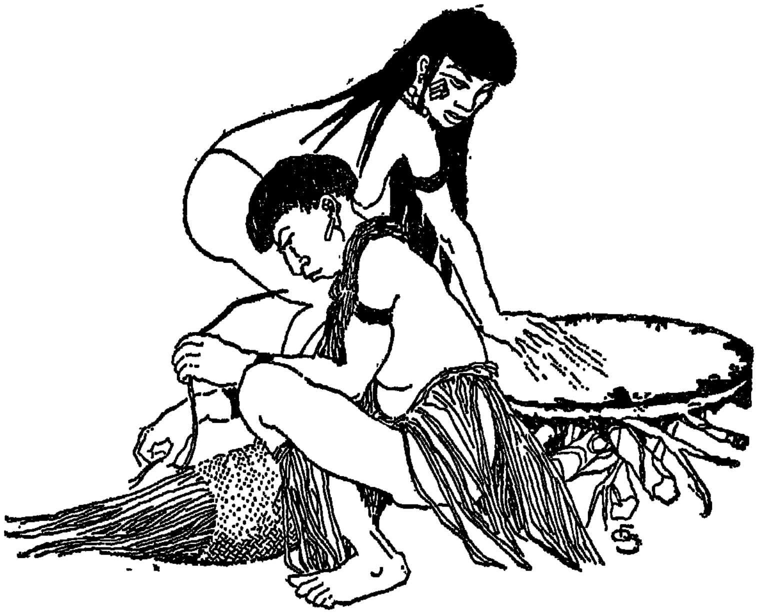

الفصل الثانى

الهندى

عندما شخص كولمبس ببصره تجاه الشاطىء من مرساة جواناهانى فى ذلك الصباح من أكتوبر سنة ١٤٩٢ ، رأى عدداً كبيراً من أناس عراة متناثرين على الساحل(*) . ولما كان الإسبانيون ، مهما تكن آراؤهم الشخصية ، يمقتون العرى بصرامة ، فقد حرص المستكشف على أن يخبر الملكة أنه من الخير « أن يعلمهم كيف يلبسون ثيابا » . ولما اختلط بأهالى الجزيرة فى ذلك اليوم سرعان ما تبلورت آراؤه بخصوصهم . فقد لاحظ أنهم كانوا « ذوى بنية قوية ، وأجسامهم ممشوقة ، ووجوههم جميلة جداً » ، وعيونهم « بديعة للغاية » ، وفيما يتعلق بصفاتهم الخلقية فقد وجدهم كما وجد الأهالى الآخرين فى الأنتيل شعبا « بسيطا » و « وديعا جداً » و « ساذجا وكريما » و « هيابا إلى درجة تثير العجب » وبدت منهم « بوادر المحبة

(*) Arcadian من أركاديا فى اليونان القديمة وكان يسكنها أناس بسطاء همهم الغناء والرقص .

كما لو ودوا أن يقدموا قلوبهم عنواناً » . وبعد حين كتب إلى الحكام أنهم يحبون جيرانهم كما يحبون أنفسهم، وأنهم يمتازون بأعذب الأصوات فى العالم ، وثغورهم باسمة على الدوام » . وكان هؤلاء المتوحشون البسطاء من التاينو الذين ينتمون إلى شعب الأراواك الواسع الانتشار ، كان كولمبس قد سمع عن أعدائهم وظلمتهم التقليديين ، شعب الكاريب الطغاة ، ولكنه لم يلتق بهم فى رحلته الأولى إلى العالم الجديد . وكان كولمبس قد تشبث بالوهم القائل إنهم كانوا يقطنون على حدود الصين ، ولذلك فقد كانوا هنوداً ، ويقطنون جزر الهند العتيدة ، ومن ثم أصبحوا هم وبنو قرابتهم لآلاف كثيرة من كيلومترات من حولهم هنوداً .

وكما أن العالم الجديد قد سمى تكريما لرجل لم يره أبداً على وجه الاحتمال ، فكذلك سمى سكانه شعب لم يقطنه أبدا .

وفى أثناء تقدم كولمبس بين جنات الجزر فى مياه الكاريبى ، اقتنص بعض الوقت ليطيل الشرح فى شتات المطالب التى كانت تستلزمها بعثته ، أوضحها كما يوضح كتيب السائحين قوائم فرص الاستثمار فى المجتمع، مراعاة للغرفة التجارية ، فيبلغ رؤساءه الملكيين المثقلين بالمصاعب أن الهنود « صالحون لأن يحكموا ، وتوكل إليهم الأعمال ، ويفلحوا الأرض ويعملوا كل شيء آخر قد يكون ضرورياً ». ويضيف ملاحظة هامة قائلا : « إنهم جرد من السلاح » ، ولا « علم لهم بالحروب » وأنهم « هيابون إلى درجة أن ألفا منهم لا يستطيعون مواجهة ثلاثة » . ولكى يخفف وقع هذه الحقيقة الجريئة على ايزابلا المتدينة يشير إلى أن الهنود « شعب علينا أن ندخله ونحوله إلى ديننا المقدس » . أما بالنسبة إلى الطريقة المرسومة لخلاص نفوسهم الوثنية فقد كانت لتؤدى « بالمحبة أكثر منها بالقوة » . فهو يضع نفسه فى هذا فى موقف الشخص الثنائى الذى لا يتراجع والذى يرى أن الهندى يمكن أن يخلق منه شخص يكون رقيقاً ومسيحيا فى وقت معا ، مماسبب

الكوارث الكثيرة للساسة الذين كانوا يرسمون الأساليب الإدارية للإمبراطورية الإسبانية .

وفى كل مكان ارتاده الإسبانيون والبرتغاليون كان هناك هنود . وكان هؤلاء فى بعض الأحيان أفراداً فى جماعات لغوية صغيرة لا يعتد بهم ، دفعهم جيران لهم أشد بأساً إلى أرجاء لا يرغب فيها كثيراً ، ولكن غالباً ما كانوا ينتمون إلى واحدة من السلالات التى كانت تتجول ، أو التى قد توطد استقرارها فى أرجاء شاسعة كانت تعد ملكا لهم . فموطن التوبى — جورانى كان يشغل ملايين الكيلومترات المربعة مما هو الآن البرازيل وجمهوريات نهر بلات . أما إمبراطورية الإنكا فقد شملت معظم مساحة اكوادور الحالية وبيرو وبوليفيا وامتدت حتى بلغ امتدادها الكلى من الشمال إلى الجنوب أكثر من ٤٨٠٠ كيلو متر(٣). وفوق هضبة أناهوا فى المكسيك كانت شعوب الناهوا لا تزال فى حركة ، ولم يكن الأزاتقة قد توحدت فتوحاتهم بعد ، وهم شعب يتصف بالعدوان والسيطرة ، أو قد وصل إلى حدود توسعاته الطبيعية حينما أوقف الإسبانيون إتمام مصيرهم(٤). فإذا ما اتجهنا إلى ما دون غابات البرزخ عاش شعب المايا والقبائل ذوات القربى مثل الكيتشى منعزلين ومتناثرين فى الأراضى الممتدة من يوكاتان نحو الجنوب إلى مرتفعات جواتيمالا وهندوراس(٥).

وبصرف النظر عن الموطن الذى نزحوا منه — ومن المحتمل أن يكونوا قد أتو من آسيا عن طريق مضيق بيرنج — فإنهم سكنوا العالم الجديد فترة طويلة جدا قبل أن لقيهم الأوربيون . وقد كشفت فى أكوادور عظام بشرية فى نفس الطبقات التى خلفها الماموث والحصان البدائى . وعاش الهنود فى القارة فترة طويلة كانت كافية لإحداث اختلافات جذرية واضحة فى نوعهم الجنسى . فقد كان هناك هنود صغار الأجسام مثل المايا ، وأناس أجسامهم كبيرة كقبائل الأونا فى بتاجونيا — ولو أنهم غير المردة الذين

ذكرهم الإسبانيون فى أول الأمر . وعلى الأنديز العالية تطورت صدورهم فاتخذت شكل البرميل ، مما ساعد الرئتين على استنشاق الأكسيجين من الجو المخلخل ، ووفقوا أجهزتهم الجسمية الأخرى إلى مقتضيات حياتهم فوق تلك الارتفاعات . وبينما كان معظمهم ذوى بشرة تميل إلى الحمرة المشربة بالسمرة كان بعضهم أدكن تماما ، وكان البعض الآخر ذا لون فاتح جداً . ووجد الإسبانيون أفراداً كثيرين ذوى لون يشبه لونهم ، وكان اختيار العناصر الأصلح للتزاوج بين أفراد الأسر الحاكمة فى بيرو والمكسيك قد أنتج طبقة مميزة تضم أفرادا ذوى سحنات أفتح وأطول قامة وأكثر وجاهة من العامة من هذه الأجناس . وعلى الرغم من أنه فى آلاف السنين الطوال التى استوطن فيها الهنود القارة قد فقدوا كل شيء يذكرهم بشخصيتهم وأصلهم الآسيوى — فى ظل أرض الأساطير والقصص الشعبى دائما — فإن الزمن لم يستأصل من أجسامهم بعض شوائب شرقية معينة كالعيون المنحرفة « والبقعة المغولية » التى يقال إنها توجد فى أسفل العمود الفقرى عند الأطفال .

بل إن الاختلاف الثقافى الذى حدث كان أكثر من الاختلاف الجسمى . ففى درجة الحضارة التى توصلوا إليها تراوحوا من الثقافة العتيقة التى اختص بها شعب الياغان البؤساء فى أرخبيل تشيلى إلى مستوى يقارن فى بعض النواحى بحضارة أوروبا فى القرن السادس عشر ، كما كانت الحال بين هنود المكسيك وبيرو ، وازدهرت بعض الحضارات ثم اختفت أو تدهورت أو فقدت شخصيتها بالانضواء فى كتلة شعوب أقوى شكيمة ، وإن كانت أكثر تخلفاً ، كالشعوب التى أقامت مدينة تياهوانا كو الجبارة بالقرب من بحيرة تيتيكاكا ، وبناة تيوتهواكان المكسيكية القديمة(*) ، والشعب الذى اندثر وخلف وراءه الأعمال الفنية الجميلة المتناثرة فى وادى الأمازون الأدنى .

(*) Toltec حضارة المكسيك القديمة .

وكما حدث للإمبراطوريات المصرية القديمة كانت بعض هذه الشعوب تزدهر وتضمحل على دورات طويلة كما حدث لشعب المايا العظيم الذى انتهت آخر فترة ازدهار له قبل أن يصل الإسبانيون إلى شواطىء يوكاتان (٦) . وقد وقفت الحروب والأوبئة وازدياد نسبة السكان فى مواجهة مقادير الطعام المنتجة محليا وعملت على تقويض هذه الثقافات المزعزعة وكثيرا ما تركتها مبتورة فى دور تطورها.

طرق المعيشة عند الهنود

تباينت عادات وفنون المعيشة كثيرا بتباين مستويات الحضارة أو الثروة الفطرية للبيئة الطبيعية . فمن ناحية الطعام كانت القبائل الأكثر بداءة يأكلون أى شىء يجدونه حولهم ، من نمل وديدان ونباتات الأرض ، والأصداف يلتقطونها من على الشواطىء فى وقت الجزر ، أو بعض النباتات الغذائية كالتى تنمو طبيعيا فى الغابة . ومن هذا المستوى المنخفض تدرج غذاء الهندى إلى أطايب الطعام التى صورها برنال دياش غذاء يوميا لمونتسوما . فقد طور الهنود من الذرة والكاسافا والبطاطس النباتات الغذائية الرئيسية والتى لا تزال تكون الغذاء الأساسى لمعظم سكان أمريكا اللاتينية . ففطيرة الذرة (*) المكسيكية، ووجبة الكاسافا الخشنة السمراء المشهورة فى البرازيل، سبقت مجىء الأوروبيين بوقت طويل . وفى ذلك الوقت ، كما هو الآن ، قد يكون من الصعب ان نبالغ فى أهمية الذرة فى حياة أمريكا قبل مجىء كولمبس، ذلك لأنها لم تهىء لهم أساس مجتمع مستقر لملايين الناس فحسب، ولكن عمليات زراعتها كانت ، إلى درجة خارقة ، عنصرا أساسيا فى الأساليب الشعبية التى كان يمارسها الهنود (٧) . فقد كانت الذرة أكثر من طعام ، ذلك لأنها كانت دليلا على أسلوب معيشة . وفى جهات محلية

(*) Tortilla : تورتياه

مختلفة كان يحل محل هذه الأطعمة الأساسية البطاطا والفول والقرع العسلى وخضراوات أخرى وفواكه محلية كثيرة والأناناس وحبوب الكينا المغذية التى اشتهرت بها الأنديز ، والشوكولاته . أضف إلى ذلك السمك ولحم الحيوانات كلما أمكن ذلك . ومن حيوانات الصيد التى كان يكثر اقتناصها الجواناكو فى البمبا ، والأيائل (الغزلان) والقردة والديكة الرومية البرية وطيور أخرى مثل الموتوم وأنواع القوارض البضة التى تشتهر بها غابة الأمازون .

وفى مناسبات — وقد تكون هذه المناسبات كثيرة الوقوع — كان كثير منهم يأكلون زملاءهم مستمتعين باستساغة لحومهم . وقد يؤكل قلب الفريسة الضحية كمظهر من مظاهر الطقس الدينى لإله الحرب (٨)(*) عند الأزاتقة ، غير أن الدافع إلى أكل لحوم البشر كان هو النهم الذى كان يفوق فى معظم الأحوال دافع الشعيرة الدينية . وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين الإسبانيين قد بالغوا فى حوادث أكل لحوم البشر وما تنطوى عليه من فظائع فإن الدليل على ممارسة هذه العادة واسع الانتشار بحيث لا يمكن تجاهلها . وإن لفظ «كانيبال» (**) الانجليزى نفسه أى آكل لحم البشر مشتق من قبائل الكاريب المتوحشين فى البحر الكاريبى ، والذين كانوا يفرطون فى حبهم له ويبدون استحسانا مسبقا للأجسام الإسبانية(٩) وكانت هذه العادة منتشرة بصفة خاصة بين قبائل البيخاو المتوحشين وقبائل أخرى فى مرتفعات كولومبيا ، ولكنها كانت أيضا ظاهرة عادية فى حياة شعوب الجوارانى والتوبى(١٠) . وفى رواية إسبانية أن بعض قبائل كولومبيا كان يلتهم بعضهم بعضا بالمعنى الحرفى للالتهام (١١) .

واستساغ الهنود إثارة المشروبات الروحية كما يفعلون الآن (١٢) .

(*) Huitzilopochtl

(**) Cannibal

فشربوا البولكى التى استخرجوها من نبات الصبار الأمريكى فى المكسيك والسوبيا التى كانوا يستخلصونها من تخمير الذرة ومواد أخرى ، والعصارة القوية التى كانوا يأخذونها من أعناب الخرنوب ، أو الخلاصة التى استخرجوها من معظم النباتات غير السامة التى يمكن تخميرها . وقد أتاحت لهم الخمر فترات من البهجة أو الركود العقلى كفرجة من رتابة الحياة اليومية أو مصاعبها . وفى بعض الأحيان ، وتحت تأثير إثارة الكحول أو المخدرات ، كانوا يقيمون حفلات السكر والعربدة ابتهاجا بطقس قبلى معين أو لمجرد المتعة من إقامتها . وعلى الرغم من جهود القساوسة للحد من عادات شربهم الخمر فقد جاء الوقت الذى حرصوا فيه على مراعاة احتفالات الكنيسة الكاثوليكية بنفس الاستهتار الوثنى ، ولكن بما أضافوه إلى ميسرات السكر الجديدة التى قدمتها لهم معرفة قصب السكر والكروم .

وتراوحت مساكن الهنود، من المنازل الأرضية تحت السماء المكشوفة أو « أكواخ » من سعف النخل ينصبونها بسرعة فى الغابة ، إلى مساكن جماعية موضونة (*) عاشت فيها الجماعة فى جو مختلط ملىء بالدخان والروائح أو إلى دور كبيرة رصينة من الحجر المنحوت تقام للطبقات الحاكمة فى القبائل المتمدنة . وقد استغل الهنود مواد البناء الموجودة حولهم استغلالا جيدا . وعلى الرغم من نقص الأدوات المعدنية لديهم فقد أظهروا عادة مهارة فائقة فى استخدام تلك المواد فى مساكن أدت الغرض من إقامتها إلى درجة مرضية جدا . والقاعدة العامة فى مسكن المزارع المتوسط ، الذى يفلح الأرض لكفايته الذاتية فى جهات امريكا اللاتينية المدارية ، أن يكون مهيأ تهيئة فائقة لمقتضيات البيئة ، ومثاله « بوهيو » الأراواك الذى يقطنه الفلاح الكوبى (**) والذى يشبه سلفه ونموذجه الهندى .

وفى الجهات ذات المناخ الحار سار الهنود عراة ، إذا استثنينا ميدعة

(*) Imalocas: موضونة أى « مجدولة »

(**) Guaijiro : جواخيرو

قطنية صغيرة أو «الجراب» القديم الذى كان يستخدم لستر ما أسماه الإسبانيون «العورات» (*) وفى عهد الاستعمار تنازلوا بعض الشىء أمام احتجاج رجال الكنيسة الكاثوليك عن سيرهم عريانين، فيما عدا الحالات التى حصلوا فيها على كميات كافية من القطن لقمص فضفاضة (**) كانت تستعملها نساء قبيلة الجوارانى. أما فى الأجواء الأقل حرارة فقد كانت الهندى يلبس أى شىء يمكن الحصول عليه لتغطية جسمه. وفى جنوب تاجونيا وتيرادل فويجو استخدم الفراء فى ملبسه. وفى معظم أرجاء القارة كانت النساء يلبسن جلابيب من أشجار القطن المحلية، وعلى مرتفعات الأنديز جلابيب من صوف اللاما. أما صوف الفيكونيا (***) الناعم فقد كان يحتفظ به لملابس طبقة الانكا. وعندما أدخل الأوروبيون نبات القطن الحولى والأغنام أمكن الحصول على نوعين من الألياف المفيدة، واستطاع الهنود بسهولة أن يستخدموها فى صنع ملابسهم. ووصل السكان الهنود الأوائل فى وديان بيرو الساحلية إلى درجة عالية خارقة من المهارة فى النسيج وصنعوا أقمشة على درجة عظيمة من الجمال والمتانة (١٢).

وكان لدى بعض الشعوب القديمة معلومات غزيرة اكتسبوها بالخبرة عن النباتات العلاجية. ولقد كان لفاعلية دليل الصيادلة الأهلى للإنكا وقع كبير فى نفوس الإسبانيين حتى إنهم أنشأوا كرسيا للطب الهندى فى جامعة ليما، وكتب المبشرون الكاثوليك الرسائل فى هذا الموضوع، كما أعيد طبع «مجموعة نباتات الأزاتقة» المشهورة من جديد فى عصرنا هذا. وشملت المواد الطبيعية عند الهنود علاجاً لسوء الهضم ولمعالجة أنواع العدوى التى تصيب الجسم من الخارج والأدوية القابضة لمنع النزيف واستخدام عقار الكوكا كمخدر. وبالإضافة إلى الكوكا أمدوا الطب الحديث بعقاقير منها

(*) Verguenzas

(**) Tupoy

(***) Vicuna نوع برى من اللاما.

لحاء الكينا وعرق الذهب وبلسم بيرو وسم السهام ومواد أخرى كثيرة ، وفى مضمار الجراحة هناك دليل على مهارة كبيرة عند الإنكا فى تربنة الجماجم فى حالات أمراض المخ. وبجانب رجال الطب المشعوذين ، الذين لامناص من وجودهم بين قبائل الغابة ، كان هناك فى كثير من الأحيان قدر كبير من المعرفة الطبية السليمة . ومن المحتمل أن الدافع إلى ممارسة السحر فى أثناء ممارستهم مهنتهم كان نفسانيا إلى حد كبير . وعلى الرغم من النقص فى تعلمهم الرسمى فإن خلفهم الحديث المعروف «بالمطبب » (*) كالقابلة الشعبية يؤدى خدمة فائقة دون شك بين السكان المتخلفين والمتناثرين الذين يقطنون فى قلب القارة حيث لا يمكن الحصول على خدمات الأطباء المدربين .

وعلى خلاف الرأى السائد ، لم يكن احتمال طول الأعمار كبيراً . أما الحالات التى طالت فيها الأعمار بدرجة غير عادية فحالات شاذة عن القاعدة العامة (١٤)، وكان معدل وفيات الأطفال مرتفعا دائما كما هو اليوم ، والأطفال الذين نجوا من بلايا الطفولة غالبا ما أظهروا تحملا كبيرا للأخطار العادية التى تصادفها حياة الهنود . ومع ذلك فحتى فى المجتمعات المتقدمة نسبيا والجيدة التنظيم، كمجتمعات بيرو والمكسيك، فإن أخطار العرى والحوادث كانت كثيرة وماثلة على الدوام . أضف إلى ذلك أنه لولا حنان المرأة الهندية وما اتصفت به من قلق لتفاقمت أحداث الهلاك إلى درجة كبيرة . وكثيرا ما عقب المؤرخون الأوائل والمسافرون من بعدهم على جمال منظر الأجسام الذى اتصف به من قابلهم من الهنود الذين بلغوا سن الرشد، وعلى قلة الأشخاص المقعدين أو المشوهين .

وكان الهندى متخلفا فى مضمار التطور الفنى ، فقد كانت تنقصه ملكة الاختراع والمهارة الغريزية فى معالجة المسائل الطبيعية . وقامت الشعوب

Curandero (*)

التى تقدمت على سلم المدنية بأعمال هندسية تدعو إلى الإعجاب بطريقة ميكانيكية لا تتعدى مرحلة البداءة . أما مدنهم — كشكو وكوپان ومتلا وبالنكى وشيشن إتشا — فقد نافست من ناحية الهندسة المعمارية المدن القديمة فى آسيا وشمال افريقية . فقد شكلوا ونقلوا كتلا هائلة الحجم من الحجر لبناء عمائر فخمة ، وأنشأوا فى الأنديز مجموعة من الطرق الممهدة حسدهم عليها الإسبانيون ، ولكنهم فشلوا فى صيانتها (١٥) ، وأقاموا الجسور الواسعة على البحيرة التى أحاطت بعاصمة دولة الأزاتقة والقناطر المعلقة المتينة فوق خوانق نهر أبوريماك العميقة وغيره من الأنهار ، وعليها كان يحرك الفاتحون جيوشهم وأرتال الدواب المثقلة بأحمالهم . وحفروا الأنفاق فى نتوءات الأنديز لتحويل الأنهار عن مجاريها ، ودرجوا سفوح الجبال حتى قممها وحفروا قنوات الرى على نطاق لم يكن معروفا فى ذلك الوقت فى أوروبا (١٦) . وقاموا بكل هذه الأعمال بالقوة البدنية مهما يبلغ تصورهم الجرىء لمشروعاتهم العظيمة . وكما كانت الحال فى مصر القديمة عوضت السهولة التى كانوا يحصلون بها على الأيدى العاملة الكثيرة والمطيعة النقص فى العدد والآلات . ويعد الصبر وفقدان الحاسة الزمنية من العوامل التى أخرت التطور الميكانيكى عندهم ، فلم تكن العجلة ولا العقد فى المبانى معروفين فى العالم الجديد قبل الكشف الكولمبى .

وكانت صناعاتهم المعدنية بدائية . وعلى الرغم من أن مدخرات هائلة من خام الحديد توجد فوق سطح الأرض أو قريبا منه فى جهات كثيرة من أمريكا اللاتينية ، فإن الهنود لم يتعلموا أبدا سر صهره كما فعل الزنوج الإفريقيون . وفى كثير من جهات القارة كان أمضى الأدوات فى القطع تصنع من حجر السبج (*) غير أنه فى حالة وجود الفلز فى حالة نقية كما فى أجزاء من بوليفيا استخدم الهنود أدوات النحاس المسبق .

(*) Obsidian : حجر زجاجى أسود

وإذا كان الهنود لم يشعروا بأنهم مضطرون لاختراع وسائل توفر لهم العمل باستخدامهم أحجاما كبيرة من الحجر والتراب ، فإن بعضهم قد ارتقى إلى درجة مشهودة فى مضمار العلوم البحتة ، وطبقوا كشوفهم فى الفلك والرياضيات فى عملياتهم الهندسية وخدمة الزراعة التى كانوا يمارسونها ، وفى تنظيم دورات أعيادهم الدينية التى كانت تطابق حياتهم الجماعية مطابقة صميمة . وكان تقويم المايا أدق من التقويم المستعمل فى أوروبا فى نفس الفترة من التاريخ . وعندما فكت رموز العلائم التاريخية المنقوشة على الآثار القديمة أمكن تحديد كثير من التواريخ الهامة عن سيرتهم ويدل تخطيط قلعة تيوتهواكان الضخمة فى المكسيك القديمة وغيرها من المبانى فى المكسيك وبيرو على معرفة بالهندسة ربما كانت تسدى فضلا إلى العمائر العظيمة التى أقيمت فى العصور الوسطى . وقد طور المايا طريقة الأرقام المبنية على العدد ٢٠ والتى تضمنت الفكرة المجردة عن الصفر .

السياسة والحرب عند الهنود

تنوعت النظم السياسية القديمة فى العالم الجديد من حالة الفوضى أو انعدام سلطة معترف بها كلية إلى مرتبة عالية من تطور الدولة عند الإنكا . وفى بعض الأحيان كانت الجماعة تنظم فى وقت الحرب فقط ، عندما يختار محارب فذ ليقودها إلى المعركة . وحتى قبائل الأروكانيان فى تشيلى ، الذين كانوا يثيرون الرعب ، لم يتقدموا إلا قليلا دون هذا الدور البدائى فى التنظيم . وفى أحيان أخرى ربما مارس الرجال كبار السن قدرا من السيطرة بوصف كونهم ملاذا وحفاظا على العادات والحكمة التى تزود بها الشعب ، ذلك لأن هذه الجماعات البدائية كانت محافظة أشد المحافظة ، وكثيرا ما كانوا يميلون إلى عدم تشجيع أى شىء مستحدث على أنه إساءة إلى الأرواح التى ترعى

القبيلة فى أوقات الرخاء والشدة. أما الشعوب الأكثر مدنية كالأزاتقة والإنكا فقد أظهروا مهارة مشهودة فى الإدارة العامة. فالسلطة فى دولة الأزاتقة الاتحادية وامبراطورية الإنكا كانت فى أيدى رجال الدين بمسئوليات متدرجة محدودة بوضوح، وتشمل القيام بالأعمال الفنية المتخصصة لحكم الشعوب التى كانتا تحكمانها. ولقد أعجب الإسبانيون بعبقريتهم السياسية واحتفظوا ببعض نظم الحكم التى ساروا عليها فى المراحل الأولى من نظامهم الاستعمارى.

وكانت الحرب أمراً عاديا فى جماعات ماقبل الكشف الكولمبى. فبعض الشعوب مثل الكاريب والشيشيمك(١٧) والأروكاريان(١٨) الذين لايقهرون كانوا محبين للحرب كقبائل السيو أو الأيروكوا (*). وهناك قبائل أخرى كالتاينو فى الأنتيل والشيمو على ساحل بيرو والشبشا فى هضبة كولومبيا كانوا بغريزتهم محبين للسلام إلى حد كبير، وكان يفتك بهم جيرانهم من محبى العدوان، وربما كانت هذه الاشتباكات القبلية، فى أكثر صورها بداءة، مقصورة على الإغارة على قرى الأعداء للحصول على ضحايا قربانية، أو إمدادات من اللحم. وهذه كانت عادة شائعة عند التوبى وأقربائهم الجوارانى. وفى بعض الأحيان كان الدافع إلى الحرب هو استرقاق أعداء بالذات أو قبائل برمتها، كما كانت الحال بين قبائل البوتوكودو فى البرازيل. أما الأبيبونى، وهى قبيلة تقطن أمريكا الجنوبية، فبعد أن خضعت لسيطرة جيرانها تعلمت كيف تذلل الخيل الوحشية التى أطلقها الإسبانيون فى السهول ثم ردوا الكرة على مضطهديهم. فقد كانت الحرب أمجد اختبار للرجولة(١٩) فى مجتمع يضع الشجاعة الشخصية فوق كل الفضائل الأخرى.

(*) فى أمريكا الشمالية.

أما بين الإنكا الأزانقة فقد اتخذت الحرب كثيراً من صفات المغامرات الحربية الأوربية . إذ هدفت حروبهم الإمبريالية إلى دوام إخضاع الشعوب الأخرى واغتصاب أراضيهم . فوجدت طبقة معينة من المحاربين تمتعت بمزايا وحقوق خاصة خصوصا فى المكسيك . وتطورت نظراتهم إلى الاستراتيجية بحيث فاقت كثيرا نوع الإغارة الليلية البدائية ، يتبعها أخذ الأسرى والانسحاب السريع إلى قواعدهم . فإن السرعة التى تعلم بها الأروكانيان خطط الإسبانيين الحربية وطبقوها كانت أحد الأسرار التى جعلتهم يصمدون أمام الفاتحين طويلا وبنجاح . ولكى يخضعوا أعداءهم دون إراقة دماء عمد الإنكا فى بعض الأحيان إلى أساليب الحرب النفسية، كما فعلوا مع شعب الشيمو على طول الساحل(٢٠) فقد تسرب عملاء الإنكا إلى عاصمة الشيمو ، وهناك نشروا بين الناس قصة المنعة التى اتصفت بها جيوشهم وتوكيدات المعاملة اللينة التى سيلاقونها إذا استسلم الشيمو دون مقاومة . ثم استكملت العملية الحربية بامتصاص الشعب المغلوب فى الوحدة المنظمة لإمبراطورية الإنكا الرحيبة التى لامناص للتخلص منها بالثورة . فإذا امتاز الشعب المغلوب بكونه محاربا كشعب الكانيارى فقد ينضم إلى جيوش الإنكا كقوة محاربة من الانكشارية .

ولم يعرف عالم الهنود أى اقتصاد نقدى ، ولا أفراده أية فكرة عن الربح أو الثروة . فلم يكن هناك معنى عندهم لأن يكدس المرء رأس مال . وبين الشعوب الأكثر بداءة كانت الحياة عبارة عن وليمة أو مجاعة أو سعياً وراء قوت اليوم ، وقوامه مقادير قد لا تكفى من الفواكه أو صيد البحر والبر، أو زراعة بدائية أو غنائم الحرب . ولم يستخدم الذهب أو الفضة حيث وجدا لغرض التعامل ، بل استعملا فقط فى الفنون . ومن المحتمل أن أقرب شىء إلى العملة المتداولة كان استخدام حبوب الكاكاو فى المكسيك كمعيار للقيمة . وفى بعض الأقاليم كان هناك تبادل كثير بين بعض القبائل

وبعضها للسلع التى كانت ضرورية لحياة المجتمع التقليدية كالملح وحجر السبج ورياش الزينة وسم السهام . ووجد الإسبانيون فى عاصمة الأزاتقة أسواقاً عامة أدهشهم فيها تنوع البضائع وعمليات جيدة التنظيم فى البيع والشراء ، وكانت على درجة من النظافة قد تفوق نظافة الأسواق الحالية فى مدينة المكسيك إذا قورنت بها . وكانت جموع الشعوب المتمدنة مزارعين ، وكان اقتصادهم مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأرض ، حتى إنه اتخذ فى أكثر الأوقات صفة دينية أو ثقافية كما كانت الحال فى شعوب الإنكا فى الأنديز . فهنا وجدت دولة وراثية تعنى بالمشكلات الاقتصادية التى كانت تهم المجتمع الأكبر كتخزين مواد الطعام ضد إمكان حدوث المجاعات ، وموازنة المحصولات ضد احتمال حدوث قحط أو كارثة طبيعية أخرى فى مختلف أقاليم الإمبراطورية . وكانت الزراعة متأصلة إلى درجة كبيرة فى واقع البيئة العملى ، وعلى قدر ما كانت طرق فلاحة الأرض عند الهنود تبدو عتيقة للمزارع الذى يستخدم الطرق الآلية اليوم ، فقد أصبحت بصفة عامة عن طريق التجربة والخطأ الطويل ملائمة إلى درجة كبيرة للظروف الطبيعية التى كان الهندى يفلح فيها الأرض . وعلى سبيل المثال نجد المحراث الصلب الحديث قد يصبح كارثة إذا استخدم فى أنواع التربة الرقيقة الموجودة فى يوكاتان حيث غرس فلاح المايا الذرة وزرعها لألف سنة دون أداة أخرى غير عصا حادة الطرف(٢١) .

الثقافات الهندية

كان كل من الأزاتقة والمايا يستخدمون طريقة هيروغليفية من الكتابة ، ونظراً إلى أن مدنية الأزاتقة كانت قد بلغت أوج مجدها عند فتح الإسبانيين لبلادهم فقد كان من الممكن حل الرموز المكسيكية المنحوتة بدون عناء . ومن ناحية أخرى كانت ثقافة المايا فى ذلك الوقت قد وصلت

إلى درجة كبيرة من التدهور جعلت خلفاء أولئك الذين كسوا المعابد والأعمدة بالكتابة المنحوتة غير قادرين على قراءتها . وقليل من المخطوطات أو المجموعات الخطية التى كانت موجودة وقت وصول الإسبانيين هى فقط التى نجت من حمية التدمير التى اتصف بها الفاتحون الذين كانوا لا يرون فيها سوى أنها آثار من الوثنية . ولم يمض طلاب العلم قدما فى أية محاولة لتفسير كتابة المايا إلا فى القرن الحالى ، ولا تزال غالبية الحروف الهجائية غير مترجمة حتى الآن . وتتصل معظم النقوش التى أميط عنها اللثام بالمسائل الفلكية والطقوس ، ولذلك فهى تتسم بصفة التقويم الدينى ، وفيما عدا ذلك ، إذا استثنينا اختيارهم لتواريخ معينة تعد مفتاحا لمعرفة ماضيهم ، فإنهم لم يتركوا إلا ضوءا ضئيلا يوضح لنا التاريخ الغامض لهذا الشعب العجيب . فلم يطور الإنكا طريقة حقيقية للكتابة . ومع ذلك فبحلول اواخر القرن السادس عشر كانت قد تطورت طريقة العقد الحسابية البارعة التى سجلوا بها البيانات الإحصائية والتى أمكن بواسطتها توصيل أنواع أخرى من المعلومات ، ولو أن ذلك كان فى نطاق ضيق . وكانت طريقة العقد هذه عبارة عن خيط معقد فيه تختلف ألوان العقد وتنظيمها وعددها لكى تستخدم فى التعبير عن الحقائق الكمية . وعجب المؤرخون الإسبانيون الأوائل من مقدرة طريقة العقد هذه على تسجيل المدركات الأخرى غير العددية(٢٢). ولم يبتكر أى شعب من شعوب الهنود ألبتة أية طريقة تقترب من أبجدية صوتية .

أما الأعمال الفنية التى أنجزتها شعوب ما قبل الكشف الكولمبى فقد كانت عظيمة جداً ، وبدت من بعضها حاسة متطورة فائقة الجمال مصحوبة بمهارة فنية فى الإنجاز بوسائل مختلفة . وفى بعض الأحيان كانت الرقابة الدينية تؤدى إلى أسلوب تقليدى فى الفن كما هى الحال بين شعوب أخرى مثل

الإغريق البيزنطيين الذين سيطرت على ثقافتهم طبقة من الكهنة . فمثلا بين المايا نجد أن مثل هذه الرموز التى اكتسبت صبغة قانونية ، كالنمر الأمريكى والحية ، موجودة فى مظاهر الفن الذى يمارسونه ، ومن ناحية أخرى نجد كثيراً من الآنية الفخارية التى خلفتها شعوب الساحل البيروفى كالشيمو والنيازكا تبين أن لكل منها طابعها الخاص فى معالجة الأنماط والمناظر الشعبية .

وتشمل أشكال الفن الهندى الأوانى الفخارية والتصوير بالألوان والنحت وقطع الأحجار الثمينة ومصنوعات الذهب والفضة والرسم على الأقمشة والحفر على الخشب وتصفيف الأزهار والرياش(٢٣) . وهناك مجموعات ضخمة من هذه الكنوز محفوظة فى متاحف الآثار فى أمريكا اللاتينية ومتاحف الولايات المتحدة وأوروبا . وإلى عهد قريب كانت جمهوريات أمريكا اللاتينية لا تهتم إلا قليلا بتاريخها الهندى الماضى ، بل كانت تزدرى كنوزها الهندية كمخلفات بربرية . ولكن بازدياد تقدير الصفات الذاتية لهذه المخلفات والدور الذى تقوم به فى تطوير الثقافات القومية نجدها تعتز الآن اعتزازاً كبيراً بهذه المخلفات التى تركها فن ما قبل العصر الأوروبى ، وعادة ما تمنع خروجها من البلاد . وقد تدهور الإنتاج الفنى الهندى كثيراً منذ الفتح ، وبصفة خاصة منذ قدم الهندى مهارته فى زخرفة الكنائس فى المستعمرات . ويرجع هذا بدرجة كبيرة إلى فقدان اعتزازه بقومه والذى كان يلهم جهوده من قبل ، وإلى المحاباة التى كان يبديها سادته الإسبانيون والبرتغاليون نحو الفن الأوروبى ، وفى أيامنا هذه ، إلى منافسة السلع المصنوعة آليا . وقد نتج عن الثورة التى بدأت فى سنة ١٩١١ أن اعترف بفضل الهنود على الثقافة المكسيكية كما أحيا الفنانون والأنثروبولوجيون التعبير عن الحاسة الفنية الكامنة للشعب المكسيكى . وكما أن الإعجاب والاهتمام اللذين أبداهما طلبة العلم الأجانب كانا مسئولين

إلى حد كبير عن التحول فى وجهة نظر سكان أمريكا اللاتينية نحو الثروة الثقافية لخلفية تاريخهم الهندى ، فإن قلة من الأمريكيين ـ أمثال وليم سبراتلنج فى المكسيك وترومان بيلى فى بيرو ـ قد بذلوا جهداً كبيراً فى استرجاع النماذج الأصلية والمهارة الفنية القديمة فى تلك البلاد .

وبرعت شعوب المكسيك والمايا فى مضمار النحت ، ولو أن إقليم شافن فى الأنديز كان أيضا مركزاً للبراعة فى نحت الأحجار . وأكثر الأغراض التى كان يمارس فيها الفن هو الزخرفة المعمارية كالمشبكات الهندسية الرقيقة على جدران متلا وزخرفة أوشمال الوافرة والنقوش العربية الطراز فى شان شان ومعبر منحوت فى كوبان والرسوم المحفورة التى تشبه الكتابة المسمارية الأشورية عند معبر الشمس فى تياهواناكو . ومن بين الكنوز المحفورة الأخرى قرص حجرى محفور من جنوب شرقى المكسيك له شكل يشبه الصدفة المنقوشة لعملة قديمة استخدمت فى سيراكوس والنحوت المسرفة فى الإفراط على أعمدة كوبان وكيريجوا وحجر شباك بيدراس نجراس الفخم بصوره الثلاث عشرة .

وفى جهات كثيرة من العالم الجديد صنعت الأجناس الوطنية آنية فخارية لا حصر لتنوعها، وكثيرا ما اتسمت بالجمال الفائق والبراعة الفنية . فقد صاغ أصحاب الحرف من بينهم ، بأيديهم الحساسة دون استخدام عجلة الفخارى زهريات وقوارير وأدنانا وأشكالا صغيرة محفورة تمدنا بمعلومات كثيرة عن تاريخ حياة شعوبهم وتطلعهم إلى إشباع رغبتهم فى الجمال خارج واقع حياتهم اليومية . وقد بلغ هنود المكسيك والمايا وساحل بيرو الذروة فى فنون صناعة الفخار ممثلة فى الزهريات المزدانة بالصور التى خلفها المايا ، وآنية الفخار والأشكال الصغيرة التى تعكس حياة الشيمو العادية ، والزهريات الواضحة المتعددة الألوان التى خلفها النيانكا فى جنوب

بيرو ، وكثير من أوانى الموشيكا والشيمو الفخارية اصطبغت بالفكاهة فى معالجة وقائع الأمور الشخصية . وبلغ التصوير الهزلى كذلك مستوى رفيعا بين بعض شعوب المكسيك ، كما فى تمثال صغير لرجل ذى أبهة وحيثية من إقليم شياباس صنع كروى الشكل ، والأشكال الصغيرة التى خلفها التاراسكان فى المرتفعات الغربية .

وعلى الرغم من فقدان أحسن ما وصل إليه الإنكا من المصوغات الذهبية عندما صهر الفاتحون فدية أتاهوالبا وسلب كشكو وباشا كاماك ، أو ما اغتصبه « صيادو الكنوز » من المقابر طيلة أربعة قرون بعد ذلك ، فقد نجا من جشع وتخريب العصور المتأخرة القدر الكافى لقستبين منه مهارة التعدين وحاسة الجمال اللتان اتصفت بهما بعض الشعوب الهندية . ولقد أظهرت الكشوف المثيرة فى مقابر مونتى ألبان فى إقليم أواهاكا فى المكسيك فى وقتنا هذا مجموعة أسطورية الجمال من القلائد الذهبية واللوحات المصورة و « الميداليات » تعد نصراً للعمل الفنى الدقيق المعقد . وفى كشكو وجد الإسبانيون قرصا للشمس من الذهب مرصعا بأحجار الزمرد فى واجهة أحد أبنية الإنكا ، وفى ليلة الاحتفال التى تلت نهب عاصمة الإنكا قامر به جندى برمية من لعاب « زهر » النرد فخسره ، وكذا حدث للحدائق الذهبية التى تناثرت فيها دمى الحيوانات والأشجار والتى حدق النظر إليها رسول بشارو متعجبا مذهولا فى قصر من قصور الإنكا فى تمبيس ، كذلك اختفت لوحة كشكو الشمسية فى مصهر صائغ إسبانى . وقد بقيت ، ضمن كنوز أخرى ، سنبلة قمح ذهبية تتدلى منها أوراق هداب « شواشى » من خيوط فضية . ومن بين الصياغ الآخرين للذهب شعب الكمبايا فى كولومبيا وقبائل إقليمى الكوكلى والشيريكى فى البرزخ الذين صنعوا الزخارف البديعة ، كالحشرة الذهبية وبلورة الكوارتز ، والمدلاة الذهبية المطعمة بالزمرد فى صورة حيوان يشبه التنين والمحفوظة فى متحف جامعة فيلادلفيا

وقد مارس الفنانون الهنود العمل فى الذهب والفضة والنحاس وفى البرونز والسبائك الأخرى . وشملت العمليات التى استخدموها طريقة الصب بواسطة «الشمع المفقود» (*) والنقش بالبارز ، والطرق ، وكساء المعادن ، والطلاء بالذهب ، والحفر ، والتطعيم ، والتغليف .

وكان المايا متفوقين على سائر الشعوب الهندية فى فن النقش على الحجر خصوصا فى حفر حجر اليشم . أما الشعوب الأخرى التى برعت فى قطع الجواهر فهم المستك وقبائل أخرى مكسيكية مارسوا فنا جميلا فى البلورات الصخرية ، كما فى تلك القطع التى يمثلها تمثال «الرجل فى الحجرة» الموجود الآن بمتحف الإنسان فى باريس . وإن نقص الأدوات الصلبة القاطعة يجعل ما قام به الهنود من أعمال فى هذا المجال مثار مزيد من الإعجاب .

وكان النسيج البيروفى مرآة تنعكس عليها الغرائز الفنية التى اتصفت بها تلك الشعوب . وقد حفظ المناخ الجاف الذى يسود فى الأراضى الساحلية لحسن الحظ كثيراً من أنسجة عصر ما قبل الإسبانيين حتى وقتنا هذا ، وهى محفوظة الآن فى متاحف ليما . ونماذج الشيمو هذه ، وغيرها من المنسوجات ، تشمل الأقمشة المزركشة وحلل الحفلات والعبى والأثواب العادية كالبردة التى تتجلى فيها البراعة الفنية والدهشة والجمال الباهر فى التصميم واللون . ومنها أعمال التطريز والنسيج الحريرى المشجر ، وكذلك الأقمشة الرقيقة النسيج التى انفردت بإنتاجها الأنوال الهندية . وعلى الرغم من أنها كانت تعادل صناعة الشعب الساحلى فى بيرو فليس هناك أمثلة لنسيج مبكر للشعوب الجبلية فى بيرو أو لشعوب المكسيك وأمريكا الوسطى احتفظ به حتى هذا العصر .

ومن بين الأمثلة الأخرى للفن الهندى الجدران المنقوشة فى الغرفات

(*) Cire perdue

الداخلية لمعابد تيوتهوا كان وشيشن إتشا وموتى ألبان والمخطوطات المزدانة التي كانت تشبه الأصول المخطوطية المضيئة والحفر البديع فى الخشب أو فى أية مادة أخرى صالحة للحفر يمكن الحصول عليها ، يعبرون فيها عن دوافعهم الفنية ، وكانت لدى كثير من الشعوب الهندية موهبة غريزية للتعبير التصويرى . ومن المحتمل أن أول مثل « لتصوير الأخبار » الذى نعرفه اليوم كان الأشكال المعبرة التى رسمها الإسبانيون والتى حملها رسل مونتسوما معهم عند عودتهم بعد أول مقابلة مع الفاتحين .

وكانت الجماعة الهندية بصفة عامة نظاماً بشرياً دائب العمل بهدوء إلى درجة فائقة . وفى علاقات الناس الإنسانية بعضهم ببعض كان هناك كثير من الظرف والتقدير المتبادل . وكان الهنود يخفضون من أصواتهم ويتلفظون بالعبارات الرقيقة عند الحديث . وكان هناك قليل من الشجار أو العنف بين أفراد القبيلة . وهكذا فإن الأدب الفائق الذى يتصف به الشعب المكسيكى هو وراثة من الأدب الهندى على قدر ما هو وراثة من الأدب الإسبانى(٢٤) . وكان سلوك الناس محكوما بقواعد معينة يتعلمونها فى الصغر. وكان النظام القبلى صارما إلى درجة أن القليلين كانوا يجسرون على انتهاك العادات الرئيسية للجماعة . وكان دستور السلوك هذا يهتم بمراعاة الأولوية التقليدية لرجال الدين أو السلطة التى تمارس فى القبيلة ، وبمسئوليتهم الجماعية عن استمرار بقاء الجماعة وحمايتها من الأخطار التى تهددها سواء أكانت حقيقية أم خيالية ، وبالتعامل العادل فى حياة الجماعة اليومية . ونتج عن هذا أن الاحتكاكات التى تقتضيها الحياة تضاءلت إلى أقصى حد ، وارتقت عادة التعاون فى شتى مجالات النشاط التى كانت تمارسها القبيلة إلى درجة عالية . ولما كانوا على ما هم عليه مجردين من حاسة الملكية أو غرائز حب التملك لما للغير ، كان الهنود يشاركون بعضهم بعضا فى صيد البر والبحر بحرية وإيثار . وكان يعاون بعضهم بعضا ، كما يفعلون فى هذه الأيام ،

فى الاعتناء بالمحصولات أو أى عمل لا يستطيعه رجل بمفرده .

وفى المجتمعات الراقية كمجتمعات المايا والإنكا كان هناك قدر كبير من الأبهة والفخفخة المتعلقة بالعبادات وتمجيد الحكام ، وقدر كبير من الاحتفال الشعبي بمناسبة موسم المحصول والمراحل الأخرى فى نظام العمل الذى يسود مجتمعا زراعيا . فلما جاء الفتح اختفت مناسبات تلك المظاهر المؤثرة والاحتفالات ، وقلت تدريجيا مناسبات الترويح والمرح، وتضاءل بازدياد عبء السيطرة الأجنبية على كواهل الشعب . وكانت هذه الفجوة الروحية الشيء الذى أرادت الكنيسة ملء فراغه باحتفالات الدين الجديد ، وبالموسيقى، والمواكب،والتمثيليات الدينية ، والطقوس المهيبة التى تمارسها البلاد المسيحية التى تعتنق الكاثوليكية .

الفتح

كانت وطأة الفتح على الحضارات الهندية بمثابة كارثة . وقد استمرت بعض هذه الحضارات فترة من الوقت لكى تذبل تدريجيا فى جو النبيذ الإسبانى الذى تردت فيه . ولكن ثمارها لم تعد بعد نفس الثمار القديمة . وفى بعض الأحيان نجدها قد تقاصت واندثرت كلية بنقص التنشيط الذى جعلها من قبل ما كانت عليه . وفى أحيان أخرى كانت الثمار التى حملتها الكروم المولدة مرة المذاق ، كما كانت الحال بين شعوب الإنكا . واختفت بعض منها مع الجنس نفسه أمام أول دفع قام به الفاتحون ، كما حدث لحضارة التاينو فى الأنتيل ، والبعض منها ، كالتوبينامبا فى البرازيل ، أنقذت حضارتهم لفترة من الوقت بالهروب إلى الداخل البعيد⁽٢٥⁾ . وقاوم الأروكانيان بضراوة ونجاح ، لدرجة أنهم استطاعوا الاحتفاظ بنمطهم التقليدى لحياتهم القبلية . غير أن حضارة الأزاتقة القديمة لم تسترجع كيانها أبداً بسبب التحطيم المادى الذى قام به الفاتحون وبسبب الأوبئة المختلفة التى أتى بها

الإسبانيون . ولم يصمد سوى بقايا مهيضة الجناح لا روح فيها من شعب متباه ليعملوا كفلاحين للمنتصرين .

ولم تسعف الشجاعة اليائسة التى طالما أبداها الهنود شيئا أمام تفوق الإسبانيين الحربى ، لأن جحافلهم غير المنظمة كانت تقف أمام جندية اجتاح فرسانها شعوب أوروبا فى القرن السادس عشر . ولم يكن الأمر مجرد مسألة أسلحة متفوقة وقصص تروى عن الفرسان الإسبانيين ، أو حتى الصفات الحربية الفائقة التى تحلى بها مشاتهم ، ولكن يضاف إلى ذلك قادة رؤساء الفرق مثل كورتيس . فقد كانت جميع الظروف فيما عدا الناحية العددية ضـــد الهنود أما عدم التكافؤ فى الأعداد فلم يعن شيئا لأولئك الأبطال الذين زحفوا إلى تينوشتتلان وكاخامارکا(٢٦)

وقلما قام الهنود بتمرد على نير الحكم الإسبانى بعد الفتح الأول وبعضهم كالشيشيمك قاوموا مدة أطول من جيرانهم ، وبعضهم كالكاريب لم يكن بد من شن حرب دموية ضدهم فترة طويلة حتى خضعوا . وعندما وصل الإسبانيون إلى يوكاتان انسحبت قبائل الاتثا (*) نحو الجنوب إلى جزيرة فى بحيرة بيتين ، ولم يخرجوا منها متدفقين إلا بعد قرنين من الزمان . أما الشعوب التى قاومت الإسبانيين بعناد زائد ، كبعض القبائل المتوحشة فى مرتفعات كولومبيا ، فقد كان من الممكن إفناؤهم جزاء ما اقترفوه من متاعب . أما الشيرجوانو ، أبناء عمومة الجوارانى ، وهم الذين صدوا جيوش الإنكا وأبعدوهم عن الإقليم المنخفض إلى الشرق من إقليم كيناو فى بوليفيا ، فقد صدوا حملة يقودها نائب الملك العظيم توليدو وأرغموها على التقهقر نحو الهضبة ، ولكن لتخضعهم فيما بعد إرساليات الجزويت التبشيرية . وقاومت شعوب الأنديز مرتين فى ثورتين يائستين ضد القوة

(*) من شعب المايا

الإسبانية : المرة الأولى فى القرن السادس عشر فى وقت لم تكن حدة الفتح قد هدأت بعد ، ثم مرة أخرى فى القرن الثامن عشر عندما بدأ أفول إمبراطورية إسبانيا الاستعمارية . وفى كلتا الحالتين كان القائد سليل أسرة الإنكا — فى الأولى مانكوكاباك ، وفى الثانية توباك أمارو(٢٧). أما الهنود المتوحشون فى بمبا أرجنتينا فلم يتخلص منهم إلا بعد منتصف القرن الماضى. وبعد فترة طويلة من الإغارات والقتل والقتال لم يعط فيها فريق للآخر أية هوادة ، دفع بقايا هذا الشعب المقاوم إلى جنوب ريو نجرو بعد حملة قادها جنرال روكا ، وتركوا هناك للزمن والمجاعة تكفلان إفناءهم . ومن ذلك الوقت فقط أصبح النهوض بموارد البمبا فى سلام ممكنا .

والتفكير فى مصير إمكانيات هذه الحضارات البتراء ، إذا لم تكن قد استؤصلت بقسوة إبان تطورها ، موضوع عقيم ولكنه محير فلم يكن بها عالم الإنكا إلا مجرد ذكرى عندما جاء الإسبانيون . وإنه لمن المسائل المشكلة القول بأن عظمته كان يمكن أن تسترجع مجدها بعد طول الركود الذى خيم عليه بعد الإمبراطورية القـــديمة . أما بالنسبة إلى المايا فالشىء الكثير كان متوقفا على ما إذا كانوا قد أمكنهم حل مشكلة موارد الطعام التى يحتمل أن يكون نقصانها قد أدى إلى انهيار حضارتهم القائمة على الذرة . أما الأزاتقة فلم يكن عندهم متسع من الوقت لتجميع فتوحاتهم وتوحيدها . فقد كان الأمر كا لو أن كايوس ماريوس قد فشل فى إحلال الهزيمة بقبائل السمبرى قبل أن يتمكن الرومان من الخروج من شبه الجزيرة ليبدأوا فتوحاتهم الإمبراطورية . فشعب التاپوتك وغيره من الشعوب التى كانت تعيش على حافة ممتلكات الدولة الاتحادية فى اتجاهات مختلفة بقوا حيث هم لتتناقص أعدادهم قبل الوصول إلى الحدود الطبيعية فى عمليات التوسع . وفى أراضى دولة الأزاتقة كانت هناك بقاع مقلقة كدولة تلاشكالا الصغيرة المشاكسة. ومادامت دولة الأزاتقة تقوم إلى درجة زائدة على الخوف ،

فإن مطالب إله الحرب الدموية عندهم لم تكن لتوفق بين الشعوب الخاضعة لهم أو رعاياهم من الشعوب وتسمح بسلام دائم كانوا فى حاجة إليه . وعلى الرغم من تفوقهم من الناحية السياسية فربما لم يكن من المفروض أن فتح الأزاتقة للمكسيك ليس هو آخر موجات الفتوح التى شاهدتها تلك البلاد فى العصور الوسطى الأوروبية والسؤال الذى يدعو إلى مزيد من التحدى هو ماذا كان مصير إمبراطورية الإنكا إذا لم يأت الإسبانيون(٢٨) ؟ فقد كانت ، كدولة الأزاتقة ، لا تزال حديثة إذا أخذنا فى الاعتبار أعمار الأمم . فإلى موت هواينا كاپاك وتقسيم الإمبراطورية المشئوم كانت أمورها تساس بتعقل غير عادى ، وذكراها ذات احترام فائق لدى المتأملين من الإسبانيين(٢٩) . وعلى الرغم من أنها كانت تقيم فضائل الأمان أكثر من تقدمها الخاص فقد سارت شوطا بعيداً نحو حضارة نبيلة حقاً ، إذ كانت تتضمن تطلعاً كبيراً لإمكانات النمو ، ولا يستطيع المرء إلا أن يحس أنها ربما كانت على أبواب عهد ازدهار باهر . فاندثارها كان أكبر كارثة سببها الفتح الإسبانى . أما فيما يتعلق بالقبائل التى تقطن غابات العالم الجديد فقد كانت ثقافاتهم راكدة لفترة طويلة ، فعزلتهم وعدم اتصالهم بالحضارات العظمى ونمط حياتهم الاشتراكية ، مصبوبا فى قالب جامد من العادات ، جعلت التطلع إلى مستقبلهم مجرد امتداد لا نهاية له لماضيهم البدائى .

ومن جميع النواحى العملية تم الفتح قبل نهاية القرن السادس عشر بوقت طويل ، وسرعان ما اعترفت معظم الشعوب الوطنية بعدم جدوى الاستمرار فى المقاومة المسلحة . عندما اقتيد زعماؤهم أو أغروا للذهاب إلى معسكر الفاتحين بالزواج أو الإنعام بالألقاب ، وعندما ضربت الأماكن الحرام التى كانوا يتعبدون فيها فى غضبة المسيحية المدمرة ، أصبحوا شعبا مهيض الجناح ، ثم غمروا فى بحر من الجمود والحزن حتى استسلموا لمصيرهم كشعب خاضع . وتخلصت أعداد كبيرة من حياتهم مفضلين الانتحار على

المعيشة فى ظل سيطرة غريبة . وقلت أعداد الهنود تدريجيا واتخذوا موقف المقاومة السلبية التى أدت دورها فى حفظ آثار هامة من ثقافتهم وشخصية جنسهم بالذات إلى وقتنا هذا ، خصوصا فوق مرتفعات الأنديز فى بيرو .

وفى تلك الأثناء اضمحل السكان الأصليون جوهريا فى مساحات شاسعة(٣٠) . فقد قتلت أعداد كبيرة فى المذبحة التى جرت فى عاصمة الأزاتقة وفى حصار الهنود فى كشكو ، لأن خسائر الأهالى فى المواقع الحربية كانت دائماً متفاوتة . وقد استأصل اضطهاد المستعمرين الأوائل أمثال رولدان فعلا قبائل التاينو فى الأنتيل . وفى كل مكان حاول فيه الهنود استمرار المقاومة كما فعل الكاريب فى فنزويلا والقبائل المتوحشة فى وادى نهر كوكا فى كولومبيا لم يقابلهم الإسبانيون بأى قدر من الرحمة ، ولما رفض بعض القبائل الخضوع لهم أبادوهم فلم يبقوا منهم أحداً . ومع ذلك فليس هناك شك فى أن من ماتوا منهم بالجدرى وأمراض أخرى جاء بها الأوروبيون كانوا أكثر ممن ماتوا فى المواقع الحربية ، كما عملت المجاعة عملها فى الأقاليم التى اضطرب فيها الاقتصاد الزراعى للهنود من جراء ظلم الفاتحين . وفى بعض الأحيان تعمد الهنود رفض فلاحة الأرض حتى لا يستطيع الإسبانيون حصادها .

الاسبانى والهندى

أقام الإسبانيون فى وقت مبكر نمطا من استغلال الأراضى والمناجم مع الهنود كقوة عاملة اضطرارية . وكان هناك تنوع فى الطرق التنظيمية لاستخدام الأيدى العاملة الهندية . ففى بادىء الأمر ، وبترتيب بسيط يعرف « بالتوزيع الجديد » (*) يخصص عدد من الأهالى ليعملوا لإسبانى بالذات ، أو قد يحيد المستعمر عن رسميات أخرى فيجمع من الهنود فى

(*) Repartimiento

الأماكن المجاورة من هو فى حاجة إليهم لخدمته . وفى أسوأ الظروف ـ وكان هذا أمراً مألوفا بدرجة كافية ـ تمخض النظام عن رق مشروع . فأخذت أعداد جمة من الهنود كرقيق على طول الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية ونقلوا إلى سانتو دومنجو لسد العجز فى الأيدى العاملة المنهوكة فى هسبانيولا . وفى جنوب البرازيل كانت إغارات المولدين من البيض والهنود (*) لجلب الرقيق موردا عاديا للحصول على الهنود لفترة طويلة . وكانت المظالم الجائرة المترتبة على هذا النوع المفكك من الإجبار هو الذى أدى إلى ابتداع «وثيقة الأرض» (**) التى استمرت خطة لتنظيم العمال الزراعيين طوال عصر الاستعمار . واتخذت الوثيقة شكل منحة معلومة لقطعة من الأرض ومعها حق استخدام العمال الهنود الذين يقطنونها . وتلبية لالتماس من الكنيسة ، صدرت فى وقت مبكر مجموعة منمقة من القوانين لتأمين حقوق الأهالى . ومنحت الوثيقة للمستلم الأصلى مدة حياته فقط ، ولكن بعد ثورة جنثالو بثارو ، احتجاجا على ما يسمى القوانين الجديدة لحماية الهنود ، أخذ مفعولها يزداد إلى أن جاء الوقت وأصبح المنحدرون من الممنوح الأصلى يملكون الأرض ملكية فعلية . أما «قانون العمل» (***) الخاص بالهنود فطريقة ابتكرت خصيصا لتقدم موردا منتظما من العمال لاستغلال المناجم . وكانت نوعا من السخرة فيه تستدعى الجماعات من مركز معين للتعدين ، مثل بوتوسى لتسهم بتقديم الهنود للعمل فى المناجم . وحدد القانون المسافة التى يقطعونها من منازلهم إلى مكان العمل وفترة العقد وأحوال أخرى متعلقة بالخدمة .

وفى عصر نائب الملك المشهور فرانسسكو دى توليدو (١٥٦٩ – ٨١)،

(*) Mamelucos

(**) Encomienda

(***) Mita

الذى وضع النظام النهائى للحكم فى الممتلكات الإســـبانية ، تحدد مركز الهندى فى حياة بيرو الاجتماعية والاقتصادية طيلة الحكم الإسبانى . وكان توليد و إداريا كفئاً ، لـكنه كان فظا ، فرق الجماعات الهندية القديمة لـكى يركز سكانها فى أماكن حيث يمكن حكمهم بطريقة فعالة . وكان جهاز الإدارة فى أيدى ممثلى الملك (*) فى المدن ، وكانوا مسئولين مباشرة أمام نائب الملك .

وفى قانون المستعمرات الإسبانى «قوانين الهند الغربية» (**) يتبلور التشريع المحكم الرحيم الذى صيغ ليحمى الهندى من ظلم سادته الإسبانيين، إذ لم تبد دولة استعمارية أخرى قلقا نحو صالح رعاياها من الشعوب كما هو مدون فى هذا القانون المشهور. وكانت بعض القوانين عامة عند تطبيقها ، وبعضها كان يهدف إلى مساوىء معينة وضح أن الهنود قد تعرضوا لها ، فمثلا لم يكن الهنود ليجبروا على الحفر للعثور على كنوز فى مقابر أسلافهم ، أو على قص شعورهم قصيرة عند التعميد ، أو على حمل إسبانى فى شبكة نوم أو محفة إلا فى حالة «المرض الواضح» ، أو على نقل الجليد من الجبال إلى ليما . وأمرت المحاكم الشرعية والمدنية «ليحابوا ويساعدوا» الهنود فى القضاء . وهناك قانون ينص على أن «الجرائم التى ترتكب ضد الهنود تعاقب بقسوة أشد من الجرائم التى ترتكب ضد الإسبانيين»(٣١) . وهناك قانون آخر تكرر ست مرات بين ١٥٢٦ وسنة ١٥٤٨ ينص على أن «الهنود يجب أن يكونوا أحراراً ولا يكونوا عرضة للعبودية» .

وكان تنظيم العمل الذى يؤديه الأهالى الشغل الشاغل للحكومة الإسبانية . وفى هذه الناحية تتنازع الرأى الرسمى وجهتا نظر ، إحداهما

(*) Corregidor

(**) Laws of the Indies وهى متضمنة فى «قانون المستعمرات الإسبانى» الشهير

الرغبة فى حماية الهندى من الاستغلال والقسوة الواضحة ، ومن جهة أخرى كان الإسبانيون يدركون أنه إذا لم يعمل لهم الهنود فإن الامبراطورية الإسبانية كلها تصبح عالة ، وقد يكون من المستحسن أن ترد ثانية لأصحابها الأصليين . وحتى الموالون للهنود من الإسبانيين فى محاولتهم التوفيق بين هذين النقيضين أزعجهم إحجام الهندى الظاهرى عن إرهاق نفسه نظير ميزة مالية — أو ما أطلق عليه أحد القوانين : « إحجام الهندى عن العمل » . ونص قانون آخر على أن « الهنود عليهم أن يعملوا فى مهنهم وفى الحقول وحرف أخرى ، وعليهم أن يرتدوا الملابس » . ويمضى القانون فينص على أنه « عند الضرورة عليهم أن يجبروا على طرح الكسل مادام العمل ذا أهمية فى حياتهم وصحتهم والحفاظ عليهم » . ونص قانون آخر على « وجوب معاملة الهنود بالحسنى لدرجة تكون ذات طابع يجعلهم لا يتوقفون عن تأدية الخدمات والعمل » . وبعبارة أخرى وجب أن يعامل الهنود معاملة طيبة ولكن لا يدللون . ويضيف نفس القانون شرحا مؤداه أن « الهنود يلقون خسائر وأضرارا وظلما فى أشخاصهم وممتلكاتهم من بعض الإسبانيين وممثلى الملك والرهبان والقساوسة الذين يؤدى لهم الهنود كل أنواع العمل ، ولكن نظرا إلى أنهم أشخاص تعساء فإنهم لا يقاومون أو يدافعون عن أنفسهم ، ويقومون بأداء كل ما يطلب منهم من أعمال » واتخذت الاحتياطات الكثيرة لحماية كل أنواع العمل التى ينتظر من الهنود القيام بها ، سواء أكانت فى المناجم أم فى الحقول أم الخدمة الشخصية للإسبانيين . ولم يكن للهنود أن يعملوا فى مصانع النسيج التى كانت بمثابة « دكاكين الحلوى » فى ذلك الوقت ، أو فى حقول القصب التى كانت تعد من أعمال الزنوج . وبالنسبة إلى العمال الذين يأتون للعمل ويقطعون مسافة تصل إلى عشرة فراسخ(*) فإنهم يتناولون أجورهم أولا فأولا وكانت عادة تحميل الهنود

(*) ثلاثين ميلا .

مالا يطيقون من الأثقال يندد بهـا « كعائق لهدايتهم وتـكاثرهم وصحتهم » وصدر الأمر بمنعها . غير أن الهنـــدى كان من دواب الحمـل قبل مجىء الإسبانيين ، ولا يزال كـذلك فى بعض جهات أمريكا اللاتينية ولو أنه الآن سيد نفسه .

وهذه القوانين الخيرية الإنسانية كانت من إيحاء الـكنيسة خصوصا المذهب الدومنيكى الذى اتخذ فى وقت مبكر صفة حامى الهنود . وجاهد أتباع المذهب الفرنسسكانى والجمعيات التبشيرية الأخرى بشجاعة فى صف الهنود ، كما فعل الجزويت فى وقت لاحق . فلم يقتصروا على إنقاذ طبيعة الهندى الروحية من الحضيض الحقير الذى تردى فيه إثر الفتح ، بل أفسحوا له أبواب الراحة التى تهيئها له المسيحية إذا اعتنقها . ففى الفترة المبـكرة من حكومة نائب الملك المـكسيكية بنوا مدارس عظيمة يتعـــلم فيها ، وحموه بشجاعة من قسوة الحـكام أمثال نونيودى جوشمان ، كما فعل الأسقف ثومراجا ، وضد الشراهة والقسوة من جميع الطبقات المدنية الإسبانية . وكانوا يسيرون على انفراد بين القبائل الهمجية التى لم تـكن قد أخضعت ، وتعلموا لغات الهنود ، وكتبوا الرسائل العلمية عن تاريخهم وعاداتهم كما فعل الأب موتولينيا الفرنسسكانى والأب توركيمادا والأب ساهاجون . أما فاسكودى كيروجا ، أسقف مشوا كان ، ومن أتباع سير توماس مور ، فقد حاول تطبيق فلسفته الـكمالية فى خلق دولة هندية مثالية فى الأراضى الخاضعة لأسقفيته فى غربى المكسيك . أما الراهب الدومنيكانى المشهور بارتولومى دى لاس كاساس فقد أعطى فرصة لتطبيق آرائه الدينية والاجتماعية فى ولاية فيراپاث فى جواتيمالا حيث كان الهنود يحكمون دون وساطة السلطة المدنية وقد كان لاس كاساس هو صاحب الـكـتاب المثير الذى ترجم إلى معظم لغات غرب أوروبا والذى عليه تقع مسئولية « القصة السوداء » التى تحكى عن القسوة التى عامل بها الإسبانيون الهنود ، والتى لطخت اسم إسبانيا

إلى الآن بما حوته من مبالغات . وفى المحكمة الملكية فى الدومنيكان كان الهنود يجدون وكلاء يدافعون عن قضاياهم أمام الهيئات صاحبة الشأن . حقا لقد كان النصف الأول من القرن السادس عشر فترة مجيدة فى تاريخ الكنيسة .

أما بالنسبة إلى الجزويت ، الذين بدأوا نشاطهم فى ميدان التبشير فى وقت متأخر عن المذاهب القديمة ، فقد بلغت طريقة التبشير عندهم فى قيادة الهنود اجتماعيا ودينيا درجة الكمال . فقد أقامت الأخوة الدولية العظيمة سلسلة من الإرساليات كونت حلقاتها امبراطورية دينية فى قلب أمريكا الجنوبية . وتتابعت بعثات الجمعية ممتدة بعرض القارة من إقليم ما يناس الواقع فى حوض الأمزون الأعلى ، الذى كان مسرحا لنشاط الأب صمويل فرتث فسهول بنى حول ترنداد وإقليم الشيكيتو والنائى شرقى بوليفيا إلى باراجواى وأراضى المسيونى والشروا فى أرجنتينا على نهر بلات . ووصلت مجموعة مثلها من البعثات إلى الشمال الشرقى نحو المنطقة الساحلية للبرازيل . وعلى الرغم من أن الأسلوب الذى اتبع كان متشابها إلى حد كبير ، سواء أكان فى كاليفورنيا السفلى أم على ضفاف نهر أوروجواى ، فإن أحسن ما عرف عن هذه الجمعيات ما كان يطلق عليه اسم « التصفيات » الباراجوية ، فيجمع سكان منطقة معينة فى مقر البعثة حيث يصبحون رعايا نظام تثقيف خاص من نظم الآباء اليسوعيين . وهناك كان أفراد هذه التجمعات الأبوية الدينية يعوضون عما فقدوه فى حرية الحركة والتصرف التى كانوا يمارسونها من قبل بما كسبوه من الأمان وزخارف المعيشة الجديدة . وفى ظل توجيه القسيسين اللذين كانا يديران البعثة أقاموا الكنائس الكبيرة التى كانت مراكز لحياة المجتمع . وبالإضافة إلى التعاليم الدينية العادية تعلم الهنود مبادىء الموسيقى والرسم وحرفا يدوية معينة أظهروا فى جميعها استعدادا كبيرا حماسيا . وكان الرجال يقتطعون كثيرا

من وقتهم فى الحقل أو فى العناية بقطعان الحيوانات التى تمتلكها البعثة ، ولما كان الجزويت هم أحسن الزراع فى أمريكا اللاتينيـة فإن اهتمام الهنود كان يضمن لهم مورداً فياضاً من الطعام . وكان الفائض عن حاجات السكان الذين تضمهم البعثة ، أيا كان ، يباع فى أسونثيون أو بوينس أيريس ، ويشترى بالثمن الأدوات التى لا يمكن إنتاجها محليا وفى هذه الواحات الأركادية كان الهنود معزولين تماما عن المؤثرات الفاسدة التى يتصف بها الإسبانيون المدنيون ومغريات العالم الخارجى بوجه عام . ومع ذلك فعندما طردت جماعة يسوع من المستعمرات الإسبانية والبرتغالية فى سنة ١٧٦٧ ، وحولت البعثات إلى بعثات علمانية ، فقد الهنود قدرتهم على الإبداع وعجزوا عن مواءمة أنفسهم لأساليب حياه أسلافهم أو لأساليب حياة الإسبانيين الدنيويين الذين كانوا يعيشون فى البلاد والمدن . وعطل كثير مما قام به الجزويت من عمل فى سنوات الفوضى والتفكك هذه التى تلت خروج الآباء . ولكن دماثة مجتمع البعثات جعل من أفراد شعب الجوارانى فيما بعد رعايا طبيعيين لحكام جمهورية باراجواى المطلقين . ولذلك فقد بترت التجربة اليسوعية لتحويل شعب قبل أن يصبح من الممكن ملاحظة فرصها النهائية للنجاح . أما مجموعة البعثات الفرنسسكانية التى تركزت فى كاليفورنيا العليا فى أواخر القرن الثامن عشر فلم تضف شيئا إلى النمط الأصلى للطريقة التبشيرية التى طورها أسلافهم المنفيون فى الميدان .

وأكبر المساوىء التى عومل بها الهنود كانت تتصل بطريقة العمل الإجبارى « قانون العمل ». وعلى الرغم من أن طريقة مشابهة كانت سائدة فى إمبراطورية الإنكا ، وخصوصا فى إنشاءات المرافق العامة، فإن الرؤساء المنوط بهم العمل كانوا من نفس الجنس ، وكانت المصاعب الملازمة لهذا النوع من العمل يخفف من وطأتها اهتمام الإنكا الإنسانى بصالح رعاياهم ، أما تحت إدارة الإسبانيين فإن السيطرة التى تلازم العمل فى المناجم تؤدى

بطبيعة الحال إلى مساوىء كبيرة، نظرا إلى الدافع الأساسى فى الصناعة ، وإلى الظروف الصعبة التى كانت لا تنفصل عن العمل فى المناجم . ولما كان الهنود يتجمعون غالبا من مسافة بعيدة، فإنهم كانوا يستبقون فى المناجم بعد فترة العمل المقررة بالقانون ، ويطلق سراحهم وصحتهم مضعضعة ، وبعد أن يكون فصل الزراعة قد انقضى لغرس محصولاتهم فى الحقول التى جلبوا منها . وكانوا يجبرون على حمل أثقال كبيرة من الخام من قاع المنجم إلى مراق شديد الانحدار ويعملون طول اليوم فى دهاليز ضيقة فاسدة الهواء غالبا ما كانت تنسد عليهم للنقص فى عملية صلب الطبقات جيدا بالأخشاب . وفى بعض الأحيان كان يغلق عليهم فى داخل المناجم طيلة الأسبوع ويسمح لهم فقط بالخروج يوم الأحد لحضور القداس فى كنيسة قريبة(٣٢). وفى مناجم الزئبق فى هوانكا فليكا فى بيرو بنيت كنيسة فى داخل المنجم ، فلم يكن من الضرورى التوجه بعيداً لترضية الروح فى الصلاة المقدسة . وعادة ما كانت ظروف العمل فى مصانع النسيج على نفس الدرجة من السوء ، فقد كان من المألوف فى هذه الصناعة أن يحتجز العمال دون أجل محدود ، وكانت زوجاتهم يأتين لهم الطعام كل يوم إلى مقر احتجازهم .

وتخلصت طريقة « الوثيقة » من أسوأ الأخطاء التى كانت ملازمة « لقانون العمل » . فكان الهندى يعمل على الأرض وتناط به الواجبات التى كانت مألوفة لديه دائما . وفى المساء كان يمكنه العودة إلى أسرته ، وفى ساعات فراغه كان يمكنه الاجتماع بزملائه لممارسة العلاقات العادية . وفيما دون ذلك كان مصيره متوقفا إلى حد كبير على سلوك المالك « صاحب الوثيقة »(*) الذى يمتلكه ، وعلى ما إذا كان هذا الشخص يعيش على

(*) encomendero

الأرض الموثقة أو يترك إدارتها إلى الخولى(*) . فقد ظهرت مساوىء الملكية التى يغيب عنها صاحبها مبكرة فى العالم الجديد حيث تزايد استسلام ملاك الأراضى إلى مباهج الحياة فى المدن ، لأن الحياة المدنية أصبحت أكثر جاذبية . وفى مثل هذه الأحوال كان الهنود أكثر تعرضاً لأن يعانوا أشد العناء من قسوة المراقبين المولدين الذين كثيراً جداً ما كانوا يصبون جام فشلهم الاجتماعى على رؤوس بنى جنسهم من أمهاتهم . وكان صاحب الأرض الإسبانى بصفة عامة سيدا يتصف بالإنسانية والإنصاف (٣٣) . وفى أسوأ الظروف يمكن القول إن قلقه على مصالح أجرائه الهنود ، كموجودات عظيمة لها قيمتها ، كان إجراء تمليه المصلحة الأنانية . وكان للطريقة التى يمثلها إمكانات عظيمة للخير ، ربما كانت عاملا على استبقاء بعض القيم الرئيسية لمدينة الإنكا التى كان قد كتب عليها الضياع إلى غير رجعة بعد عصر توليدو ، أو على الأقل ، ربما كانت تنزع إلى الاحتفاظ بكثير من الأسس المتينة للمجتمع الهندى فى وجه العوامل التى مزقته فى عصر النظام الاستعمارى . غير أن حكومة الامبراطورية الإسبانية لم تسمح أبداً لنظام الوثيقة أن ينمى إمكاناته الطبيعية كقوة محافظة فى الحياة فى ظل الاستعمار حتى أصبح الوقت متأخراً إلى درجة زائدة . ولم يكن يسمح لمالك الأرض أن يشعر بالأمان بدرجة كافية تجعله ينفرد بشخصيته فى أراضيه وبين أتباعه ، كما كان يرتضى أن يفعل عدد كبير من طبقته دون شك . ولم يكن أبداً واثقاً من أن اليوم قد يجىء دون أن يلغى الملك حقه فى امتلاك أراضيه خوفا من أن ســادة الأراضى قد يكون لهم فى المستعمرات مصلحة مقررة قوية ومدبرة ، أو نظراً إلى اعتبارات إنسانية غير موجهة توجيها سليما .

---

major — domo (*)

وكثير من مساوىء النظام الاستعمارى الإسبانى ، كما قاسى منها الهنود ، كانت نتيجة جشع ممثلى الملك الذين كانوا نوابا للتاج فى المدن . فبالإضافة إلى سلطاتهم البوليسية التى جعلتهم مسئولين عن حفظ النظام فى هذه المراكز التى كان يكثر فيها الشغب ، كان عليهم واجب تنفيذ القوانين الخاصة التى كانت تطبق على السكان الوطنيين . وهذا الامتياز كان سببا فى استصدار لائحة قانون العمل والعمال الهنود عامة . وتواطئوا مع أصحاب المناجم وأفراد آخرين من الأقلية الحاكمة وكثيراً ما كان ممثل الملك يتجاوز عن انتهاكات قانون الهنود لمصلحته المالية الخاصة . وتحت ستار معين أو آخر قد يفرض الأموال على أولئك الذين قدم لهم العمال الهنود أو على الهنود أنفسهم . وفى بعض الأحيان كان يقوم بعملية تجارية لنفسه ويجبر الهنود على شراء سلع من عنده ليسوا فى حاجة إليها ، أو سلع لا يستطيعون دفع أثمانها من كفاف أجورهم . أما القضاة الهنود(*) ، وقد تخلصوا من الخضوع لنظام حكامهم السابقين وأبدوا حماسة للتزلف للموظفين الملكيين ، فكثيراً ما اقترفوا مظالم صغيرة نحو بنى جلدتهم .

وعلى العكس ، فإن « القصة السوداء » ، وهى السجل الذى يحكى عن المعاملة التى كان يلقاها الهنود على أيدى الإسبانيين والبرتغاليين ، ترجح كفة هؤلاء إذا قورنت بمعاملة الإنجليز والأمريكيين ، فمن ناحية الكم كانت المشكلة مختلفة ، لأن عدد السكان الهنود فيما هو الآن أمريكا اللاتينية كان أكبر بكثير منه فى أراضى الولايات المتحدة الحالية ، ولذلك كان الهندى يمثل للفاتحين والمستعمرين الإسبانيين مشكلة أصعب بكثير نسبيا من المشكلة التى كان يمثلها للمستعمرين الإنجليز فى أمريكا الشمالية . فعندما كان يموت الهنود من سوء المعاملة التى كانوا يلقونها من الإسبانيين

(*) Curacas

كان العدد أكبر ، ولذلك فمن الناحية الإحصائية ، كان سجل قسوة الإسبانيين أكثر سواداً ، كما هو الشأن فى موت ألف من الناس ، فإنه يحتل عناوين أكبر ويحتل مكانا أهم فى الصحيفة من موت مائة . وفضلا عن ذلك لم يوجد لاس كاساس انجليزى يكتب بخياله تقريراً عن « تدمير الهنود » فى ولايات أمريكا الثلاث عشرة .

وكان الهنود الذين لقيهم الإنجليز « متبربرين » ، وهذه هى الصفة التى ألصقها الإسبانيون بالهنود الذين كانوا على مستوى مشابه من الثقافة . فعلى خلاف السكان الوطنيين المتمدنين فى المكسيك وبيرو لم يثيروا اهتمام الإنجليز وهم ماضون فى خططهم الاستعمارية وتنمية الأراضى الواقعة بين شاطىء الأطلنطى ومرتفعات الأبلاش . فقد كان المستعمر الشمالى لا يتطلع إلى أية مساعدة من الهندى لأنه كان على استعداد للعمل بيديه لا بيد غيره . أما المستعمرون الأكثر أرستقراطية إلى الجنوب من نهر بوتوماك فقد وجدوا فى العبد الزنجى القوة العاملة التى كانوا يحتاجون إليها فى مزارعهم . وكما حدث بالنسبة إلى سكان البمبا فى سهول أرجنتينا وهنود كولومبيا(*) كانت قبائل الايروكوا والديلاوير مجرد عقبات فى سبيل الرجل الأبيض ، وكانوا يعاملون على هذا الأساس . وفى مثل هذه الأحوال كانت الوسائل المستخدمة مشابهة تماما : تدمير الملجأ الأخير لشعب الملك فيليب فى وادى كنكتيكت بالحديد والنار والتدمير الفعلى للشعوب الستة فى وادى موهوك . وإذا استثنينا بضعة أفراد مثل صاحب الغبطة جون اليوت وروجر ولياسز ووليم بن لم يجد الهنود أصدقاء أو مدافعين عنهم بين المستعمرين الإنجليز ، ولا توجد مجموعة تشريع رحيمة فى التشريع الاستعمارى الإنجليزى كما هو موجود فى قانون المستعمرات الإسبانى .

(*) Pijaos

ولم يتحسن مصير الهندى بعد الاستقلال . فقد نزح إلى ما وراء مرتفعات أليجانى ، وترتب على ذلك أن ازداد مجال التوسع ، وأسرع الهندى إلى التردى ، وبقيت الوسائل والغايات كما هى . فقد ساق جنرال وين « أنتونى المجنون » الهنود منهوكين وطردهم من أراضى نهر أوهيو . ومن هناك استمرت عملية المطاردة إلى الجنوب نحو الخليج وإلى الغرب نحو جبال روكى دون انقطاع إلى نهايتها حتى حبس الباقون من الجنس فى معسكرات الاعتقال المبجلة التى يسمونها متحفظات . وجزء كبير جدا من القصة عبارة عن إغارات ، وحروب ، ومعاهدات مبتورة ، وممارسة القسوة والغدر والجشع ، مختلطة بفورات النزعة الإنسانية . فقد كان الهندى عقبة فى طريق الرائد ومن جاءوا بعده ، ولذلك فقد لزم إبعاده . أما عبارة « الرجل الأحمر النبيل » ، وهى الخرافة العاطفية التى ابتدعها كوبر وغيره كما ابتدعها جوسيه دى ألنكار فى البرازيل ، فقد جاءت متأخرة كثيرا لكى تنقذ الهندى من مصيره المحتوم . لذلك لم يكن الإسبانى ليستطيع أن يقوم بالمهمة بإتقان أكثر مما قمنا به ، ويعبر أعضاء الطبقات الحاكمة اليوم فى جمهوريات أمريكا اللاتينية التى لا تزال أغلبية سكانها من الهنود عن حسدهم لنا على الختام الذى أنهينا به مشكلتنا « نحن » الهندية .

اختلاف الشعوب

جاء بعض الاختلاف نتيجة انتشار أكثر للتزاوج فى المستعمرات الإسبانية والبرتغالية. فقد نتج عن اختلاط الزواج على نطاق واسع خلق جنس جديد من المولدين(*) اختلط فيهم دم الهندى بدم الفاتحين . ولم يكن لدى الشعوب الإسبانية أى تعصب جنسى، كما أن قليلا من الفاتحين الأوائل

(*) mestizos

كانوا قد أحضروا نساءهم معهم وكان امتثال النساء الهنديات السهل ، وهن فخورات حتى باقتران وقتى مع سادتهن الجدد أو مستسلمات لمصيرهن كغنيمة من غنائم الفتح ، كافياً لإيجاد الظرف الضرورى لعملية التهجين . واستمر الاختلاط بسرعة أكبر ، وبدرجة أتم ، فى بعض الجهات عنها فى البعض الآخر ، خصوصا فى البرازيل وباراجواى . ففى جميع أنحاء البرازيل انطلق البرتغاليون دون ضابط تدفعهم الشهوة الجنسية ، وترتب على هذا الجنون الحيوانى إيجاد طبقة ضخمة من المولدين الذين يعرفون اليوم باسم الكابوكلو(*) . وفى إقليم ساوباولو كانوا هم طبقة المولدين الذين اتصفوا بالإقدام والذين استرقوا أبناء أخوالهم فى الإقليم الداخلى حتى حدود البعثات التبشيرية اليسوعية عند شلالات جوايرا (على نهر مانويل) على حدود باراجواى . وفى باراجواى نفسها انغمس الإسبانيون الذين اتبعوا مجرى النهر نحو الشمال من موقع بوينس أيريس المهجور مع نساء الجوارانى فى عيد المرافع الداعر ، مما بلور قالب الشعب فى باراجواى فى وقت مبكر . فإن باراجواى اليوم دولة من المولدين تتساوى فيها أهمية عناصر الثقافة الهندية ، بما فيها اللغة ، مع العناصر الموروثة من الثقافة الإسبانية ، بل تفوقها فى بعض النواحى . فقد كان التزاوج المختلط على نطاق كلى ، لأن كل إسبانى كان يحتفظ بحريم من المحظيات حول المستعمرة النامية كما نمت أسونثيون سريعا بالنسل من الأطفال المولدين الذين هم نتاج هذه الزيجات المتضاعفة . وعندما وصل هؤلاء الأطفال إلى سن الرجولة فاق عدد المولدين كثيرا عدد آبائهم المسنين . ونظراً إلى حيويتهم وتبرمهم فقد أعطوا للمستعمرة صيتها وسيطروا على حياتها الناشئة . وظلوا فترة من الوقت تتجاذبهم إسبانيا وأرض أمهاتهم من نساء الجوارانى ، لا لشىء إلا لترجح كفة تعلقهم ، مما أدى إلى الاحتفاظ بمستعمرة باراجواى ضمن

Caboclos (*)

الإمبراطورية الإسبانية ، ولكن على حساب حضارة كانت مولدة إلى درجة تامة كدرجة دمائهم . وأدى نشاطهم تحت قيادة زعماء إسبانيين أقوياء مثل مارتينيث دى إيرالا إلى أن يجدوا مخرجا مثمراً فى المشروعات الجريئة نحو الجنوب . فقد كان المولدون الصغار من اسونثيون هم الذين أسسوا سانتافى على نهر پارانا الأدنى ، وباندفاعهم مع مجرى النهر أعادوا بناء بوينس أيريس سنة ١٥٨٠ بزعامة هوان دى جاراى . وعندما أصبحت المستعمرة النامية مركزاً ثانويا للتوسع انتشر أبناؤها فى ارض الكوريتى على أحد جانبي النهر العظيم ، وغربا عبر شمال أرجنتينا ليقابلوا التيار الاستعمارى الذى انحدر جنوبا من بيرو ، وتحت قيادة انيوفيودى شافيس عبروا من نهر باراجواى الأعلى إلى سهول شرقى بوليفيا ليؤسسوا سانتا كروث دى لاسيرا . وفى وقت لاحق تحرك فريق من الإسبانيين المخاطرين والمولدين من باراجواى وبيرو وأراضى نهر بلات من الجنوب ومن تشيلى وولاية كويو فى الغرب إلى فيافى البمبا المكشوفة . وهنا ، بثورة من القسوة العارضة ، اغتصبوا نساء القبائل الهندية الذين قاوموا اعتداءاتهم بإصرار ، وخلفوا وراءهم سلالة الجوشو المشهورين ، الفرسان الذين طردوا الهنود نهائيا من سهول أرجنتينا . وحدث مثل ذلك فوق الأنديز فى وادى تشيلى وطول الحدود المضطربة لولاية أروكو . فهناك تسبب هذا الهياج البيولوجى فى خلق طبقة من الأشداء(*) هى التى كونت الأساس الشعبى لجنس قوى فى تشيلى .

وكانت المصاهرات بين الفاتحين الإسبانيين ونساء الطبقات الأرستقراطية من الأهالى مثلا لمستوى أعلى أمام الرتب الدنيا من الجنود الذين لم يأبهوا بالطموح ، ولو أنهم لم يكونوا أقل شهوانية . فكان لكل ضابط

(*) Roto

كبير(*) عشرات من « أميرات » الأزانقة والإنكا أصبحن محظيات أو زوجات شرعيات لقواد الفتح . وكان كثير من رفيقات الفاتحين هؤلاء نساء ذوات تربية مهذبة وعادات دمثة وأيضا جاذبية جسمية فائقة ، تؤهلهن للتقدم لأية طبقة من النبلاء . وكان تعلق بالبو بالابنة الخاصة لحاكم من حكام الهنود المحليين فى منطقة البرزخ هو الذى جعله يتردد أمام الزواج العرفى من ابنة عدوه بدرارياس دافيلا . وكان هذا أحد الأسباب التى أدت إلى مصيره المحتوم على يد حميه الافتراضى . وفى نفس المنطقة أنجب دييجو دى ألماجرو ، شريك بثارو ابنا شجاعا قاد حزب والده فى حروب بيرو الأهلية . وكان لفرانسسكو بثارو نفسه ، وهو الذى لم يتزوج أبداً ، لا فى بيرو ولا فى جزر الهند ، بضع بنات من نبيلات أسرة الإنكا اللائى كن لفترة محظياته وتزوجت إحداهن من هرناندو أخيه غير الشقيق (والشرعى الوحيد) وأصبحت سيدة عظيمة من سيدات إسبانيا .

وأشهر المولدين فى فترة الفتح هو جارسيلاسو إنكا دى لافيجا . وكان أبوه ، الذى انحدر من أسرة من ألمع الأسر فى إسبانيا ، أحد الفاتحين لبيرو . وكانت أمه أميرة من أميرات الإنكا وأصبحت محظية لأبيه جارسيلاسو دى لافيجا ، ولكنه هجرها عندما تقاعد وعاد إلى إسبانيا وتزوج امرأة من أسرة نبيلة إسبانية . نشأ جارسيلاسو الصغير فى منزل والده فى كشكو حيث عاشر مولدين آخرين وشبانا إسبانيين من أسر عريقة . واستاء من التحقير الذى كان يلحق بطبقته والذى كان قد بدا فعلا على شكل استعلاء جنسى ، وعد نفسه أقرب إلى أهالى بيرو منه إلى كونه إسبانيا ، ولو أنه قضى شطراً كبيراً من رجولته فى إسبانيا ومات هناك . وكتب فى « تعليقات الإنكا الملكية » قصة الشعب الذى انحدرت

(*) Pocahontas

منه أمه ، وكتب أيضا تاريخ الفتح الإسبانى لبلادها ، وهو عمل من المرجح أنه أدق مما كتبه وكسب شهرة أكثر .

وكما حدث فى بيرو انطلق فاتحو المكسيك يتخذون زوجات من نساء الأرستقراطية الأهلية، وعندما دخل كورتيس بجيشه الصغير بلاد حلفائهم من قبائل تلاسكالا مهرت المعاهدة بتقديم صبيات هنديات عريقات المحتد كمحظيات للضباط الإسبانيين . وفى وقت لاحق أصبحت أميرات الطبقة الحاكمة من الأزاتقة زوجات أو محظيات لبضعة من الفاتحين . فدونيا مارينا ، وهى سليلة أسرة محلية من أعيان منطقة البرزخ ، وخدمت كورتيس خدمة جليلة كمترجمة ومستشارة ، أنجبت من سيدها اللامع ابنا اسمه مارتن .

ولم يكن نظام المحظيات ظاهرة تنتهى بانتهاء فترة الفتح . فعلى الرغم من جهود الكنيسة والتاج لتهذيب عادات السكان الإسبانيين استمر شيوعه طيلة عهد الاستعمار ، مما أدى إلى تضاعف عدد السكان المولدين، وأضاف إلى تدهور العادات المرعية ، فقد استمر هذا النظام فى الواقع كظاهرة مسلم بها فى مجتمع أمريكا اللاتينية ، ولو أنه أحيط بنوع معين من العرف يقلل من آثاره على حياة الأسرة .

الهنود فى ظل الجمهوريات

كان لحركة الاستقلال فى المستعمرات الإسبانية والبرتغالية أثر ضئيل على أحوال الهنود (٣٤) . وإذا استثنينا ثورة الأب هيدالجو المشئومة فى المكسيك ، بقى الأهالى ، بصفة عامة ، متفرجين فى حروب التحرير التى اندلعت فى القارة . وإذا احتلت الجمهوريات مكان النظام الاستعمارى بإداراته المختلفة من القمع والحماية ، ترقب الهنود ببلادة مصيرهم تحت

الإدارة الجديدة . وفى ظل « الحكم الاستبدادى الرشيد » لشارل الثالث فى إسبانيا والماركيز بومبال فى البرتغال كان قد بدأ فى إدماج السكان الأصليين فى المجتمع المدنى . فحل المجتمع المدنى (*) محل البعثة التبشيرية خصوصاً فى جميع الأماكن التى أجبر فيها الجزويت على التخلى عن سلطانهم الدينى، ولو أن حياة جديدة بدأت تدب فى كل لحظة لتخلق نظاما تبشيريا بقدوم الفرنسسكان إلى كاليفورنيا . وقلما كان الانتقال بالنسبة إلى الهندى سببا يدعو إلى الرضاء فقد ذهب عنه ولى أمره الذى ألفه ليجد نفسه يتيما ، ليس إلا ، فى عالم غريب قدم إليه نزرا حقيقيا من التعويضات مقابل ماتخلى عنه ، وكثرت فيه المشكلات الجديدة التى لم يألفها من قبل حتى يوائم حياته فيه . فلم يكن على استعداد للحياة المدنية بالمعنى الأوربى .

نعم لقد ترك الهنود وشأنهم سنوات عدة بعد الاستقلال . وفى بعض الجهات أفادوا من الفوضى التى سادت تلك الفترة فاسترجعوا آثارا من ثقافة سلفهم ، ولكن ثبت أن مكاسبهم كانت تافهة وبنت يومها . لقد كان الوقت متأخرا لاسترجاع القوة الدافعة التى سبق أن فقدت عند الفتح فى القرن السادس عشر ، ولو أنهم استطاعوا بقوة الاستمرار وطول تمسكهم بعاداتهم أن يحتفظوا بما قد استبقوه طيلة عهد الاستعمار . لقد مرّ بهم قدر زائد من الأحداث لم يستطيعوا معه أن يرتقوا ماتقطع من الخيوط فى نسيج نمطهم الثقافى .

وفى الحقيقة كان على الهنود أن يدركوا أنهم قد استبدلوا مجموعة من السادة بمجموعة غيرها . فقد كان عليهم أن يبرهنوا أن لعملهم قيمة كبرى لدى ملاك الأرض ومديرى المناجم ورجال الصناعة والكبار من ملاك غابات المطاط ليتمكنوا من أن يسمح لهم بحل مشكلة إنقاذهم اقتصاديا واجتماعيا خارج جهاز الجمهوريات الحديث . وتراكمت المساوىء

Pueblo (*)

حينما جيء بالهندى إلى الميدان الاقتصادى الجديد . وكان الأرستقراطيون والرأسماليون المحليون عادة قساة القلوب فيما يتعلق بالهنود ، وكان رجال الدين ، حماتهم التقليديون، قد فقدوا تحمسهم التبشيرى والإنسانى القديم . وكثيراً ما أصبحوا مستغلين صغارا للهنود ، كما كان كثيرون غيرهم فى اواخر عهد الاستعمار . وفقدوا الفرصة لزعامة معنوية كان يمكن بواسطتها إنقاذ العناصر الأفضل من الثقافة الهندية كتماسك الأسرة . وفى وقت لاحق كان على القساوسة أن يظهروا من جديد فى طبيعتهم الأصلية عندما بدأت بعثات تبشيرية جديدة تخدم حاجات القبائل الغابية وتخلق منهم أبطالا يتحدون مستغليهم .

واختلف مصير الهنود فى الجمهوريات اختلافاً كثيراً ، ولو أن فرصة تحسينه ظلت فترة طويلة غير مواتية فى جميع الجهات . ففى أرجنتينا طرد « المتبربرون » من البمبا وتركوا ليهلكوا على حدود بتاجونيا الماحلة (٣٥) . وفى بعض الأحيان كان موت الباقين من الجنس يستحث بطرق شيطانية . أما فى الشمال فقد استغل آخرون فى حقول قصب السكر فى توكومان ، وفى الأراضى الجديدة في إقليم شاكو الأرجنتينى .

ولقد كان فى إقليم الأمزون بالذات أن بدىء فى استدعاء الهنود للدخول فى العصر الصناعى بمنتهى الغلظة . وتجمعت الظروف التى ساعدت على استغلال الهندى : ارتفاع ثمن المحصول ، النقص المتكرر فى الأيدى العاملة المتناوبة ، عزلة الإقليم ، قصر الإشراف من جانب الحكومة . ومن المحتمل أن هذه الاعتبارات كانت أسوأ بين قبائل الهيتوتو فى حوض نهر بوتومايو وبين قبائل الكامبا بين نهرى جاماري وهواياجا وعلى طول نهرى يوروس وأيونا وفى إقليم بنى فى بوليفيا ، أى فى أبعد أرجاء الأمزونيا ، حيث كان عدد الأهالى من السكان الهنود أكبر بكثير من عدد المولدين .

وبعد أن بدأ القرن العشرون اهتمت بعض الحكومات بحالة السكان

الأصليين . وكان الدافع فى بعض الأحيان إنسانيا خالصا، وهو الاعتراف المتأخر بمسئولية إسعاد جميع مواطنى الدولة . وفى بعض الأوقات كانت الرغبة فى إدماج الهندى بدرجة أكبر فى حياة الأمة الاقتصادية تستحث تطبيق هذه السياسة فتزداد الإفادة من قيمتهم الذاتية كقوة عامة وكمستهلكين للسلع . وتشتمل الدساتير الجديدة المتحررة على عبارات دينية خاصة بالهندى عادة ما كانت ذات علاقة ضئيلة بما هو واقع . فإن « أيام السكان الأصليين » التى أدت خدمات كلامية للأهالى الأصليين فى الجمهوريات تقابل بالارتياب الذى تستحقه . فحزب الأبرستا فى بيرو قد عظم اهتمامه الصادق بالهندى ، ولكن نزقه السياسى قد منع ترجمة مثله العليا إلى عمل .

وقد كان ضمن المبادىء الأساسية للثورة المكسيكية استرجاع مكان الهندى فى الحياة القومية ووضعه فى مكان يتناسب مع عدد الهنود وتراثه الثقافى العظيم . وقد قام بعض فلاسفة الثورة بالعمل والكتابة لصالح الهندى أمثال سوتو أى جاما ، ومانوبل جاميو ودكتور أتل علماء الآثار . ومع ذلك فمن جميع القواد والسياسيين الذين شاهدوا مسرح الحياة المكسيكية منذ سنة ١٩١١ نجد أن الشخص الوحيد الذى أظهر اهتماما زاد على مستوى عدم الاكتراث بمستقبل الهندى كان لاشاروكارديناس . وعلى الرغم من أن الكثير قد بذل لصالح الهندى باسترداد أراضى الجماعة وبالتعليم فإن الثورة أعطته أقل بكثير مما كانت قد وعدت به . فمن كلتا الوجهتين الجسمية والروحية لايزال بعيداً عن التيارات الرئيسية للحياة الأمريكية ، وغير واثق من المولدين منتهزى الفرص السهلى الانقياد الذين يحكمون الجمهورية .

وكان المناليون المكسيكيون مسئولين إلى حد كبير عن الحركة

« الهندية » (*) التى تشمل كل « البلاد الهندية » فى نصف الكرة . ولهذه الحركة أيضا أتباع كثيرون فى دول الأنديز مثل لويس فالكارسل فى بيرو. وقد أثبتت طقوس الأهالى هذه أنها أصبحت موضوعا مشتركا تتجمع حوله مظاهر نشاط المعهد الهندى للدول الأمريكية .

وهذه الجمعية ، ومقرها الرئيسى فى مدينة المكسيك ، هى جزء من الجهاز الرسمى لجميع دول الأمريكيتين، ولها برنامج متقن ، بعضه عملى جدا ، يستهدف تحسين مصير الهندى وتبجيل مكانته فى حياة الأمريكتين . ومن بضع سنين مضت أصدر مؤتمر « للهنود » مسودة ميثاق للهندى ، واجتمع المؤتمر فى مكان لائق جداً على شواطىء بحيرة باتشكوارو فى الدائرة الأسقفية للمطران المشهور فاسكو دى كيروجا الذى توقع أهم المواد التى جاءت فى البرنامج من أربعة قرون مضت ومن المرجح أن أكثر السياسات الهندية فطنة وإنسانية لأية حكومة وطنية هى سياسة البرازيل . فالإدارة الهندية البرازيلية(**) ليست فقط مرآة تنعكس عليها إنسانية الشعب العميقة ، بل تعكس بوضوح أكثر شخصية جنرال كانديدو ماريانودا سيلفا رندون الرجل العظيم الذى أسسها . الجنرال رندون ، يكاد يجرى فى جسمه جميعاً الدم الهندى ، وقد كشف الجهات التى تكسوها الادغال فى ماتو جروسو والأراضى الواقعة إلى الشمال من نهر الأمزون حيث كسب ثقة القبائل الغابية المتناثرة . وتضمن برنامجه حماية السكان الأصليين من الاستغلال وتحرش جامعى المطاط وتحسين الأحوال الصحية بينهم وإدماجهم إذا هم رغبوا ، لا لسبب آخر ، فى حياة الجمهورية . وقد عمل رندون ومن خلفوه فى الإدارة الهندية بصبر كثير وفهم للأمور ، وغالبا ما تعرضوا للاثارة القاسية من القبائل الأكثر ميلا إلى الحرب والريبة .

(*) Indianistas

(**) The Brazilian Indian Service

ولقد عقدت قبائل الشافانت ، وهى آخر القبائل التى قبلت عروض الإدارة الهندية ، أخيراً الصلح مع الحكومة البرازيلية .

ومهما تكن الوسائل التى تتخذ لحماية الهندى ومجتمعه البالى فإن الأيام والسنين التى سيحياها محدودة . فجميع القوى والتطورات التى تميز العالم الجديد تعمل ضد استمرار بقائه منعزلا ، وإن اندثاره كوحدة اجتماعية فريدة سيؤجل إلى أقصى مدة حيث لا يزال فى منعة من التأثيرات المباشرة الحديثة ، كما بين القبائل التى تقطن غابات حوض الأمزون ، أو حيث تكثر أعداده نسبيا كما فى دول الأنديز . غير أن يد الحكومة تمتد إلى أعماق الغابة وتمنحه الخيار ، مهما يكن برفق ، إما قبوله نمط المدنية الغالبة وإما اندثاره النهائى . وسوف يتفكك آخر معقل للهندى ، وهو عالم الانكا الخيالى بين مرتفعات الأنديز ، كما هو حادث الآن فى المكسيك(٣٦). والقوى التى تجعل مصيره النهائى محتوما ، على الرغم من القصور الذاتى لآلاف السنين ، هى المضى بعناد فى سير عملية التهجين ، والتغيرات التى تطرأ على الاقتصاد المحلى سواء طبقت طوعا من قبل الأهالى ، شعوراً منهم أن فى ذلك مصلحتهم مباشرة ، وإما إملاء من قبل سادتهم ، والتسرب الخفى للآراء عن طريق التعليم أو الاحتكاكات الشخصية أو مذياع الراديو فى ميادين القرى ، أو عن طريق زحف غواية العادات المنبثقة من المدن وتنتقل إلى الخارج ، إلى الجماعات الأكثر عزلة بشتى وسائل المواصلات الحديثة ، ويمضى الوقت واليأس بين شعوب فقدت الدافع العاطفى من أمد بعيد .

وهناك كثير من المثالية عند أولئك الذين يتزعمون قيادة العملية لكيلا تهدم أو تضار تلك القيم الهندية التى يجب الحفاظ عليها لزيادة ثروة المجتمع

الأكبر، ولكنهم قلما يشغلون مراكز القوة وهناك رجال «عمليون أكثر» قد يملون شروط التحول فى أثناء ما نكتسب سرعة التطور من القوة الدافعة. وفى عالم قد يقبل الهندى على قدم المساواة بالآخرين، على الهندى أن يبذل كثيرا من المهارة الكامنة والكد، ومن الإخلاص ومن تعلقه الشديد بالأرض، الأمر الذى يتطلب منه بالتأكيد اهتمامه القلبي.

هوامش الفصل الثانى

(١) عن علاقات كولمبس بالهنود انظر

Samuel Eliot Morison, "Admiral of the Ocean Sea : A Life of Christopher Columbus". (2 vols., Boston 1942), passim.

والفقرات المقتبسة هى من :

"The Spanish Letter of Columbus to Luis de Sant'Angel Escribano de Racion of the Kingdom of Aragon Dated 15 February, 1493" (Eng. tr. published by Bernard Quartich, London, 1893).

وأيضاً

"Christopher Columbus : being the Journals of his First and Third, and the Letters concerning his First and Last Voyages, to which is added the Account of his Second Voyage Written by Andreas Bernaldes (tr. and ed. by Cecil Jane, London, 1930)".

(٢) أهم مؤلف عن هنود أمريكا الجنوبية هو المجموعة الضخمة والعلمية

"Handbook of South American Indians (edited by Julian H. Steward and published by the Smithsonian Institution, Washington, D. C., in 6 volumes, 1946—1950).

(٣) عن حضارات الإنكا فى بيرو انظر

Philip Ainsworth Means, "Ancient Civilizations of the Andes" (New York, 1931).

ومع أن الدراسات الأركيولوجية الحديثة قدغيرت بعض النتائج التى توصل إليها Prescott فى كتابه "Conquest of Peru" فلا تزال الفصول الأولى من هذا الكتاب ودراسته المرافقة للمكسيك تثير اهتماما كبيراً بثقافة الأزاتقة والإنكا .

(٤) عن الأزاتقة انظر

George C. Vaillant, "Aztecs of Mexico" (Garden City, New York, 1941).

وقد كتب فيلانت عن الازدواج المتناقض فيما أسماه Alfonso Reyes العالم المكسيكى « ذلك الشعب الفنان والقاسى » .

"The Position of America and Other Essays".

وترجم عن الإسبانية ، نيويورك ، ١٩٥٠ ، ص ٥ :

« أصالة فى التفكير ، حرية فردية ، ثروات شخصية ، هذه لا توجد ، ولكن الناس كانوا يعيشون وفق قانون سرى مفعوله بنجاح وعلى الدوام عبر القرون . ولو أن فردا من الازانقة شاهد العزلة الواضحة فى حياة الفرد فى عالمنا الغربى لاعتراه الفزع » ص١٢٢ ، ولم يكن الأزانقة بأية حال متوحشين جبناء يرثى لحالهم . فقد عاشوا على أطعمة مختلفة ألوانها وشهية ، وسكنوا بيوتا مريحة جيدة التهوية . وشجعهم لباسهم على ممارسة الارتضاءات الزوجيه دون ارتباك مم ما يسببه الغرور من تعويض . ومكنتهم طريقة حياتهم من أن يفيدوا من استعداداتهم الشخصية واستبدال ما ينقصهم من أى شىء مما تنتجه أيديهم . فكانت الأدوات التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية وفى الحفلات يصنعونها بعناية الصانع الممتاز الذى يحب عمله . وفى الحقيقة قلما كانت هناك سلعة لم تكن تحمل طابع اللمسة التزيينية الصغيرة التى تجعل من الادوات العادية أشياء يسر المرء اقتناؤها » . ص ١٣٨ .

(٥) عن حضارة المايا انظر

Sylvanus G. Morley "The Ancient Maya" (Stanford University, Colifornia, 1946).

وبناء على آراء مورلى ، من الخطوات الخمس الأساسية فى ترقى الإنسان :

١ — السيطرة على النار .
٢ — كشف الزراعة .
٣ — استئناس الحيوانات .
٤ — الأدوات المعدنية .
٥ — كشف نظرية العجلة .

« كان المايا على علم بالخطوتين الأوليين فقط ونعموا باستخدامهما » . ص ٤٤٨ . « فعندما نحكم على إنجازاتهم الحضارية جملة فى ضوء (حدودهم الثقافية المعروفة) التى كانت تعادل إنجازات إنسان العصر الحجرى الحديث فى العالم القديم ، فقد نطمئن إذا نحن أشدنا بالمايا القدماء ، دون خوف من اعتراض لاحق ، فقلنا عنهم إنهم أذكى شعب بدائى عاش فوق هذا الكوكب » . المرجع نفسه ص ٤٥٥ . ومارس الإنكا جميع الخطوات ما عدا الخامسة . ويقول خورجى باسادر العالم البيروفى عن الإنكا : « لم تكن هناك حضارة فى التاريخ القديم بين أيديها مثل هذه الوسائل المحدودة » .

Jorge Basadre, "Peru . Problemas y Posibilidad (Lima, 1931), p. 16.

(٦) « توجد بالقرب من قرية كوبان بضعة أبنية كبيرة تاريخها موغل فى القدم ... ومن بين هذه الأطلال أشياء غير عادية وتثير العجب ... وتثبت هذه الأطلال ... أنه فى وقت من الأوقات كان يسكن هذه الأرجاء شعب على قدر عظيم من الذكاء والنشاط والقدرة . والمدن العظيمة التى محا معالمها مرور الزمن » .

Antonio Vazquez de Espinosa, "Compendium and Description of the West Indies (tr. from the Spanish, Washington, D. C., 1942).

وكان الأب فاسكيث فى أمريكا لوسطى فى أوائل القرن السابع عشر .

(٧) انظر

Lesley Byrd Simpson, "Many Mexicos" (New York, 1941), Capter II, "The Tyrant الطاغية" .

وأفاض همبولدت فى الكلام على الذرة فى المكسيك

"Political Essay on the Kingdom of New Spain" (tr. From the German, 4 vols., London, 1811), II, p. 307 ff.

وعن أهمية الذرة بين المايا : « من ٧٥ — ٨٥ ./' من كل شىء يأكله الشخص من المايا مكون من الذرة فى صورة أو فى أخرى — Morley, op. cit., p. 142 « أنا مقتنع بأن ٧٥./' كاملة من جميع أفكارهم لا تزال تدور حول نفس هذا النوع الهام من الحبوب » . ص ١٤١ .

وعن الذرة فى بيرو : « وظلت لذرة على الدوام بهجة الهنود » —

Jorge Juan y Santacilla and Antonio de Ulloa", A Voyage to S. America (tr. from the Spanish, 2 vols., London, 1806), I, 465.

(٨) فيما يتعلق بالضحايا البشرية التى تقدم لإله الحرب عند الأزانقة وأكل لحوم البشر اللازم لها انظر

Bernardino de Sahagùn, "Historia General de las Cosas de Kueva Espana (reprint, 5 vols., Mexico, D. F., 1938), I, 136 ff.

ويكتب الأب ساهاجون أيضاً عن العبيد الذين كانوا يباعون فى السوق فى أتسكابوتسالكو للأكل . قال إنهم كانوا يطهون مع الذرة ، ولكن بدون أن يتبلوا بأنواع الفلفل الأحمر — نفس المرجع ص ١٤١ . وعن الضحايا المقدمة لإله الحرب انظر

James George Frazer, "The Golden Bough" (abridged edition, New York, 1925), pp. 587—92. (قتل الاله فى المكسيك) .

وعن دوافع أكل لحوم البشر عند الازانقة : « قام تقدم المكسيك على نظام من الاغتصاب المستمر من دافعى الجزية الذين لا يحميهم شىء ، وعلى نظام من الحرب المستمرة تشن بلا رحمة ضد الشعوب المجاورة ، وغرضها الظاهرى هو الحصول على ضحايا يقدمون قربانا ، ولكن فى الحقيقة لتقديمهم كطعام من اللحم للطبقة الممتازة التى تخوض غمارها . وانتشرت هذه العادة الطقوسية لكى تضمن لهم ، بتصريح مقدس ودائم ، عيدا لأكل لحوم البشر يكاد لا ينقطع » .

E. J. Payne, Blanco Villalta, "Antrofagia Ritual Americana (Buenos Aires, 1948).

(٩) « وأشد أكلة لحوم البشر ضراوة أولئك الجدد الذين يعيشون على اللحم الآدمى ، قبائل الكاريب ، أو الكانيبال كما يسمون » :

Peter Martyr d'Anghiera, "De Orbe" (tr. from the Latin), I, 315.

« كانوا يقتلون كلا من الإسبانيين والهنود وجميع من يلتقون بهم فى طرقهم المتثنية ، لايبقون على مواطنيهم اذا استطاعوا بسهولة اللحاق بهم » .

John Hawkins, in Hakluyt, "Voyages" (Everyman Edition), VII, 24.

وفى سنة ١٥٧٨ و ١٥٨٠ عبر اللانوس « حشد من أكلة لحوم البشر » من الكاريب وغزوا إقليم فالنثيا فى مرتفعات فنثويلا الذى أجلاهم عنه نهائيا ضابط إسبانى مشهور اسمه جارسى جنثاليت .

Humboldt, "Viaje a las Regiones Equinocciales del Nuevo Continente", II, 353.

(١) كان لدى هانز ستادن الذى عد جزءا من احتياطى إمدادات اللحم عند الجماعة بوصفه أسيرا لإحدى قبائل التوبى فى البرازيل ، بطبيعة الحال ، شىء كثير يقوله عن ممارسة أكل لحوم الآدميين وقد شاهدها حوله فى كل مكان . وقد أدهشه عدم الاكتراث الذى كان الضحايا يقابلون به مصيرهم كما لو كانوا يخسرون فى لعبة من الألعاب . وكتب عن الاستعدادات التى كانت تتخذ لخنق أسير بالحبل يقول : وافق الرجل على أن كل شىء كان منظما إلا شيئاً واحداً فقط وهو أن الحبل كان قصيراً أكثر من اللازم ، فقد كان يحتاج الى ست قامات فى الطول ، وأضاف إنه بين شعبه ربما كان تدبير ذلك الأمر أفضل . وكان يتكلم ويتصرف كما لو كان ذاهبا الى حفلة مرح » .

"The True Story of the Captivity of Hans Straden 1557" (tr. from the German, New York, 1929), p. 92.

ويذكر كيف أنه فى ليلة من الليالى كان اثنان من المولدين يشويان فى المعسكر الذى كان ينزل فيه أسيرا وأطلق على أحد الضحيتين اسم « هيرونيموس » وكتب يقول : « وقد قضى هذا الرجل بطوله يشوى هيرونيموس فى مكن لا يكاد يبعد خطوة واحدة عن المكان الذى كنت أرقد فيه » — نفس المرجع ، ص ١٠٨ .

(١١) يخبرنا هيريرا عن قبيلة فى نيوجرانادا عادت من إغارة يحملون أطرافا لاثنين من جيرانهم . كتب يقول : « ونظراً الى نهمهم لم يكن هناك وئام بين الأب وابنه أو الأخ وأخيه » .

"Historia General" (5 vols,. Madrid, 1726—30), decada VI, libro 8, p. 172.

وإذا كان الأسرى نحافا أكثر من اللازم فقد جرت العادة أن يوضعوا فى أقفاص حيث يسمنون كما يقول أوفيدو « مثل الديكة المخصية فى أراندا دل دويرو » .

وعن فظاعة أكل لحوم الآدميين فى العـــالم الجديد لم يكتب فصل أكثر مقتا من قصـــة أوفيدو عن الإسبانيين فى حملة انييجو دى فاسكونيا فى فنثويلا ، وقد عكفوا على أكل لحم الآدميين على طريقة الهنود الذين كانوا يقاتلونهم .

"Historia General y Natural" (4 vols., Madrid, 1851—55), II, 289, 291.

(١٢) « لقد شاعت رذيلة شرب الخمر فى الهند الغربية » .

Herrera, op. cit., p. 172.

وعن هنود بيرو كتب الملازمان هيرندن وجبن يقولان : « إن شرب الشيشا (خمير الذرة) كان جزءاً من العبادة الفطرية عند السكان الأصليين . ولا شك فى أنهم كانوا يعتقدون مخلصين أنهم كلمـــا جلبوا على أنفسهم سعادة أكثر وهم يبتهلون وقاراً إلى خالق كافة الأشياء تزايد رضاؤه » .

"Exploration of the Valley of the Amazon" (2 vols., Washington, D. C., 1854), I, 166.

وكتب أولرخ شميدت عن الجوارانى يقول : « لا يعرفون من مظاهر البهجة سوى شن الحرب والسكر ليل نهار والرقص » .

" Viaje al Rio de la Plata" (tr. from the German, Buenos Áires, 1942), p. 97.

« اقترب المساء ونحن نهبط من الطرف الجاني للبركان ، وقابلنا بضع مئات من الهنود عائدين من احتفالات الأسبوع المقدس (كتسالتنانجو ، جواتيمالا) ، وكانوا يفوقون فى درجة السكر جميع الدرجات التى قابلناها حتى ذلك الوقت » .

John L. Stephens, "Incidents of Travel in Central America, Chiapas and Yucatan" (2 vols., New York, 1849), II, 219.

«يرى الهنود أنه لا توجد متعة تحت الشمس أنق ولا أكثر تمجيداً من السكر والكسل» .

F. Depons, "A Voyage to the Eastern Part of Terra Firma, or the Spanish Main, in South America, during the years 1801, 1802, 1803 and 1804" (tr. from the French, 3 vols., New York, 1806), I, 202.

وقالت مدام كالديرون دى لاباركا عن الهنود المكسيكيين : « إن الهنود إذا لم ينتهوا

غالبا بعراك مهلك فليس هناك شيء أكثر تسلية من مراقبتهم وهم مقبلون على درجة النشوة من تعاطي الخمر » .

"Life in Mexico During a Residence of Two Years in that Country" (Everyman Edition) p. 261.

وقد أعطانا الكولونيل مانسيا صورة واضحة عن حفلات السكر الهائلة التي كانت تقيمها قبائل الرانكيلي والتي كان يجبر فيها على مشاركتهم : « طالما كان هناك شيء يشرب فقد كانوا يتناولونه ، في ساعة ، في يوم ، في يومين ، أو شهرين » .

"Excursion a los Indios Ranqueles" (Buenos Aires 1942,) pp. 120, 134.

(١٣) هناك معروضات كثيرة للنسيج البيروفي القديم في متحف مجدلينا في ليما .

(١٤) تختلف الملاحظات حول طول أعمار الهنود اختلافا كثيرا . فيكتب الأب فاثكيث عن قبائل المايا يقول : « إن هنود هذه البلاد (يوكاتان) . . . يعيشون حتى يمتد بهم العمر ، وفي الحقيقة ، عند ما كشفها الإسبانيون ، وجدوا هناك كثيرين من المسنين ، ومن بينهم رجل بلغ سن الثلثماية ، كما تثبت ذلك سجلات الهنود ، وآخر عمره ١٤٠ عاما وكان نشيطا جداً » — المرجع نفسه ص ١٢١ . وبناء على رواية سلفاناس مورلي ، يموت ٧٠ ٪ من جميع أطفال المايا قبل أن يبلغوا الخامسة ، و٩٠ ٪ من جميع شعب المايا يموتون قبل الأربعين . ومع ذلك فالراشد من المايا قوي وشديد ولا يستسلم للمرض » .

"The Ancient Maya", op. cit., pp. 23—24.

وكتب وليم ستيفنسن عن الأحوال في بيرو يقول : « إن طول العمر ظاهرة شائعة بين هنود بيرو ، ولقد شاهدت دفن اثنين في قرية صغيرة أحدهما امتد به العمر إلى ١٢٧ عاما والآخر إلى سن ١٠٩ أعوام . ومع ذلك فكلاهما كان ينعم بصحة لم يشبها مرض حتى بضعة أيام قبل الوفاة . وعند فحص سجلات الأبروشية في برانكا وجدت أنه في سبع سنين دفن أحد عشر هنديا بلغ مجموع أعمارهم مجتمعين ١٢٠٧ أعوام » .

"A Historical and Descriptive Narrative of Twenty Years' Residence in South America" (3 vols., London, 1825) I., 405.

وقال أولرخ شميدل الجندي الألماني إن من بين قبائل السوروسوسي في باراجواي لم ير هنديا زاد عمره على ٤٠ أو ٥٠ عاما — نفس المرجع ، ص ٦٦ .

وكتب خوان وأيووا عن هنود الأنديز يقولان « أما الذين ينجون من هذه العلل (الجدري الخ) أو يشفون منها فيمتد بهم العمر طويلا ، وكلا الجنسين يقدمان أدلة كثيرة على طول الأعمار الفائق . وكنت أعرف شخصياً بضعة أناس في سن الماية كانوا لايزالون يحتفظون بشدتهم ونشاطهم » . نفس المرجع ، الجزء الأول ، ص ٤٢١ .

(١٥) قال الأب فاثكيث دي إسبينوسا إن الطرق العمومية المشهورة التي شقها الانكا

هوابنا كاباك ، الذى مات سنة ١٥٢٣ ، كانت أطلالا بعد قرن من وفاه . « وكانت هذه إنجازات جديرة بملك حكيم هام ، وربما كان من التعقل والحكمة لو أن عناية بذلت لصيانة الطرق ، فلقد كان ذلك مما يفيد منه الاسبانيون ، ولكن لما لم يكن أحد ينظر إلى ما دون مصلحته الخاصة إلى الصالح العام ، فكل شىء سائر إلى خراب » — نفس المرجع ، ص ٥٨٦ . ويقوم فكتور و . فون هاجن الآن (١٩٥٣) بمسح على الطبيعة « لطرق الانكا العمومية » .

(١٦) « لا أعتقد أن هناك شعبا ما أو أمة ما فى العالم تستطيع أن تحفر قنوات رى فوق أماكن وعرة وصلبة كما يفعل هؤلاء الهنود » .

Pedro de Cieza de Leon, "The Travels of Cieza de Leon, A. D. 1532—50" (tr. from the Spanish, London, 1864), pp 314, 319.

(١٧) طبقا لرواية جيوفانى جيميلى كاربرى الأقرباذينى الايطالى الذى طاف حول العالم والذى رأى أربعة من محاربى الشيشيمك عراة وموشمين فى قصر نائب الملك فى مدينة المكسيك «إنهم يرغبون فوق كل شىء فى قتل الإسبانين» .

Churchill, "A Collection of Voyages and Travels" (4 vols., London, 1704), IV, 545.

انظر :

Philip Wayne Powell, "Soldiers, Indians, and Silver : the Northward Advance of New Spain, 1550—1600" (Berkeley and Los Angeles, 1951).

(١٨) كان الأب أكوستا يسمى الأروكان « شعبا خشنا وصديقا للحرية » .

"The Natural and Moral History of the Indies (tr. from the Spanish, 2 vols., London, 1880), I, 170.

وكان المرشد البرتغالى لوبيس فاز ، وهو من بحارة فرانسس دريك يقول لرتشارد هاكلويت إن الأروكان «هم أشجع الشعوب وأشدها ضراوة فى جميع أرجاء أمريكا الجنوبية» .

"Voyages", VIII, 193 (Everyman Edition).

وقال فرانسس پرتى وكان واحدا من رجال كافندش فى رحلته حول العالم :

« هؤلاء الهنود يستقتلون إلى درجة فائقة ، ولا يبالون إذا هم هلكوا فى سبيل استقلالهم وحريتهم » . نفس المرجع ص ٢١٧ . « وليست الحرب عائقا أو خسارة تنتابهم ، بل إنهم يرونها فى الواقع حرفة محببة إليهم إلى درجة كبيرة » . خوان وأيووا ، المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٧٨.

وكتب كابتن ف . ب . هيد ، وهو مهندس مناجم بريطانى وكان فى أرجنتينا وتشيلى فى

العقد الثالث من القرن التاسع عشر عن هنود البمبا ، أبناء عمومة الأروكان يقول : « كانت حرفة حياتهم هى الحرب ، وكانوا يعدونها الوظيفة النبيلة ، ولا يفوقها شىء فى كونها طبيعية وبوصفهم شعبا حربيا فقد كانوا مثارا للاعجاب ، وأسلوبهم فى الحرب أنبل وأساس وأكمل فى طبيعته من أسلوب الحرب التى يشنها أى شعب آخر فى العالم » . F. B. Head

"Rough Notes Taken During Some Rapid Journeys Across the Pampas and Among the Andes" (London, 1826), pp. 121—33.

(١٩) عن الأزاتقة كتب الفاتح المجهول يقول : « إنهم يمتازون ببسالة حربية فائقة ، ويواجهون الموت بعزيمة لا تضارع » .

"Narrative of Some Things of New Spain and of the Great City of Temestitan, Mexico" (tr. from the Spanish, New York, 1917), p., 19.

(٢٠) طبقا لرواية جارسيلاسو دى لافيجا ، كانت القبائل التى يحاربها الإنكا كاباك يوبانكى « ترى أنه فى مرات كثيرة كان يستطيع أن يدمرهم ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل إنه عندما كان فى مقدوره أن يحاصرهم ويضيق عليهم ، فحينذاك قدم لهم الصلح فى اعتدال وحلم فائقين » .

"Comentarios Reales de los Incas" II., 29.

(٢١) « إن الطريقة الحديثة التى ينتج بها المايا الذرة هى نفس الطريقة التى اتبعت من ٣٠٠٠ سنة أو أكثر » .

مورلى ، المرجع المذكور ، ص ١٤١ .

(٢٢) انظر جارسيلاسو عما ذكره خاصا بحيرة الإسبانيين أمام النتائج التى توصل إليها الهنود بواسطة خيط العقد الحسابية .

"Historia General", I., 199.

وفى أوائل القرن التاسع عشر وجد وليم ستيفنسن عجوزا هنديا فى ربوعباق إكوادور « يستطيع أن ينظم العقد ويفسر معنى الخيط » . . المرجع المذكور ، الجزء الثانى، ص ٢٦٩ .

أنظر وصف أنطونيو دى لا كالاشا لخيط العقد الحسابية .

Antonio de la Calancha, "The Golden Land : An Anthology of Latin American Folklore in Literature" (New York, 1948), pp. 67—70.

(٢٣) يرتب مورلى الإنجازات الفنية والتكنولوجية التى كانت الشعوب الهندية يمارسونها على النحو الآتى : العمارة ، المايا — الخزف ، المايا أو الإنكا — التصوير ، المايا —

النسيج ، ببروق (الناشـكا) — نقش الاحجار الثمينة ، الأزاتقة — صناعة المادن ، الأزاتقة وشعوب أخرى فى المـكسيك الوسطى — الطرق العمومية الإنـكا — المرجع المذكور فى مواضع كثيرة .

(٢٤) «فى الخدمات التى يؤدونها وفى أحوال الناس، نجد أن طريقة حياتهم تـكاد تـكون هى نفسها السائدة فى إسبانيا ، وبنفس درجة التنسيق والنظام ، ولو أننا أخذنا فى الاعتبار أن هؤلاء الناس متبربرون وبعيدون عن معرفة الله والشعوب الآخرى المتمدنة فما يثير العجب أن ندرك ما توصلوا إليه فى جميع النواحى » .

"Letters of Cortes", I., 263.

راجع النصيحة التى أسداها والد من الأزاتقة إلى ولده فى :

Sahagun, op., cit., I., 529.

وكتب مايلز فيليبس وهو أحد رجال هوكنز عن الأزاتقة يقول : « وبين هؤلاء الهنود تعلمت لغتهم أو اللغه المـكسيكية إلى درجة الـكمال، وتعرفت على كثير منهم عن كثب فوجدت شعبا مؤدبا وودودا وحاذقا وعظيم الإدراك » .

Hakluyt, op., cit., VI., 323.

وكتب بدرو دى ماجاليس فى القرن السادس عشر عن المجاملة التى كان الهنود البرازيليون يعاملون بها الأفراد من نفس القبيلة يقول : « يعيش الجميـــع فى كل بيت فى توافق دون ما خلافات بينهم ، بل على العكس ، هم على وئام الواحد مع الآخر لدرجة أن ما يملـكه الفرد يعد ملـكا للجميع ، وإذا حصل المرء على شىء ليأكله مهما صغرت كميته فإن جميع جيرانه يشاركونه فيه » .

"The Histories of Brazil" (tr. from the Portuguese, New York, 1922), p. 87.

« يعامل الهنود بعضهم بعضا بأدب فائق » .

Herbert Corwin, "These are the Mexicans" (New York, 1947), p. 37.

(٢٥) قابل الأب كريستوبال دى أكونيا الذى هبط من إقليم كيتو إلى الأمزونيا فى سنة ١٦٣٩ التوبينامبا على الجزيرة الـكبيرة فى نهر ماديرا الأدنى والتى كانت ملجأهم الأخير .

"Descubrimiento del Amazonas" (reprint, Buenos Aires, 1942), p. 95.

(٢٦) كان الأب أكوستا يعتقد فى استحالة فتح المـكسيك وبيرو لو أن الهنود كانوا متحدين ويكتب عن مقاومة الهنود فيقول « لا تزال تشيلى صامدة . . . حيث لا يستطيع جنودنا الإسبانيون الاستيلاء على قدم واحدة من الأرض على الرغم من أنهم شنوا الحرب هناك مدة

تزيد على خمسة وعشرين عاما دون أن يدخروا وسعا ما . لأن هذا الشعب الهمجى بمجرد أن أصبح لا تفزعه الخيل ولا الرصاص وبعد أن عرف أن الإسبانيين يسقطون كما يسقط غيرهم من الناس برمية حجر أو مزراق أصبحوا يخاطرون بأنفسهم . . . فكم من سنين جند الإسبانيون الرجل فى إسبانيا الجديدة وأرسلوهم ليقاتلوا الشيشيميكو وهم عدد قليل من هنود عراة مسلحين فقط بالأقواس والسهام ؛ ومع ذلك فحتى اليوم لم يستطيعوا قهرهم . . . بل بالعكس ، إنهم يزدادون استقتالا وعزما ثابتا يوما بعد يوم . ولكن ماذا نقول عن الشونشو أو الشيريهوانو أو البلكوسونى وجميع شعوب الانديز الآخرين ؟ ألم تكن هناك كل خلاصة بيرو وقد أحضروا معهم تلك المؤن الضخمة والأسلحة والرجال كما رأينا ؟ (وقد صحب الأب أكوستا نائب الملك توليدو فى حملته النكباء ضد الشيريجوانو) . . . فماذا فعلوا ؟ . . . لقد عادوا تغمرهم السعادة إذ أنقذوا أنفسهم من الهلاك بعد أن فقدوا أمتعتهم . ولا يظنن أحد أنهم أناس تافهون ، فلو أن مونتسوما في المكسيك والإنكا فى بيرو كانا ثابتين فى مقاومة الإسبانيين وصدهم عن التوغل فى البلاد لتقدم كورتيس وبثارو قليلا بعد نزولهما إلى البر ، ولو أنهما كانا ضابطين فائقين » . المرجع المذكور ، جزء ٢ ، ص ٥٢٩ .

(٢٧) عن ثورة توباك أمارو انظر :

Vazquez de Espinosa, op. cit., p. 596.

(٢٨) انظر .

Arnold Toynbee, "The Study of History" (Abridged Edition), pp. 33, 271.

(٢٩) كتب سييثا دى ليون عن الإنكا يقول : « إنهم قاموا بإنجازات عظيمة وحكموا البلاد بحكمة بالغة حتى إن قليلا من الحكام فاقوهم فى ذلك المضمار . وكان ذكاؤهم مفرطاً وتعلموا دون أن تكون لهم أبجدية ، لأن الأبجدية لم تخترع من قبل فى الهند الغربية . وأدخلوا عادات حسنة فى جميع الأقاليم التى فتحوها ... وشغل تفكيرهم كثيرا خلود الروح وأسرار أخرى من أسرار الطبيعة . وآمنوا بأن هناك خالقا لجميع الأشياء .... وكانوا يتمتعون بفطنة زائدة ودهاء فى تحويل أعدائهم إلى أصدقاء دون اللجوء إلى الحرب . » — «Travels»,op.cit.p136

« ويبدو لى أن لدى شعوب قليلة فى العالم حكومة خيراً من حكومة الإنكا . Ibid., p. 220

وقال الأب فاثكيث دى إسبينوسا عن الإنكا : « إنهم كانوا ينظرون إلى شعوبهم بعين الاعتبار ، وكانت أوامرهم مطاعة ، ويحترمهم الناس ، بل إن أتباعهم جميعاً كانوا يعبدونهم » . op. cit., pp. 557.

وطبقا لرواية روجر مريمان ، « ربما لم يحدث فى أية جهة فى العالم أن عملت تجربة جماعية على نطاق واسع ، وأحرزت قسطاً أكبر من النجاح . وإنه من المحقق إلى درجة كبيرة أن توجد تجربة تنال مثل هذا القسط مستقبلا . » وهو يعزو نجاحها إلى الظروف الآتية : (١) كانت الحكومة حكومة استبدادية مطلقة ، (٢) باستثناء رجال العلم الذين كانوا فى خدمة الانكا ، أى الدولة كان هناك مستوى وحيد النسق من العلم والثقافة ، (٣) لم تكن هناك علاقات خارجية .

"The Rise of the Spanish Empire in the Old World and in the New" (4 vols., New York, 1918—34), III., 551.

وعن حنين الهنود إلى الوطن كتب هيرندن وجبن يقولان : « إن تذكر جنس الهنود الحالى ، والذى يجلب إلى نفوسهم الرضا ، للعطف والدماثة والإنسانية التى كان الحكام من الانكا يولونها أسلافهم ، كثيراً ما كان يقارن بالاستياء بصنوف البؤس والحرمان التى يرون أنهم ذاقوها من الحكومات المتعاقبة . » op. cit., I,77 .

(٣٠) كان الإسبانيون ، بصفة عامة ، يتحررون فى إيرادهم للاحصاءات ، كما فعل الأب لاس كاساس فى كتابه «Destruction of the Indies» . وطبقا لرواية أوفييدو اختفى أكثر من ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ هندى فى إقليم كاستيا دى أورو فى البرزخ بين سنة ١٥١٤ ، وسنة ١٥٤٢ .op. cit., III, P.125 وقال إنه بينما كان هناك على وجه الاحتمال مليون هندى فى الجزر إبان الكشف ، لم يزد الذين بقوا من السكان الأصليين فى سانتو دومنجو على خمسين . — Ibid., I,7I . لاحظ تعليقات سييثا دى ليون عن تناقص السكان فى أقاليم أمريكا الجنوبية : « هناك هنود قليلون فى تخوم بنا ، لأن جميعهم تقريبا قد أهلكتهم المعاملة السيئة التى لقوها من الإسبانيين والمرض » . "Travels", op. cit., p, 17 ، « فجميع هذه المروج والسهول (إقليم پويا يان) كانت عامرة بالسكان من قبل ... والآن يوجد هنود قليلون بسبب الحرب مع الإسبانيين وعادتهم فى أكل بعضهم بعضا ، وأيضا بسبب المجاعة الشديدة التى نجمت عن عدم زرعهم محصولاتهم مؤملين أنه بسبب عدم وجود الطعام فإن الإسبانيين ينزحون عن بلادهم » . Ibid., p. 109 . وعن ولاية شنشا فى بيرو : « كان الوادى عامراً بالسكان إلى درجة أن كثيراً من الإسبانيين يقولون ، عندما فتحها الماركيز ، إنها كانت تستوعب ٢٥ر٠٠٠ رجل . وأعتقد الآن أن بها ٥ر٠٠٠ أو أقل » . Ibid., p. 261 . « واكتظ الهنود فيما مضى فى ولاية أنداهوايلاس هذه ، ولكن الحروب قد أنقصت من أعدادهم كما أنقصت من عدد الهنود الآخرين فى هذه المملكة » . Ibid., p. 317 . انظر أيضاً سييثا "The War of Chupas", p. 339. .

« وأنا أعرف من تجاربى التى اكتسبتها خلال إقامتى الطويلة فى الهند الغربية أن كثيراً من أشد صنوف القسوة والإضرار قد لحق بالأهالى » . انظر ما قام به من دراسة .

Sherburne F. Cook and Lesley Byrd Simpson, "The Population of Central Mexico in the Sixteenth Century" (Berkeley and Los Angeles, 1948).

« وفى أقل من قرنين من الزمان نقص عدد السكان الهنود (فى إقليم الأنديز) إلى أكثر من النصف .

George Kubler, "Handbook of the South American Indian", op. cit., II, 337.

(٣١) طبقا لرواية هنرى هوكس ، أحد رجال جون هوكنز الذين تخلفوا فى فيرا كروث ، « كان للهنود حظوة كبيرة لدى قضاة البلاد ، وكانوا يسمون اليتامى . وإذا حدث وألحق أى

إسبانى بأحد منهم أذى أو سبب له إضراراً بأن يغتصب منه شيئا . . . أو ضرب أحداً منهم ... فإنه يعاقب بالمثل كما لو أن إسبانياً أساء إلى إسبانى » .

Hakluyt, op. cit., VI, 293.

(٣٢) انظر :

Vazquez de Espinosa op. cit., p. 624.

وطبقا لرواية الأب فاتـكيث كان لمناجم پوتوسى الحق فى استخدام ١٣٣٠٠ هندى يجمعهم الحاكم المحلى من جميع أرجاء الـكوياو ، « وبعد أن يتناول كل تعيينه ، فإنهم يصعدون التل ، كل إلى منجمه ، ويدخلون المناجم ويمكثون فيها من تلك الساعة حتى مساء السبت دون أن يخرجوا منها . وتحضر نساؤهم لهم الطعام .

(٣٣) اعتراف بأن ذوى السلطة قد « ارتـكبوا صنوفا من القسوة والإساءة نحو الهنود » فى أثناء الفتح . قال سييثا دى ليون : « كما لا أقرر أن جميع المسيحيين قد أساءوا معاملة الهنود ، لأنى شاهـــدت كثيراً من الرجال المعتدلين والذين يخافون الله يحسنون معاملتهم ويعالجونهم ويقصدونهم إذا مرضوا ويؤدون لهم خدمات خيرية » .

"Travels" op. cit., p. 12.

ولاحظ سييثا تحسنا كبيراً بعد أن خفت حدة الغزوات العنيفة التى صحبت الحروب الأهلية بين الفاتحين ووضحت آثار « القوانين الجديدة » . أذكر أنى عند ما كنت فى ولاية خوخا منذ بضع سنوات قال لى الهنود بامتنان كثير : « إنه لوقت سعيد كما كان أيام توباك إنـكا يوبانـكى ، وهو ملك من ملوك الأزمنة القديمة يحملون لذكراه الإجلال والتبجيل » . Ibid., p. 13. « إن حكومة هذه المملـكة فى هذه الأيام صالحة إلى درجة أن للهنود السيادة الـكاملة على سلعهم وأشخاصهم . وقد انتهى بمشيئة الله الظلم القديم والمعاملة السيئة اللذان كان يلقاهما الهنود » . Ibid., p. 425 . وعن الأحوال التى كانت سائدة فى حياة فرانسسكو بثارو انظر سييثا "The War of Las Salinas" p. 230 : « أنصف قليل من الـكتاب الأجانب الحـكومة الإسبانية بالدرجة التى تستأهلها على حسن معاملتها للهنود Op. cit., I,22.

(٣٤) كتب جون ستيفنز عن الإجراء الذى اتخذته الجمعية التأسيسية فى جواتيمالا يقول . « أقرت الجمعية وجوب تطبيق القاعدة (ضد الهنود) بالقوانين الإسبانية القديمة ، تلك القوانين الصارمة التى كانت أحد الأسباب القوية للثورة فى جميع البلاد الإسبانية . فقد كان هناك شىء مروع فى ذلك التشريع الرجعى » . op. cit., I, 302 . وطبقا لرواية مدام كالديرون دى لاباركا ، التى كانت زوجة أول سفير إسبانى فى المـكسيك والتى كانت فى تلك البلاد فى العقد السادس من القرن التاسع عشر : « حقاً لم يطرأ تحسن ملحوظ فى حالتها منذ الاستقلال . فهم لا يزالون كما كانوا تماما فقراء وجهلة وعلى نفس درجة الانحطاط التى كانوا عليها سنة ١٨٠٨ ، وإذا زرعوا قدراً صغيراً من الحبوب لحسابهم الخاص تفرض عليهم الضرائب بحيث تصبح الميزة كأنها لم تـكن » . Op. cit., p. 368 . وقال خوان بوتستا ألبردى

الفيلسوف السياسى فى الفترة الأولى من العهد الجمهورى : « نحن نتهمهم (الإسبانيين) بأنهم كانوا قساة نحو المتوحشين الهنود . فهل نحن أكثر إنسانية من الإسبانيين فى معاملتهم لمواطنينا الهنود الذين بقوا فى البلاد ؟ » ى

Wililam Rex Crawford, "A Century of Latin American Thought" (Cambridge, Mass., 1944), p. 24.

(٣٥) « بلغت الحرب درجة من الفظاعة لا يمكنها معها الاستمرار ، يقتل المسيحيون كل هندى ويرد الهنود على ذلك بالمثل ، يقتلون المسيحيين » .

Charles Darwin, "The Voyage of the Beagle" (reprint, New York, 1906), p. 98

وكان دارون فى أمريكا الجنوبية بين ١٨٣٢و١٨٣٥ قال إن الحرفة المفضلة لدى جنرال لوبيث فى ولاية سانتاق كانت تصيد الهنود . ومن مدة قصيرة سبقت قتل ٤٨ منهم وباع أطفالهم رقيقاً الواحد بثلاثة أو أربعة جنيهات Ibid., p. 111 .

(٣٦) يقوم قسم الأنثروبولوجيا فى جامعة كورنل بدراسة واسعة لهنود الكيشوا فى كاييخون دى هوايلاس فى بيرو ، والهدف هو تحديد مدى استطاعتهم التقدم . وقد أبدى الملازمان هيرندن وجبن ، اللذان أمضيا وقتا طويلا بين هنود أقطار الأنديز فى منتصف القرن الماضى . ملاحظات دقيقة بخصوص الهنود فى مختلف أرجاء اكوادور وبيرو وبوليفيا التى زاراها . ففى بعض الجهات علقا على سعادة الهنود الظاهرية واستطاعتهم جلب السرور لأنفسهم ، ولكن ذلك كان فى الأماكن التى كانوا فيها أكثر تحرراً من الاعتماد على مشيئة « الأوروبيين » . ومع ذلك فقد توصلا فى النهاية إلى أن الحضارة الهندية قد توقفت تماماً ولا تتطلع إلا إلى قليل من التقدم . إلا أنهما أعجبا أيما إعجاب بالفضائل الفطرية التى تحلى بها الهنود . « فهم يقولون الصدق ويتحلون بالأمانة ويحترمون بعضهم بعضا ولا يداهنون . فهناك يوجد العطف والأدب المنزهان عن الأغراض فى حالة نقية » . op cit., I, p. 83 .

أما بيتس ، الذى سجل تأملات شائقة عن الهنود والسلالات المختلطة فى وادى الآمزون ، فقال . « من المحتمل جداً أنه قبل امكان إصلاح الهنود بأعداد جمة يكونون قد انقرضوا كجنس ، غير أن هناك صعوبة أقل بخصوص المولدين الذين يبدون فى بعض الأحيان قدراً من الإقدام والتحرر حتى ولو كانت نسبة الدم الأبيض فيهم صغيرة » .

"The Naturalist on the Amazons (Everyman Edition), p. 278.

انظر بصفة خاصة ص ٢٦٠ عن أخلاق الهنود .

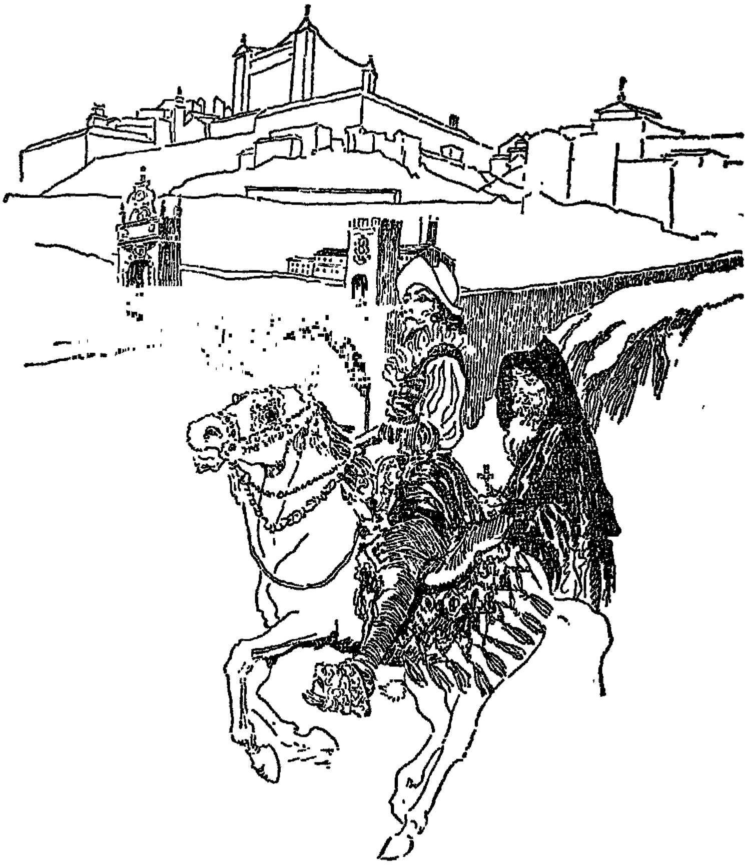

الفصل الثالث

الإسبان

ثمان عشرة من الجمهوريات العشرين فى أمريكا اللاتينية أمريكية — إسبانية . وهى جميعا تشغل ٥٧ ٪ تقريبا من مساحة أمريكا اللاتينية ، أو حوالى ٤،٤٠٠،٠٠٠ ميل مربع من الأرض ، وحوالى ٦٤ ٪ من مجموع السكان — ويبلغون حوالى ١٥٠،٠٠٠،٠٠٠(*) — هم ورثة لمدنية يمكن القول عنها إنها إسبانية ، أو قل أقرب إلى الإسبانية لا أبعد ، إذا استثنينا الدول التى يغلب فيها الهنود . فقد تركت إسبانيا سمتها على خريطة العالم

(*) تقدير سنة ١٩٦٥

الجديد من كوردوفا وفالديث فى ألاسكا إلى تيرا دل فويجو . وتركت سمتها عميقا فى عقول الناس وفى لغاتهم فى البلاد التى استعمرتها فترة طويلة من الزمن .

وعلى الرغم من انتماء الإسبانيين إلى أصول جنسية معقدة — مركب من جنس « ايبيرى » أصلى ، وإغريقى ، وفينيقى — قرطاجنى ، وروماني ، وعربى ، وألمانى ، وإفريقى شمالى ، وشوارد جنسية مثل الباسك(١) ، فقد بلغوا درجة فريدة فى كونهم قوما غير معقدين . ومن المرجح أن أخلاق جنس شبه الجزيرة الأصلى كانت متأصلة منذ أقدم العصور ، لدرجة أن موجات الفاتحين والمستعمرين لم تستطع أن تغيرها تغييرا جوهريا . لذلك ، فكما وصف كتاب العصور القديمة الكلاسيكية أمثال اصطرابون الإسبانيين ، نجدهم اليوم كما وصفهم إلى حد كبير . ولم يضف الوافدون بعد ذلك سوى تفصيلات ضئيلة إلى النمط العام الذى تبلور نهائيا منذ أمد بعيد . وإذا انتهى القتال وقبل الإسبانيون حكم روما لم يترتب على تكامل العناصر الإسبانية والرومانية أية مشكلات جدية . وبمرور الوقت أصبحت إسبانيا رومانية أكثر من إيطاليا، ذلك لأن الفريقين اشتركا فى كثير من الأمور، وعلى قدم المساواة عاشا متجانسين وباحترام متبادل . وفى وقت لاحق لقى التسرب الكثير من دم سكان شمال إفريقية فى الجنس الإسبانى الأصلى وسطا يرتاب فى تقبله وبدا كأنه يقاومه باللجوء إلى تمسكه بأجداده الأولين بيولوجيا .

وهناك قدر كبير من قوة الاستمرار والمتانة تتصف بها إسبانيا . ففى مدريد وبرشلونة تسببت الاحتكاكات العالمية فى تشذيب العادات المتبلورة القديمة قليلا ، وخضع الناس بعض الشىء خضوعا سطحيا للأساليب الغربية . ولكن فى المدن القديمة التى هى روح إسبانيا — أمثال أريفالو

وكوينكا ورونda(*) — استمرت الحياة من قرن إلى قرن بتغير قليل فى أساسياتها ، وعندما غامر برو وجاب إسبانيا فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لاحظ أن الناس والأشياء لابد انها كانت مشابهة إلى حد كبير لما كانت عليه لتسعة قرون خلت من قبل .

وأسهل على المرء أن يفهم الإسبانيين من أن يفهم ، على سبيل المثال ، الألمانيين ،أو فى هذا الصدد ، أن يفهمنا نحن الأمريكيين . وهذا بالنسبة إلى الشخص الذى يرضى قبول آراء الإسبانى الغريبة عن العقيدة ، أو الذى لا يحاول تطبيق معايير سلوكه على شعب له أسلوب نفسانى آخر ومجموعة مختلفة من القيم . فمن الواضح أن الإسبانيين قوم مخالفون لتعاليم الكنيسة وجانحون ، بحيث لا يتشجع الأجانب من أول وهلة أن يجهدوا أنفسهم فى تحليل النفس الإسبانية بالأسلوب المألوف لديهم ، بل يسلمون فقط « كمبدأ عام » بأنهم شعب غير منطقى وغير عادى . فليس هناك صفات مرضية ولا مقبولة فى الطبع الإسبانى ، بل هناك صفة واحدة تسيطر على كل شىء — وهى الفردية — فالإسبانى لا يتصرف مع نفسه لتحقيق أغراض متعارضة ، كما نميل نحن أن نفعل فإذا وضع فى مجموعة ظروف معلومة فمن الميسور التنبؤ باتجاه مسلكه ، فهو إسبانى تماما فى جوهره . ويستطيع المرء أن يتأكد أنه سوف تصدر عن ذلك « إسبانيات » — تلك الأشياء التى يمكن أن تحدث فى إسبانيا فقط — أشياء ذات صفة مميزة ، إذا تكلمنا عن صفات الشعب ، كالصينية أو الأيرلندية ، وكثيرا ما تكون غير مفهومة للأجنبى .

ومع ذلك فهناك كثير من الأمور المتضاربة المتناقضة حوله(٢) . فهناك انقسام الشخصية الأبدى بين دون كيخوت وسانشوبانثا ، أو الجمع المتباين ظاهريا فى نفس الشخصية ، الصفة العملية وغير العملية ، الواقعية

(*) ملجا (مالقا) .

والخيالية ، الحقيقية والمثالية فإذا لبس ثوب الكيخوتية فإن أية محاولة لتجعل من أفعال وردود أفعال الإسبانى ، شيئا معقولا ، يسهلها أن نفترض ، من أول وهلة أنها بالنسبة للأجنبى لا تحمل أى معنى مطلقا . فإذا سلمنا بهذا الافتراض الأساسى يتضح الباعث الذى يدفعه إلى سلوكه ، كما يتضح دائما الشىء غير المعقول . وهكذا بعد أن بدا لجنتالو خمينيث أنه حقق كل ما تمناه قلبه ، وبلغ من العمر ما يجعله يستقر ويستمتع بذلك ، غامر بكل شىء حققه بأن ذهب فى مطاردة طائشة إلى الفيافى بحثا عن مروج الذهب (الدورادو)(٣) . وفى فتح آشيلى تآمر بعض رجال فالدفيا لإرسال الذهب إلى بيرو مخالفين بذلك أوامره . فلما سمع عن خططهم واستولى على الذهب فى أثناء شحنه فى إحدى السفن اندفع أحد الجنود ، وكان موسيقيا كما كان مقاتلا ، فى نزوة من الكبرياء الهائج وحطم قيثارته الثمينة على جدار السفينة ، وعندما غزت الجيوش الفرنسية إسبانيا فى حروب شبه الجزيرة أرسل قاضى(*) أو عمدة موستوليس وهى قرية فى قشتالة، إلى نابليون بونابرت إعلان حرب خطيرا باسمه خاصة . وفى أثناء الثورات فى المكسيك لجأ أحد الجنود الصغار من فرقة مهزومة إلى إحدى الأشجار ، وكان الأعداء على وشك أن يرموه بالرصاص من محطه حين صاح قائلا : « أنا شاعر » ، وعند ذلك أمر ضابط الجماعة رجاله أن ينكسوا بندقياتهم . هؤلاء بضعة من سلالة إسبانيا الخالدة الذين تملكتهم الصورة الخيالية المحبوبة التى رسمها سرفانتيس . وينتهى بنا الحديث إلى أن نقرر أن الإسبانى يدرك أوهامه كأوهام ، ولكنه مع ذلك يعتز بها لأنها توحى إليه رؤيا الكمال التى لا يستطيع إدراكها . فهو يحلم وعيناه مفتوحتان ، فى حين تتشبث قدماه ثابتتين على الأرض .

(*) alcalde

ويمتاز الإسبانيون بدرجة فائقة بفضيلة « الأخلاق » ، فهم شعب قوى جدا وحى إلى درجة زائدة ، وتتملكهم حكمة عميقة بخصوص الحياة لم يستقوها من الكتب لأنهم شعب لا يقرأ ، ولكن استقوها من كونهم عاشوا زمنا مديدا للغاية ، ومليئا للغاية ، وقريبا للغاية ، من حقائق الوجود المادية .

وتتجلى فلسفة حياتهم الدنيوية والمادية فى مدخراتهم الزاخرة بالأمثال ، فكما تفوه سليمان الحكيم « بثلاثة آلاف مثل » فكذلك تعود الإسبانيون أن يتحادثوا بالأمثال . فالعبارات البسيطة كثيرا ما ترتجل بلغة تيسر إلقاؤها موزونة ، وتعكس تجاربهم اليومية مع الأشياء والناس ، وهى الميزان الذى اكتسبوه بالخبرة عن هزائمهم وانتصاراتهم .

وفى الإسبانى بقية من صفات بدائية أو وحشية . وهذه مرجعها فى الغالب إلى إيمانه بالقضاء والقدر واستخفافه بالموت ، وإحساسه بفواجع الحياة وعدم استقرارها . فهو متشائم منذ ولادته ، وفى دوام توقعه أسوأ الأمور كثيرا ما لا يخيب له رجاء . ويمتاز مظهره الخارجى كذلك بالبساطة والاستقامة وصرامة المتوحش . وطالما كانت الحياة صعبة بالنسبة إليه ، ولذلك لم يكن فى يوم من الأيام رقيقا أو مهذبا إلى حد زائد نتيجة يسر الحياة ونعيمها . ولم يعرف أبدا معنى « للأمان » فيما عدا ضمان كفاحه الذى لا يفتر ضد نوائب القدر المثقلة . وما هو فى حوزته إنما حصل عليه بكده وذكائه ، وحظ واتاه ، ومعروف أداه إليه أصدقاؤه وإذا استثنينا قلة من الناس ، لم يكن هذا شيئا كثيرا ، لأن هناك وفرة قليلة فى إسبانيا . ولكنها كانت كافية لتهيىء البقاء لهذا الشعب الشاحب الوجه الصلب العود ، وبفائض كاف لتكسبه عبقريته القومية . ومع ذلك فحوادث التاريخ تركت فرصة ضئيلة للغاية لاقتباس السلوك المهذب ودماثة الأخلاق الخارجية التى يتصف بها الفرنسيون والإيطاليون. وحقيقة الأمر

أن الإسبانى يستطيع أن يرجع إلى الوراء فى كهوف التاميرا ويشعر آنذاك أنه « فى موطنه » دون أن يحس بصدمة شديدة عندما يوفق حياته معها من جديد .

ومبدأ المحافظة الأساسى عنده وعدم ثقته بالأجانب والدخلاء عموما هما كذلك دليل على صفات الرجل الفطرى . فالإسبانى لا يغير بسهولة طرق حياته ويستبدل بها طرق غيره ، أو ينقل حيل المعيشة أو آليات الشعوب الأخرى دون تمحيص متناه فى دقة وريبة غريزية فى نفعها . فمن الصعب تحويله إلى أى شىء . كتب دوق ولنجتن فى سنة ١٨٢٠ عن كراهية الإسبانيين الشديدة للأجانب يقول : « ليس هناك بلد فى أوروبا يستطيع الأجانب التدخل فى شئونه بفائدة ضئيلة كما هى الحال فى إسبانيا . وليس هناك بلد فيه يشتد بغض الأجانب مثلها ، بل يحتقرون ، وفيه يقل تلاؤم أحوال الناس وعاداتهم بنظائرها فى أمم أوروبا الأخرى»(٤).

والإسبانى شخص شهوانى(٥). وليس من الضرورى أن يكون متظاهرا أو قوالا أو عنيفا بخصوص ذلك . فقد تتأجج النار فى قلبه فلا تبدو لشخص آخر ، ولكنها تتأجج عنيفة مع ذلك . ولهذا فقد لا يسلك مسلكا يمليه العقل أو المنطق أو تقدير هادىء للأمور ، لأن عقله غير منتظم أو مرتب ، ولكن على هدى البديهة وبدافع الاحساس الشديد(٦) . وقد يفعل شيئاً بلا غرض معقول مطلقا ، ولكن بدافع النزوة ليس إلا ، ثم تراه يتصرف تحت تأثير « تحرك الروح »(*) ، وقد اقترح انجيل جانيفيه متهكما أنه لكى تستوفى « المثالية الشرعية » للأمة « يجب على كل إسبانى أن يحمل فى جيبه ميثاقا للحقوق الخاصة(**)، بشرط واحد — أن هذا الإسبانى له أن يفعل مايشاء » ، فإذا أراد أحد أن يؤثر فى هذا الشخص فيجب عليه أن يلجأ

(*) gana

(**) fuero

إلى العاطفة أو الاقتناع ، لا إلى العقل ، أو حتى إلى المصلحة ، والإسبانى لايخضع للتفكير ، ولا يرتضى أن يفقد شخصيته فى « قالب الفكر الشاحب» ــ التفكير غير الهادف الذى لا ينتهى أبداً إلى فعل ــ أو فى الموازنة الحريصة بين إجراء ما وبديل له .

والمثل الأعلى للإسبانى كان ، ولايزال ، السمو فوق تأثيرات الظروف الخارجية . فلقد تاق إلى أن روحه يجب أن تكون محصنة « ضد منغصات الحياة ونكباتها » ، أى جميع الأشياء التى تحطم صغار الناس وتدفعهم إلى المذلة . وفى هذا الصدد من المهم أن نذكر أن لوشيوس سنكا ، وهو الرواقى(*) المفطور على الإسبانية كان ، ولايزال ، فيلسوف إسبانيا المفضل ، ويكاد يوضع فى منزلة قديسى الكنيسة . والرسالة القرطبية « حول ثبات الرجل العاقل»(**) هى موعظة من فضائل البلادة إزاء حلول المصيبة ، وقد لاقت قبولا شديدا لدى أسلافه كمبدأ إسبانى عجيب للسلوك والطريقة التى نفذ بها سنكا أمر نيرون له بالانتحار ساعدت كذلك على زيادة هيبته بين الإسبانيين . فقد اعتقدوا أن واحداً فقط من بينهم قد استطاع ، بعد أن هوى من تلك المنزلة العالية ولقى ذلك المصير المفزع ، أن يموت بقدر كبير حقا من عزة النفس ورباطة الجأش . ومع ذلك فقد كان عليهم أن يدركوا أن أهالى العالم الجديد كانوا يستطيعون أن يكونوا رواقيين أمام الموت العنيف ، كما تظاهر أمامهم كوايو تمك وتوباك أمارو وآلاف غيرهما فى ساعة الموت .

وعلى الرغم من أن الموت كان يعد الاختبار النهائى للأخلاق فقد كان إجراء عقيما للغاية ، إذا أريد من ناحية عملية ، فيما عدا كونه مثلا للغير

(*) انظر القسم التالى .

(**) «De Constantia Sapientis»

كيف يموت الإنسان فى سبيل شيء جدير بالتضحية . ولكن الإسبانيين اهتموا قليلا بالنواحى العملية للموت . فقد تملك مشاعرهم قرب حلوله، وكانوا على يقين من أنه آت لامناص منه، ويتوقون إلى الحفاظ على شخصيتهم الانفرادية واسمهم خارج القبر. وكانت حقيقة الموت تشغل بالهم، وفى بعض الأحيان يميلون إلى التعمق فيه بالحاح وبيل ، كما فعلوا بفنونهم الدينية . ولكنهم كانوا على استعداد لتقبله إذا حضر وبدون أن يبدوا نوعا من البطولة أو الهوس ، لأن من واجب الإسبانى أن يموت على ذلك النحو . فهم شعب شجاع جدا فى حضرة الموت ، وقد اعتبرهم البعض شجعانا أكثر منهم عقلاء ، كما فعل براشيودا مونتونى زعيم مغامرى بيروجيا الذى كان فى خدمة ملك الأرجون فى الحروب الإيطالية . فقد خاطب الجنود الإسبانيين المتهورين قائلا : « إنكم تظنون أنه من الشرف أن يمزقكم عدوكم إربا ، فهذا أكرم من الهروب بحياتكم والاحتفاظ بأنفسكم ليوم الانتقام » . وقال الجنود الفرنسيون الذين رفضوا أن يقاتلوا قوات القائد العظيم كونسا لفودى، كوردوفا : « هؤلاء الإسبانيون المجانين يقدرون شرفا ضئيلا ينالهم أكثر من ألف حياة ، ولا يستطيعون أن يتمتعوا بهذه الحياة » . ولمصارعة التيران سحر لدى الإسبانيين بوصف كونها عيداً للموت(*) لأن الموت يتجسم فى قرنى الثور، ويستطيع المصارع أن يحتال لكيلا يفترسه بالشجاعة والرشاقة والمهارة .

الرواقية** الاسبانية

بالنسبة إلى شعب يضرب به المثل فى كونه لا يهتم كثيراً بظروف الحياة المادية، نجد أن المذهب الرواقى قد حصنه ضد ظروف الفاقة والآلم والمعاملة

(*) Fiesta de la muerte

(**) الرواقية مذهب فلسفى اسسه زينو (مات حوالى سنة ٢٦١ ق٠م) وخلاصته عدم الاكتراث بالسرور أو الالم والرضاء والقناعة وتبلد الاحساس .

القاسية التى كان يلقاها من الغير ، تلك الأشياء التى كانت بصفة عامة تعد أموراً عادية وغير لافتة للأنظار ، ولـكن قد يضطر المرء لأن يعيش بين أحضانها طول حياته . ولذلك عاش الإسبانيون عيشة متقشفة ومعتدلة . وقد جاء إليهم نـكران الذات سهلا ، ويتحملون صنوف الحرمان أكثر بكثير من معظم الشعوب لأنهم تعودوا أن يقنعوا بالقليل . ومن المهم أن نلاحظ القدر الضئيل الذى أضافته ثروة جزر الهند فى القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى تيسير الحياة وبحبوحتها فى إسبانيا . فعلى خلاف طبقة التجاريين والرأسماليين فى مدن شمال أوربا خلال نفس القرنين المذكورين كانت هناك فرصة قليلة للوصول إلى الرفاهية على الرغم من الـكنوز التى تدفقت فى إسبانيا من العالم الجديد . فقد استجدت قصور خاصة قليلة العدد جدا ، وبقيت حتى مساكن الطبقة الميسورة جرداء كما كانت دائما . وكانت كل الـكنائس الـكبيرة تقريبا قد بنيت من قبل أن يكتشف كولمبس أمريكا ، غير أن أموالا كثيرة صرفت على تزيينها داخليا زيادة فى تمجيد العذراء . ومن المؤكد أن الإسبانيين لم يسرفوا فى الأكل ، ومن المحتمل أن مقادير الطعام المتداولة فى القرن السابع عشر كانت أقل منها فى القرن الخامس عشر . ولـكن شد الأحزمة على البطون لم يتسبب أبدا فى ثورات من أجل الطعام بين هذا الشعب المتزن العفوف الذى لم يعرف طوال تاريخه سوى القليل من الانغماس والترف . وفى تخاطب الإسبانيين قلما يسمع المرء عبارات مثل « رخاء » أو « ربح » لأنها عبارات غير مألوفة لديهم . فإذا بدا « الرجل الصغير » فى إسبانيا ، وكثيراً ما يبدو ، شرها و« يده مغلولة إلى عنقه » فمرجع ذلك فقط إلى أن قسوة شظف العيش كثيرا ما تكون ذات وقع شديد عليه ، ولذلك لا يستطيع أن يكون على استعداد لأى نوع من الإسراف . ومع ذلك فحتى فى كفافه يبدى علائم الجود التى يتصف بها الأمراء أمام شخص آخر . وليس هناك سخاء فى العطاء أو كرم الضيافة

فى شتى أرجاء العالم الغربى كما هو بين هذا الشعب الهزيل . فليس هناك أناس غيرهم يعطون للأشياء اقل قيمة ، ولغنى النفس أكبر قيمة .

وعدم الاكتراث الذى يبديه الإسبانيون خاصا بمصيرهم المادى مسئول إلى حد كبير عن صفاء الروح أو سكينتها التى يقضون فيها معظم حياتهم . ولربما كانت هذه الفلسفة منعشة ومريحة فى عالم كدر يتقطب فيه الجبين وتعض فيه الأنامل . ومن الناحية الأخرى ربما تؤدى إلى الاستسلام لظروف قد يكون من الممكن تغييرها بسهولة إذا مورست العزائم الهاجعة قليلا . ولكن تحسين الحال قد لايستأهل من الإسبانى الاكتراث . أما الشكوى من أن عدم اكتراثه هذا يضر بالأعمال، وقد يعنى القضاء على التطور ، فلا تحرك منه ساكنا بطبيعة الحال . وفى هذه الحالة يضع حدا للمناقشة بقوله : « لايهم ! » (*) وبعلائم مناسبة لإنهاء الحديث .

وبالنظرة الرواقية إلى الحياة أصبح هناك تحكم فى المظهر الخارجى للشعور(٧) . فيجب على الرجل المهذب(**) أن يكون متمالكا شخصيته ، أى ثابت الجاش(***) ما أمكن ومتحكما فى مسلكه، ويجب عليه أن يحتفظ لنفسه ويحبس سر عواطفه الداخلية فلا يفشيها ، كما فعل فيليب الثانى عندما جاءته أخبار كارثة الأرمادا . وإن صفة التحفظ هذه هى التى تجعل وجوه الإسبانيين فى لوحات العصر الكلاسيكى تبدو جامدة ومتحجرة للغاية. وإذا استثنينا قدرا معلوما من الغطرسة فقلما تخبرنا هذه اللوحات عن أى شىء يجرى وراء القناع . فمثلا لانجد شيئا مطلقا وراء وجوه الملوك الذين رسمهم فيلاسكيث ، ولكن قلما يقال هذا بالنسبة إلى الصورة التى رسمها للأمير الدوق أو أمير البحر بوليدو باريخا .

(*) No importa

(**) Caballero : كابايرو

(***) Contenido

أنماط إسبانيا

كانت هناك، وتوجد الآن، بضعة أنماط لإسبانيا: قشتالة القديمة وقشتالة الجديدة، أراجون، غاليسيا، استورياس، الأندلس، كتالونيا، فشكايا، وهكذا. وقليل منها، مثل الأندلس، لم تكن فى يوم من الأيام وحدات سياسية، بل كان معظمها من قبيل ممالك مستقلة (ويعادى بعضها بعضها) . وكانت كل منهما، منفصلة عن الأخرى، تمثل انعطافا نحو التباعد وأنواع الولاء المحلى التى تعد انعكاسا للفردية الإسبانية . وعندما وصل دور توحيد البلاد الطويل إلى نهايته فى أواخر القرن الخامس عشر، بقيت إحدى الولايات القديمة خارج الدولة الجديدة باسم البرتغال، وظلت أخرى مثل كتالونيا وولايات الباسك فى حالة تبرم داخل بناء إسبانيا المركزى .

وشارك رجال الأنماط الإسبانية، ولو بدرجات متفاوتة، فى فتح واستعمار العالم الجديد وفى تطويره من بعد ذلك، كما لا يزال يفعل القادمون المتأخرون من شبه الجزيرة . وفضل بعضهم أقاليم بالذات، فضلوها، بصفة عامة، لتشابه حقيقى أو وهمى للولايات المحلية التى جاءوا منها، ففى مستعمرة بيرو مثلا بقى أهالى الأندلس وغاليسيا عادة على الساحل . أما الباسك ومواطنو استريمادورا ففضلوا الأراضى الجبلية وبعد أن أشار ألكسندر فون همبولدت إلى نبوغ الأندلسيين وأهالى جزر كناريا فى فنثويلا، وأهالى أستورياس والباسك فى المكسيك، وأهالى كتالونيا فى بوينس ايريس، أبدى — فى أوائل القرن الماضى — الملاحظات الآتية على رسوخ الصفات الإقليمية الإسبانية فى العالم الجديد قال : « إنهم يختلفون اختلافا أساسيا فى استعدادهم للزراعة والفنون الآلية والتجارة ومجالات النشاط الأخرى التى تعتمد على نمو الذكاء . واحتفظ كل من هذه الشعوب بسحنته الخاصة ودمائه أو خشونة أخلاقه واهتمامه الزائد أو القليل بالربح وبكرمه الحاتمى، أو قد يندفع إلى العزلة » .

والاختلافات الإقليمية ذات مغزى أكثر خطورة من كونه لافتا للأنظار حتى بالنسبة إلى الباسك والكتالونى اللذين يختلفان ، ومعهما الأندلسى ، اختلافا كثيراً عن النموذج القومى(٨) . فهناك دائما وراء مظاهر الإقليمية — الملابس المميزة والعادات ، والصفات الغريبة فى الكلام أو الأشياء الخارجية الأخرى، كما تظهر فى الفنون الحائطية لسوروليا فى متحف نيويورك الإسبانى — إسبانى من نوع ما . وفوق كل شىء فهو سيد نفسه مهما يكن أصل موطنه .

وقد كانت قشتالة النواة المتوسطة التى اتحدت معها الأقاليم الأخرى تدريجيا لتكون إسبانيا ، وتعودت السيطرة والنزعة الامبريالية التى قدرت لها الزعامة فى زمن مبكر . وكنموذج أصلى تجسم فى أصل قشتالة « الإسبانيولية »(*) أى اتحاد الصفات التى تميز الإسبانيين بعضهم عن بعض إما نوعا وإما درجة . أما أشد منافسيهم فى الزعامة فهم أهالى أراجون ، وهم قوم أشداء ، يتصفون بالخشونة ، كونوا لأنفسهم سيطرة على شعوب تختلف عنهم كثيرا كأهالى كتالونيا الواقعيين، وأهالى بلنسية الذين يتصفون بالعنف والذين كونوا لأنفسهم امبراطورية فى إيطاليا قبل أن يكتشف كولمبس جزر الهند بوقت طويل لحساب قشتالة وأهالى كتالونيا قريبو الصلة بالفرنسيين فى مقاطعة لانجدوك ومن المرجح أنهم ،دون سائر الإسبانيين، على طرفى نقيض من ناحية الطبع مع أهالى الأندلس فى الركن الآخر من شبه الجزيرة ولما كانوا قوما بحريين ، وجوههم نحو البحر وظهورهم نحو بقية إسبانيا ، فإن اهتماماتهم كانت أكثر صلة بالبحر المتوسط منها بالقارة . ونظراً إلى خضوعهم لأراجون يرجع إليهم ، إلى حد كبير ، الدافع الذى كان يكمن وراء بناء الامبراطورية التى أنشأتها تلك المملكة فى إيطاليا . وعلى الرغم من

(*) espanolismo

أنهم يتصفون بالمغامرة وبالعقلية التجارية، فقد كان لهم شأن ضئيل جدا بفتح العالم الجديد أو بالاستغلال المبكر لموارده .

ويكمن لغز الباسك جميعه فى أصلهم الجنسى ، لأن هؤلاء القوم الذين يتصفون بالصراحة والاستقامة لا يستسلمون إلا قليلا للخداع والاعوجاج. وإذ اتصفوا بكونهم قوما شجعانا أشداء وذوى أخلاق متينة جدا ويعتمد عليهم كل الاعتماد ، نراهم أشد الناس جميعا كبرياء ، ولكن كبرياءهم كانت أقرب لأن تعد تعبيرا عن إحساسهم العدوانى العنيد بتفوقهم الجنسى والمساواة الفردية عن كونه موقفا مصطنعا وادعاء بسمو مركزهم . وقد جاءوا إلى العالم الجديد متأخرين ، ولكنهم ، مع أهالى استورياس كان عليهم أن يقوموا بدور الرائد فى تنمية أقاليم التعدين الرئيسية فى المكسيك وبيرو . وفى وقت لاحق وقع عليهم القيام بدورهام جداً فى حياة تشيلى .وفى الركن الشمالى الغربى النائى من شبه الجزيرة تقع غاليسياالإسبانية . وأهالى غاليسيا اكثر شبها بالبرتغاليين فى عاداتهم وفى لهجة كلامهم ، وهم شعب مثابر ويعتمد عليه على الرغم من أن ملكة التخيل عندهم ضعيفة ، وقد أضاف جدهم قدرا قيما إلى كوبا وأرجنتينا وإلى البلاد الأخرى التى استقر فيها أعداد منهم .

الأندلس

القبيلة الأندلسية من أعظم قبائل إسبانيا إثارة للاهتمام . وقد تكيف الأندلسى باتصالات طويلة وحميمة — بما فى ذلك الاتصالات البيولوجية — بشعوب كثيرة ، وخصوصا ببنى عمومته المغاربة فيما وراء المضيق . وبضعة آلاف من السنين أقامها الأندلسى فى موطن جذاب طبعت مظاهر هذا الوطن التى لا تمحى فى نفسه العتيقة والانفعالية . وفى مظهره وطرق معيشته ، كما فى الآثار المبعثرة فى أرضه المشمسة — مناجم النحاس التى تنتمى إلى عصر البرونز فى ريو تنتو ، أطلال ايتاليكا ، والحمراء والقصر

وقادس نفسها — يقف المرء على أسلافه مختلفى الجنس . وتردد على سواحله أبطال الخرافات أو التاريخ — أوديسيوس وربابنة السفن الذين لاتعرف لهم أسماء ، والذين قدموا إلى تارشيش المذكورة فى الإنجيل ، وهانيبال وقيصر ، والقديس جيمس وطارق بن زياد ، وكولمبس وماجلان ودل كانو ، والأبطال الذين فتحوا العالم الجديد . والأندلسيون، كالصينيين، متناهون فى القدم ، ولذلك ، فكما لاحظ أورتيجا — ى — جاسيه ، أفنوا إمبراطوريات وسيطرات كثيرة ومحنا أخرى ، ومن ثم يكفيهم مايقدم لهم فى يومهم دون أن يقلق بالهم ماقد يأتى به الغد . فقد وقعت أبصارهم على أشياء كثيرة جدا لدرجة جعلتهم لايتسترون على خديعة ما . وليس هناك افتتانات أو ألغاز تحيرهم ، وأنعموا النظر فى وجه أبى الهول وسبروا جميع أغواره . ولما كانوا شعبا مرنا فقد تعلموا كيف ينحنون للأعاصير البشرية التى كانت ترسل عليهم .

وهم يجمعون بين الوقاحة تارة والتعصب تارة أخرى ، كما لو كانوا لايعتقدون فى شىء اعتقادا راسخا . فأهالى أشبيلية — لكونهم يجيدون التمثيل — يستطيعون أن يتحولوا من الجدية الطاغية التى يتصف بها أسبوع الآلام(*) إلى مساخر الاحتفالات فى الإجازات بتغيير بسيط فى تعبير الوجه ، دليلا على تغير المزاج . ويشك الغريب أنهم فى أعماق أنفسهم يحتفظون بهيكل وثنى خاص بهم يشتمل على مذابح لجميع الآلهة التى عبدوها عبر العصور — عشتروت (**) وافروديدة وايزيس وباكوس(***) ورع + وبان الإله الجدى ++ مما يرضى غرائزهم المتقلبة ، وربما

(*) Semana Santa

(**) إله الخلقة .

(***) إله الخمر .

+ إله الشمس

++ إله المرعى .

يشتمل كذلك على حرم للإله بعل (*) والإله مثرا (**) وإله مرح من آلهة الغجر (***) الجوالين . وبتأثير سحر القمر فى منزلة الهلال قد يتجهون إلى قرطبة التى كانت مقر حكم الخلفاء ليؤدوا التحية اللائقة لمحمد عليه الصلاة والسلام .

وهم يتقبلون الحياة كما يتلقونها ، ويسخرون بلا اكتراث من كل شىء يمثل حولهم على مسرح الحياة . وعلى الرغم من أنهم يمتلكون النزر لا لشىء إلا ليحميهم من غوائل الزمن ، والشمس ، وقوة روحهم ، فإن لديهم مقدرة أبيقورية + للتمتع والابتهاج. فبلادهم هى البلاد الكلاسيكية للرقصات العظيمة بالنسبة للعالم ولأهالى قادس وأشبيلية الرشقاء الذين يؤدونها ، وللثيران المصارعة والرجال النور الذين ينازلونها ، ونواح أغانى الغجر على موسيقى القيثار . وهناك فى كاندرائية أشبيلية الكبيرة وحدها دون سائر البلاد المسيحية يرقصون مرة فى كل عام ، وعلى الرغم من أن الرقص متزن وله صفة الطقوس الدينية ، فهو رقص على كل حال ، ويعدّ لذلك إذعانا للوثنية الكامنة فى الأندلس .

ونظراً إلى ما اتصف به الأندلسيون من الشهوانية وعدم البخل ، والروغان والهرب ، والتراخى والخمول ، وأصبحوا شعبا لايبالى ، منحهم الله رؤية الحياة بوضوح ، وقد جردت من كثير من المظاهر التى يختبىء وراءها ذوو النفوس المزعزعة خوفا من صدمات القدر . وبوصف كونهم أقل الإسبانيين بداءة ، فقد اتصفوا بالتباهى الغريزى الذى تبديه قطط الطرقات ، واتصفوا كذلك برقة القطط فى حركاتهم .

(*) إله فنيقى أفاق .

(**) إله النور عند الفرس .

(***) Romany

(+) نسبة إلى فلسفة أبيقور القائلة بأن السعادة تأتى براحة البال عن طريق العيشة الفاضلة .

وبينما تعد أشبيلية كعبة كل إسبانى يميل إلى الهرب من فشل وقصور فى بلده أو فى قرارة نفسه ، وبينما أصبحت أحب المدن فى أرجاء إسبانيا ، فإن الإسبانيين العابسين وأقوياء العزيمة خارج الأندلس لاينظرون إلى أهلها المرحين نظرة مفرطة الجدية ، بل يشاركهم الأندلسيون أنفسهم فضلا عن ذلك ويسخر الغير من حديثهم المستهجن ، ومن سلوكهم المتكلف ، وثرثرتهم ، واللامبالاة الظاهرية التى يبدونها فى كل المناسبات ، وشقشقة اللسان التى تنزلق فيها مبالغتهم انزلاقا طبيعيا ، ونفورهم من تضحية أنفسهم فى سبيل أية معتقدات قد يستمسكون بها .

وكون الأندلسيون قسما كبيرا من الجند فى فتح العالم الجديد(٩) . وقد امتازوا بذكائهم السريع ، وسعة الحيلة ، وقدر من شهامة يشوبها الخيلاء ، وأيضا بأساليبهم غير المسئولة ، ورفضهم قبول الرواية الرسمية لأى شىء كحقيقة منزلة . وقد أظهروا دائما ذكاء مشهوداً للتغلب على الخلافات ، ولطفا فى معالجة الأمور خفف من تأثير الغلظة التى اتصف بها بنو جلدتهم الإسبانيون فى كل مكان التقوا فيه ، كما فعلوا فى العالم الجديد ، فى جوادا لاخارا وهافانا وليما .

الأسبانيون فى العالم الجديد

كان للأثر الإسبانى فى الأمريكيتين وقع مباشر لفترة تزيد على ثلاثة قرون ، ففى بادىء الأمر اتخذ ستار الفاتح والمستعمر ، وبعد مدة من الزمن كان على هيئة الحاكم والقس ومعلم الشعوب الرعايا ، ودائما فى صورة الجد الأول للأجناس المختلطة ، وأخيرا ، وبعد أن نالت البلاد استقلالها ، كمهاجرين إلى أقطار لم تكن بعد ملكا لهم ليحكموها . ففى الأرجنتين وكوبا كان تسرب الدم الإسبانى الجديد هذا أكثر مما كان فى عهود الاستعمار ، وأكسب أخلاق تلك الشعوب طابعاً خاصا . وفى أثناء عبور الأطلنطى

طرأت على الأخلاق الإسبانية بعض تغيرات . ولم تنتقص شدتها فى أثناء عملية الفتح ، ولكنها توزعت على مساحة شاسعة وسكان عديدين ذوى عادات غريبة . وكانت عوامل التحويل إلى الإسبانية دائماً قليلة للغاية ، ولا مناص من ضياع شىء عند نقلها . وكان الجزء الضائع عادة هو درجة من القوة، أكثر من أن صفة قديمة وذاتية من صفات إسبانيا استبدلت بها كلية قوة سلبية « لروح المكان » الجديد . وربما لم تكن الخميرة مركزة بدرجه كافية لتعطى نكهة إسبانيا الكاملة للحضارة الوليدة الناشئة ، فقد طرأت عليها تأثيرات خففتها البيئة الطبيعية ، العناصر الجنسية الغريبة والمتنوعة التى أضيفت إلى الخليط ، أثر الثقافات الخارجية كثقافات فرنسا والولايات المتحدة ، وكذلك التجارب التاريخية .

واختلفت الحبوب التى ألقيت فى المطحن إلى درجة لم ينتج معها عند طحنها نمط موحد لأمريكى إسبانى . فقد أصبح هناك كوبيون ومكسيكيون وتشيليون وهكذا ، كل بصفاته المميزة . ولكن على الرغم من التشعبات ، فقد كان هناك « تشابه عائلى » قوىّ بينهم — نوع من التضامن الروحى له جذوره مغروسة فى إسبانيا . لقد كان هناك نمط عام مشترك للتفكير والسلوك وراء كل التغيرات التى نمت فى العالم الجديد . وفوق كل شىء بقى أثر الفردية الإسبانية العميق بتفرعاته فى مجال تصرفاتهم . وكيفما كان ، فقد دبر « الرجل » طريقة للتغلب على جميع القوى التى تعمل على انقراضه كوحدة منفصلة فى المجتمع القومى ، ولو أنه لم يكن مستقلا فى وقت ما أو مكان ما كما هو فى إسبانيا ، حيث لايزال يتحدى الدولة، أو أى تكتل للناس لامتصاص شخصيته ، أو ليجعله شخصاً عاديا كسائر الأشخاص .

ولم يصبح القشتالى فى الفراغ المنعزل الذى تتصف به بمبا الأرجنتين أو الغابة المشبع جوها بالبخار فى إقليم شوكو فى كولومبيا ، بأية حال

من الأحوال ، هو نفس الشخص مرة ثانية . فقد قلت فيه صفة الإسبانية وزادت فيه صفة كونه رجل العالم الجديد ، لأن أخلاقه الصخرية لم تعد تمنع عنه قوة الطبيعة الناخرة أكثر من سفح تل معرض لنحت الأمطار المدارية وكذلك كان من العسير أن ننتظر إمكان احتفاظ الحضارة الإسبانية بكل نقاوتها الأصلية مع وجود الثقافات الأصلية الهندية . وبعض هذه الثقافات ، كثقافة الإنكا ، كانت على درجة عالية من النظام ، حتى إن المواطنين الذين كانوا يمارسونها لم يجدوا سببا معقولا ليستبدلوا بها أساليب معيشة الإسبانى ، فأخذوا من هذه الأشياء التى قدمت لهم مالاءم أهواءهم وارتاحوا إليه ، وكل هذا فى الوقت المناسب بالنسبة إليهم ، كما استعار الإسبانى بعض تركيبات الأدوية وطرق الطهى من الهندى ، وأحيانا لفظا مناسبا من اللغات الوطنية . وفى بعض الأحيان ، كما وضح جليا فى المكسيك ، تشابه قلبا الهندى والإسبانى فى أمور كثيرة ، حتى إن غرس الحضارة الإسبانية كان عملا ميسرا . ويكفى هذا عن المستعمر الإسبانى الذى لم يختلط دمه والذى يميل بطبيعته إلى الأصول والقيم فى شبه الجزيرة .

ومع ذلك فقد نشأ عن كاثوليكية الإسبانى الوراثية أن كان هناك — ولايزال — فى الهند الغربية مختلطون ومولدون أكثر من إسبانيين أنقياء من سلالة إسبانيا ، وأصبحوا تتنازعهم الثقافتان اللتان انحدروا منهما . ولم يكن الأمر كله مسألة اختيار عن طواعية ، أى الثقافتين تسود ، لأن المولد لايستطيع الهرب بتاتا من « نداء الدم » . وبعد أول لقاء بين الإسبانى والهندى تنتقل خلايا الوراثة الناتجة مناصفة مع كل جيل لاحق ، ولكن الميزان البيولوجى يتزايد ميله إلى الجانب الهندى خصوصا إذا تشبث خط الوراثة بالطبقات السفلى فى المجتمع . وليس هناك ، بطبيعة الحال ، قانون دقيق يبين القدر من الإسبانية الذى قد يكون عليه شعب أو شخص إذا هيئت له مجموعة معينة من ظروف موجودة من قبل . فالدرجات الممكنة للإسبانية مختلفة لاعداد لها . وكثير من العوامل التى

تلابس المشكلة عوامل شخصية ولا يمكن تطبيقها ، أو قد تكون عرضية كلية عند حدوثها. ومع ذلك فبمرور الوقت يمكن للمرء أن يلاحظ فى سكان قطر بالذات أن عملية الاختلاط فى الزواج استمرت تعمل وقتا طويلا وانتهت بأن أدت إلى تقريب التشابه العام من ناحية المميزات الجسمية والأوضاع الثقافية . وقد تحققت هذه المرحلة من التطور ، على سبيل المثال ، فى بلاد المولدين القديمة مثل تشيلى وباراجواى وكولومبيا وسلفادور ، أو فى مراكز معلومة «مستقرة» اجتماعيا فى جمهوريات أخرى كما فى الانديز فى فنزويلا واللانوس فى شمال الأرجنتين . ومن جهة أخرى فإن الهنود من زمن بعيد كان قد استوعبهم البيض الأكثر عدداً كما فى أوروجواى أو ، فيما عدا ذلك، زحزحوا كعامل ثقافى منفصل كما حدث فى بمبا الأرجنتين : أما الأقاليم التى يغلب فيها التركيب الجنسى الهندى ، كما فى المكسيك وجواتيمالا وبيرو وبوليفيا، فالوقت الآن مبكرا جدا لكى نحصل على توازن محدود بين العناصر الجنسية الكبرى فى عملية اختلاط الأجناس. فهناك نزوع فى هذه البلاد إلى انسحاب السكان الأصليين المقصود ، ليعيشوا معاً بعيداً ، ولو أن الاختلاط مستمر فى الطبقات الدنيا لمجتمعهم القومى ، لدرجة أن خلق جنس منفرد نهائيا قد امتد أجله كثيراً فى المستقبل البعيد . وفى هذه الأثناء تعرضت تلك الثقافات، وهى فى طور نشأتها إلى تأثيرات غريبة نابعة بصفة خاصة من الولايات المتحدة وفرنسا ، — وعن طريق الهجرة على نطاق واسع — من إيطاليا . ومن تفاعل كل هذه القوى المعقدة ينشأ فى النهاية شىء لا يقال عنه «إسبانى» تماما ، ولكن حوله شىء كثير من إسبانيا (١٠) . وفى أى مكان يتلاقى الناس فى تلك الأرجاء لا يتقابلون كغرباء تماما ، بل ينجذب بعضهم إلى بعض انجذابا غريزيا يشد من وراثة مشتركة .

ولم تتمسك إسبانيا ، كأم ولود للشعوب ، بشىء من أبنائها فيما وراء

البحار(١١) . وهى وإن كانت لم تعطهم حرياتهم السياسية فذلك لأنها لم تكن لديها هذه الحريات لتعطيهم إياها ، وإذا كانت قد قيدت تنميتها الاقتصادية حيث كان من الممكن أن تتنافس معها، فقد اتبعت هذه السياسة جميع الدول الاستعمارية الأخرى فى ذلك العصر . وفيما عدا ذلك فقد أعطتهم كل ما ملكت ، وبلا تذمر ، أعطتهم لغتها القوية الجهورية ، وتشريعات روما الإسبانية الصبغة وتقليد ونمط المدنية كطريق نهائى للحضارة، وجميع ماتبقى من إطار النظام والمتع التى تتصف بها الحياة الإسبانية . فقد أعطتهم دون كيخوت ، ولاس كاساس ، وكالديرون ، وسانتا تريزا وأخذت منهم عوضا عن ذلك الأخت يوانا إينيس ، والاركون ، وجارسيلاسو الإنكا ، وهيريديا .

الفردية الاسبانية

الفردية أو الشخصية هى مفتاح عبقرية إسبانيا . فالإنسان هو مركز الكون الإسبانى. وليس هذا مبدأ فلسفيا للإنسان أو لبنى البشر ، كأشخاص وهميين ، ولكن لشخص من لحم ودم ، لديه مايحب ومايكره(١٢) . فأولا الشخص نفسه هو الذى يهم ، سواء أكان خوان جوميثه أم فرناندو الفاريث دى توليدو ، دوق ألبا . ومن هذه الذاتية المتمركزة حول نفسه قد يتحرك اهتمامه نحو الخارج ليضم أفرادا آخرين مرتبطين معه بروابط الحب أو القرابة أو الصداقة . ولا يخترق بصره الأجهر الحلكة المبهمة المجتمعة خارج دائرة اتصالاته العاطفية المحدودة ، لأن جيرانه وإخوانه المواطنين والغرباء — وكلهم شخصيات مجردة مجهولة — يسكنونها، إلا إذا تصادف واعتدى أفرادها على شخصيته ، وقد يكون ذلك لبرهة أو قهراً . فطوال حياته نجده يتربص لأولئك المجهولين الذين يتدخلون من وراء دائرته المألوفة .

ومثل هذا الشخص يعاف أو يعجز عن إدماج شخصيته مع الآخرين لمجرد أنهم يعيشون قريباً منه أو فى نفس البلاد ، فما بالك بمن هم على سطح هذا الكوكب نفسه(١٣) ؟ فالشخص هو الذى يصنعه هو من نفسه بمساعدة قليلة من أسرته أو أصدقائه على الأكثر ، وهو ليس مدينا بشىء يؤديه للمجتمع ، ومن الصعب عليه أن يضحى بمصالح شخصيته للمطالب التى يستلزمها العمل أو المشروعات الجماعية . وهو مجرد من الفضائل المدنية أو مراعاة حق الجوار . ولا يريد أن يكون دعامة من دعائم المجتمع ، فإذا انغمس فى الدعائم والعمد فهمّه عمود من النوع الذى كان يجلس على قمته سانت سميون ستايليتس فى الصحراء السورية . ويفضل فى ميدان الفكر الإنسانيات — دراسة الإنسان — على الدراسات الاجتماعية . فليس لديه « عقلية اجتماعية » ، ويهتم قليلا بالتصالح فى المنازعات والارتباكات التى تعترى المجتمع ، ولا يرغب فى أن « يكمل » أو « ينسق » أى شىء أو أى شخص . والاتحادات والجمعيات ، والنوادى ، واللجان ، والاجتماعات ، والمؤتمرات ، وأى شكل قد يتخذه تجمع الناس بحرية لغرض جاد ، كل ذلك لا يروق له. أما أقوى نظامين فى حياة إسبانيا، وهما: الجيش والكنيسة فمدينان بقوتهما إلى انهما يجسمان مبدأين — الشرف والدين — اللذين — يسيطران سيطرة غير عادية على الشعب الإسبانى. غير أنه فوق كل النظم تأتى الأسرة، التى إذا أهملت أواصرها انحدرت إسبانيا إلى فوضى اجتماعية. والمشاركة فى تنظيم ما تسلب من ذاتية الإسبانى الشىء الكثير . ولكونه فى قرارة نفسه ذئبا منفرداً نجده عند تصفية الأمور لا يستطيع الوثوق إلا بنفسه . فإذا تصادف وكان للجمعية أثر فعال ، فمن المرجح أن يزول عنها التحمس التلقائى الذى تسبب فى تكوينها ، فيتركها جامدة لا روح فيها، وإذا كانت عديمة الفاعلية ساد الاضطراب والاختلال لنقص التنظيم ، وما كان يجب عمله لا يعمل ، أو يؤدى أداء سيئا . وهكذا ماتت

فى بدء تكوينها مشروعات كثيرة جميلة ومرجوة بدأت بآمال عراض وحماسة .

إن التنظيم والتعاون وهما الدافع الأساسى للتقدم « الحديث » يعنيان قليلا للإسبانى ، بل هما فى الحقيقة متنافران مع طبيعته .

فإذا انتقلنا إلى الميدان السياسى ، على الأقل إلى ماوراء حدود المدينة ، نجد أن ممارسة الديمقراطية قد برهنت حتى الآن على أنها غير ممكنة فى إسبانيا . وعلى الرغم من أن هناك مساواة اجتماعية عالمية — وهى التى تسير دون وعى الحياة فى إسبانيا — فإن التجارب التى اتبعت مع حكومة شعبية فى إسبانيا قد باءت بالفشل، فلم يهيأ بعد الجو الملائم لممارسة الديمقراطية السياسية . وقبل كل شىء ينظر الإسبانى نظرة ساخرة وبارتياب شديد نحو الحكومة ورجال السياسة. وإذا استثنينا فترات قصيرة جدا ، كان هو أفضل دائما من أولئك الذين تولوا حكمه ، ذلك لأن نظاماً سياسياً وحيداً — وهو حكم فرديناند وإيزابلا — كان جديرا بالشعب الذى يحكمه . ومن المرجح أن أسوأ انحرافات طباعه موجودة فى البيروقراطية التى يعدها جهازاً مكونا من جماعة من الوصوليين أو النفعيين الذين لا يضمرون له أو للبلاد خيراً . فإذا أبعدنا الاضطرار أو الإجبار ، يود الإسبانى أن يتعامل مع الحكومة فى أقل الحدود الممكنة . يقول مادارياجا : « كل مجهودات رجال الدعاية السياسيين لإشعار الإسبانى بمواطنته قد باءت بالفشل ، فهو يشعر كرجل — ثم يقتبس من أونامونو — « لاشىء أقل من رجل برمته »(١٤)

وينزع كل إسبانى إلى أن يكوّن من نفسه حزبا سياسيا خاصا به ، وليس من رأيه أن تساس الحكومة بالحلول الموفقة أو الإذعان ، بل أن هذه تعد علامات ضعف . «فالنقاش» ليس إلا فرصة مهيأة له لنشر آرائه بين أولئك الذين ينصتون حتى يجىء دورهم للكلام . وتهبط القرارات السياسية ،

إن عاجلا أو آجلا ، إلى مسائل شخصية وتصبح مفهومة لدى جماهير الإسبانيين فمبدأ الانفرادية هو القاعدة . أما الحكومة فهى مسألة أشخاص أكثر منها مسألة قوانين أو مبادىء . وهكذا فالرئيس (*) أو الزعيم (**) بالمعنى الأوسع — هو القالب الطبيعى للنظام السياسى الإسبانى . وفى ظل هذا النظام نجد أن الزعيم أو الرئيس (الرئيس السياسى فى أمريكا الإسبانية) هو المهيمن أو قائد الجماعة ، كالراعى فى العلاقات الأخرى . والصلة بينه وبين المواطنين فى دائرته صلة شخصية ، بمسئوليات واضحة بجلاء فى كلا الجانبين . وهى ليست ديمقراطية ، ولكنها تساعد فعلا على إيجاد قدر من النظام لدستور السياسة الإسبانى ، وهو عادة غير كامل . فإذا اعترضت العلاقات الرسمية أو الكهنوتية المقررة بالقانون طريق هذه العلاقة الشخصية المحببة كثيراً إلى طبيعة الأهالى، فإن ذلك يكون اعتراضا عابراً أو جانبيا . ثم إن الأعمال قد تؤدى « على قاعدة شخصية » : الأعمال التى لا يمكن تأديتها باتباع القواعد اللاشخصية ، ذلك لأن الأشخاص ، فى نهاية الأمر ، أهم من القوانين — وهذه هى القاعدة التى تفسر لنا كيف أن المحاكم الإسبانية كثيراً ما تلجأ إلى الحكم بالقسطاس لكى تخفف من قسوة العدالة القانونية .

وبنفس الطريقة نجد أن فردية الشعب فى حرب مع إدارة المشروعات الاقتصادية ذات النطاق الواسع . فعلى الرغم من أن الإسبانى يفضل مبدأ المشاركة فى الإدارة على التعاون اللاشخصى (***) فقد يكون العمل ضخما إلى حد لا يسمح بممارسة الفردية — أو نزواتها المحتملة — فيصبح التنظيم أهم

(*) Caciquismo

(**) Caudillismo

(***) Sociedad anonima

من أى شخص . وعند هذه الدرجة من التطور الصناعى قد يجد الإسبانى نفسه غير ميال ليمضى مع حقائق الموقف ، بمعنى آخر ، متخلفا عما يعده جحيما اقتصاديا . ولم يعد المشروع لعبة أو ساحة يمارس فيها بسالته الشخصية . ويرى من المستحيل أن يشعر بأى ولاء نحو تعاون لا حياة فيه . وقد تنفصل ممارسة العمل عن إدارته ، فيترك لتقليب أوراق وحساب أرقام أكثر من سيطرته على العمال أو ضبطه للآلات . وفى الحقيقة قد تصبح الآلة هى السيد — وهذه مسألة تثير سخط الإسبانى إلى الحد الأقصى.

وكما يكره اللاشخصية الإجبارية للمشروع الكبير ، فهو كذلك لا يميل إلى مسايرة الآلة التى تعمل فى مدنية الصناعة الحديثة . وهو ميؤوس منه من قبل رجال الإعلان والعلاقات العامة وخبراء الكفايات . وبمعنى آخر هو لا يحتاج إلى طبيب نفسانى يتحسس فى خفايا عقله أكثر مما قد يرضى بمراسل ينشر القيل والقال عن أمور الناس وينشر على الغوغاء أموره الخاصة .

فإذا تخلص من ضرورات الاقتصاد وقوة العادة ومستلزمات النظام، فغريزة الإسبانى هى أن يعمل وقتما يطيب له العمل . وقد ينزع إلى القلق من ناحية النتائج وتركه عملا دون إتمامه . ويعتريه السأم ، أو يخفت نشاط عزيمته لفترة ما . وإذا لم يكن الدافع الأصلى قد تسبب فى قوة مستمرة فإن المهمة التى بدأها قد لا تكتمل أبدا . وقد يترقب إلهاما لا يتحقق ، أو يركن إلى ارتجال مخرج من ورطته . وهو يرفض أن يجد تلك الفضائل التى يتصف بها المجتمع الصناعى كالنشاط والمثابرة ، وهو ليس كادحا، ولكنه يفضل العمل بالتحفيز وفقا لنغم ما ، وعندما يكون رائق المزاج (*) . ولذلك كثيراً ما يصبح إيقاع مجهوده بعيداً جدا عن الانتظام ولا يمكن

(*) Cuando se le de la gana

لأحد أن يتنبأ به ، وبعيدا جدا عن الطريقة العملية . فهنا تتعاقب ذرى النشاط البركانى مع الوديان العميقة — من الخمود . غيرأنه فى بعض الأحيان ينزع الخمود إلى المظهرية أكثر من كونه حقيقة واقعة ، لأنه حتى إذا كان الفرد سلبيا وعديم الحركة من الناحية الجسمية ، ففى استطاعة العقل أن يكون فى شغل استعدادا لدفعة نشاط جديدة.

وتعيش إسبانيا نفسها وفق إيقاع مشابه « يتأرجح بين أقواس متباعدة تفصل بين بعضها وبعض قرون ، فى فترات متعاقبة من نشاط واسع ، وأخرى من سبات قومى وعدم اكتراث . وهكذا نرى تدهور القرن السابع عشر قد أعقب بهاء القرن السادس عشر . ولو أن حوية القرن السادس عشر لم تؤت أكلها فى الفن والأدب كاملا حتى النصف الأول من القرن السابع عشر وتكررت معالم نهضة لم تدم طويلا فى أواخر القرن الثامن عشر ، ولكنها كانت مصطنعة إلى حد بعيد ، وسرعان ما انطفأ وميضها . ومنذ ذلك الوقت عاشت خاملة كما لو كانت تترقب شرارة تلهب نوعا من تحمس جديد يحيى كل القوة الكامنة المختزنة فى خفايا روحها(١٥) وفى أثناء ذلك يمر العالم بأبوابها المغلقة وهى لا تهتم إلا قليلا بما يجرى فى الطرقات فى الخارج وفى فترات اضمحلالها وتبلدها يتأثر مزاج المواطن كفرد وتضعف عنده ملكة الابتكار والحماسة عما تكون عليه بلاده فى أوج عظمتها ونشطت فى القرن الحاضر حركة مضمونها استرجاع الكيان القومى بقيادة مجموعة يحتمل أن تعد من أعظم المفكرين التحليليين ، وتضم أونامونو وجانيفيه ، وفرانسسكو جينيه دى لوس ريوس وابن أخيه فرناندو دى لوس ريوس ، وأورتيجا إى جاسيه ، وميناند بيدال ، ومادارياجا .

وليس الإسبانى كسولا ، إلا إذا أخذنا فى الاعتبار معايير الشعوب الأكثر تنظيما ، بل إن مجموع ما ينجزه من أعمال قد يبلغ قدراً مساوياً

لثمرة مجهود أكثر انتظاما واستمرارا ويستطيع أن يؤدى أضخم الأعمال إنتاجية ولنضرب مثلا: لوبى دى فيجا مؤلف الروايات التمثيلية فى العصر الذهبى ، فقد ألف أكثر من ١٨٠٠ كوميديا و ٤٠٠ رواية « بوليسية » . (١٦) (*) وفى ذات مرة أتم خمس روايات هزلية فى خمسة عشر يوما . ويقال إن رواياته كانت تمثل فى بعض الأحيان على المسرح خلال أربع وعشرين ساعة بعد البدء فى تأليفها . وتتواتر نفس الأنباء عن خوسيه توريبيو ميدينا المؤرخ التشيلى ، وأول مؤرخى أمريكا اللاتينية ، فقد كتب أكثر من ثلاثمائة كتاب فى حياته الخلاقة إلى درجة غير عادية ، ولو أن كتاباته تختلف فى نظام توقيتها .

فشعب شديد الازدراء للروتين التقليدى قلما يصبح أفراده عبيداً للساعات والدقائق . وليس هناك أناس حديثون تنقصهم الحاسة الزمنية مثلهم ، وليس هناك أناس عديمو الاكتراث بمعرفة كم الساعة أو الوقت المحدد لإنجاز عمل واجب الأداء . فالتدقيق فى مراعاة الوقت لا يمت إلى فضيلة ما ، والبطء فى إنجاز الأمور ليس رذيلة . فإذا كان للفظ معنى مزدوج فاهتمامهم بمعنى « الوقت » منحصر فى الطقس أكثر منه فى الزمن . فعبارة « غدا إن شاء الله » هى العبارة التى يلقونها من جعبتهم بسهولة إذا سئلوا عن التزامات اليوم أما الإسراع فهو فقط لأولئك الذين لا يستطيعون أن يؤخروا عملهم أو لا يجرءون على تأخيره . والنتيجة هى أن ممارسة الأعمال والحياة الاجتماعية فى الدنيا الإسبانية مرتبكة بسبب عدم مراعاة الوقت بصفة عامة ومع ذلك ففى بعض جهات أمريكا اللاتينية تتجه النية جديا نحو محافظة الناس على المواعيد التى يرتبطون بها ، وقد يحدد الميعاد المتفق عليه بالضبط ، أو كما يقال « ميعاد إنجليزى » (**) .

(*) actos sacramentales

(**) hora inglesa

وفى الحرب نجد أن كل جندى إسبانى فى صميمه جندى غير نظامى فدائى. ومن الألفاظ التى لها مغزى أن لفظة جيريلا (*) (حرب عصابات) نفسها إسبانية الأصل، بل إن التاريخ الحربى الإسبانى عبارة عن أسطورة لمآثر بطولية قام بها جنود فرديون. وحتى أعظم قواد إسبانيا كانوا يتولون قيادة مجموعات صغيرة جدا من الرجال يمكن إدارتها على المستويات الإسبانية، وفيها لم يفقد الجندى ذاتيته الفردية. ويعد تدوين برنال دياث بالاسم للذين شاركوه فى فتح مكسيك الأزاتقة مثلا كلاسيكيا لفزع الإسبانى من إغفال اسمه وتمسكه بحقه فى الخلود. أما الجيوش الضخمة التى نعرفها فى هذه الأيام والتى لا يعد الجندى فيها أكثر قليلا من رقم مكتوب على شريط فليس فيها مكان لهذا المحارب المستقل الذى كان ولا يزال يشعر بالزحام، وأنه فى غير مكانه فى أى جيش يزيد على فرقة. إن إسبانيا متخلفة عن فن الحرب الحديث، كما هى عن الاقتصاد الحديث.

وفى مجالات النشاط الأخرى نجد أنه من الصعب على المرء أن يحظى بعشرة موفقة ومرضية مع الآخرين على قدم المساواة ما لم تكن هناك أواصر صداقة سابقة. فمثلا أنتجت إسبانيا والأراضى الإسبانية فى العالم الجديد رسامين ذوى مواهب عالية، ولكن قلة ضئيلة منهم أسسوا مدارس قد تداوم على نقل عبقريتهم أو أسلوبهم الخاص. وكذلك لم يخلف فلاسفتها العباقرة ولا علماؤها الآخرون وراءهم جماعة من الأتباع ليخلدوا طريقة للتفكير. والإسبانى الوحيد الذى نجح مرة فى تنظيم جماعة كبيرة وباقية من الأتباع هو اجناسيودى ليولا الباسك مؤسس جمعية يسوع. وفى الموسيقى يتفوق العالم الإسبانى فى العزف المنفرد، سواء فى الغناء أو العزف على الآلات الموسيقية، ولكنه ضعيف فى الغناء الجماعى أو الاشتراك فى

(*) guerrilla

فرقة للعازفين (الأوركسترا) . وفى الألعاب والتمرينات الرياضية ليس من السهل على الأشخاص الذين يجرى فى عروقهم الدم الإسبانى أن يتقبلوا القيود التى يفرضها « العمل الجماعى » على ذاتياتهم الثائرة .

وتجمع الإسبانيين لا يتنافى مع مزاجهم الانفرادى كما قد يبدو . وعلى الرغم من أنه لا يوجد أناس أكثر تفانيا منهم فالإسبانى بطبيعته « اجتماعى » ويستمتع بصحبة الآخرين . فهو يحب الحديث ، ويحب أن يتبارى فى إظهار حصافته فى المناقشة . وليس هناك شعب أكثر طلاقة أو تعبيراً عن مكنونات أنفسهم بطلاقة أو قوة مثلهم ففى حجرة مملوءة بإسبانيين يتجاذبون الحديث يحس المرء فى بعض الأحيان أنه فى حضرة وميض برق صوتى ، إذ أن الأفكار والآراء تموج رائحة جائية حتى تصبح متوهجة وقابلة للانفجار . ومن الصعب أن يتخيل المرء إسبانيا معقود اللسان أو يحار من وجود الألفاظ لأية مناسبة . وموهبة ذلاقة اللسان هذه نقلت إلى العالم الجديد فى قوتها الكاملة ، ولو أنه فى بعض الأماكن كان عليها أن تتخذ الطابع المدارى الزاهى . ولكن حيثما ازدادت وطأة الإسبانيين على السكان فإن نفس السهولة اللغوية والطلاقة تمكنتا من البقاء وازدهرتا وسببتا الخوف والارتباك بين السكان الأصليين الذين اتصفوا بقلة الكلام واينه

واللغة نفسها وسط ملائم للتعبير لمثل هذا الشعب الذى يتصف بالرجولة . فليس فيها أطراف لينة ، كما أنها ملأى بالحروف الساكنة القوية الصلبة تفصلها بعضها عن بعض حروف متحركة موسيقية . ويبدو أن الأصوات تنبعث من سندان وأجراس برونزية لها أنغام عميقة وطبول من الأوانى والصنوج ، ولكن قلما تبدو متنافرة بصرف النظر عن عدد من يتجاذبون الحديث فى نفس الوقت . وحتى فى الجهات التى طغى عليها البرابرة كما فى الأندلس وأرجنتينا فقد استبقت قوتها الأصلية ووقارها وعظمتها . فهى لغة الرجولة ولغة الإمبراطورية ، وقال عنها شارل الملك الإمبراطور

وهو الذى ارتفع إلى طبقة الأصوات الحلقية الفلمنكية : إنها اللغة الوحيدة التى يمكن أن يخاطب بها الملوك والرب .

والديمقراطية الاجتماعية الحقة هى إحدى النتائج المتفرعة من الفردية الإسبانية . فبصرف النظر عن التمييزات الطبقية أو غيرها من المسميات ، اعتاد الإسبانيون أن يعامل بعضهم بعضاً كأفراد (١٧) . وفى هذه العلاقة يتجلى سلوك الناس على سجيتهم وإنكار ذواتهم دون اتخاذ موقف « أنا كفء مثلك » أو خنوع من ناحية ، أو تنازل أو تعاظم من ناحية أخرى . والغريب حقا أننا لا نجد لهذه العلاقة أى أثر فى الديمقراطية « السياسية » . وهى تنبعث على الأرجح من إدراك الإسبانى العميق أن الناس إخوة ، ويرجع هذا الإدراك فى أصوله إلى العقيدة المسيحية . وبهذا المعنى أكسبت الشخص أهمية كبرى كحق ذاتى له ، كما أكسبت الفرد وقاراً طبيعيا . والقبول الضمنى لهذا التنظيم المتعادل من كلا الجانبين يحد من الاحتكاكات الطبيعية التى تحدث بين الطبقات ، والتى تقوض المجتمع فى معظم البلاد . وجدير بالملاحظة فى هذا الصدد أن المظالم فى إسبانيا اقتصادية أكثر منها اجتماعية . ويسرى تطبيق هذا البروتوكول بين المتخاصمين وجها لوجه ، من العلاقة العادية لرئيس الخدم فى أسفل درجات السلم الاجتماعى إلى العلاقة القديمة لنبلاء قشتالة العظام .

الزهو الاسبانى

من المألوف لدى جمهور الناس أن إسبانيا والزهو كانا ولا يزالان صنوين من زمن قديم (١٨) . وفى الإسبانية كلمة زهو (*) نفسها يصحبها تعال ورنين ، عات . ولكون الإسبانى واثقا من نفسه ومتيقنا إلى الدرجة القصوى نجده متحررا من مركب النقص الذى يتفشى بين سكان أمريكا

(*) orgullo

الإسبانية الذين يجرى فى عروقهم الدم المختلط . ومهما يخامر قلبه من شكوك ومخاوف أحيانا فهو يخفيها وراء جدار زهوه هذا . وشغفه بالأمجاد وألقاب الشرف ، كعنوان وعلامة لتفوقه ، هو مجرد تثبيت لاعتداده بنفسه .

وإذا زاد زهو الإسبانى على الحد فقد يتحول إلى عجرفة ، أو غرور ، أو حسد ، أو يصبح ستارا يخفى وراءه نفاقه . وقد يكون الفارق ضئيلا جدا بين أن ينظر الإنسان لنفسه نظرة صادقة وبين الخيلاء ، كما هو بين الاعتزاز المتواضع والغطرسة . وبطبيعة الحال كانت هناك مناسبات رسمية قام التكبر أو التعاظم ، أو موهبة ما تدعو إلى التباهى ، بخدمات جليلة للإسبانى أو إسبانيا بين الشعوب السريعة الانفعال . ولكن إذا لم يكن هناك مناسبة لإظهار الفخفخة فإن الغرور قد لا يصبح سوى مباهاة يقصد منها ، كما تتبختر الديكة الرومية ، التأثير فى أفراد المجموعة وتخويف الديكة الأخرى .

ومن نقائص الإسبانيين وبالأخص الأمريكيين المنحدرين من أصل إسبانى أن يحسدوا أولئك الذين يعملون فى نفس ميدان العمل ، سواء فى ميدان الأدب أم الفن أم إحدى المهن . والمنافسات لاترحم ، ومن اليسير أن تنشأ العداوات الشخصية من المنافسة فى المهنة . فإذا لم يكن للشخص حظوة فربما كانت إنجازاته وانتصاراته باباً للسخرية والتشهير . أما إذا كان ذا حظوة فينزع أتباعه إلى الإسراف فى مديحه . ويكتب ميننديث بيدال عن « الحسد » ، وهو عنصر ظاهر من عناصر الخلق الإسبانى فيقول « ليس هناك شخص يود أن يشيد بعمل الآخرين ، لأنه يبدو أنك إذا أثنيت على شخص فذلك يعنى أنك تبخس نفسك . وقد أطلق بلتاسار جراسيان ، فيلسوف القرن السابع عشر اليسوعى ، على النزوع إلى بخس

الناس أشياءهم « الحقد الإسبانى » (*) وقال كونتارينى سفير فينتسيا (**) إلى بلاط فيليب الثالث : « ليس هناك أمة تقاسى من الحقد المتبادل مثل إسبانيا » .

وفى مثل هذا الميدان الملىء بالشعور الحاد يصبح النقد الموضوعى أمراً مستحيلا فليس للانفعالات التى تثار آثار حميدة . وجميعها فجة وغير مهذبة. فإما أن يستحسن المرء أو يحب ، وإما أن يكره كما يكره المصارع الثيران التى يتربص بها فى ساحة المصارعة . فليس هناك فتور أو توسط فى الأمور فى هذا الشأن . فأنت فى هذا الجانب أو فى ذاك . وإسبانيا نفسها هى وحدها التى تتمتع بميزة الحياد .

وتوكيد الإسبانى الزائد على مبدأ الشرف كان تعبيراً عن زهوه واستقلاله . يقول كالدرون فى روايته التمثيلية : «قاضى ثالاميا» (***) : « إن ما يملكه المرء من متاع وحياة فللملك ، ولكن الشرف وقف على الروح ، والروح من أمر ربى وحده » فهى الدرع الواقية التى تحيط بشخصيته وتحميها من الإساءة وقد تضمن الشرف وجود دستور متبادل وشخصى للسلوك — للأفعال التى قد لا يؤديها الآخرون نحو المرء ، والأفعال التى قد لا يؤديها المرء نحو الآخرين . وعلى هذا النحو كان بمثابة « قاعدة ذهبية » ذات تطبيق محدود . وترجع المأساة المريرة التى كثيرا ما تتكرر فى الأدب الكلاسيكى فى إسبانيا إلى الانتقام من جراء التعدى على قانون الشرف . فإذ أثيرت « مسألة الشرف » (+) فقد يكون الانتقام سريعا ولا رحمة فيه . وحيثما كان الأمر ماساً بالشرف الشخصى لامرىء ما خرجت العقوبة من يد الدولة ، وسرعان ما يتوارى الشخص المعتدى من تعداد سكان

(*) malignided hispana

(**) البندقية

(***) « El Alcalde de Zalamea»

(+) pundonor

إسبانيا بالقتل فوراً أو بإعطائه «فرصة للنزال» فى مبارزة (١٩) . وفى مناسبات مماثلة كان «الرجل الضعيف» الذى لم يستطع تحمل عبء دستور الشرف يتخذ من الإجراء ما يراه لائقا ومناسبا فى تلك اللحظة ولا يكلف نفسه مؤونة إدراك ما فعل . فالضعفاء وقليلو الحيلة هم فقط الذين يلجأون إلى العدالة اللاشخصية التى تجريها السلطة ويستغيثون بها فى تصحيح الخطأ .

ومن مظاهر الحياة العادية الاهتمامات الحفلية وتقديم الهدايا للأشخاص من قبل فئات المعجبين والأصدقاء . وقد تحدث هذه «التحيات» أو «التبجيلات» عند رحيل شخص إلى خارج البلاد أو عودته من بلاد أجنبية ، أو قد تكون احتفالا لنجاح شخصى أو تشريف ، وقد تكون أموراً خطيرة تكثر فيها الخطابة ويتبادل الناس فيها الإطراء وتشرب الأنخاب . وقد يضفى الناس قيمة أكبر على مثل هذا التقدير المشرف للمجهود العظيم أو النبوغ من أى جزاء وقتى قد يكون آتيا عن قريب . ففى شعب يتصف بكونه راضيا إلى درجة فريدة (٢٠) تعوض إلى حد كبير النقص فى إحراز جزاء أوفى . وهكذا الحال فى التشبث الذى يبدو زائدا على الحد ويتمسك به الناس بالدبلومات والألقاب والنياشين والرتب والاستدعاءات الرسمية والتشريفات وعلامات الأهمية أو دلائل الهيبة .

وكذلك تتصل بتمسك الإسبانى بزهوه الأهمية التى يعلقها على مظهره الشخصى . فهو يرغب دائما فى أن يظهر ويحوز أكبر قدر من القبول — وفوق كل شىء ، يلبس لباس الرجل المهذب حتى لو أدى ذلك إلى التضحيات المادية فى أشياء أخرى . وحتى فى يوم قائظ فى مدريد أو فى الجهات المدارية فى كولومبيا يفضل أن يكون فى ضيق من أن يخلع عنه معطفه ، لأن المعطف عنوان الطائفة التى ينتمى إليها . واقتصر فيما مضى على أن يكون معطفا أسود كان يضفى على مرتديه احتراما قائما فى جميع الأوقات والفصول.

زد على ذلك أنه كان يؤدى غرضه كاملا فى فترات الحداد الطويلة التى تفرضها الرسميات الإسبانية والتى قد لا تنقطع فى أسرة كثيرة العدد . ولم يبدأ الناس المنحدرون من أصل إسبانى إلا حديثا فى تحرير أنفسهم من ربقة أسلوب أملته التقاليد الاجتماعية . وإلى حد ما جاء التغيير نتيجة للتأثيرات الأجنبية من جهة ، ومن جهة أخرى نتيجة وعى جديد خصوصا بين الأجيال صغار السن الذين يرون أن الجسم أهم من الملابس التى تكسوه ، أو حتى من مراعاة نظريات مجحفة قديمة . ويوجد فى بعض جهات أمريكا اللاتينية نوع من الطقوس ممثل فى رباط رقبة يعد شعاراً للتحرر من الوصمة الاجتماعية التى يقتضيها العمل اليدوى . والحقيقة هى أن ما ترمز إليه الملابس من الناحية الاجتماعية ، إذا فرقنا بينها وبين وظائفها التزيينية ، أو ما تخفيه تحتها ، أكثر وضوحا بين الشعوب الإسبانية منها فى الولايات المتحدة .

وكان العمل باليد ينزل بقدر الشخص إلى مستوى الرقيق(٢١)ولا يزال التحيز ضد العمل اليدوى قوياً فى إسبانيا . ولقد أثر الإسراف فى منح ألقاب النبالة فى العصور الوسطى ، وهى الألقاب التى تعفى مستحقيها المنتفعين بها من عار العمل البدنى ، تأثيرا عميقا فى تعليم واقتصاديات شعب يتصف بالزهو . وفى التعليم الفنى كان التوكيد الزائد على الكتب أكثر منه على المعمل . وفى الاقتصاد سبب تفرقة فى العمال وقسمهم إلى أغنام يدفع لهم الرواتب وماعز يتناولون الأجور . وإذا كان الشخص فى مركز ليصدر الأوامر فإنه يمتنع عن أن يلمس عدة أو يدير آلة ما لم تكن إنسانا آليا أو آلة كبيرة يهتم بها الناس . وهكذا لا يحب الإسبانى ذو الياقة البيضاء أو الأمريكى الإسبانى أن يحمل حتى ربطة صغيرة أمام الناس . وكل هذا ينزع إلى اعتبار إسبانيا أرض الخادم ذى الزى الخاص الذى لا يعلم ، والذى من واجبه أن يريح الأشخاص من ذوى الحيثية من الأعباء التى تقلل من حيثيتهم .

وفى هذه البيئة التى تمجد الشخص نجد أن أى بخس يصيب الشخصية يعد إهانة عظمى . فقوانين القذف والتشهير لها من الصرامة ما ليس لها فى معظم البلاد الأخرى .فالتشهير العلنى بشخصية لها سمعة طيبة،فيما عدا أفراد الطبقة المتواضعة من المجتمع ، مجلبة للعقاب ، إما بواسطة القضاء ، وإما بالعقاب الشخصى. وعندما تكون الذنوب التى يرتكبها الشخص أو الجرائم التى يقترفها شائعة ورديئة السمعة — أو ليس للشخص أية مكانة اجتماعية — فلا أحد يبقيها سرا مكتوما من أجل الصالح العام . فالنقد قد يجد له مخرجا فى القيل والقال الذى يمكن أن يكون فيه من السم ومن هدم « الأخلاق » ما لا يوجد فى جهة أخرى فى العالم . فإذا أراد شخص تجنب مناسبات الذم أو السخرية فإنه يأخذ الحيطة لكيلا يضع نفسه فى مواضع الشبهات أو الارتباك أمام الجمهور . فلا يسمح لخبر خاطف يحط من قدره أن ينشر فى الصحف ، ويحاول دائما أن يكون على حذر ، وإلا فقد عرض جانب ضعف مكشوف للعالم جميعا . وهو يصر على السرية فيما يتعلق بحياته الخاصة ، ويثور غضبا لأى اعتداء على حدودها. وهكذا يقلل من نطاق ذاتيته المعرضة للتحقير أو الفضيحة . فالاعتداءات على الشئون الخاصة والحريات الأخرى للفرد ، والتى يتقبلها الأمريكيون بلا اكتراث أو استسلام لا حيلة لهم فيه ، قد لا يحتملها شخص منحدر من أصل إسبانى .

ولنضرب مثلا لوجهة نظر إسبانية فريدة فى مضمار تدوين المذكرات الشخصية . فعندما يدون الإسبانى مذكراته فهى «تبرير» (*) مدروس لما قام به من أعمال . ويشتم منها قليل من نقط الضعف الإنسانية الكامنة فيه .فهذه لا تسجل إلا بعد وفاته بوقت طويل من مراسلاته مع أصدقائه الحميمين ، كما أخفى فيليب الثانى حتى محاسنه عن العالم إلى أن مرت قرون

(*) apologia

وعثر على خطاباته التى كان يرسلها إلى بناته ونشرت . وعلى الرغم من أن التجربة الغرامية بصفة عامة تعد هفوة بسيطة فى قصص أمريكا اللاتينية ، فإن الأوصياء الرسميين الذين عنوا بالشهرة العظيمة التى لحقت ببوليفر والمهرة الذين ألهوه ذهبوا بعيداً إلى الحد الذى أعدموا فيه مراسلاته مع عشيقته مانويلا ساينث (٢٢) وعلى كل حال فقليل جدا من الأشخاص المنحدرين من أصـــل إسبانى هم الذين كتبوا تراجم حياتهم فى وقت من الأوقات .

وأخيراً ، وليس آخرا بأية حال ، نجد أن التأدب مظهر آخر من مظاهر الفردية الإسبانية . فآداب السلوك واجب الفارس . وهى جزء من دستور الرجل المهذب . كما أنها تكسبه مركزا أعلى فى نظره وفى نظر الآخرين الذين يفترض فيهم أن ينطبع عليهم فى نفس الوقت الاحترام الذى تقابل به أشخاصهم . وتنزع الملاطفة إلى أن تكون شكلية ورسمية بين الأصدقاء الحميمين ، ولكن مع ذلك فهى أكثر إخلاصا من التأدب فى أية بلاد أخرى . ففى إسبانيا أصبحت الملاطفة عامة لدرجة أنها خلقت شعبا من الأشخاص المهذبين . وعادة ما تلطف واجبات الفروسية (*) من حدة المثيرات الكامنة التى يسببها الزهو الإسبانى فى علاقات الناس بعضهم ببعض . فتحترم المشاعر ، كما لو أن شعبا نشيطا يتصف أفراده بالأمانة والاستقامة نحو أنفسهم ونحو الغير ، يرتابون فيما تنبس به شفاههم من ألفاظ . وهكذا يهون التعامل الاجتماعى بين الناس ويتجنب الناس انفجار الانفعالات . ولما كان قدر ضئيل من خشونة الطبع فى جميع مستويات السكان فهناك قدر أقل من الأذى الذى لا مبرر له ، وقدر أكبر من الطيبة فى معاملات الناس العادية بعضهم مع بعض .

(*) Caballerosidad - الجنتلمانية

هوامش الفصل الثالث

(١) « تجمعت فى أراضى إسبانيا نزحات جنسية كثيرة حتى يكاد يكون من المستحيل تحديد التركيب الإثنولوحى للشعب الإسبانى » .

Richard F. Pattee, «Introduccion a la Civilizacion Hispano --- Americana» (Boston, 1945) P. 32.

(٢) يقول سلفادر دى ما دارياجا عن الأخلاق الإسبانية : « إنها جافة وإنسانيه ، مستسلمة وثائرة ، نشيطة ومتبلدة » .

«English, Frenchmen, Spaniards: An Essay in Comparative Psychology» (London, 1928), P. 43.

(٣) يعلق ماريانو بيكون — سالاس الفنثويلى على تبرم الفاتحين أو « حنين الخطر » الذى ساقهم إلى الإفراط المفجع فى المغامرات ، فى حالة كورتيس نفسه وهير ناندو دى سوتو وپدرو دى ألفارادو و ديجو دى أورداث وجنثالو بثارو وكثيرين غيرهم .

«A lo sanchesco del disfrute, se mezcla el quijotismo de la aventura permanente.» De la Conquista a la Independencia (Mexico, 1944), P. 46.

(٤) اقتبسها ونستون تشرتشل فى كتابه

«The Second World War.»

(٥) يطلق ما داریاجا على الإنجليزى « رجل العمل » ، وعلى الفرنسى « رجل المنطق » ويرى رافائيل ألتاميرا المؤرخ الإسبانى المشهور أن يسمى « العنف والتعصب والمبالغة .. ثمرات الشهوة ... وهى من النزعات المميزة لشعبه » .

«A History of Spain, from the beginning to the Present Day.» tr. from the Spanish by Muna Lee (New York, 1949), P. 358.

(٦) من صفات [الشعب الإسبانى] . . . التخيل والبصيرة والبداهة والسماحة والذكاء الفطرى والسيطرة وإدراك الحقيقة والقدرة على التصرف السريع بنشاط يكاد لا يعرف حدودا — Madariaga, «The Genius of Spain» P. 32

« عاشت إسبانيا كشعب لا هو بالحزين ولا هو بالمرح ، تسيطر عليها فكرة الوقار الذاتى وطموح إلى الأبدية » —

Fernando de los Rios, «Spain in the Epoch of American Colonisation» in Griffin, ed., Concerning Latin American Culture (New York, 1940), P. 47.

(٧) كتب برو عن « رجال إسبانيا الصامتين المتحفظين »

George Borrow, «The Bible in Spain» (London, 1943). P. 55.

وكتب كابتن بازل هول ، وهو ضابط فى البحرية البريطانية قضى فترة طويلة على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية خلال حروب الاستقلال ، كتب عن سلبية تصرف الإسبانيين يقول : « الإسبانيون شعب بصير بالعواقب فى كل شىء ما عدا السياسة . ولما كان خلفاؤهم يشتركون فى نفس هذه.

الروح الحذرة فليس من السهل فى أى وقت من الأوقات أن تثيرهم إلى الحد الذى يعبرون فيه عن انفعالهم الشديد !

«Extracts from a Journal Written on the Coasts of Chili, Peru and Mexico, in the Years 1820, 1821, 1822» (2 vols. Edinburgh, 1824), II, 8.

(٨) يذكر ما دارباجا من بين العناصر الإقليمية فى مركب أخلاق إسبانيا : « الشدة والجدية ونقص السماحة العجيب فى الباسك، والثقافة الذهنية والذكاء السريع فى مواطن كتالونيا وإحساس مواطن بلنسية بفصاحة القول وصيغة الأسلوب اللتين يمتاز بهما سكان البحر المتوسط، والتلقائية السمحة وذات المغزى العميق أحياناً [التى يمتاز بها الأندلسى]، والإلهام الجاف، ولكنه متحمس، لدى القشتالى، والقوة التى جبلت عليها أراجون، وعذوبة غاليسيا الموسيقية، وتلك الفتنة الكلاسيكية التى تجعل من أستورياس مملكة تقف وحدها متميزة عن باقى ممالك إسبانيا » .

«The Genius of Spain» (London, 1923), P. 71.

ويوضح أوليفرا مارتنس ، المؤرخ البرتغالى ، الاختلافات الإقليمية فى الأخلاق الإسبانية هكذا « مواطن كتالوينا المجد ، مواطن بلنسية المكتئب والملازم الجلوس المرتبط بأرضه مواطن غاليسيا الصبور المثابر ، مواطن أراجون النبيل المتغطرس فى أعماله ، الباسك الشكس والنشيط الذى يزهو بوثائقه التى تقرر حقوقه ، مواطن قشتالة الوقور الكسول ، الأندلسى العجاج الخفيف الروح

«Historia de la Civilizacion Iberica» (tr. from the Portuguese, Madrid, n.d.), P. 21.

ويذكر فرانسسكوجارسيا كالديرون، العالم البيروفى ، عن الاختلافات فى الأنماط الاقليمية : «صلابة أستورياس .... انتظام الأندلس التوقيعى .... اندفاع إستريمادورا .... جدب كتالونيا تماسك الباسك .

Latin America, its Rise and progress (London, 1915). P. 31.

(٩) لما كان الأندلسيون قد تفوقوا فى عددهم على الرجال الذين قدموا من أى جزء آخر فى إسبانيا فى الفتح ، « فقد بدت هناك مسحة أندلسية واضحة فى الحضارة الإسبانية فى الأمريكيتين » — .

Charles E. Chapman, «Colonial Hispanic America : A History» (New York, 1933), P. 32.

(١٠) « إن روحها [الإنسانية روح إسبانيا] وتأثيرها الاجماعى راسخان بقوتهما وضعفهما كقوى متحكمة فى حياة نحو خمسين مليون أمريكى إسبانى اليوم » .

Herbert Ingram Priestley, «The Coming of the White Man 1492 - 1848» (New York, 1929), P. 117.

(١١) «أتت إسبانيا إلى أمريكا فى نزاهة وأعطت أمريكا كل ما كان لديها من نظم سياسية وتنظيمات احتماعية واقتصادية ومؤسسات ثقافية وفنون ودين »

Fernando de los Rios, «The action of Spain in America», in Griffin ed ; « Concerning Latin American Culture» (New York, 1940), P. 52.

« ومع أن المستعمرات الأمريكية أعلنت وكسبت استقلالها السياسى فإن اللغة والثقافة اللتين

وورثتهما من البلد الأم باقية لها كحيازة دائمة . وإذا قيست الإمبراطورية بمقاييس أخرى غير المقاييس السياسية والاقتصادية ، فإن أراضى أمريكا اللاتينية لا تزال جزءاً من الصورة ، وإن المجد الذى كسبته فى استقرارها وتحضرها سيظل مرجعه دائماً إلى إسبانيا » .

Roger B. Merriman, «The Rise of the Spanish Empire in the Old World and in the New» (4 vols., New York, 1918-34), IV, 676.

« وتبقى جميعها [جمهوريات أمريكا الإسبانيـــة] إسبانية من ناحية ... فهى أكثر قربا الواحدة من الأخرى عن قرب السكان فى أمريكا الشمالية من الانجليز وهى تشترك فى المظاهر العامة للأخلاق والطباع الإسبانية حسب العبارات الرنانة ، سرعة التأثر التى تبدو تجاه المودة أو الإساءة ، الإحساس بالوقار الشخصى ، الشجاعة الثابتة فى الحرب وقوة الاحتمال والصبر. وفى وسط رجال التربيـــة والفـــكر يبدو أساس السلوك الفـــكرى والشعور بالقيم المعنوية واحداً ومتينا » .

James Bryce, «South America : Observations and Impressions» (New York 1916), P. 445.

(١٢) يقول مادارياجا عن أعظم أربع شخصيات فى الأدب الأوربى إن هاملت « حلم إلى حد زائد » وفاوست « فكرة إلى حد زائد » ولـــكن دون كيخوتى ودون خوان رجلان « سيعيشان وينموان ما دام الرجال يتأثرون بحب العدالة أو حب النساء »

«The Genius of Spain,» P. 15.

ويقول أونامونو عن دون كيخوتى : « أنت تسأل . .. وماذا ترك دون كيخوتى؟. إنه ترك نفسه ، ترك رجلا ، رجلا حيا وأبديا ، يعدل كل النظريات وكل الفلسفات . ولقد ترك أناس آخرون نظما وكتبا ، ولـــكننا تركنا نفوسا ، فسانت تيريزا تعدل أى نظام ، أى « نقد منطقى خالص . »

«The Tragic Sense of Life in Men and in Peoples» (London, 1931), P. 323.

وفى مـــكان آخر يقول أونامونو عن دون كيخوتى : « ربما كان من واجبنا أن نبحث عن بطل الفـــكر الإسبانى لا فى فيلسوف حقيقى من دم ولحم، ولـــكن فى تصويره فى قصة، رجلا يعمل ، وله وجود حقيقى أكثر من جميع الفلاسفة

Ibid., P. 313

(١٣) « فى إسبانيا لا يتفق شخص مع آخر ..

Rufino Blanco-Fombona.

«El Conquistador Espanol del Siglo XVI» (Madrid, 1922), P. 27.

وقال جورج سانتايانا ، وهو إسبانى ، : « الإسبانى شخص فردى ، وقد يـــكون ورعا متصوفا ... ولـــكنه ، اجتماعيا وخارجيا ، لا يثق فى شىء أو فى أحد حتى ولا فى نفسه وملوكه

(١٤) مادارياجا

«Englishmen, Frenchmen, Spaniards,» P. 135.

الإسبانى واقعى إلى حد زائد حتى إنه لا يولى اهتماما كثيرا بصوته الانتخابى، وفردى إلى حد زائد حتى إنه لا يرى أهمية فى ضم صوته ليتعاون مع أصوات الآخرين P.166

(١٥) « فترة السبات الطويلة من الانانية والبلاهة التى انتابت تاريخنا طيلة الثلاثة القرون الأخيرة »

Ortega Y Gasset. «Inverteliate Spain» (New York 1937, P. 39

قال مانويل جالفيث ، الروائى الارجنتينى « إسبانيا مزينة فى العالم الحديث لأنها على طرق نقيض مع مثلها ، وهى تعلم أن أساليبها ليست أساليب هذا العالم الجديد والقوى » . التبس هذه العبارة :

William Rex Crawford, «A Century of Latin American Thought» (Cambridge, Mass., 1944), P. 154.

(١٦) كتب لوبى دى فيجا وحده عددا من الروايات التمثيلية تعدل كل ما كتبه المؤلفون فى عصر إليزابث وجيمس الاول مجتمعين .

Somerset Maugham, «Don Fernando,» P. 150.

(١٧) « لايسب أحد الفقر أبدا أو يزدريه .... وليس هناك شعب فى العالم يظهر أفراده فى اتصالاتهم الاجتماعية شعورا أحق مما يلزم لتبجيل الطبيعة الإنسانية أو أكثر تفهما للسلوك الذى يليق بشخص اتباعه نحو زملائه »

Borrow, op. cit., P. 139

« للإسبانيين الحق فى ان يعدوا أنفسهم آكثر الشعوب ديمقراطية »

Ellery Sedgwick, «The Paradox of Spain,» The Atlantic, September, 1952.

لاتزال إسبانيا أكثر البلاد ديمقراطية

Havelock Ellis, op. cit., P. 12

ولما كانت الفردية الإسبانية لاتثق بسلطة الكهنوت . فقد خلقت نظما اجتماعية وديمقراطية. فالتقاليد والمذاهب والعادات والقوانين دلت على شعور صحيح بالمساواة الإنسانية .... فالملك يراس ديمقراطية من الفرسان والمتصوفين والمغامرين والأوغاد

Francisco Gareca Calderon, op. cit., P. 37.

(١٨) الزهو هو شهوتنا القومية . وأعظم ذنب نقترفه . وليس الإسبانى شرها كالفرنسى ولا ثملا وغبيا كالإنجليزى، ولا شهوانيا ومسرحيا كالإيطالى، فهو يزهو ويزهو إلى حد لانهاية له

Ortega Y Gasset op. cit., P. 146

(١٩) « يقال إن بين العار وانتقام المرء لإساءة لحقته بعدا شاسعا ، بل إن عدم الانتقام هو العار ، لأن الناس يرون أن من تلحقه إساءة لا يجدر به أن يظهر بينهم حتى ينتقم لنفسه »

«The Diary of Samuel Pepys (for the year A.D. 1667) (Wheatley edition, 10 vols., New York, 1942), VIII, 396.

(٢٠) الإسبانى عاجز بفطرته عن قبول الخدعة القائلة إن أحسن الأشياء فى الحياة قد تشترى بالمال ، أو إن ثروة الانسان هى كثرة مايمتلكه »

Haveloch Eilis, op. cit., P. 5

(٢١) يقتبس التاميرا من تعليقات الأجانب المعاصرين على العادات الاسبانية فى النصف الثانى من القرن السابع عشر : هم يرون أنه لا يليق بوقار الإسبانى أن يعمل ويدخر للمستقبل والاسبانيون فقراء لأنهم مهملون وكسالى

«Historia de Espana y de la Civilizacion Espanola» (٤ vols., Barcelona, 1913, 3d ed.), III 493

(٢٢) انظر

Viotor Wolfgang Von Hagen. «The Four Seasons of Ma nuela : A Biography» (New York, 1952)

الفصل الرابع

الفاتح

كتب برنال دياث دل كاستيو : « أنا فاتح حقيقى ، وأقدم الفاتحين قاطبة » . وكتب كثير من الفاتحين عن أعمالهم والأشياء التى رأوها كما فعل المحارب العتيق كورتيس ، كتبوا بأمانة ، كالتى اتصفوا هم بها ، وبالقدر من الإخلاص الذى سمحت به انفعالاتهم .

وإذا كان الغرور والتفاخر قد تملكا الفاتحين فى بعض الأحيان كما تملكا برنال دياث فقد كان ذلك سهل الفهم . كتب الفاتح الهرم يقول : « حضرت مائة وتسع عشرة معركة واشتباكا ، وليس أمرآ شاذا أن أمدح نفسى لأن ما أقوله هو حق صرف » . فلابد أنهم كانوا يشعرون بأنهم ليسوا أشخاصا عاديين . وإن الأشياء التى رأوها لم تكن أشياء عادية . ثم أردف دياث يقول : « ثم اتجهنا إلى طريق المكسيك الذى كان غاصا

بجموع الاهالى ووصلنا إلى ممر إتنابالابا الذى يؤدى إلى العاصمة . وعندما شاهدنا عددالمدن الآهلة فوق الماء وعلى الأرض الصلبة وذلك الممر العريض الممتد باستقامة واستواء إلى المدينة لم نستطع أن نقارنه بشىء سوى بالمناظر الخلابة التى قرأنا عنها فى قصة البطل أماديس (*) من الأبراج والمعابد العظيمة ، والمبانى الأخرى المشيدة من الجير والحجارة ، والتى تبدو قائمة فوق صفحة الماء . وكان كثير منا يبدون فى شك : أنحن نيام أم أيقاظ ؟ وكذلك الحالة التى أعبر فيها عما تكنه نفسى من الإعجاب ، لأن « .. المرء حتى الآن لم يشاهد أو يسمع أو يحلم بشىء يشبه المنظر الذى بدا لنا فى هذا اليوم » . ومن ذكرياته عن شعب الأزاتقة فى يوم مقابلة مونتسوما كتب يقول : « كل ما شاهدته فى تلك المناسبة مطبوع فى ذاكرتى بوضوح شديد حتى لكأنه حدث بالأمس فقط » . أما جون فسكى فقد اطلق على أول نظرة إلى مدينة المكسيك من الممرين التلال : « أعظم لحظة خيالية فى جميع عصور التاريخ ، تلك اللحظة التى وقعت فيها عيون الأوربيين لأول مرة على مدينة العجائب » . وأما كورتيس فقد كان يفكر مليا فيما سيجىء به الغد ، ولذلك فقد مر مروراً عابرا على تلك اللحظة فى سرده للحوادث . كتب يقول : « تتبع الإسبانيون الطريق حتى وصلوا إلى قمة الجبال التى يمر بينها الطريق ، ومن هناك شاهدوا سهول كولوا ومدينة تمشتيتان والبحيرات الواقعة فى تلك المقاطعة » .

وكانت العجائب فى بيرو عظيمة كما هى فى المكسيك . ولقد مشى أحد جنود بثارو لابسا درعه بين الأشجار والأزهار الذهبية والفضية فى حدائق الإنكا فى تومبيس . وبعد مسيرة يمكن أن تعد أكثر سفرة فى التاريخ على ظهور الخيل حملق هرناندودى سوتو وبدرودل باركو إلى « الثروة

(*) Amadis of Goul .
اسم بطل عشر روايات كتبت فى القرون الوسطى باللغات الإسبانية والفرنسية والإنجليزية

التى لا يمكن تصديقها ، فى كشكو قبل أن يجردها زملاؤهما من كنوزها . ولابد من أن المنظر كان مذهلا ، كما ذكر أوفييدو (١) ، عندما جاءت عصابات الإسبانيين المتجولة بفدية الإنكا وبالأوعية الذهبية والفضية من خوخا وباشا كاماك وأماكن أخرى ، وجعلوا منها كومة فى كاناماركا . غير أن أوفييدو استقى روايته عن غيره ، فلم يكن هناك برنال دياث أو سييثا حاضرا بين الفاتحين الشرهين ليحكى عن هذه العجائب قبل صهرها إلى قضبان من الذهب والفضة . ويقول أوفييدو إنه بين تلك القطع كان هناك مقعد ذهبى ، لابد أن صاحبه كان نبيلا عظيما ، وكان الماء ينساب منه إلى بحيرة صغيرة تسبح فوق سطحها الطيور . وحول النهر كان الرجال يسكبون الماء . وأضاف قائلا : « إن كل ذلك كان مصنوعا من الذهب ، وهو شىء جدير حقا بالمشاهدة . »

وفى بعض الأحيان ألف الفاتحون كتابا — أو كتبا ، كما فعل برنال دياث وسييثادى ليون وأوفييدو المؤرخون . وبعضهم مثل كورتيس وفالدفيا كتبوا رسائل مطولة للملك أو إمبراطور ، إذا جمعت هذه تعد كتبا من ناحية المادة أو التنسيق . ثم إن هناك آخرين كتبوا تقارير مطولة ومتقنة عن أعمالهم وملاحظاتهم ووجدت هذه التقارير طريقها أخيرا فى سجلات الهند الغربية فى إشبيلية . أما بالنسبة إلى أولئك الذين لم يستطيعوا الكتابة أو لم يجدوا أبدا فرصة للكتابة ، مثل بثارو ومن شاكله ، فقد ملئت فجوات القصة بواسطة كتبة الكنيسة مثل بيتر مارتر ، ولاس كاساس ، وجنثاليث مارموليخو ، والأب سيمون ، الذين إما شاهدوا وإما سمعوا من سواهم عن الأشياء التى كتبوا عنها مع المؤرخين الرسميين مثل هيريرا ، أو متفرجى الصف الأمامى ورواة الأخبار الأصليين مثل جارسيلاسو الإنكا ، وبيجافتا من أهالى البندقية ، والذى انضم إلى ماجلان فى سياحته . وعلى ذلك فإننا نستطيع القول بأننا نعرف عن حملة الفتح

وعن الذين اشتركوا فيها أكثر من معرفتنا عن أية سلسلة من المغامرات الحربية التى حدثت حتى ذلك الوقت أو ، إذا أخذنا فى الاعتبار هذه الناحية ، حتى حروب نابليون .

واستقى بيتر مارتر ، الذى أرخ الفترة الأولى من الفتح ، قصصه كما فعل هاكلويت فى لندن أيام إليزابث ، من شفاه الفاتحين والمستكشفين عند عودتهم . يقول : « لم يقصر أحد ممن جاءوا إلى البلاط فى إرضائى بأن يقدم إلى شفاها أو كتابة تقريراً عن كل شىء عمله » . وقال برنال دياث : « أنا أروى ما شاهدته عيانا ، لا تقارير تافهة أو تقولات » ، وكتب سييثا يقول : « لقد اهتممت اهتماما كبيرا بالدقة فى تاريخى ، وفيما كان يخص الإسبانيين تخيرت رجالا حكماء كانوا صادقين لكى يستقوا المعلومات ويحصلوا على التقارير التى تدون عن الحوادث التى لم أشاهدها أنا بنفسى عيانا » . وقال أوفييدو : « أنا أروى ما رأيت » ، ويجتر استمتاع الجمهور بكتاباته فيقول : « آمل أن يرضى القارىء عما رأيته وما لاقيته من أخطار كثيرة ، فى حين يتمتع بما قد كتبت ويفيد ، دون أن يلحقه خطر ما ، فهو يستطيع القراءة دون أن يتحمل الجوع والظمأ والحر أو البرد وغير ذلك من صنوف الحرمان التى لا عداد لها ، ودون أن يترك مسقط رأسه ، ودون أن يغامر وسط العواصف فى البحار ، أو مخاطرا بالنكبات التى تصيب الناس على الأرض اليابسة . لقد ولدت لتسليته والترويح عن نفسه ، وفى تجوالى شاهدت هذه الأشياء » . وكتب هذا المؤرخ العجوز يقول : « لقد رأيت كولمبس أمير البحر الأول ومستكشف هذه الأرجاء ومعظم المستعمرين الأول ، وعرفت زعماء الرجال الذين جاءوا إلى هنا فى تلك الأيام ، وأيضا أولئك الذين أتوا منذ ذلك الوقت بمناصبهم الرفيعة ومسئولياتهم » . وكتب جارسيلاسو الإنكا عما بذله من مجهود ليدون مذكراته موضوعيا يقول : « إن الالتزامات التى يرتبط بها شخص يكتب عن

الحوادث التى تقع فى حياته وعليه أن يرويها للعالم جميعه تضطرنى وتجبرنى على ان أدون الحقيقة عما حدث دون هوى أو مصلحة(٢)» .

إن الموضوع الذى كتبوا عنه هو أعظم مغامرة إسبانية ؛ لأن الفتح كان عملا من الأعمال ذات الشأن العظيم ، ولأن الرجال الذين اشتركوا فيه كانوا رجالا كاملين . فلم يحدث ألبتة أن قامت العزيمة الإنسانية المحضة والمقدرة الشخصية بعمل جسيم قام به عدد قليل مثلهم على مسرح شاسع . ولم يضف الفاتحون عالما جديدا إلى قشتالة وليون فقط ، بل إن كشوفهم وانتصاراتهم سببت ثورة اقتصادية واجتماعية عالمية ، غيرت نمط الحياة جميعاً تغييرا جذريا فى أوربا وفى ممتلكاتها فيما وراء البحار .

الموت والفاتحون

كان معدل الوفاة فى فتح أمريكا مرتفعاً جداً ، فقد مات الآلاف من الجوع والمرض أو فى معارك مع الهنود(٣) وتبدو الخسائر أكبر بالنسبة إلى الأعداد الصغيرة التى كانت تتألف منها القوات التى قامت بالحملات . ومن المرجح أنه فى ثلاث مرات فقط فى أثناء الفتح تجمع أكثر من ألف إسبانى فى مناسبة واحدة تحت قيادة مندوثا على نهر بلات ، وعند دخول جنثالو بثارو ليما فى سنة ١٥٤٤ ، واحتلال كورتس مدينة المكسيك نهائيا . وكان معدل الوفاة فى حملة أوخيدا المبكرة إلى دارين ثمانين فى المائة ، بل أكثر من ذلك فى حملة نيكيسا . كما أباد الهنود كثيراً من القوات الإسبانية الصغيرة العدد . وفى « الليلة الكئيبة(*) » فقد كورتيس أكثر من مائة وخمسين من رجاله ، وفيهم ضابط من أقدر ضباطه هو فيلا سكيث دى ليون . وعندما وصل خمينيث دى كيسادا إلى هضبة كولومبيا بقى حيا مائة وستة وستون من رجاله فقط ، وكان عددهم تسعمائة رجل تقريباً حين بدأوا مسيرتهم

(*) Noch Triste

من الساحل . وعندما أخلى مكان مستعمرة مندوثا فى بوينس أيريس وصل أقل من ربع العدد الأصلى إلى المستعمرة الجديدة فى أسونثيون(٤). وطبقا لرواية جيرولامى بنثونى : « من أولئك الذين ذهبوا إلى بيرو مات ثمانون من كل مائة ».

ومن المحتمل أن تكون نفس النسبة العامة للناجين من الموت منطبقة على قادة الفتح فمن بين الذين قتلهم الهنود بدرو دى فالدفيا فاتح تشيلى ، وفرانسسكو دى فياجرا أحد ضباطه ، وخوان دى أيولاس ، ودييجو دى سوليس، وخوان دى جاراى رواد أراضى نهر بلات ، وخوان دى لا كوسا الملاح المشهور ، وخوان بونسى دى ليون مستكشف فلوريدا، وشريف* بعينى ، وصانع السلام فى بورتوريكو، وانيوفيو دى شافيس الذى فتح سهول شرقى بوليفيا باسم إسبانيا ، وفرانسسكو هيرنانديث دى كوردوبا مستكشف يوكاتان وقبائل المايا ، وخوان أصغر آل بثارو . ومن بين الذين أعدمهم زملاؤهم الإسبانيون فاسكو نونييث دى باليو ، وكريستوبال دى أوليد الذى فر من كورتيس فى أمريكا الوسطى ، ودييجو دى الماجرو وابنه ، وبلاسكو نونييث فيلا أول نائب للملك فى بيرو ، والثوار الذين شقوا عصا الطاعة على السلطة الملكية فى بيرو — جنثالو بثارو وفرانسسكو كارباخال ورد ريجو أورجونييث وفرانسسكو هرنانديث جيرون .

واغتيل فرانسسكو بثارو وأخوه غير الشقيق بدرو الكانتارا وردريجو دى باستيداس من أوائل الفاتحين للجهات الساحلية الشمالية لأمريكا الجنوبية (الأرض الصلبة)(٥)**. وخورجى روبليدو أحد فاتحى كولومبيا ، ومن حكام بيرو ، ويظن أنهم ماتوا بسم من أعدائهم ، ودييجو سنتينو ، ودييجو دى الفارادو ، وكذلك دييجو دى أوردات ، وهو أحد ضباط

---

adelantado (*)

Tierra Firme (**)

كورتيس ، بعد عودته من الغارة المشئومة التى شنها فى الأراضى الواقعة خلف نهر أورينوكو . وممن فقدوا فى البحر فى مياه العالم الجديد ، وغيرهما كثيرون ، دييجو نيكيسا والمنحوس بانفيلو دى نارفايث . وصعق البرق هرنان بيريثدى كيسادا أخا فاتح كولومبيا . أما بدرو دى ألفارادو ، الفاتح الخالد ، فقد ظل يقصعه حصان حتى مات . ومات البعض منهم منهوكى القوى من صنوف الإجهاد والحرمان مثل سباستيان بنالكاثار فاتح إقليم كيتو ، وهرناندو دى سوتو وجنثالو ساند وڤال ضابط كورتيس المحظوظ .

ومن العجيب أن يبقى حيا العدد الكبير الذى نجا مع المجازفات التى تعرضوا لها . ومنهم كورتيس العظيم ، ولو أنه مات قبل الأوان لشخص فى نشاطه الجسمى . أما خمينيث دى كيسادا فقد مات من الجذام فى البلاد التى فتحها بعد أن بلغ من العمر ثمانين عاما. وقليل جدا نجوا من لعنة بيرو، من بينهم ألونسو دى ألفارادو ولورنثو دى الدانا وجارسيلاسو دى لافيجا، أبو مؤرخ الإنكا . وأما هرناندو بثارو ، وهو أصغر خمسة إخوة فقد قضى فترة تقاعده مسجونا فى قلعة فى إسبانيا حيث لم يستطع أعداؤه النيل منه . وعاش حتى بلغ سن نضج الشيخوخة ، أربعا ومائة سنة. ويحكى الأب فاسكيث دى أسبينوثا عن أحد فاتحى فنثويلا ، وهو دييجو دى هنارس لوثانا ، وقد مات فى سن الخامسة عشرة بعد المائة تعلوه السنون وألقاب الشرف . ومن أعظم الفاتحين تحملا المحارب فرانسسكو دى أجيرى الذى مات فى سن تتراوح بين الثالثة والسبعين والحادية والثمانين بعد. حياة طويلة هى فى الواقع جيش فاتح يقوده رجل واحد . ومن مائة وعشرة ذهبوا إلى تشيلى مع فالدفيا عمر واحد إلى ما بعد المائة ، وستة بين ثمانين وتسعين سنة، وتسعة عشر بين سبعين وثمانين، وثلاثة وعشرين بين الستين والسبعين . وبعبارة أخرى عاش نصفهم تقريباً إلى سن الستين على الأقل ، وهو رقم قياسى غير عادى لطول العمر إذا أخذنا فى الاعتبار الأخطار غير العادية

التى استلزمتها الحرب مع التيهيلثى . وعاد بدرارياس دافيلا ، وهو العبقرى الشرير الذى فتح منطقة البرزخ وكان قد تقدمت به السنون ، إلى إسبانيا ليطول عمره عن أعمار ألف وخمسمائة كانوا رافقوه إلى دارين ، وليموت فى سن التسعين وعاش دومنجو مارتينيث دى إيرالا ، مؤسس باراجواى ، ومن أكفأ الفاتحين فى الإدارة فى مستعمرته الإسبانية رئيساً بين شعبه المختلط وواحداً من آباء الشعب ، بما فى هذه العبارة من معنى حقيق . وشخص آخر فاق معظم رفقائه ومعاصريه فى طول العمر هو الرواقى والشجاع الطائش(*) ألفارو نييث كابيثا دى فاكا أحد رجال الفتح غير العاديين ، وكان منافسا لفترة ما لمارتينيث دى إيرالا فى السيطرة على مستعمرة باراجواى(٦)

وروى أوفييدو عن أحد فاتحى فنثويلا الذى توقف عن الحروب اللانهائية مع الكاريب بزيجة هنية من أرملة ثرية فى هسبانيولا . يقول أوفييدو : « ولما أدرك سخريات العالم ، وأنهكه الكفاح والعمل بلا جدوى ، وإذ رغب فى أن يفيد مما بقى من عمره من سنين فقد صمم على الزواج » ، ولذا « فقد وهب الرب هذا المحارب المضنى صحبة امرأة طيبة توافق سنه » . وأردف باعتبار آخر قال إنها كانت تملك « مقومات الأكل ومنزلا مناسبا وستة آلاف رأس من الماشية وأرضاً واسعة » . وهنا وجد « السلامة والأمن اللذين طالما افتقدهما كجندى يبحث عن كنوز الميتا الأسطورية » .

وكثير من جنود الفتح ، وكانوا أسعد حظا من معظم قادتهم ، استقروا مع ذكرياتهم فى « الأرض الموثقة » (**) جزاء ما أدوا من خدمات ، أو فى بلد من البلاد الخاملة الذكر . وفى هذه الأماكن ، كانوا يقصون على أحفادهم القصص اللانهائية عن الحروب التى خاضوا غمارها عندما يأتى المساء فى صحن الدار أو الميدان ، وكانت قصصهم تطول كلما تطاول بهم العمر .

(*) نسبة إلى دون كيخوت المشهور .

(**) encomienda .

ومن هؤلاء برنال دياث الذى خلد اسمه فى الرابعة والثمانين بإصدار كتابه « القصة الحقيقية لفتح إسبانيا الجديدة » ، وهى أعظم قصة كتبها جندى فى تاريخ الحرب . وقد كان فى ذلك الوقت عضو مجلس شورى(*) أو مستشاراً فى مدينة جواتيمالا يعيش وسط مجموعة كبيرة من نسله يعنى بهم من أملاكه المتواضعة . وكان ينعى حظه ، شأنه فى ذلك شأن كل محارب عظيم ، وكتب يقول : « بقى حيا من رفقاء كورتيس خمسة فقط ، ونحن الآن طاعنون فى السن ، واحدودبت ظهورنا من العاهات وأصبحنا فقراء جداً ، ولنا أبناء كثر ، علينا أن نعولهم ، وبنات علينا أن نزوجهن ، وأحفاد نرعاهم ، ودخول صغيرة لنقوم بهذه الأعباء ، وهكذا نقضى بقية أيامنا فى ألم وكد وغم » .

ويروى برنال دياث مصير بعض من رفاقه فى الحرب : ثلاثة فقط أثروا فوق المستوى العادى ، منهم خوان دل اسبنار الذى أصبح « رجلا غنياً جداً » و « عاد » كل من خوان جوميث وواحد من أسرة فيالوبوس « إلى قشتالة بعد أن جمعا ثروة كبيرة » . ومن ناحية أخرى خمسة ممن أصابهم بعض الثراء تنازلوا عن ثرواتهم ليحيوا حياة دينية ، واثنان أدارا فندقين فى الطريق بين فيرا كروث ومدينة المكسيك ، وهو عمل كان لا شك مربحا فى تلك الأيام . أما جسبار دياث ، وهو واحد من المحاربين المحنكين ، فقد وهب ثروته وصار ناسكا مشهورا ومقدسا فى غابات جواشوسنجو الصنوبرية ، وواحد من أسرة إسكالاتى « وهو جندى كفء ذو مزاج مرح » انضم إلى المذهب اليسوعى ثم عاد جندياً ولكنه أمضى أيامه الأخيرة راهباً . ويذكر برنال دياث فى مجمل حديثه سبعة من بطانته القديمة أصبحوا كهنة .

وفى إسبانيا الجديدة كان توفيق المحاربين القدامى الذين اشتركوا فى الفتح لمطالب حياة السلم أسهل كثيراً عما كانت الحال عليه فى بيرو ، حيث كانت الحروب المدنية الطويلة بين الحكام تنزع إلى أن تكسب الجنود وحشية وأن

(*) Regidor

تجعل الكثيرين منهم غير صالحين للحياة المدنية . وعلى أحسن افتراض أصبحوا لايتقنون شيئاً و « لاحيلة لهم » ، أو على أسوأ تقدير أصبحوا عرابيد ومشاغبين مزمنين يزعزعون باستمرار قواعد الأمن الذى كانت حكومة نائب الملك تحاول فرضه على البلاد المضطربة. هؤلاء كانوا «الرجال الأشقياء» الذين اتخذوا مقامهم على الحدود الجديدة والذين كانت السلطات المنزعجة تحاصرهم أحيانا وتنظمهم جماعات يرسلونهم فى مطلب محال إلى أعماق الغابة فيما وراء الجبال بحثا عن مدينة ذهبية ما حتى يتخلصوا منهم نهائيا . وأشهر هؤلاء المتهورين لوبى دى أجيرى « ذو العينين الشبيهتين بعينى الحية المجلجلة » وحياته الإجرامية المخجلة فى الأرجاء الداخلية لأمريكا الجنوبية تعد إحدى أساطير القارة الخالدة .

الجندى الاسبانى

أقلية فقط ممن اشتركوا فى الفتح كان لهم سابق تجربة باستخدام الأسلحة، ولو أن قلة مثل فالدفيا وكارباخال كانوا محاربين قدامى فى حروب آل أراجون الإيطالية . ومن أقواهم شكيمة فرانسسكو بثارو ، وكان راعى خنازير ، وخمينيث دى كيسادا فاتح كولومبيا ، وكان رجل قوانين ومحاكم . وكان بالبو شابا خليعا جذابا فى بلاط أحد نبلاء الأرياف . وهكذا كان الجنود العاديون . ومن رفقاء برنال دياس كان يوجد « رجال أعمال » ، وكان فى الوقت نفسه مدرس كمان ورقص و « بهلوانا » . وكان للتاريخ الشخصى علاقة ضئيلة بمركزهم فى صفوف الفاتحين. وقليل جداً منهم انحدروا من أسر ذات تقاليد حربية مثل جارسيا دى باريدس ، وهو الابن الشرعى لقائد مشهور فى الحملات الإيطالية . وقليل كان لهم حتى صلة بعيدة بأسر العظماء(*) إذا استثنينا بونسى دى ليون وبدرو دى مندوثا . ومعظمهم كانوا لاشىء ، بل كانوا أناسا لم يسجل لهم ماض . وعلى أحسن افتراض

(*) grandesa

كانوا نفرا مجهولين من سادة الأرياف ، لا يعرفون خارج المنطقة التى ولدوا فيها . ومعظمهم مثل فالدفيا وبدرودى الفارادو لم يعرفوا حتى محل ميلادهم . أما الماجرو وبنالكاثار فكانا مجهولى الاسم ، وكانا يعرفان بالاسم المحلى لبلديهما. وقال برنال دياث إن معظم رفقائه كانوا من أشراف إسبانيا(*) ولكن الأشراف كانوا لا يساوون شيئاً (**) فى إسبانيا فى أواخر القرون الوسطى .

والحقيقة الهامة أنهم كانوا إسبانيي القرن السادس عشر ، ولذلك فقد كانوا مادة محاربة فائقة . وإذا تركنا جانبا الصفات التى ميزتهم كإسبانيين ، فقد كانوا ، كإسبانيين ، الحصيلة النهائية لقرون قضوها استعداداً لجهود جماعى عظيم أملته الإرادة الإنسانية . وطوال عصور عدة قاتل أهالى قشتالة أهالى أراجون وحارب كل منهما الآخر أو حاربوا المسلمين . ولم تكن فترات السلام طويلة ألبتة لدرجة تكفى لتهدئة الأعصاب المتوترة التى كتب عليها القتال . ثم تآلفت الظروف فى أواخر القرن الخامس عشر ونتج عن هذا التآلف أن تهيأ الوضع وحلت المناسبة للمغامرة الكبرى التى هيىء لها من قبل كل شىء آخر . واتحدت قوى المملكتين بزواج فرديناند وإيزابلا وطرد العرب من آخر معقل لهم فى شبه الجزيرة . وأرهفت حروب فرديناند الإيطالية سيف إسبانيا وعبأت عقليتها للتحدى الذى كان قادماً ، وكشف ملاح من جنوفا فى خدمة قشتالة أرضا بكراً مهيأة للاستيلاء .

وعلى الرغم من أن كتالونيا قدر لها أن تقوم بدور صغير فى فتح العالم الجديد فإن الأعمال الأسطورية التى قامت بها «الجماعات الحرة» من كتالونيا

(*) Hidalgos

(**) (maravides) نسبة إلى عملة نحاسية قديمة (القرنان الحادى عشر والثانى عشر) ذات قيمة تافهة .

(***) جنوة .

في الشرق الأدنى كانت خيوطاً لامعة في قماش إسبانيا الحربي ، ورسمت مغامرات روجير دي فلور وبيرنجير روكافور صورة خادعة للحقيقة في قصص الفروسية التي كانت القراءة المفضلة للفاتحين . وبعد ذلك بفترة طويلة شنت أراجون الحرب على صقلية ونابولي وأكملتها في شمال إيطاليا بقيادة الإمبراطور شارل ، وهي حروب متصلة اتصالا وثيقا بمجرى الفتوحات في الأمريكتين ولقد كانت هذه الحملات، وخصوصاً الانتصار على الفرنسيين في رافينا ، هي التي جعلت لإسبانيا هيبة حربية عظيمة في غرب أوروبا . ومنها أيضاً بزغ نجم جنسالفو دي كوردوبا « الكابتن العظيم » الذي أحدث انقلاباً في فنون الحركات الحربية وتنظيمات الجيوش الإسبانية . ومن هذه الحروب نشأ جيش جديد كان يعد ليصبح الأداة التي ينفذ بها ملوك هابسبورج خططهم في القارة . وكان أساس هذا التنظيم الحربي الجديد هو « الوحدة الحربية »(*) وهي الضم المحكم لمختلف الأسلحة في وحدة قتال فردية كان مفروضاً فيها أن تكون في مرتبة الفيلق المقدوني والفرقة الرومانية في تاريخ العمليات الحربية . وظلت « الوحدات » الجندية المخيفة مدة قرن من الزمان تجتاح غرب اوروبا حتى شتت الفرسان الفرنسيون شملهم في ركروا. وهؤلاء كانوا الرجال الذين يظهرون في « غابة الحراب » في اللوحة التي رسمها فيلاسكيث لاستسلام بريدا (١٧٩٣ — ١٧٩٤) وعندما شاهد الكاتب الفرنسي برانتوم(**) محاربي «الوحدات» الإيطالية وهي تتقدم نحو الشمال بدا له كأن أفرادها جميعا من الضباط . كتب يقول : «كان يمكن للمرء أن يقول إنهم كانوا أمراء ، وكان سلوكهم في زهو وخيلاء وحركة رشيقة جداً» .

وكانت سلالة الفاتحين من نفس هذه السلالة المتعجرفة المتعاظمة كتلك

(*) tercio

(**) Sieur de Brantome

التى تبعت ليفا والفا ، وبعضهم كان قد « اشترك فى القتال فى فلاندرز » — أو فى إيطاليا ضمن تلك الفئة المختارة . ولكنهم حاربوا فى عالم آخر وضد أعداء غرباء فاسدى العقيدة ، طريقة نزالهم أقرب إلى حرب العصابات الإسبانية الحقيقية منها إلى دقة « الوحدات » . وعلى ذلك فقد كانت معاركهم على الأرجح هى خلاصة الضربات والدفعات التى كان يقوم بها بضع مئات من « الأفراد » صمموا على إفناء أعدائهم .

ويجسم الفاتحون بدرجة فائقة عبقرية إسبانيا الخاصة . ففى فرديتهم الطافرة ربما استطاعوا أن يكونوا لا نظاميين إلى حد الفوضى ، كما كانوا فى بيرو فى معظم الأوقات ، حيث أدى تصادم العزائم الحديدية الثائرة إلى حرب أهلية(٧) . ولم يستطع أحد سوى زعيم فى مستوى كورتيس أن يروض لفترة طويلة نفوسهم المملوءة بالزهو والضراوة . وإنه لما يستحق الإشادة بمستوى الزعامة الفائق ، بصفة عامة ، بين حكام الأقاليم(*) أن الفتح أنتج هذا العدد الكبير من الزعماء مثل بالبو ، والماجرو ، وفالدفيا ، ومارتينيث دى إيرالا ، وخمينيث دى كيسادا ، وسوتو الذين استطاعوا أن يلهموا إخلاص أتباعهم فى تلك الظروف الشاقة . فعندما طلب رجال كيسادا منه أن يعود راجعاً إلى الساحل أخبرهم أن «مثل هذا الوهن لا يسمح به الإسبانيون». وعلى الرغم من استقلال الفاتحين فإن جانباً من جوانب أخلاقهم المتناقضة كان إخلاصهم الذى لاشك فيه للحاكم : إخلاص الإسبانيين الكيخوتى فى العالم الجديد ، حتى للملك أبعد ما يكون استحقاقا له ، وجاحد إلى أقصى حد ، إخلاصا استمر ثابتا حتى النهاية المريرة التى آل إليها العهد الاستعمارى .

ولا ترجع صفة الفتح البطولية إلى ضخامة المشهد والأخطار فقط ، بل إلى البسالة الأسطورية للجماعات الصغيرة من الأبطال الذين ثلوا عروش أمم عظيمة ومحاربة . وكانوا يحتقرون الأخطار احتقاراً كليا ، كما حدث عند أوتمبا وكاخاماركا وفى المعارك ضد الأروكاريان . وأظهروا استهتارا

(*) Adelantados

طائشا للأخطار التى لم يستطيعوا رؤيتها ، وتوغلوا برعونة دون حساب للتبعات فى الجبال والأدغال حيث يمكن بسهولة إيقاعهم فى كمين أو إبادتهم وعندما أجبروا على الاستسلام تحت ضغط الكثرة العددية ، ليس إلا ، فإنهم لم يخضعوا مطلقاً للهلع . وكانت أجسامهم مهيأة تهيئة صالحة لتجارب الفتح وإجهاداته بأسلوب معيشتهم المتقشف الذى تعوده جنسهم . وكان جلد الجندى الإسبانى وتحمله يدهشان أعداءهم الهنود الذين تعودوا المعيشة فى بيئتهم .

وكانوا متحمسين لعقيدتهم ، ويبتهجون عند تدمير الأصنام الوثنية التى تمثل الرمز المرئى للسلطان الذى يفرضه الشيطان على أعدائهم . وكان ينقصهم بطبيعة الحال شعور بالقيم الأركيولوجية المستقبلة . وفى حروبهم الصليبية ضد الكفرة لم يعودوا يحترمون المعابد المهيبة المخصصة للعبادة الرسمية فى شولولا والمكسيك ، وفى كشكو وباشاكاماك ، كما لم يحترموا المزارات المتواضعة على جانبى الطرق والتى كان يقصدها العامة من الناس . وكان يشاركهم فى حملاتهم قساوسة يماثلونهم فى الشجاعة مثل الأب ألميدو الذى كان فى جيش كورتيس ، يشاركونهم فى مصاعبهم ويؤدون لهم احتياجاتهم الدينية وعندما كان أحد الجنود يأخذ امرأة هندية محظية له ، فسرعان ما كان القس يدخلها فى المجتمع المسيحى ويطلق عليها اسماً مسيحياً مألوفاً .

وكان المؤرخون من الجنود يكشفون عن صفات السلالة التى انحدروا منها والظروف التى حاربوا وعاشوا فيها . كتب سيثا دى ليون يقول : « أما بالنسبة إلى المصاعب والجوع الذى واجهوه فلا تستطيع أمة أخرى فى العالم أن تتحمله . وقد بلغت جرأة الإسبانيين درجة عظيمة إلى حد أن لا شىء فى العالم يخيفهم » . كتب سيثا ذلك دون تفاخر ثم أضاف : « لا يوجد شعب آخر يستطيع التوغل فى مثل هذه الأراضى الوعرة ، ومثل هذه الغابات الكثة ، ومثل هذه الجبال العظيمة ، والصحراوات ، وفوق هذه الأنهار العريضة ،

كما فعل الإسبانيون دون مساعدة من الغير، بل بشجاعتهم الشخصية وبمراسهم الذى اتصفت به سلالتهم ليس إلا . ففى فترة سبعين عاما غلبوا وفتحوا عالما آخر دون أن يأخذوا معهم عربات للمؤن أو مخزنا للحقائب أو خياما يستريحون فيها أو أى شىء ماعدا سيفا ودرعا وحقيبة صغيرة يحملون فيها الطعام » . وكتب أوفييدو : « لقد منح الله إسبانيا فرسانا شجعانا كثيرين وأشرافا لامعين ، وجعل أهلها على مستوى عال من الشجاعة والعزم ومن الفطرة الحربية » .

وكانت الأخطار فى بعض الأحيان من الضخامة بحيث لا يستطيع الرجال تحملها . قال متكلم باسم إحدى الفرق التى توغلت فى الأراضى الخلفية فى فنزويلا مخاطبا قائده : « نحن لا نريد ذهبا ، بل نحن نموت هنا . خذنا بعيداً عن هذه الأرض الملعونة ، ولو أنك أردت أن تعود إلى هنا ثانية فاذهب بنا إلى كورو فقط حتى نسترجع صحتنا ونحضر ملابس جديدة وأسلحة ، لأننا مجردون من الملبس وفى حاجة إلى كل شىء . وياسيدى سنعود معك بعتاد جديد وبفرصة أقرب إلى النجاح مما لو داومنا على المسير الآن ولذلك فعلى حالتنا هذه لسنا فى حاجة إلى ذهب أو أى شىء آخر، اللهم إلا أرواحنا فقط ، ولا نريد أن نهلك أنفسنا دون هدف ، نحارب السماء ونتحدى المستحيل(٨) » .

القصة السوداء

لم ينقطع اتهام الإسبانيين منذ الفتح بالجرائم المروعة التى ارتكبوها فى حق سكان العالم الجديد الأصليين . وهذه « القصة السوداء » التى تحكى القسوة الإسبانية نشأت مبكرة جداً فى المبالغة الدعائية المنسوبة للاس كاساس المشهور الذى ناصر قضية الهنود ضد طغيان حكامهم . ولما كان كتابه « تدمير الهنود »(*) قد أمد الأحقاد التى كان يضمرها لإسبانيا جميع

(*) La Destruccion de las Indias .

حسادها بموضوع مناسب ، كان هناك تهافت على ترجمته إلى لغات أوروبية أخرى . وكانت النتيجة أن تلك الأمم ، التى لم يكن لديها هى هنود لتظلمهم ، استطاعت أن تشيد بما هى عليه من التهذيب والاستقامة على حساب الإسبانيين . وأصبح هذا التواتر اللعين مؤكداً كالأسطورة التى أوحى بها سوتون(*) يقول فيها «إن الدعارة التى عمت الإمبراطورية الرومانية مسئولة عن سقوطها» . وفى عصرنا هذا نجدها باقية للأجيال القادمة فى لوحات دييجو ريفيرا .

وليس هناك شعب احتكر لنفسه القسوة أو احتكر الرحمة فى القرن السادس عشر . وعلى الرغم من نواهى المسيحية والكرامة الجديدة التى أكسبتها النهضة لشخصية الإنسان الفرد ، فقد كان العصر عصراً خشناً عديم الرأفة . فتحت المسحة الجديدة التى جاءت بها المدنية الغربية كان لا يزال هناك كثير من القسوة والوحشية كاللتين ظهرتا فيما بعد فى الحروب الدينية فى أوروبا . وحدث أن الإسبانيين والبرتغاليين كانوا أول أوروبيين يلقى بهم للاتصال بالأجناس «الأدنى» ، ومن المرجح أنهم عاملوهم بإنسانية كما يفعل أى شعب أوروبى آخر فى نفس الظروف . وعلى ما كان بينهم من أحقاد متبادلة ربما كانوا قساة بعضهم نحو بعض ، كما كانوا فى وقت ما نحو الهنود .

وفى أول موجة من موجات عصر الكشف اجتاح الإسبانيون الجزر الكبرى فى الأنتيل . وإذ أضحوا واقعيين من ناحية الثروة التى ترقبوا العثور عليها ، ونظراً إلى غرائزهم فى التلذذ بممارسة القسوة التى أثارتها دماثة الأهالى سلك كثير منهم مسلك رولدان القاسى . وعندما أخذ سكان هسبانيولا يتناقصون بسبب سوء المعاملة والمرض جىء بالعبيد من ساحل القارة لكى يسدوا الثغرات فى القوة العاملة بالمستعمرة . وشاهد لاس كاساس — وهو نفسه مستعمر مدنى ويستخدم العمال الهنود قبل أن ينقلب راهباً دومنيكانيا —

(*) (Suotonius) .

هذه المرحلة من الفتح ، وأوحى إليه ماشاهده أن ينشر مقالاته الملتهبة ضد بني وطنه من الإسبانيين .

وعندما عمت هذه المرحلة من الفتح فوق القارة لاقى الإسبانيون مقاومة الأعداء الجمة من الهنود المحاربين الذين أجبروا الإسبانيين على احترامهم بسبب صفاتهم المقاتلة . وفى عنف الحروب التى تلت غزو القارة لم يرحم أحد من الفريقين الفريق الآخر ، بل عامل أحدهما الآخر دون أدنى مراعاة لقواعد أو مبادىء الإنسانية أو العدل . وكانت وحشية الهنود تستلزم الرد بالمثل ، كما حدث فى كولومبيا ، أو عندما قـــدم الأزاتقة أسرى الحرب الإسبانيين قربانا لإله الحرب أمام زملائهم . واختلف الفاتحون على ما بينهم من تباين اختلافا كثيرا بالنسبة إلى معاملتهم للهنود . فقد كان نونيو دى جوثان الذى اجتاح إقليم بانوكو فى شمال المكسيك سفاحا وصياد عبيد ، استدعاه الأسقف ثومراجا ليحاسبه على ما اقترف من جرائم . أما كورتيس وقد ألجأته الضرورة الحربية إلى القسوة فى أثناء اشتداد فترة الفتح ، فقد كسب بعد ذلك ثقة الشعوب الهندية فى المكسيك باعتداله .

وحدث مثل ذلك بالنسبة إلى بالبو . فبعد أن انتهت صرامة الأعمال العدائية الأولى حافظ على الســـلام فى جميع أرجاء إقليم دارين بمعاملته العادلة لمختلف زعماء القبائل فقط ليهدم بدرارياس دافيلا ماقام به من عمل . وعلى الرغم من أن الأراضى الساحلية لأمريكا الجنوبية ظلت مدة طويلة وكراً فتاكاً لسهام الكاريب المسمومة ، تصوب نحو أى إسبانى يجرؤ على النزول إلى الساحل فإن بدرو دى هيريديا مؤسس كارتاخينا استطاع أن يوجد علاقات عمـــل مرضية مع الهنود المجاورين . وفى بيرو ، وبصفة خاصة فى الجهات الساحلية منها ، قاسى الهنود كثيراً فى أثناء الفتح والحروب الأهلية التى صاحبتها . وبعد كاخاماركا كانوا دائما يتوقعون أسوأ معاملة من فرانسسكو بثارو ، وقلما خاب لهم رجاء . وكسب جنثالو شهرة

أكبر بكثير مع الهنود مما كسب أخوه ، أما الماجرو، شريك بثارو ، فعرف كيف « يسلك طريقه » مع الهنود كما سلك مع رجاله(٩) .

وإذا كانت القسوة تغلب على الإسبانى فى وطيس الفتح فإنه ، بتوقف القتال ، وعندما يتحول الفاتح إلى مستعمر ، ينقلب مصير الهندى إلى تحسن بصفة عامة . فإذا استقر على أرض موثقة فإن الهنود الذين كانوا يعيشون على الأرض يصبحون « تبعاً » له . وكان يشعر ، بوصف كونه وليهم ، بأنه مسئول عن سعادتهم ، وكان يفضل أن يراهم سعداء فى التفافهم حوله ، لأن سعادتهم كانت تزيده راحة بال وفى هذه العلاقة الجديدة كانت صفة العدالة والإنسانية المتأصلة لدى الإسبانى تنزع إلى إثبات وجودها . وعلى الرغم من حدوث استثناءات فردية فإن دستور الوثيقة ، مع الضمانات التى وضعتها القوانين الجديدة ، كانت على وجه الاحتمال إطاراً مرضياً على قدر المستطاع للتوفيق بين مصالح الحاكم والمحكوم فى ذلك العصر البعيد عن الكمال(١٠) .

وعندما لحق بالهنود سوء معاملة كان الإسبانيون أول من يحتج ، سواء منهم رجال الدين والعلمانيون . وإنه لما يذكر بالفخر لإسبانيا على الدوام أنه كان هناك قساوسة مثل مونتسينوس ، ولاس كاساس ، والدومنيكان الأوائل ، والفرنسسكان فى المكسيك ، ورجال ضمن الفاتحين أنفسهم ، مثل سييثا وأوفييدو وكابيثا دى فاكا يرفعون أصواتهم فى جانب الهنود ، ولم تكن هناك أمة أخرى قد سنت دستورا من القوانين لحماية رعاياها ، كما فعلت إسبانيا ومن بينها جميعا لم يوجد شخص يحمل على عاتقه عبء المحافظة على القيم الخاصة بحضارة الأهالى بالحكمة البالغة والإخلاص والإدراك فى وجه أثر القوى الجديدة مثل : فاسكودى كيروجا أسقف ميشواكان ، وأحد تلامذة توماس مور . وتبقى الحقيقة الكبرى ، وهى أن معظم الناس فى أكثر من نصف جمهوريات أمريكا اللاتينية لا يزال يجرى فى عروقهم الدم الهندى .

البحث عن الذهب

كتب كثير عن لهفة الفاتحين الشديدة على الذهب ، كأن الشراهة رذيلة خاصة بالإسبانيين وحدهم . ولكن الغرض الأساسى للفتح لم يكن بهذه السهولة . وكان اقتصاد الفاتحين غير معقد . فإذا استثنينا بضعة من القواد ، نجد أن معظمهم كان لايملك مالا ولا أرضاً . فإذا بدوا كأنهم يقدرون لحيازة الذهب قيمة طاغية ، فلأن هذا المعدن كان يغطى كل مدركاتهم الأولية عن الثروة ، كما أن ثروة الهند الغربية كانت قد وعدتهم بالتخلص من الفقر الذى عانوه فترة طويلة . فلما رأوا الذهب يتدفق فى أيديهم — نصيباً لهم من غنائم الفتح — صرفوه بتحمس مماثل للتحمس الذى دفعهم من قبل إلى البحث عنه ، حتى إذا جاء الغد رأيتهم فى غالب الأحيان فقراء كما كانوا يوم أن غادروا إشبيلية(١١) . ولما آلت إليهم الثروة فجأة بسطوا أيديهم كل البسط ، وعندما قامروا بما نهبوه من كسكو قبل طلوع فجر اليوم التالى كانوا قد قامروا بالصور الذهبية من معبد الشمس ، كما لو كانوا يقامرون بريالات(*) فى حانة على الطريق فى استريمادورا(١٢) . يقول سييثا عن ازدراء الإسبانيين للنقود إذا حصلوا عليها : « إذا كانوا فى حاجة إلى أى شىء فإنهم لايفكرون فيه ألبتة ، فقد اشتروا الخنازير وهى فى بطن أمها قبل ولادتها بمائة بيسو وأكثر (**) .

وكثير من فاتحى بيرو أصبحوا أغنياء لفترة من الفترات ، غير أن قليلين عاشوا ليفيدوا من ثرائهم ، فالثروة كالحياة نفسها ، كانت ابنة يومها فى تلك البيئة . وقد مول الماجرو حملته إلى تشيلى من نصيبه من غنيمة الإنكا الأصلية . وكان يعطى الذهب لكثير من أتباعه لكى يستطيعوا تجهيز أنفسهم

(*) real : عملة قديمة تساوى ربع بيسيتا .

(**) peso : ٥ بيسيتا .

ثم لما وصلوا إلى وادى تشيلى ألغى كل التزام له عليهم فى حركة غطية خاصة به . وحمل سوتو معه الثروة التى نظم بها حملته الدهياء فى الجزء الجنوبى مما هو الآن الولايات المتحدة . وحتى أولئك الذين كانوا من جشعهم يحسبون المكاسب مثل لويس دى لوجو ، من حكام نيوجرينادا *) الأوائل وقد كان قاطع طريق حقيقيا ، فلم يعمروا للتمتع بما جنوه من أموال فى حياة طويلة . ولكن عندما قسمت غنيمة حملة فاديلو فى كالى كان نصيب سييثا الشاب خمسة بيسات ونصف بيسو . « هكذا »، قال سييثا ، « كان الجزاء عن كشوف تمت بهذا العمل المضنى » . وعلى طرف نقيض ، عندما قسمت فدية أتاهواليا أنصبة بين رجال بثاروفى كاخاماركا تسلم كل جندى مترجل ٤٤٠ بيسو من الذهب و ١٨١ ماركا من الفضة ، وضعف هذه المكافأة لكل من الفرسان . وقال برنال دياث إن جنود كورتيس العاديين كانوا غير قانعين بتوزيع كنز الأزاتقة . وكتب عن « ذهب مونتسوما الذى وزع توزيعاً سيئاً واستخدم استخداماً أسوأ »، « أخذ ضباطنا سلاسل من الذهب صاغها لهم صناع الملك . وصيغ لكورتيس مثل هذه الأشياء ، ومعها « طاقم » لأدوات المائدة . وكثير من جنودنا الذين ملأوا جيوبهم جيداً فعلوا نفس الشيء ، واستمرت المقامرة نهاراً وليلا . وهكذا أمضينا وقتنا فى المكسيك » وبعد الاستيلاء النهائى على عاصمة الأزاتقة احتفل الجنود بالحادثة التاريخية فى جمع كبير مشاغب فى كويوسان وكانت قد وصلت حمولة من النبيذ ولحم الخنزير من كوبا فى الوقت المناسب للاحتفالات . وبينما اشتد المرح ، « أقسم العامة من الجنود أنهم سوف يشترون خيلا بطقوم ذهبية ، ورماة السهام ألا يستعملوا إلا السهام الذهبية ، وكان على الجميع أن يكونوا ذوى ثروات . وعندما أخلى المكان من النضد ، رقص الجنود وهم مرتدون الدروع مع السيدات ، مع العدد الموجود منهن ، ولكن التفاوت فى العدد كان كبيراً

(*) كولومبيا .

جداً . وقد خزى الأب الطيب القلب الميدو مما كان يحث . وتبعت تقسيم الغنائم موجة من التضخم كما حدث فى بيرو . وسرعان ما أصبح الجنود فقراء كما كانوا عند وصولهم إلى المكسيك من قبل . ولكى يخفف من حدة الموقف أعلن كورتيس تأجيل دفع الديون بين رجاله مدة سنتين(١٣) .

وكانت حاجة الفاتحين إلى القوة والتعبير عن شخصياتهم أكثر من حاجتهم إلى الذهب . فهما ميدان العمل المناسب لذواتهم الهمجية . وكانت إسبانيا جميعها فى ثوران، واجتاح البلاد من أقصاها إلى أقصاها تبرم شديد، واحتاج الناس إلى ميدان أوسع لفائض نشاطهم من الميدان الذى كانوا يمارسون فيه أنواع النشاط المحلية البسيطة . وقد كان هناك ميل لأن يأتى اليوم شبيهاً إلى درجة كبيرة بما كان عليه اليوم الآخر فى باداخوس أو ميديين، حيث كان الماضى يتحكم فى الحاضر، وحيث ضاع هنالك المستقبل، وحيث كان الشباب يتوقون إلى المغامرة والتخلص من سأم الحياة ورتابتها فى بلد ريفى كئيب، ولذلك فقد نزحوا نحو الميناء فى اشبيلية حيث كانوا يقلعون منها إلى الهند الغربية ، وكثيراً ما كانوا يحملون معهم سيفهم ، متاعهم الوحيد ، فلربما حملتهم السفن إلى القوة والثراء ، ولكن دائماً إلى المغامرة والفروسية .

وكتب فرناندو دى لوس ريوس: « يمثل الفاتحون أروع نموذج معروف فى عصر النهضة المضطرب للعزم على الوصول إلى القوة . ففى هذه الفترة تجسم فى الفاتحين تمجيد الأفراد والثقة التى لاحد لها فى قيمة كل مايقوم به الإنسان من عمل والرغبة فى الوصول إلى القوة والمجد . ولربما لم يحدث ألبتة فى التاريخ من قبل أن كان هناك مشهد لقوة العزيمة ... الصلابة التى لا تصدق والتهور الذى به قاموا بأعظم الأعمال جرأة . وإذ وجدوا أنفسهم معزولين فى وسط مجهول همجى ، ومعاد فى أغلب الأحيان إلى درجة فظيعة، نظروا بلا وجل إلى عينى أبى الهول ، إلى أفق المستقبل الصامت . وبدلا من أن يشعروا بالخوف أحسوا بجاذبية السر الغامض ، ولذلك فقد مضوا فى طريقهم ، فقد كان عندهم ثقة عمياء فى قيمـــة قوة عزيمتهم فى

«البطولة الطائشة»(*) التى جسموها ، والمهمة السامية التى كانوا يشعرون أنهم يؤدونها ، غير واعين فى بعض الأحيان(١٤) .

مشروع الفتح

نظم الفتح وموّل إلى حد كبير كما ينظم ويموّل أى مشروع اقتصادى(١٥) وعلى الرغم من أن ملك إسبانيا كان شريكا فى الأرباح إلى مقدار الخمس من المشروع الكلى ، فقلما كان يسهم فى رأس المال الأساسى للمشروع . أما الاعتماد الأساسى فعادة ما كان يديره قائد الحملة الذى قد يودع كرهينة أية أموال يملكها أو يعطى الدائن حق الحجز أو السجن لأداء الدين . ولقد مون بدرو دى مندوثا حملته الكبيرة إلى نهر بلات بنصيبه فى سلب روما . وبتراكم رءوس الأموال فى كل خطوة لاحقة من خطوات الفتح ، أصبحت ، مصدراً مستمراً للقيام بعمليات توسع أخرى وعلى ذلك أصبحت سانتودومنجو وكوبا والمكسيك فى الشمال ، وبنما وبيرو وتشيلى فى الجنوب على الترتيب ، ميادين للتجنيد ومراكز لتمويل حملات إلى أراض جديدة . وسحب بدرو دى ألفارادو من أرباحه فى فتح المكسيك لتمويل فتح جواتيمالا ثم من أرباح هذا المشروع نظم جيشاً لينضم إلى فتح بيرو ، باعه بـ ١٠٠٬٠٠٠ بيسو نقداً للفاتحين الذين كانوا فى الميدان . وكان فتح بيرو قد جمعت له الأموال المحلية فى منطقة البرزخ قام بتدبيرها القس لوكى وهو شريك موص لألماجرو وبثارو . وفى وقت لاحق استغل هرناندو دى سوتو ، وكان مساهما كبيراً فى الشركة البيروفية ، فوائد رأسمالية ليدفع نفقات حملته على الأراضى القارية لأمريكا الشمالية ، كما فعل بترودى فالدفيا فى فتح تشيلى .

وكان من المقرر أن الظروف التى تتم فيها كل حملة من حملات الفتح تدون فى وثيقة رسمية اسمها «معاهدة تسليم»(**) وكانت هذه تصريحا بالفتح

(*) eroici furori .

(**) Capitulation .

ولـكن ليست ترخيصاً لاصطياد الهنود فقد كان الملك يؤكد دائماً لأصحاب التراخيص ضرورة معاملة السكان الأصليين بالروح المسيحية . وكان تجنيد وتجهيز القوة التى تتكون منها الحملة مسئولية يقع عبؤها على الحاكم وحده ، ويعين القائد عادة بالاسم فى العقد . وبينما احتوى عقد «التسليم» على النص المألوف بتخلى الملك عن أية تبعات يستلزمها مشروع الفتح ، فقد أوضح أن الملك يتوقع الخمس من أية أموال تأتى من جانب الإيرادات فى المغامرة. وحددت كذلك ، بغموض شديد ، المساحة التى كان من المقرر أن تعمل الحملة فى أرجائها . والغموض الذى حاق بهذه النقطة ، وكان لا مفر منه نظراً إلى الجهل بجغرافية القارة فى ذلك الوقت ، كان السبب فى السخط الذى نشأ وأدى إلى الانشقاق بين ألماجرو وبثارو ، والذى عجل بمأساة الحروب الأهلية فى بيرو . وكانت ألقاب الشرف تمنح بتقتير شديد ، وعادة ما كان منحها على سبيل المكافأة أكثر منه على سبيل الإغراء . وفى هذه الناحية ، على الأقل ، كان كولمبس أكثر المستكشفين والفاتحين الذين أصابهم منح الألقاب . فهو لم يرق إلى درجة أميرال البحر ـــ المحيط فقط ، ولكن أيضاً إلى درجة دوق فيراجوا ، وهو لقب لا يزال يحمله خلفه من أشراف إسبانيا وكان ابنه دييجو أول نائب للملك فى الهند الغربية . وأنعم على كل من كورتيس وفرانسسكو بثارو بلقب الإمارة(*) . أما خمينيث دى كيسادا فقد منح لقبا طنانا ، ولكنه فارغ ، لقب مارشال مملكة نيوجرانادا . وأشبع غرور الآخرين ببراءة الفروسية فى نظام من النظم الحربية . ومنح البعض شعار النبالة ، وكان تمجيدا كافياً لإشباع زهو أى شخص فى حالات بضعة رجال مثل سباستيان إلكانو ، أول من طاف حول الكرة الأرضية ، ودييجو منديث أحد ملاحى كولومبس الشجعان(١٦) .

وبعد أن وصلت إلى إسبانيا أول أخبار عن فتح المكسيك كانت هناك

(*) marquisate .

مشكلات قليلة بالنسبة إلى تجنيد المتطوعين . ذلك لأن حانات إشبيلية كانت تغص عادة بالشباب المختالين ، يتوق كل منهم إلى رتبة من صفوف كورتيس ما جديد . ولقد جند كورتيس قوته هو فى كوبا من أولئك الذين كانوا قد عادوا مثله إلى الحياة المدنية فى المستعمرة الجديدة . وكان من المقرر أن كثيرين ممن تبعوه إلى المكسيك يشتركون فيما بعد فى فتح بيرو ، وحتى فى أراض أبعد مسافة . غير أنه فى ذلك الوقت كان يفد إلى الهند الغربية من شبه الجزيرة سيل من المتطوعين الجدد .

ولقد كان فتح العالم الجديد من عمل قشتالة . أما الأم ذات الحظوة التى أنجبت الفاتحين فهى مقاطعة إستريمادورا فى قشتالة ، وهى تقع على جانب المملكة متاخمة للبرتغال(١٧) . ومن بين الفاتحين العظام كان كورتيس ، وبثارو ، وفالدفيا . والمحاربون ألفارادو ، وبالبو ، وسوتو ، من مواطنى إستريمادورا . وكذلك كان ساندوفال وأوريانا ، وأيضاً من الضباط الآخرين فى فتح بيرو سنتينو ، وهينوخوسا ، وجارسيلاسو دى لافيجا ، وجوميث دى توردويا ، وبيرالفاريث هولجين . وأخيراً ، وليس بأية حال آخراً ، من بينهم كان برنال دياث من مدينا دل كامبو ، مصدر كثير من الفاتحين . ومن جهات أخرى فى قشتالة جاء أوخيدا، ومونتخيخو ، ونارفايث وفاسكيس دى كورونادو ، وفيلاسكيث دى ليون ، وجيل جنثاليث دافيلا . أما خمينيث دى كيسادا فكان من جرينادا ، وأما كابيثا دى فاكا فمن خيريث دى لا فرنتيرا . وكان مارتينيث دى ايرالا وخوان دى جاراى من الباسك . واشترك بضعة من الباسك والبرتغاليين فى معظم الحملات . فقد كان هناك بضعة من البرتغاليين بين الفاتحين الحقيقيين للمكسيك «رجال شجعان» كما وصفهم برنال دياث . وكما كان مرتقبا كان العنصر الغالب بين الجنود العاديين أندلسيين من إشبيلية ومن بلاد أخرى فى وادى الوادى الكبير .

وبالإضافة إلى « رئيس المعسكر » و« الضباط » ، والجنود المسلحين العاديين الذين كانوا عماد كل جماعة ، كانت الجهود تبذل عادة لتجنيد بضعة أشخاص من الأخصائيين الذين كانت خدماتهم ذات منفعة خاصة للحملة . فلا تكتمل أية قوة مالم يكن بها صانع الأسلحة ، الذى كان كذلك يؤدى عمل الحداد للفرسان الملحقين بالجيش . وربما كان صانع سفن من الباسك سبباً فى تجميع بقية سلاح المهندسين وكانت الخدمة التى يؤديها القسم الطبى ، كما كانت الحال فى معظم جيوش ذلك الوقت ، رديئة جداً . فى بعض الأحيان كان الجندى الذى يقص لحى زملائه عندما يزيد طول الشعر على حدوده يقوم بدور الحجام(*) أو الفصاد على الطريقة العلاجية المتوارثة من العصور الوسطى . وعلى كل حال فقد كان معظم عمل الطبيب هو تضميد الجروح وترك شفائها للزمن وسلامة البنية . ويخبرنا برنال دياث عن اسكوبار الأعزب « صيدلى وجراح وطبيب » لجيش كورتيس الصغير . ويضيف أنه « أصيب بالجنون » ، ولا عجب فى ذلك نظراً إلى المرضى الذين كان عليه أن يعنى بهم .

وكان هناك دائماً محرر لتسجيل أعمال شعب يتصف بالشكليات والوسوسة . وكان يناط به الحفاظ على طويتهم القانونية كما يناط بالقس الذى يصحب كل حملة الحفاظ على طويتهم الأخلاقية . وهؤلاء القساوسة كانوا عادة يأخذون مسئولياتهم مأخذ الجدية الصارمة ، وكثيراً ما كانوا قوة رادعة للرغبات الطائشة التى كانت تصدر من أتباع أبروشياتهم الأتقياء . ويشيد برنال دياث كثيرا بفراى بارتولومى دى ألميدو ، الذى رافق كورتيس فى فتح المكسيك ، ويبدو أنه سلم من مواجهة جميع أخطار الحملة ضد الأزاتقة . وعلى رواية برنال دياث : « لم يكن من رجال اللاهوت العظام فحسب » ، ورجلا مقدساً ، بل كان يجيد الغناء ، وكان رفيقاً طيباً .

(*) sangrador .

وكانت الحاجة إلى المترجمين ماسة جداً فى التعامل مع الهنود . ففى بعض الأحيان كان الهندى يختطف مقدما ويعطى منهاجاً سريعاً فى اللغة الإسبانية لا لشىء إلا أنه غالباً مايتبين أنه تكلم اللغة الخطأ وأن معلميه قد أضاعوا وقتهم معه . وأجدى من هؤلاء جميعا كان المترجمون أمثال دونيا مارينا ، التى قامت بخدمات لاتقدر فى فتح المكسيك ، والإسبانيون الذين عاشوا سنين بين الهنود مثل خيرونيمو أجيلا الذى عثر عليه كورتيس فى يوكاتان وكذلك ، بتقدم الفتح واستطالة طرق المواصلات أصبح للرسل والكشافة أهمية خاصة فى تحركات وإمدادات جنود الفتح القليلة . واشتهر بضعة رسل فى فتح بيرو وفى فترة القلاقل التى حدثت إثر الفتح قال سييثا عن أحدهم ، وهو بيرو كاييجو : «كان مشاء سريعاً ، وعرف البلاد معرفة جيدة» . ورسول آخر هو ألونسو جارسيا ، الذى كان يتخفى فى زى الهنود . وكان يحمل الرسائل من فا كا دى كاسترو إلى الماجرو . وبعد فترة تعقبه خوان دينى ، وهو أشهر من عرف من الجواسيس الرسل وقبض عليه .

العدالة فى الفتح

من مظاهر أية حملة فتح(*) جديدة جيدة التنظيم قراءة «الإعلام»(**) على أول جماعة يقابلونهم من الهنود . فإذا ترك الهنود المكان قبل بدء الحفل أو سئموا الإجراءات ورحلوا والحفل مستمر ، فإن تلاوة «الإعلام» لاتنقطع على أية حال وكانت هذه الوثيقة غير العادية وذات الصفة الإسبانية النموذجية جزءاً من البروتوكول أو الشكليات الرسمية للفتح ، وكان الغرض منها تعريف المستمعين إليها بحقائق الحياة الجديدة ممثلة فى الفاتحين وهكذا ليهيئوهم لما كان مقررا حدوثه على الأرض إن لم يكن فى السماء . وابتدأ الأسلوب الكيخوتى فى المجادلات بنبذة عن الخليقة ، ومن هذه

(*) entrada .

(**) requerimiento .

النقطة دخل فى العهد القديم ثم رأساً إلى العهد الجديد وفى أثناء هذا السرد يشار إلى مبدأ الثالوث المقدس الذى لا يفهمه حتى الإسبانى العلمانى ، ثم يتلى ملخص لتاريخ البابوية بشىء من التفصيل ، ثم أفهم الناس بوضوح أن البابا وهب العالم الجديد رسمياً إلى ملك إسبانيا ونائبه المعتمد، وأن الإسبانيين الموجودين قد حضروا للاستيلاء على الممتلكات وحق الانتفاع بريعها البشرى والمادى ، وبجانب هذا ليجعلوا من السكان الضالين مسيحيين صالحين . وهذا الخليط المسهب من اللاهوت والفقه كان يلقى بالإسبانية مما كان يدخل الحيرة والفزع فى نفوس المستمعين. وكان الجنود الإسبانيون يقفون ووجوههم مشدودة فى أثناء إلقاء المسجل « للإعلام » ، ولكن بعد انفضاض الاجتماع يعطون الفرجة لينفجرا فى الضحك الهوميرى(*) كما يروى أوفييدو عن تجربته الخاصة . فإذا لم يظهر الهندى أنه قد استجاب لتوه لهذا « الإعلام » الرنان ، رغم أنه لايفهم ، كما كان حاصلا فى أغلب الأحيان . أحس الإسبانيون وقتئذ أنهم فى حل من ممارسة العمل الذى جاءوا من أجله .

وعلى الرغم مما قد يبدو لشعب آخر أن هذا مجرد استعراض للكيخوتية الإسبانية ، فإن « الإعلام » كان دليلا على اهتمام الأمة الإسبانية العميق والمخلص بعدالة الفتح الأصولية . وكانت مسألة العدالة والفضيلة المتعلقة بالفتح تثقل كثيراً ضمير إسبانيا ، كما كان هناك بحث كثير لاسترضاء القلب والعقل عن الناحية الأخلاقية للمشروع العظيم الذى بدأه الإسبانيون بحماسة شديدة وآمال عراض . أما أنهم توقفوا لكى يأخذوا فى الاعتبار بكل جدية هل لهم حق ، أم أنهم مخطئون فى العمل الذى كانوا على وشك القيام به قلما يعلو بعظمة إسبانيا الخالدة ، كما كان إنجاز المغامرة البطولية نفسها . فلم تكن الكنيسة وحدها هى التى أسمعت صوتها القوى فى صالح الهنود ،

(*) بصوت عال ومختلط .

ولكن رجال الفقه والسياسة درسوا العاقبة بهدوء وموضوعيا ، وبذلوا جهداً زاهياً لإيجاد حل للتوفيق بين مصالح الشعبين . ولم يكن كافياً أن «بابا» إسبانياً قد قسم من قبل العالم الجديد بين إسبانيا والبرتغال دون أخذ رأى سكانه ، والإسبانيون فى منأى ، فى حين كان فرانسسكو دى فيتوريا الذى كان ، على الأرجح ، أكفأ سياسى ومفكر فى عصره ، وأميرال البحر دييجو فلورس دى فالديس يتحديان حق البابا فى إصدار قراره . وكان الناس يسألون أنفسهم بصراحة : أى حق لهم فى حرمان الهنود مما كان لهم أو فرض قانون وعقيدة إسبانيا عليهم ؟ فهذه الجماعات الهندية كما كانوا يفترضون ، قد تكون حقوقهم فى أراضيهم قانونية كحقوق قشتالة فى مملكة غرناطة . وأمر نائب الملك توليدو ، لكى يرتاح من شكوكه ، أن تجرى بحوث شاملة عن الطريقة التى سيطر بها الإنكا على رعاياهم من الشعوب . ومن الأمور التى لها مغزى فى القوة الرادعة للتشريع الإسبانى أن الذين يبررون الفتح حاولوا أن يلصقوا بجميع أشراف الإنكا والأزاتقة وصمة المغتصب والظالم .

ولقد كان هناك إسبانيون مفكرون يرفضون أن يقبلوا الرأى المريح الذى يقول إن الهنود كانوا همجيين، ولذلك لم يكن لهم حق يلتزمون باحترامه ولقد عرف الفاتحون والرهبان الذين صحبوهم من وقت مبكر أن هناك هنوداً وهنوداً ، وأنهم لم يكونوا جميعاً أكلة لحوم البشر أو إخوة للوحوش ، بل إن كثيرين منهم كانوا يبدون أناساً معقولين(*) فعلا، منحوا ، كما منحوا هم العقل والمروءة . وكانت لهم حكومات فائقة التنظيم كالإنجليز والفرنسيين . وكانت حضارتهم فى بعض النواحى تبدو كأنها تفوق حضارة أوروبا، كما لاحظ برنال دياث فى تينوشتتلان .

وبعض هؤلاء الشعوب الذين التقوا بهم كان لهم مجتمع منظم ، وآداب

(*) gente de razòn .

رقيقة ، وحاسة جمالية عميقة ، ومبادىء عالية تميز بين الحق والضلال. ومثل هؤلاء الشعوب كانوا يستحقون مصيراً أفضل مما كان مقدراً لهم مع المعاملة الوحشية التى جاء بها الفتح(١٨) . فقد كان للفاتحين كلمة الفصل فى المساجلة ، وفى طريق العنف الذى سلكه الفتح تناثرت أطلال حضارة بتراء فى أرجاء العالم الجديد .

الفتح بوصفه حربا

كانت مشكلة الفتح الحربية مختلفة جداً عن النمط التقليدى لمشكلات الحروب التى تعودها الإسبانيون فى أوروبا. وإنه بفضل مرونتهم وبراعتهم وكذلك قوتهم وتصميمهم الغاضب ، قد لاءموا أساليبهم التى تعودوها فى القتال للظروف الجديدة بنجاح كبير ، بل إنهم كانوا أحيانا يظهرون تفوقاً على الهنود فى أسلوب قتالهم وكان الجندى الإسبانى قد أعدته فرديته وسعة حياته واكتفاؤه الذاتى إعداداً عجيباً لأسلوب « ساعد نفسك فى القتال » ، الذى كان قاعدة متبعة فى العالم الجديد ، حيث انقلبت المعارك فى وقت مبكر إلى ملاحم وحشية عادة ، ليس لها خطة ، ويختلط فيها الحابل بالنابل . أما أهم مقومات الإسبانيين الأخرى فقد كانت : الأسلحة الصلبة ، والبارود والخيول ، والكلاب .

واختلف نمط العمليات الحربية فى العالم الجديد باختلاف الأراضى واختلاف العادات الحربية والبسالة التى كانت تبديها الشعوب الوطنية . وعلى الرغم من الصورة التى رسمها لاس كاساس فقد كانت الحرب متوطنة فى دنيا الأمريكتين قبل الفتح الكولومبى . ومهما يكن الدافع إلى الحرب — نشوة القتال ، السلب ، النساء ، التنافس على أرض الصيد ، المجد المتزايد لطبقة المحاربين ، الأسرى الذين يقدمون قربانا لآلهة نهمة ، كما بين الأزاتقة ، اللحم الآدمى اللازم لقائمة الطعام ، أو تحريض إمبراطورى ،

كما بين الإنكا — فإن شعوب القارة كانوا دائماً يحاربون بعضهم بعضا . وجاء الإسبانى فلم يعطل أية قاعدة بريئة للسلام . وبوصف كونه عدواً غريباً لا يعرف أصول الحرب ، فإنه لم يضف سوى نوع جديد من الأسلحة والخطط فى ميدان قتالهم ومشاغباتهم .

ولم يكن الفتح معجزة صنعتها وساطة سانتياجو راعى الأسلحة الإسبانية كما قد يحاول بعض المؤرخين من الكهنوت أن يقنعونا ، ولا حتى نتيجة جنود لا يقهرون . فإذا كان الأمر قد انتهى بأن القادمين الجدد قد انتصروا على معظم الشعوب الهندية فلم يكن السبب الأكبر فى ذلك أى تفاوت فى الصفات المقاتلة للفرد ، بل تجمع ظروف كثيرة كانت فى جانب المعتدين . فإذا أخذنا رجلا نداً لرجل — لرجل من الأزاتقة والشيشيمك فى المكسيك أو الكاريب على سواحل القارة ، أو الكالشاكى فى شمال أرجنتينا ، أو الجوارانى فى أراضى نهر بلات ، أو الأروكازيان فى تشيلى وأقربائهم فى البمبا — فقد كان خصما أهلا للإسبانى المقدام . ولكن قلما كانت المعركة تدار بهذه البساطة ، بل كان هناك عوامل خارجة عن الشجاعة البشرية لتحسم النتيجة .

وفى فتح المكسيك تعرضت أهمية القوة الحربية النسبية لاضطراب خطير من عوامل نفسية ذات صفة خارقة للطبيعة . فقد لاءمت أسطورة عودة « الإله الأبيض » كتشا لكوتل من وراء الأفق الشرقى ، برعاية من الله ، خطط كورتيس الذى كان لا يفوت فرصة مواتية يقتنصها لنجاح مشروعه الجرىء والمزعزع . فبينما كان مونتسوما ، وقد أوهنت عزيمته المخاوف ، يستشير العرافين الرسميين ، وملأ التطير والإشاعات جو عاصمة الأزاتقة المضطرب ، أصاب الشلل العزيمة والقوة اللتين يتصف بهما شعب مقاتل فلم ينتهوا إلى قرار . وفى الوقت الذى أيقن فيه الأزاتقة أن الإسبانيين ليسوا آلهة

زمرة آلهتهم ، بل بشر يموتون وقد سعوا إلى حتفهم ، كانوا قد ضيعوا على أنفسهم فرصة المبادأة ووقتا ثمينا وفى بيرو كان هواينا كاپاك العجوز، آخر أباطرة الإنكا العظام ، تساوره ملحة نذر الشؤم بالأخطار التى سوف تحيق بأمته ، وكان يمكن أن يعجل بمعرفتها بالتقارير التى ترد عن الغرباء الغامضين الذين بدأوا يظهرون فى أرجاء أخرى من القارة .

وفى فترات الفتح العصيبة قامت سلسلة من الحوادث العرضية لمساندة الإسبانيين . فمثلا وصلوا إلى بيرو فى وطيس حرب أهلية كانوا هم وحدهم المنتصرين فيها . وكان هواينا كاپاك قد جزأ إمبراطوريته ومهد الطريق لتدميرها بتقسيمها بين اثنين من أبنائه ، هواسكار واتاهوالبا (١٩) . وفى هذا الجو من الوحدة المنفصمة والولاءات الموزعة لعب الغزاة نغمة معبرة عن عزيمة صارمة لبلوغ هدف موحد ، وكانت حاسمة. وفى المكسيك أيضاً كان الحظ مواتياً للفاتحين . فعندما علم كورتيس أن كل شىء لم يكن على مايرام فى أناهواك ، وأن استقلال قبائل تلاسكالا المتحاربين كان جرحا لايندمل فى جسم الأزانقة ، فقد استغل ضغينة تلاسكالا ضد مضطهديهم لمصلحته . وبهذا كسب حليفاً كانت مساعدته ضرورية لازمة للصراع اللاحق المرير وغير مضمون العاقبة . وفى كل مكان وجدهم الإسبانيون فى العالم الجديد أفادوا مما بين أعدائهم من شقاق ، كما فى المنافسة بين أشراف الشبشا فى كولومبيا . فقد كان هناك عادة جانب واحد فى الحروب المحلية راغب فى الحصول على المساعدة الفعالة من الإسبانيين ثمنا لتعاونهم ضد أعدائهم . وقد لاحظ أحد الفاتحين ذات مرة أن المساعدات الأهلية اصبحت ذات أهمية فى متابعة الفتح كأهمية الكلاب لفريق الصيد .

واكتشف الإسبانيون لفورهم نقطة الضعف فى تركيب المجتمع الكهنوتى وكيف كان يؤثر فى القوة الحربية فى الدول الهندية المتقدمة ، وكانت هذه هى المجموعة الكبرى من الجند والرعية الذين لايصبح لهم حول ولاقوة

إذا ما أسر أو قتل قائدهم المعظم ، كما شوهد ذلك فى أوتومبا وكاياماركا ومناسبات أخرى . وفى نفس الظروف استمر الجندى الإسبانى ، وهو الذى يتصف بالفردية الصارمة ، فى القتال على مسئوليته الشخصية .

وميزة أخرى للإسبانيين كانت تكمن فى قيادتهم الفائقة . فأمام العبقرية الحربية التى اتصف بها كورتيس ، وقيادة بالبو المتقنة والخمسة بثارو(*) والماجرو وبنالكاثار ، وحتى ضابطها ومثل خمينيث دى كيسادا ، كان أحسن قادة الحرب من الأهالى عادة لا يزيدون إلا قليلا على شجاعتهم وتفانيهم . وحتى كوابوتمك ومانكوكاپاك اللذان أحييت ذكراهما بنصب أقيمت لهما فى المكسيك ولما كانت تنقصهما لمسة العظمة الإضافية اللازمة فى المحك النهائى على « الممر » وفى حصار كشكو . ولهذا فهم يدخلون باب التاريخ كقواد عظام لقضايا خاسرة مثل فرسنجيتوركس (**) ، ولوبنجولا الزولو ، وهندى آخر هوپونتياك ، والإسبانى الصميم سيد(***) ولعل زعيمى الأروكانيان الجبارين : لوتارو وكوپوليكان ، كانا أصلب عودا ، رغم أن الحظ جانبهما فى اللقاء النهائى مع الإسبانيين .

وقد كان للمهارة الفائقة وسعة الحيلة اللتين اتصف بهما الجندى الإسبانى وزن كبير فى ترجيح كفته ، وعلى الرغم من أن المحاربين القدامى فى الجزر كانوا ينظرون إلى الشبان الصغار الجائين توا من إسبانيا نظرة ازدراء ، فإنهم سرعان ما تعلموا من تجاربهم ، بل إن تعلم أساليب الحرب الجديدة كان هو الفرصة الوحيدة للبقاء . يقول أوفييدو إن معارك بالبوفى الأدغال كانت مدرسة حقيقية لتخريج الفاتحين . وسيطر

(*) فرانسكو وجنسالو وهرناند ووخوان وبيدور .

(*) قاوم يوليوس قيصر عند فتحه بلاد الغال وأسر وسيق الى روما حيث أعدم .

(***) Rodrigue Dioz de Binar Cid Compeader فارس إسبانى لمع فى حربه ضد العرب ومات سنة ١٠٩٩

الإسبانى على فن الهنود فى القتال فى الغابات ، وتعلم كيف يحافظ على حياته فى ساحات القتال المضنية هذه ، كما فى القتال الخطير بصفة خاصة على طول السواحل الشمالية للقارة . فهنا كان الفتح سلسلة لاتنتهى من مناوشات العصابات ، تنوسيت فيها جميع فنون الحرب التقليدية ، ولم يكن هناك مجد ينال، بل تقدير ضئيل لهذا النوع من القتال حيث مات مئات من الإسبانيين بالكزاز(*) الذى سببته الأسهم المسممة التى كان يصوبها الكاريب ، وقلما كانوا يرونهم ، أو نتيجة الأشواك المسممة السنان التى كان ينصبها لهم الهنود فى كمائن طرقهم الغابية العفنة فتقعدهم ، وياللفظاعة (٢٠) . وكان الجندى الإسبانى يدثر جسمه بلحاف سميك من القطن حماية له من أفتك سلاح لدى الهندى ، لأن قوسه يمكن أن يكون سلاحا مروعا، سواء رمى «خمر الساحرات» التى كان يستخدمها الكاريب فى أوردة الإسبانى ، أم أسهم أجنكورت التى كان هنود «فلوريدا» يحاصرون بها الرجال والخيل فى حملة سوتو . وعلى النقيض من ذلك لم يجد الهندى مطلقا الحماية الكافية من الأسلحة الصليبية التى كان يستخدمها الإسبانيون . وعندما اقتبس أسلحة عدوه قلما تعلم كيف يستخدمها بنجاح ملحوظ . وعندما وقعت فى يده القربينة (**) أفاد منها قليلا فيما عدا فرقعة مدوية ، ولم يصبح أبدا رجل سيف ، ولو أنه كان يستطيع تطويح هراوته الحربية فى القتال المتلاحم فيدمر عدوه . واستخدم الأروكانيان وبعض هنود السهول فى أرجنتينا الرمح الإسبانى وزادوه طولا . واستخدم الأروكانيان، الذين أظهروا مهارة كبيرة فى تحويل أسلحة وخطط الإسبانيين لمصلحتهم ، الرمح فى صفوف متراصة كدفاع ضد سلاح الفرسان الإسبانى . أما قبائل البمبا ، الذين إذا ما استأنسوا وامتطوا الخيول البرية فى أرضهم ، فقد استخدموا الرمح

---

* التتنوس .

(**) harquebus سلاح نارى من طراز قديم .

كسلاح يهاجمون به فى إغاراتهم . واعتمدوا فى دفاعهم على القوس والسهام الموجودة فى كل مكان ، وعلى المقلاع (*) الذى كانوا يعرقلون به أرجل خيول الإسبانيين ، أو يصطادوا بالحبل راكبيها وهم يمتطونها .

وكان الإسبانى سريعا فى تغيير أسلحته كلما استدعت الحال ذلك فى قتال الأدغال كان ينزع إلى ترك السيف التقليدى والحربة ، ويستخدم المدية الثقيلة المكوبية التى تشبه سيف البحارة القصير ، والتى لاتزال السلاح الذى لاغنى عنه فى غابات أمريكا اللاتينية المطيرة . وفى مثل تلك الأوقات كان يحمل على الدوام خنجراً فى نطاقه يستخدمه فى العراك المتلاحم أو حمايته من الأعداء فى الظلام . ولم تكن عنده ثقة ألبتة بالأسلحة النارية المربكة التى كانت تستخدم يوم ذاك ، رغم أنه كان يقدرها نظراً إلى تأثيرها السيكولوجى على الهندى. كما استخدمها ضد بنى قومه فى المعارك المكشوفة فى الحروب الأهلية فى بيرو .

ولم تقم الحيوانات بدور هام فى العمليات الحربية منذ استخدام فيلة هانيبال أو خيول المغول الصغيرة الجسم ، كما فعل الحصان فى فتح العالم الجديد . وبينما كانت ألوان الإسبانيين هى وحدها الشىء الجديد ، كان الحصان غريبا ووحشا مروعا كالحصان المقرن إذا شوهد فى إسبانيا فى ذلك الوقت . وفزع الهنود لمجرد رؤيتهم حجمه وقوته ، وعندما كان يصهل أو ينفخ بمنخره كانوا يختبئون حماية منه . واجتهدوا أن يلاطفوه عند الغضب بتقديم الهدايا والطعام الذى لم يستطع تناوله (٢١) . وكانت الصدمة الأولى التى سببها الحصان فى المعركة سيكولوجية كما كانت مادية:

(*) bolas وينتهى عادة بحجرين .

الفزع المروع الذى أثاره وحتى بعد زوال أثر القنطور(*) وحقيقة الحصان وراكبه ، ظل الحصان مدى طويلا شيئاً مفزعاً ، يتجنبونه أو يخطبون وده .

واستغل الإسبانى سلوك الهندى نحو الحصان إلى أقصى حد . ففى حمى وطيس المعركة ينطلق فرسانه يهاجمون الهنود عديمى الحيلة دون رحمة . وفى أوقات كان ينمى عقيدة الهندى الخرافية عن الحصان ككائن خارق للطبيعة منحه الله العقل وقدراً كبيراً من العاطفة. شجع الهندى على أن يقف على مسافة حتى لا يمكنه من معرفة حدود تصرفاته ويتعلم سر سيطرته ، ولكنه لم يستطع منع القبائل الجوالة فى الجزء الجنوبى من القارة من السيطرة على القطعان البرية وتوجيهها ضد أعدائهم الإسبانيين .

وعلم دراسة الخيل الخاص بالفتح من أكثر الأمور أهمية فى التاريخ المبكر للإسبانى فى العالم الجديد . ففى تاريخ الخيل ربما لم يكن هناك بيان بالخيول الممتازة كما فى قائمة برنال دياث عن مطايا ضباطه ورفقائه . فقد كان الجندى العجوز يتذكر أسماءها ولونها وأمزجتها بوضوح ، كما يتذكر طبائع زملائه الجنود. فلم يقدر الإسبانى لحصانه قيمته كوسيلة للمواصلات وكقوة إضافية لسلاحه المتين فحسب ، بل كان يعزه كرفيق ملازم له فى تجواله ومغامراته وكقائد ، كان يميل إلى الإفراط فى العناية والاهتمام بحصانه أكثر من عنايته واهتمامه بالجنود الذين تحت إمرته والذين كان مفروضا فيهم ، بحق كإسبانيين ، أن يثقوا بأنفسهم وأن يكون فى مقدورهم أن يهتموا بحاجاتهم .

ولما كان الإسبانى ولعا ولوع العربى بحصانه فقد كان يشاركه كذلك

(*) فى الخرافات الاغريقية نصفه الأعلى لإنسان والأسفل لحصان.

فى احتقاره للكلب. وقد كانت الكلاب قوة مساعدة فى الفتح ، كالحلفاء من الهنود وكتائب العمل ، وعندما كان البعض ينال نصيبه من الغنائم ، كما كان بيسيريو ، كلب بالبو ، فقد كان ذلك وفاء للخدمات التى أنجزت، وقد كان التعلق العاطفى بهذه الكلاب الضخمة وكلاب الصيد ضئيلا . وكانت تدرب للهجوم على الأعداء من الهنود وتمزيقهم إرباً ، واقتفاء اثر الأسرى الهاربين ، وحراسة المعسكر ليلا . وعندما انتهى القتال انقلبت أسراب من هذه الكلاب التى لاعمل لها متوحشة وأصبحت نقمة لقطعان الماشية والأغنام التى يمتلكها المزارعون الإسبانيون . وبعد ذلك، ويالتهكم الغريب ، نظراً إلى ولع الهندى بحيوانات التدليل نجده قد اغتنم الجراء(*) ورباها لمصاحبته ومتابعته فى رحلات الصيد. وقد عبر آباء كثير من الكلاب المهجنة التى نراها تحوم اليوم حول المستعمرات الهندية المحيط مع الفاتحين .

ويبدو أن مشكلة الغذاء (**) كانت دائما تشغل بال الفاتحين الإسبانيين؛ فقد كانت دهياء يتكرر حدوثها فى تاريخ أوفييدو . وكان قد سبقت له تجارب كثيرة فى هذا الصدد . وفى بعض الأحيان كانت الحاجة إلى الطعام شديدة لدرجة أن الطعام كان أكثر أهمية من الذهب . كتب بالبو إلى الملك يقول : « نحن مهتمون حتى الآن بالطعام أكثر مما نحن مهتمون بالذهب ، لأن لدينا ذهباً أكثر مما لدينا من صحة ، وكثيراً ما كان يسعدنا أن نعثر على سلة من الذرة من أن نعثر على سلة من الذهب ». وفى الحملات التى كانت تنظم بشىء من الإهمال إلى البلاد الوعرة كان كل جندى يكلف بأن يصبح هو مصلحة التعيينات التى ترعى شئونه من هذه الناحية ، وسرعان ما أصبحوا ماهرين جداً فى جلب الطعام بالنهب وسرقة الماشية .

(*) جمع جرو : الكلب الصغير.

(**) rancheria

وعاشوا نظام حياتهم مابين شبع الولائم وحرمان الفاقة ، ولكن أيام الرخاء كانت أقل من أيام الشدة . وفى أكثر الأحيان لم يكن لديهم ألبتة قدر كاف من الطعام لشهور متتالية ، وكثيرون ماتوا جوعا. وكانوا يأملون فى بادىء الأمر أن يجدوا حلا لمشكلاتهم الغذائية على حساب الهنود . وفى بعض الأحيان ، عندما بدت من الهنود علامات الصداقة وكرم الضيافة كان الجنود يسلكون مسلكا كريما مابقى لدى مضيفهم مايمونهم به من الطعام . ولكن بينما لايبقى لهم ضيوفهم شيئا فعلا يبدأ الهنود فى إخفاء مالديهم ويحثون هذا الجراد البشرى على الإغارة على مخازن جيرانهم . ومن العادات التى نبذها الإسبانى ، أشد مايكون ، مسألة الأكل . فقد تعلم أن يأكل مايمكن أكله، واقتبس من وقت مبكر كثيراً من طهو الأهالى. وعندما كان هناك لحم أو سمك فقد كان يستعيض بهما عن طعامه . وساقت بعض الجيوش معها قطعانا من الخنازير لكى يحصلوا منها على اللحم « الطازج » . وكان بنالكاثار فى مسيرته الطويلة شمالا من بيرو فى إقليم كوكا فى كولومبيا يربى أكثر من ثلاثمائة خنزير عشار ، وأصبحت مخازن الدهن المتجولة هذه ظاهرة عادية للإغارات الأحسن تنظيما والأكثر احتياطا .

وقد كانت هناك أربعة أقاليم مستقلة للفتح: المكسيك ، وبيرو ، والجهات الساحلية الشمالية للقارة ، ونهر بلات. وأهم اثنين فى الأقاليم الثانوية للفتح هما : تشيلى وأمريكا الوسطى . وقد كانت هناك مناطق هامشية مثل أراضى الكالشاكى فى شمال أرجنتينا حيث تداخلت حركات الفتح ، بل والتحمت فى بعض الأحيان . والواقع أن فتح أمريكا الوسطى تدهور لفترة ما إلى حرب أهلية ثلاثية الجوانب بين عصابات من الفاتحين ، من الشمال ، ومن الجزر ، ومن البرزخ ، أو أتباع كريستو بالدى أوليد، وجيل جنثاليث دافيلا ، وبدرارياس على الترتيب .

فتح المكسيك

كان لفتح المكسيك صفة تمثيلية فريدة إلى حد بعيد فى تاريخ الفتح البطولى جميعه . وكان فى جملته ملحمة واحدة كما قد يدونه الإغريق ، بخلاف فتح بيرو المتناظر معه . وكان موضوع الخطة هو الاستيلاء على دولة غنية وقوية ، وكانت المساجلة واضحة وموحدة ، وكان الممثلون جديرين بأسخيلوس (٥) فقد كان تسلسل الحوادث المثير عملا عبقريا - إحراق السفن ، الضربة المحكمة فى تلاسكالا ، دخول تينو شتتلان ، القبض على مونتسوما ، خداع قوة نارفايث التأديبية ، الفرار من فوق الممر فى « الليلة الكئيبة » ، الصعود إلى المستحيل فى أوتومبا ، العودة ، والمعارك الهومرية من أجل المدينة المحاصرة والتى كتب عليها سوء الطالع .

وسيطرت على فتح المكسيك شخصية كورتيس التى فاقت التصور . فلقد أصبح واحداً من الضباط العظام فى التاريخ بجيش قوامه خمسمائة رجل ، لما اتصف به من الشجاعة وحسن الإدراك وسعة الحيلة فوق مستوى الآخرين . وكان ضباطه - الفارادو واورداث وساندوفال - جنوداً لامعين ، ولكنهم انصاعوا لقيادته فى ثقة ، وماداموا فى متناوله كان يسيطر على ضباطه المتهورين أمثال أوليد وألونسودى افيلا . وبقيادته صدرت سلسلة من القرارات السديدة حددت مجرى الفتح ، وكانت هذه القرارات تصدر أحيانا بسرعة زائدة لدرجة أنها كانت تبدو حمقاء لو أنها صدرت لرجال أصغر (٢٢) . فقد كان يجلله شىء من المهابة حتى فى طريقة زهوه وانغماساته (٢٣) . وفى وقت لاحق استطاع أن يخاطب إمبراطوره بزهو كند له وقد كان الوحيد بين الفاتحين الذى كان شارل يشعر وهو

---

(٥) شاعر إغريقى ٥٢٥ - ٤٢٦ ق . م .

فى حضرته بشىء من القلق . ومن المؤكد أنه كان أكفأ رجل أنجبته إسبانيا الحديثة — بل قد يكون أكفأ من عرفهم العالم الجديد . فهو أكثر من أن يكون أول الفاتحين . ونظراً إلى ما كان عليه من البراعة فى نواح كثيرة فقد كانت له مواهب السياسى ، وأرسى النمط الذى حكم المكسيك حتى الاستقلال ، كما فعل طيف نائب الملك الكفء توليدو فى بيرو حتى ايا كشو . ولم يتسام فاتح آخر إلى منزلته . ويأتى فالدفيا أقرب الفاتحين إليه ولو أن بين الاثنين أمداً بعيداً، وربما سما بالبو إلى هذا المستوى لولا أنه اجتث من الميدان مبكراً .

وعلى الرغم من أن برنال دياث كان يستنكر عبادة جومارا(*) لبطولة كورتيس فإنه لم يحمل له ضغينة ، كما لايحمل المؤرخ الرسمى عندما يؤدى دينه نحو رؤسائه . قال : « كانت سعة حيلته لاتنفد ، وكان له قلب وعقل هما أهم مافى الأمر » . وعلى الرغم من أنه « كان محبوبا من جميع ضباطه وجنوده ... فقد كان نظامياً صارماً » ، و « عندما كان يأمر كورتيس لا تفيد مع أوامره اعتراضات » ، ولذلك « لايوجد قائد فى العالم يطيعه مرءوسوه أكثر منه » . ويضيف برنال دياث : « عندما كان علينا أن نقيم حصنا كان كورتيس أنشط العمال فى الخنادق . وعندما كنا نخوض المعركة كان يتقدم الصفوف كأى فرد منا » . وفى الواقع كان كورتيس رجلا يقود الناس فى كل مكان ، بل إنهم تبعوه حتى إلى نهاية حملته الفاشلة إلى هندوراس التى كانت أعظم محك لقيادته. وحتى عندما هدد ساندوفال لفترة بالعودة إلى المكسيك ، أجاب كورتيس أنه إذا رفض رجاله أن يتبعوه «فلا يزال هناك جنود فى قشتالة ». وكما كتب هو بنفسه إلى الإمبراطور: « الحظ دائما موات للشجعان » .

(*) مؤرخ فتح المكسيك .

فتح بيرو

كان فتح بيرو أقل إحكاما وأقرب إلى كونه إسبانيا فى الصميم عند إنجازه . فقد توافرت فيه نفس الجرأة والشجاعة اللتين فاقتا مستوى البشر . وازدادت الأرض وعورة وتكاثرت أرجاؤها الوعرة ، وطالت المسافات ، كما زاد مدى الارتفاعات مما أجهد أجسام الناس . وبدت جميعاً كأن لها أربعة أبعاد ، ولا بد أن مرت أوقات ظن الإسبانيون فيها كما لو كانوا يجولون فوق كوكب آخر . فقد كان منظر العالم حولهم يبدو غير مألوف وغير حقيقى إلى حد بعيد . وأضحت بيرو للفاتحين شيئا أكثر فائدة وأشد فتكا فى وقت معا . وكان فتح بيرو كذلك أكثر ربكة وأقل تنظيما من فتح المكسيك ، لأنه بمجرد أن حقق هدفه الرئيسى وهو سقوط كشكو فقد لتوه ما كان فيه من وحدة وهوى إلى جرف التنافس على السلطة . بل إن وحدة المشروع فى الحقيقة كان مقضياً عليها بسبب قيادتها المنقسمة .

وبعد الهجمة الجريئة على كاخاماركا والزحف صعوداً إلى قلب إمبراطورية الإنكا الخامدة انتشر الإسبانيون — وكان عددهم جميعاً بضع مئات — فوق الأراضى البراقة بحثا عن مزيد من الكنوز . وانتهى الفتح فيما عدا حصار مانكو كاباك الطويل لكشكو . وثل الفاتحون عرش دولة شاسعة وقضوا بضربة مميتة على حضارة من أعظم الحضارات التى شاهدها العالم تدبيراً للمكائد ، ولكن لم يستطيعوا أن يلموا شعثها ثانية أو يقدروا قيمة لما دمروه تدميرا فعليا .

وظلت بيرو فترة طويلة بؤرة نشاط شاسعة كثيراً ما كان ينبثق منها فى كل اتجاه . فبدت كما لو لم يكن فيها ما يكفى للعمل فى بيرو وأنها مكتظة ببضعة آلاف من الرجال . ولذلك أصبحت مركزا ثانوياً للفتح ، كما كانت الجزر والمكسيك والبرزخ . فمن تاهنتنسويو القديمة فى بلاد الإنكا تحرك الناس

شمالا مع بنالكاثار وخنازيره مارآ بإقليم كيتو حتى وادى نهر كوكا وعبر السلاسل الجبلية إلى إقليم شبشا ، حيث كان هناك إسبانيون غيرهم ، وانتشروا فى جنوب البحيرة فوق إقليم كياو المرتفع حيث أصبح حاكم شاركاس بمرور الوقت مكلفا بحكم بيرو العليا ، وحيث أسسوا مدنا مثل (لاباز) وشوكيسا كا أو سوكرى ، وكوشابمبا ، وفوق الجميع ، بوتوسى . وتدفقت فرق منهم فى الخوانق (*) المنحدرة من الهضبة نحو البمبا وممتدة نحو فروع نهر بلات حيث تلاقوا مع رجال باراجواى . وإلى الغرب من توكومان وسفوح تلال كويو ، وفيما وراء حائط الكورديليرا الشاهق قام الماجرو بإغارته البطولية إلى وادى الشيلى النائى ، ومن بعده عبر فالدفيا إقليم أتاكاما ليرسى قواعد مقاطعة متعاظمة الشأن جديدة لإسبانيا . وبدت الفيافى المتلبدة الخضراء إلى الشرق من الجبال كأنها تثقل نفوس الفاتحين بسحرها السقيم. واستسلم عدد منهم لسحر الغابة ، كما فعل خمينيث دى كيسادا بعيدا فى الشمال ، وجميعهم لاقى نفس المصير المفجع ، إذ رفضوا أن يتعلموا من التجارب كما رفض الإنكا . ولم يظهر أحد حكمة وسلامة رأى سوى الونسو دى ألفارادو ، وهو رجل كفء ويعتمد عليه ، عندما غامر ونزح من الجبال العالية فى اتجاه الأمزون . فقد التزم الجهات الجبلية (**) شبه المدارية التى تحتفظ فيها الطبيعة ببعض القواعد التى يفهمها الإسبانى . ولم يسمح لنفسه أن يضل فى الأرض المنخفضة فيما دون الجبال ، وخلف وراءه مدنا مثل شاشاپوياس وموبوبمبا اللتين بقيتا حتى هذا اليوم ، واللتين لايزال سكانهما إسبانيين أكثر من معظم المدن فى بيرو . أما الآخرون بما فيهم جنثالو بثا روبيرانثوريس وپدرو دى كانديا ، وكان الأخير إغريقيا فى المدفعية واتصف بالعناد وبطء الفهم ، فلم يتركوا وراءهم سوى أوهامهم وعظام معظم أتباعهم . فقد اندفعوا فى الغابة بحمالبهم الهنود —

(*) Quebradas الأودية العميقة.

(*) montana

وبعضهم مع نساء الإنكا الظريفات(*) — وبالخيل والكلاب وعندما بلغ بهم الجوع نهايته أكلوا خيلهم . وتسرب الجنود فى الغابة بعيداً بسبب الجوع ، ولأن أجسامهم لم تهيأ للجو الثقيل الذى تتميز به السهول المنخفضة أو أنهم اختفوا وانقلبوا إلى حياة الوحشية . أما أولئك الذين عادوا إلى الجبال فكانوا أطياف رجال بالية . ومن الذين لم يعودوا فرانسسكو دى أوريانا، ضابط جنثالو ، وحوالى خمسين آخرين كشفوا الأمزون وعبروا القارة فوق مياهها .

وبانتهاء الفتح لم يحل السلام على الأرض التى فتحت . وبدلا من ذلك تدهورت مغامرة الفتح الكبرى إلى فوضى حرب أهلية ، حرب وحشية حرة يخوضها من شاء من رجال ينتمون إلى أصل واحد . فقد غرست بذور الشر والشقاق، ولم يجن الناس منها سوى الحقد والخيانة والموت . ففى بادىء الأمر كان الصدام بين أتباع الماجرو (**) «رجال تشيلى» ضد أتباع بثارو أو ضد فا كادى كاسترو ، رجل الملك ، ثم حدث تمرد جنثالو بثارو ضد السلطة الملكية التى كان يمثلها نائب الملك نونييث فيلا، ثم بدرو دى لاجاسكا وأخيراً ثورة الغاضبين تحت قيادة هرنانديث جيرون مع عصبته المسلحة من العبيد السود وفرقة « ملعبه » من العرافين ، والراجمين بالغيب ، والمنجمين ، وقارئى الكف ، ومحضرى الأرواح(٢٤) . فقد انتهى الفتح إلى نهاية مؤسفة ، وكان الوقت مواتيا لنائب الملك توليدو لإصلاح الأمور ولو أن روح الشغب التى انبثقت من الحروب الأهلية قدر لها أن تبق وتقاوم قمع جاسكا وتوليدو ولتجد متنفسا مستمرا فى الحياة المضطربة فى بوتوسى .

وقد روى سييثا دى ليون قصة الفوضى وفساد الآداب قال : « بدأت

(*) Coyas

(**) alnagristas

من ذلك الوقت فترة فيها أطيح بالثقة والعقيدة . ونظر الرجال إلى الحرب الأهلية القاسية كحرفة مربحة » ، وقال إن الجنود فى بيرو انضموا إلى ثورة جنثا لوبثارو « لأنهم كانوا يبتهجون بالحرب ويمقتون السلام » . وصاح المكتئب نونييث فيلا : « هذه الأرض هى الشيطان . لقد تكاثرت الشرور حولها . ولا يعيش الناس الذين يقطنونها أبدا فى سلام أحدهما مع الآخر » . ثم تساءل يائسا : « بمن أثق؟ » وكرهت الأحزاب بعضها بعضا ، وامتلأت قلوبهم ضغينة وحشية . وبعد كارثة لاس ساليناس قال ألماجرو لسجانه ألونسو دى تورو : أخيرا سوف تشرب من دمى ، فرد عليه عدوه قائلا : « وهذه أعظم نعمة من الله بها على » . وكتب سييثا عن معركة تشوباس الوحشية حيث اسودت قلوب الناس حقدا : « كانت السيوف تهوى على الخوذات فتذهل أصحابها وتقطع سترات الزرد ثم يتوقف الرجال فترة قصيرة يحملقون بعضهم فى وجوه بعض كالثيران فى فصل التهيج (٢٥) » . وفى أثناء الليل قد يأتى قطاع الطرق الهنود فيجردون الجرحى من ملابسهم فى ميدان القتال ويتركونهم ليموتوا من البرد وشيئا فشيئا ، بمرور السنين قدم قادة الفتح كلهم تقريبا قربانا لحمية شهواتهم وعنفهم أنفسهم — أعدموا أو اغتيلوا أو سقطوا قتلى فى المعركة . واتجه سوتو شمالا وفالدفيا جنوبا وكلاهما مات قبل الأوان . وبالمصادفة الغريبة — أو برحمة الله ؟ — كان الضباط الثلاثة الذين بقوا أحياء وسط أخطار بيرو الكثيرة — وهم لورنثو دى الدانا والونسو دى ألفارادو ووالد جارسيلاسو الانكا — من بين أنبل الفاتحين .

وكان فرانسسكو بثارو شخصية تقل مقاما عن كورتيس ، فيما عدا عزيمته الحديدية . فبمجرد أن خفت وطأة الخطر المشترك لم يستطع السيطرة على قوات الطرد المركزية التى كان لابد من فرض أنفسهم تحت إمرته ، ولا أن يكسب هذه الإرادات الوحشية إليه بسحر شخصيته كما كان فى

مقدور كورتيس أن يفعل، أو كما كان فى مقدور بالبو إذا لم يقبض عليه بثارو تلك الليلة فى دارين منذ فترة طويلة سبقت فلم يكن له سياسة يدير بها الأراضى التى فتحها وعرف معاصروه عنه قليلا من الفضائل ليرووها. فعلى سبيل المثال قال أوفييدو عنه ، دون أن يتشكك فى شجاعته الشخصية : إنه لم يصلح لحكم الآخرين ، وكانت تنقصه الحنكة والاستعداد العقلى اللازم لمركزه الرفيع فى بيرو . وكما يقول هيريرا « كانت أفكاره غريبة على وعوده » .

ومن إخوة بثارو كان هرناندو أكفأهم ، وقد منع من التنقل فى دور مبكر من أدوار الفتح ، وسجن فى أمنع قلاع إسبانيا . ومع ذلك فقد مكث فى بيرو وقتاً كافياً ليصبح نابغتها النحس . ولما كان رجلا متعاظما وحاسما ضخم الجسم ، متغطرسا ، قاسى القلب ، عديم الثقة ، سلط اللسان ، سلط النكتة ، فقد أقصى عنه رفقاءه ، وكان ينظر من تحت أنفه الأحمر المنتفخ باحتقار إلى أخيه الأكبر غير الشقيق ، سائق الخنازير النغل (*) ، الذى أصبح أميراً إسبانيا.

وطبقا لرواية أوفييدو ، خرج الإخوة بثارو من إسبانيا « وهم فى زهو كما هم فى فقر » . وإذا استثنينا خوان الصغير الذى كان قائداً محبوباً من رفقائه وقتل فى حصار كشكو ، كان جنثالو أكثر إخوته جاذبية . وكان يتصف بقدر من الشهامة ، وفى شخصه تبدو نفخة الفروسية ، كما كان يتحلى بها بدرو دى ألفارادو . وكان الجنود متحمسين له ، وهذا مديح عظيم لأى من حكام بيرو . وقد حير البلاد بتمرداته ، وربما كان ذلك يؤدى إلى نتيجة افضل لو أنه أنشأ مملكته المستقلة على أساس أن يكون نصفها إسبانيا ونصفها من الإنكا . ولقد كانت فكرة جريئة سواء منه أم من كاربافال . وعلى الرغم من أن النسبة كانت تكون عرضة للتغير فيما بعد، فربما كانت تبقى

(*) غير الشرعى .

على ما كان يجدر الإبقاء عليه من الحضارة الأهلية . ولكن نظراً إلى ما كان ينقصه من الشجاعة الأدبية والإدراك الذى يمكنه من اتخاذ الخطوة النهائية، ولأنه هو أيضا بعد اعتبار كل الأمور مجرد جندى ، ولو أنه جندى عظيم ، فقد فشل ، وأصبحت بيرو بدلا من ذلك ولاية إسبانية لفترة تقرب من ثلاثة قرون .

وكان دييجو دى ألماجرو حاكم نيوتوليدو ، وشريك الأمير فى الأصل قائداً للرجال بفطرته وجنديا أصيلا ، وأولنيث (*) دما ولحما . غير أن كل هذا لم يكن كافيا ، لا لإنقاذه ولا لصالح بيرو . وكان يثق فى أواصر الزمالة القديمة التى لم تدم طويلا . وكان يفتقر إلى الخداع ليقابل الإخوة بثارو على أرضهم أنفسهم . وامر هرناندو بإعدامه شنقا بعد موقعة لاس ساليناس . وأشعل موته شرارة بدء المعارك الدموية بين الفاتحين مما سمم جو بيرو لسنوات عدة .

ومات كذلك فى لاس ساليناس رودريجو أورجونييث ضابط الماجرو الوفى المخلص، والمحارب العظيم الشأن ، الذى حث قائده على التخلص من هرناندو وجنثالو عند ما كانا فى قبضته، سلم نفسه للجنود فى الميدان فضربوا عنقه . يقول هيريرا : « أحاط به كثيرون وحاربهم جميعا وجرح منهم عددا كبيرا » .

وكان فرانسسكو كارباخال جنديا من قبل أن يولد معظم زملائه الفاتحين بزمن طويل ، وأصبح حكيما إلى درجة لا حد لها فيما يتعلق بفنون الحرب . ولم يكن له ، كضابط ، ند من أولئك الذين حاربوا فى بيرو سوى فالدفيا . ولكن على الرغم من أن القائد الشجاع (**) كان خصما يجبر الناس على

(*) بطل حرب طروادة وكان يتصف بالحكمة

(**) قائد لمجموعة من مائة جندى فى العصر الرومانى والعصور الوسطى

احترامه فلم يكن أبدا كفئا للمحارب المخيف العجوز . ولما كان معروفا بين معاصريه الشياطين « بمارد الإنديز » و « عدو الجنس البشرى » ، فقد كان كارباخال الحقود قاسيا عديم الشفقة بجميع من هم فى الجانب الآخر ، سواء أكان هذا الجانب فى وقت ما جانب الملك أم جانب الثورة . وكان الرجال الأشداء يرهبون حضرته المسيطرة ، وكان يظهر حصافته فيبدون كأنهم مدر أصم ، كما أن لسانه اللاذع كان يترك الرجال وقد جردوا بشكل غريب من زهوهم وثقتهم بأنفسهم (٢٦) . أما الشخص الوحيد على الكرة الأرضية الذى كان يهتم دائما باعتراضاته فكان زوجته البرتغالية . واستسلم للمزاح المتجهم حتى فى أكثر المناسبات المفجعة ، بما فى ذلك المناسبة التى أعدم فيها هو نفسه . وفى سن الرابعة والثمانين ، حينما جاء أجله ، كان لا يزال رجلا فيه نشاط ، لا يمل ، وجلد هائل ، ينام حينما كان يضطر إلى النوم ، فى كرسى جامد أو محنيا رأسه على السرج وهو يقود رجاله فى الجبال ليلا كشخص يتخبطه الشيطان من المس . وكان مظهره الغريب يجعله فى منأى عن زملائه . لم يضع فوق رأسه خوذة لامعة ، ولا على جسمه درعا ، بل قبعة متهدلة برياش من الديكة بدلا من حزمة الريش المألوفة ، ودثارا للكتفين قديما أسود اللون . ولم يركب جوادا عربيا كما كان يصر على ذلك الفاتحون ، بل بغلا كان ، كسيده ، لا يبالى بنفخ الأبواق والبهرجة ، بل الوصول سليما إلى حيث وجهت مسيرته .

الأقطار النائية

بدأ فتح « الأرض الصلبة » أو السواحل الشمالية للقارة(*) من البرزخ المجاور حتى شبه جزيرة باريبا وما خلفها من الأراضى بحملات أوخيدا ونيكيسا فى سنة ١٥٠٩ . واستمرت كسلسلة من المغامرات المتقطعة حتى أبيدت القبائل الهندية المختلفة أو أخمدت ثوراتها ، أو ، فيما عدا هذين الإجرامين ، قبلت الدخول فى الحكم الإسبانى . وإذا أخذنا فى الاعتبار ترامى أطرافها وطبيعة الأرض والحاجة إلى دولة وطنية قوية تحكم تلك الأراضى الشاسعة ، فلا يمكن أن تكون هناك وحدة فى فتح هذا الإقليم الكبير . وتتابعت سلسلة الحملات المتقطعة نحو الداخل من أمكنة على الساحل الطويل مثل دارين ، أو أورابا ، أو كارتاخينا ، أو سانتا مارتا ، أو كورو ، أو كومانا . وكانت أشدها إثارة ، وأكثرها نجاحا بصفة عامة، حملة خمينيث دى كيسادا إلى المرتفعات الكولومبية . وكثير من هذا الطور من الفتح كان قتال أدغال وتلال فى أسوأ الظروف . وكان الهنود عادة متوحشين ومحاربين إلى أقصى حد ، وكانت الحرب كذلك قاسية ولا تعرف الرحمة من كلا الجانبين . وإنه فى هذه الجهة وما خلفها من الأراضى كان مسرح عمليات بالبو ، وانداجويا ، وباستيداس ، وهيريديا ، وسيزار ، وفاديو ، وروبليدو .

ويأتى بالبو الأول بجدارة بين هذه المجموعة المنتقاة . قال أوفييدو الذى كان يعرفه حق المعرفة إن « فاسكو نونييث كان كل شىء » فى البرزخ . . . وكان يتفوق كثيراً جداً على الآخرين » ، وكان طموحا و « وجه أفكاره نحو السلطة ، فلم يخلق ليضيع وقته فى خمول » . وبقراءة رسالة بالبو المطولة

(*) Tierra Firme

للملك ، المدونة فى ٢٠ من يناير سنة ١٥١٣ ، يستطيع المرء أن يتبين كم فقدت إسبانيا وإمبراطوريتها فى العالم الجديد بموت هذا القائد الذى امتاز بالحكمة والقوة الفائقتين فى وقت مبكر .

وتشمل أراضى سير بلات مساحة شاسعة فى أرجنتينا وأوروجواى وباراجواى وبوليفيا وتقدم الإسبانيون نحو هذا الفراغ جاءين من اتجاهات مختلفة — من الشمال عن طريق النهر الأصلى نفسه ، أو عن الطريق البرى من الساحل البرازيلى ، أو منحدرين من أراضى شاركاس المرتفعة فى بيرو العليا أو بوليفيا ، ومن فوق الأنديز فى تشيلى . وبعد الفشل الأول فى بوينس أيريس أصبحت أسونثيون المركز الذى تتشعب منه الجماعات بعيداً وعلى نطاق واسع لكى يؤسسوا مدناً جديدة مثل سانتافى وسانتاكروث دى لاسييرا ، أو يؤسسوا من جديد مدنا مندثرة مثل بوينس أيريس .

ولم تكن هناك أمم هندية كبيرة وجيدة التنظيم ليقاتلوها . وتعلم الإسبانيون أحيانا كيف يعيشون جنبا إلى جنب مع الهنود بعد العداوات الأولى كما فعلوا فى باراجواى . وكان الإسبانيون من زمن مبكر جدا مستعمرين بقدر ماهم فاتحون فى أراضى الحدود المكشوفة هذه . وتبين أن الذهب والفضة اللذين كانا السبب الأساسى فى نزوحهم ليسا إلا وهما . ولذلك نزعوا إلى الاستقرار فى بقعة بهجة يمتعون أنفسهم بقناعة الريف فى حياة غير محدودة : وحيث وجدوا أنفسهم أحرارا يجوبون البلاد بلا هدف عندما كان يعاودهم مزاجهم القديم ، فقد كانت الأرض مفتوحة أمامهم ، وتدفقت الأنهار تستضيفهم عبر الأراضى ، وقد توافرت لديهم الخيول .

وكان فتح تشيلى امتداداً لفتح بيرو . ولم تكن حملة الماجرو ـ منحدرا برجاله من خلف الجانب الشرقى للجبال ، ثم فوق الممرات فى أرض المابوشو ثم مرتدا إلى صحراء كشكو القاسية — إلا مجرد إغارة ، غزوة استطلاعية ،

لكنها كانت من أعظم ما فى الفتح جميعا . فقد أنجز بدرو دى فالدفيا وضباطه ومن خلفوهم — أجيرى ، وفياجرا ، ومونروى ذو الركابين الذهبيين ، وهورتادو دى مندوثا — العملية الأساسية فى الفتح ، أو قل بدءها على الأقل . فلم تكن قد أنجزت تماما .

وكان هذا آخر حد للفتح . وهنا على حافة العالم القاصية كان وادى تشيلى فى الحقيقة جزيرة مغربية تحيط بها من أربعة جوانب الصحراء والجبال والغابة والمحيط . وكانت الغابة موطن الأروكاريان ، ولكنهم ما كانوا ليرغبوا حتى فى الذهاب إلى إقليم الأرخبيل الذى تكتسحه العواصف . فقد استمر فترة طويلة لا يقدم لمن يرتاده إلا قليلا فيما عدا الأخطار والصعاب . وكان الجزاء قليلا إلا للشخصيات القوية ، وهذه قد أتى بها الفاتحون معهم ، وانتهت بهم الحال إلى حيازة شىء أكثر قيمة من الذهب والفضة ، ألا وهو هذه الأرض المفضلة ذاتها . ولكن ثمن البقاء لسنوات عدة كان هو اليقظة والحذر الدائبين . ولم يكن هناك سوى بضعة أشخاص من الإسبانيين فى أى وقت من الأوقات ، غير أن مركزهم اليائس كان يتطلب منهم شجاعة تفوق القدر الذى يحتاج إليه جنسهم . فقد كان أعداؤهم غلاظ القلوب ، يدمرون مستعمراتهم ، وكانت مواقع حامياتهم المنعزلة تكتسح ، ومع ذلك فبمعجزة ما من الصلابة الإسبانية ، بقى المجتمع الصغير صامدا لم تسحقه يوما ما الأعداد التى كانت تهدد بالإطباق عليه بين آونة وأخرى . وأخيراً فإن جذور هذا المجتمع كانت عميقة فى الأرض بحيث لم تقتلع فى وقت من الأوقات .

وكان هناك مائة وخمسون رجلا فى الفرقة الأصلية ، وامرأة واحدة هى إينيس سواريث ، محظية فالدفيا . واتسمت بالشجاعة كالآخرين . ومن بين أربعة عشر مخلدا من فاتحى تشيلى: خوان فالينتى الزنجى ، وهو عبد آبق من المكسيك ، وأحد أفراد جيش الماجرو . ومات ثلث الجملة فى المعركة

مع الجنود ، وسبعة شنقوا ، واثنان ضربت عنقاهما ، وأربعة آخرون ماتوا ميتة نكراء ، وأربعة عشر تركوا تشيلى ، معظمهم إلى بيرو ، ولم يعودوا. وعاش الباقون فى المستعمرة التى أسسوها . وجاء فالدفيا إلى تشيلى سنة ١٥٤٠ بعد خمس سنوات من حملة الماجرو . وبعد مضى ربع قرن ، أى فى سنة ١٥٦٥ ، لم يكن هناك أكثر من ١٥٠٠ إسبانى فى تشيلى وبقيت نسبة من ماتوا فى الحرب كما هى، وفى ذلك طبقا لرواية كاتب من تشيلى، كان هناك على الأرجح ٢٠٫٠٠٠ مولد فى الإقليم. وكتب شخص مقيم فى سانتياجو فى تلك السنة أنه كان يوجد من اثنين إلى ثمانية من المولدين فى كل بيت فى المدينة .

وكان نموذج فاتحى تشيلى فرانسسكو دى أجيرى . وهذه الشخصية الجبارة كان شريفا من أشراف استريمادورا ، ولما ترك البلاد إلى الهند الغربية كان قد عد محاربا قديما ، فقد اشترك فى الحروب الإيطالية ، وكان ممثلا للملك(*) فى بلدته الأصلية تالافيرا دى لارينا. وأخذ ابنه البالغ من العمر ست سنوات معه إلى العالم الجديد حيث وافته هناك بعد ثلاث وعشرين سنة زوجته وأربعة آخرون من أبنائه . وفى هذه الأثناء ، وكأب لخمسين طفلا مولداً على الأقل ، قام بعمل كبير لصنع جنس تشيلى جديد . ووصل إلى بيرو واشترك بكل قلبه فى عملية الفتح . وعندما قام فالدفيا بحملته على تشيلى قابله أجيرى فى أتاكاما بخمسة وعشرين من الفرسان واشتركوا معه فى المسيرة . وكان أحد المؤسسين وأول قاض(**) لسانتياجو ، والحاكم العسكرى للمستعمرة ، ومؤسس لاسيرينا ، ومحافظ توكومان على الجانب الآخر من الجبال وكان أكثر أدبا من معظم زملائه . وفضلا عن ذلك فقد كان مقاتلا لا يقهر . وعاش وحارب بابتهاج عظيم . لقد كانت الحرب لعبة بالنسبة إليه . وكانت تشيلى وكثير من أنحاء أرجنتينا ملعبه . وجعل

---

covrregidor (*)
Alcalde (**)

من بينه حصنا ، فى أية جهة كان له فيها بيت ، بمدفع فوق السقف ، ولكنه كان شخصا لا يخلد إلى الراحة ، وكان يفضل أن يقضى وقته فى الطريق إلى الحرب مع جماعة صغيرة من ضباطه يرهبون قلوب أعدائهم سواء من الهنود أم الإسبانيين . وكان آخر عمل حربى له يهدف إلى هزيمة جماعة من رجال دريك الذين نهبوا فلباراييسو وردهم إلى سفينتهم . وبعد ثلاث سنوات توفى فى مدينة لاسيرينا الجميلة بكل ما يليق به من وقار . وكان هذا فى سنة ١٥٨١ أى بعد أكثر من أربعين سنة من قدومه إلى تشيلى مع فالدفيا ، وقد جاوز سن السبعين بسنين . وكان جهورى الصوت وسبابا . وقد جلبت له أيمانه الغليظة مشكلات طويلة مع محكمة التفتيش التى كان يخرج من براثنها فى كل مرة أقل وقاراً من ذى قبل . وقبل وفاته كان قد فقد من أبنائه الأربعة الإسبانيين ثلاثة فى خدمة الملك ، وصهرا ، وثلاثة من أبناء الأخ — وثروة أمير .

مهمة الاستعمار

انطفأ لهيب الفتح وقضى معه الرجال الذين صنعوه . بذلوا ما لديهم من نشاط فى ألف معركة ومسيرة مضنية خلال الصحراء والجبال والأدغال . ولقد ظفروا بالهدوء ، وكان من حسن حظ مستقبل الإمبراطورية الإسبانية الجديدة أنهم كانوا على استعداد للتقاعد . فمنذ البداية الأولى ، حينما كانت الحروب تهدأ لمدة طويلة ، وحيث لم يكن هناك أمل فى الحصول على ذهب ما ، كانوا يمارسون الزراعة أو تربية الحيوانات أو التجارة ، وكثرت أعداد الحيوانات كثيرا فى الجزر . وعندما أوقدت النار لحملة جديدة ، كانت هناك خيول متوافرة ولحم خنزير وشرائح اللحم البقرى المجففة (*) لإطعام

(*) charqui

القوة فى المراحل الأولى من الحملة . وقد انتهى كل هذا فى ذلك الوقت ، واستقروا إلى الأبد ، ورجع بعضهم إلى الأرض التى كانوا دائما يشعرون بحنين شديد نحوها فإذا كان قد نالهم أرض موثقة مكافأة لهم على خدماتهم فقد عاشوا فيها وسط أتباعهم الجنود والمستأجرين . وفى بعض الأحيان كانوا يمارسون التجارة من جديد كما كانوا يفعلون فى الفترة التى سبقت الحروب . وعلى أية حال كان الفاتحون هم أول المستعمرين(*). وانقلبوا شيئا فشيئا إلى أساليب نظام الحياة المدنية الجديد وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منه . وعندما سأل خوان خوفرى أحد ضباط فالدفيا الملك فى سنة ١٥٥٣ عن قطعة على سفوح ثرودى سان كريستوبال ليبنى فوقها مصنعا كتب له يقول: « أنا فاتح ومستعمر ، وأعول أسرة — من أوائل الذين خدموا جلالتكم فى هذه المقاطعة — وتزوجت هنا ، وأرجو أن أعيش هنا على الدوام » . ومع ذلك فبقدر ما كان يلائم الزهو والشراسة كالمحاربين القدامى ، استمروا بلا انقطاع ينددون بالكيفية التى كانت الرسميات الجديدة الواردة من إسبانيا تدار بها الأمور .

وربما جاءت أوقات رضى الفاتحون فيها كثيراً عن حياتهم فى الزراعة وتربية الحيوانات ، الحرفتين اللتين أدخلوهما فى البلاد ، رضاهم عن أمجادهم الحربية(٢٧) ولقد كان برنال دياث فخوراً جداً بأنه أول من غرس أشجار البرتقال فى المكسيك . وكان اهتمامه بمثل هذه الأشياء تعوض عن شىء من أعمال بثارو . ويروى لنا سييفا زيارة الشخص الذى يغتال الفاتح فيما بعد لحديقة منزل بثارو فى ليما : «ثم اقتطف الأمير بيده نفسه ست برتقالات من الشجرة بوصف كونها أول شجرة أثمرت فى تلك البلاد ، وأعطاها إلى خوان هيرادا » . وترمز هذه الحادثة إلى التغير الذى طرأ على بيرو منذ

(*) pobladores

الشقاق الذى شجر بين أتباع بثارو وأتباع الماجرو «رجال تشيلى» . ولفترة قصيرة كان هناك وعد بالسلام فى بيرو ، وفى تاريخ هيريرا : « بدأ هناك جنى القمح والشعير ومحصولات كثيرة أخرى من محصولات قشتالة — وكان هناك نظام حسن وهدوء فى مدن القشتاليين » . وأول قمح وصل إلى بيرو هو الذى جاءت به دونيا ماريا دى اسكوبار زوجة أحد الفاتحين(٢٨) . وقد والت تكثيره لبضع سنوات من الحبوب القليلة التى أحضرتها إلى أن أصبح عندها ما يكفى لتوزيعه على المزارعين فى الجهات المجاورة . وأول أعناب غرست فى بيرو غرسها فرانسسكو دى كارافانتيس . وفى وقت لاحق غرس كابتن بارتولومى دى تراثاس الكروم بالقرب من كشكو ، وعندما بلغت حجما كبيرا أرسل ثلاثين هنديا محملين بالأعناب إلى والد جارسيلاسو الإنكا.

ومن فترة مبكرة فى الفتح جاء الناس إلى العالم الجديد ، لا كجنود ، بل كمدنيين . ولقد حاول كولمبس أن يحضر مزارعين يكرسون كل وقتهم فى العمل على الأرض، كما حاول لاس كاساس أن يؤسس مستعمرة زراعية من الإسبانيين . وتبين سجلات الأشخاص المرخص لهم بالذهاب إلى الهند الغربية أسماء وحرف كثير من أصحاب الحرف والصناع المهرة ، وتوضح الأحوال المعقدة التى كانت تتزايد فى المجتمعات المدنية التى كانت قد تطورت فى المستعمرات . ومن الذين رخص لهم بعبور الأطلنطى فى سنة ١٥٠٩ جورجى فيتوريا، مزارع، ودييجو بيريث، مزارع ومكارى(*) ، وبيرو سيد تاجر ، وأنطونيو ريث ، محترف فلاحة بساتين . ويتضمن كشف السنة التالية صيدليا، وأربعة من صانعى الأحذية ، وصانع آلات قاطعة ، وسباكا. وفاحص معادن من فلاندرز . وبعد ذلك يصبح كشف المهنيين أكثر تنوعا بانتظام . وفى سنة ١٥١١ منح نجار ، وحلاق ، وحفار ، وحائك

(*) muleteer : بغال

ملابس، ونقاش، وحداد، وصانع أحذية تصريحات للهجرة إلى المستعمرات وفى السنة التالية أضيف صانع جوارب، وصانع عربات. وفى سنة ١٥١٣ تظهر الحرف الآتية فى السجلات لأول مرة: صانع فضيات، صيرفى، صانع شموع، معدن، ملاط، خياط. ومن المهاجرين الآخرين السيد خيرونيمو «جراح خلع الأسنان» وابنه ومساعد وخادم. وفى نفس السنة هاجر دييجو جارسيا من أشبيلية بجماعة مكونة من أخته إينيس، وإينيس فرنانديث كقهرمانة(*)، وسباستيان دى مندوثا، وربما كان هذا الشخص هو أول راعى ماشية محترف(**) يذهب إلى العالم الجديد، وألونسو مارتن، راعى غنم، وألونسو دى اندوخار، زارع فاكهة، وفرانسسكو، سائق بغال، واثنان آخران. وفى سنة ١٥١٤ عبر ميجيل ريث، حلاق أشبيلية، مع حلاق آخر وثلاثة نجارين. وكانت هناك حاجة إلى كثير من البنائين لبناء المدن الجديدة الرصينة. وفى سنة ١٥١٠ هاجر ثمانية بنائين «لبناء وإقامة الكنائس الجديدة فى هسبانيولا». وتظهر فى الكشوف حرف أخرى هى الخراطون والمطرزون وحدادو الأقفال والخبازون والخزفيون وصانعو الصهاريج والدروع والسيوف. وفى سنة ١٥٣٥ عبر السيد هرناندو، وهو معلم مبارزة بالسيف إلى الإقليم الساحلى للقارة. وفى نفس السنة صرح للسيد استيبان، وربما يعد أول طباع فى أمريكا الجنوبية، بالاشتراك فى حملة مندوثا إلى نهر بلات. وذهب أيضا دكتور هرناندو دى ثامورا كطبيب خاص لمندوسا. وعندما عين جارسيا دى ليرما حاكما لسانتا مارتا فى سنة ١٥٢٨، ضمت مجموعته خمسة بنائين، ونجاراً، وملاطين، وصانع سيوف، وصيدليا. وحلاقا، وخياطا، ورئيس خدم، وخباز فطائر⁽²⁹⁾.

---

duenna (*)

vaquero (**)

ويوضح التطور الذى طرأ على المجتمع المستقر فى پاراجواى مثلا شائقا للانتقال من الفتح إلى الاستعمار . فقد أسست اسونثيون بواسطة الرجال الأشداء الذين بقوا من مشروع مندوثا الطموح . والذين صعدوا على طول مجرى النهر حتى وجدوا موقعا يلائم هواهم ولفترة خاضوا حربا لا هدف لها فى الغالب ضد قبائل الجوارانى المختلفة صعودا ونزولا على طول مجرى النهر وفى داخل وخارج الأراضى التى تقع خلفه . ومع ذلك فلم يكن لدى الهنود شىء يطمع فيه الإسبانيون فى الواقع فيما عدا النساء ولما كن متوافرات للتنقل هنا وهناك ، ونظراً إلى وجود فضاء كاف للمعيشة ، فقد جاء كلا الجانبين إلى قبول وجود أحدهما مع الآخر دون ماجلبة جديدة . وكان المستعمرون الجدد فيما بينهم بعضهم وبعض زمرة تحب الشجار والشكوى ولكن البلاد التى أتوا إليها كانت غنية وجذابة . وأخيراً روض التقدم فى السن ، ونسوتهم الرقيقات ، وسحر البلاد ، وحشيتهم القديمة . كتب هيريرا يقول : « إنها بلاد بهيجة جداً ، مياهها وغاباتها كثيرة ، وهى خصبة وجميلة » . وعاشوا سنين طويلة فى دوامة الفتح السارة هذه منعزلين عن العالم الذى تركوه وراءهم ، ونسوا جميع أحلامهم فى الوصول إلى المجد والثراء . وتلاشت ذكرياتهم عن إسبانيا شيئا فشيئا بمرور السنين . فقد كان هذا هو موطنهم ، وقد أفادوا منه إلى أقصى حد . ولم تكن هناك كماليات ، ولكن كانت هناك وفرة مخشوشنة ، وكانت كل الحاجات البسيطة التى تستلزمها الحياة فى المتناول . أما الزخرف الذى جاءوا به فى الأصل فقد بلى ، وارتدوا سراويل من القطن وقبعات ذات حافات عريضة مصنوعة من القش أما الأحذية فقد صنعت من الجلد المدبوغ من قبل . عادوا إلى ممارسة الحرف القديمة التى تركوها من مدة بعيدة وتعلموا مهارات جديدة استلزمها اقتصاد المستعمرة البدائى . فمنهم النجارون وصانعو البراميل ، والنشارون ، وصانعو السفن ، وصانعو الحبال والسلال ، والحدادون ، وصانعو الأحذية . وكان رتشارد لنكولن من بليموث فى

انجلترا من أنفع مواطنى أسونثيون ، وكان واحداً من ثلاثة حدادين ، وفى دكانه كان يوجد مسبك وسندان وثلاث مطارق وملقاطان . وكان هو وزملاؤه يصنعون المسامير والصنانير وأدوات أخرى خفيفة من الحديد لاحتياجات المستعمرين اليومية ، كما صنعوا «الحدوات» لخيولهم ، والمهامين لركاباتهم. وعندما ولى كابيثادى فاكا حاكما قدم طلبا بألا يسمح للمحامين بالمجىء إلى المستعمرة «لأنهم فى الأراضى المستعمرة حديثا يبذرون بذور الشقاق والتقاضى بين الناس» . وكان بالبو يصر كذلك على إقصاء المحامين عن دارين ، ولنفس السبب . ويقول برنال دياث أيضاً إن تقريراً رسمياً من حكام المكسيك طلب من الملك أن «جلالته قد يسره ألا يكلف أى طالب علم أو أدباء ليحضروا إلى هذه البلاد لكى يلقوا بنا فى خضم من الاضطراب بما تعلموه وبالمغالطات والكتب» .

وبمرور الوقت اتخذت المستعمرة الصفة الخاصة التى لاتزال تتصف بها حتى الآن وترعرع الأطفال المولدون الذين أنجبهم الفاتحون فى مثل ذلك الفيض حولهم ، وتسلموا منهم فى حيوية جديدة وإقدام ماتركه لهم آباؤهم . وأخيراً لم يصبح هناك إسبانى أو جوارانى ولكن باراجوانى ، واستكملت العملية .

وكانت تجرى عمليات مشابهة فى أرجاء أخرى من العالم الجديد على الرغم من أنها قلما استكملت نفس النهاية ، بل باختلافات كثيرة أخرى وفقاً للعوامل المحلية الخاصة . وكقاعدة عامة احتفظت الأقلية الإسبانية بشخصيتها كطبقة حاكمة بسبب الهجرة من شبه الجزيرة والتى كانت تجددها بانتظام . أما كستاريكا ، حيث كان الإسبانيون يكونون الأغلبية ، فقد عاشت خاملة لقرون ، أركاديا منسية ، ومزورة عن الطريق الذى يسلكه المستعمرون . وباستمرار عملية التهجين ، مع التوتر الذى لا حد له مع الأروكاريان ، اتخذت تشيلى كذلك الشكل الذى قدر لها أن تحتفظ به .

وفى المكسيك وبيرو نق تركيب مجتمع المستعمرين أكثر تعقيداً كتركيبهم الاجتماعى وتنظيمهم الاقتصادى . ومهما تكن العناصر الإثنوجرافية والثقافية فى الموضوع ، فقد كان ضغط إسبانيا على عادات الناس أقوى دائماً فى مراكز السلطة مثل مدينة المكسيك وليما منه فى البلاد التى كانت كربولية (*) أو هندية صريحة فى الجو والمزاج مثل أسونثيون أو كثكو . ولكن الضغط لم يكن ألبتة شديداً أو ملحاً بدرجة تكفى لتحويل هذه المجتمعات المختلطة فى صورة إسبانيا حتى لو أن إسبانيا قد سلكت الطريق الأحمق لفرض إرادتها . ولهذا فقد احتفظتا باختلاف كاف ليميز الواحدة عن الأخرى على الرغم من أن قانونهما ودينهما واللغة الغالبة أصبحت إسبانية ، ورغم أن عبقرية إسبانيا الخاصة قد تعمقت جذورها فى تفكير الناس وفى طرق معيشتهم .

البرتغاليون فى البرازيل

كان أخذ البرتغاليين للبرازيل مسألة احتلال واستعمار أكثر منه فتحا صريحا . فلم يكن فتحا فى الواقع أكثر من فتح الأمريكيين للغرب ، ولنفس الغرض فى أكثر الأحيان . وكانت هناك مساحات شاسعة من الأراضى لا يقطنها إلا سكان قليلو العدد من الهنود البدائيين . فلم تكن هناك ضرورة لعمليات حربية على نطاق واسع . وكان هدف البرتغاليين الوحيد أن يمضوا فى العمل الذى قاموا به بسرعة - وبفائدة - بقدر الإمكان . وكان عددهم قليلا . ولم يشاءوا أن يعلنوا للعالم عما يقومون به ، كما فعل الإسبانيون فى عدم اكتراثهم المتعالى بالشعوب الأخرى جميعاً ، وكان لديهم ما يكفى من المتاعب وهم يحاولون إبعاد الفرنسيين عن الميدان . وكذلك لم يثقوا فى أبناء عمومتهم الإسبانيين فى مراعاة « خط للتقسيم »(**)

(*) Creole : مولود من أبوين أوروبيين خارج أوروبا (فى أمريكا وافريقية) .

(**) Line of Demarcation : فى سنة ١٤٩٣ عين البابا خطا همياً يمتد من القطب الشمالى الى الجنوبى ويمر بنقطة تبعد مائة فرسخ غرب جزر ازورس بحيث تكون الأرض فى غربه مجالا لكشوف إسبانيا والأرض فى شرقه مجالا لكشوف البرتغال ثم زحزح هذا الخط فى السنة التالية نحو الغرب لصالح البرتغال .

ولذلك فقد انطلقوا عبر الفيافى، وعينوا حدودهم بحصون حجرية متباينة أقاموها فى الغابة . وكانوا قد اكتسبوا تجارب فى بلاد الشرق ، ولذلك لم ينتظروا حينذاك أن يعودوا بكنوز فخفاخة أو مغامرة من هذه الأرض التى توجد فيها غابات الصباغة والببغاوات والنساء العاريات اللائى قدمن لهم التحية على الشواطىء المترامية . فقد كانوا شعبا عمليا ولم يعبروا الأطلنطى للتسلية ، وانكبوا ليجعلوا من مستعمرتهم البكر العظيمة موردا للاستثمار المجزى بالسكر والبضائع العادية التى كانت لها سوق منتظمة ومربحة فى أوروبا . وفى أثناء هذه العملية أقاموا مجتمعا ريفيا أسسوه على استخدام الرقيق الزنوج بعد أن فشلوا فى استخدام العمال الهنود . وقد نجح هذا المجتمع نجاحاً فريداً فى خدمة الغرض الذى أسس من أجله . أما أولئك الذين نزعوا إلى المغامرة فقد اندفعوا إلى الفيافى المجهولة يستكشفون الجهات الداخلية فى البلاد ، (*) هؤلاء هم رجال الحدود الأشداء الذين أمنوا مستقبل البرازيل كدولة واحدة .

(*) Bandeirantes : حاملو الأعلام .

هوامش الفصل الرابع

(1) Gonzalo Fernandez de Oviedo y Valdés, «Historia General y Natural de las Indias, Islas y Tierra Firme del Mar Océano» (4 vols., Madrid, 1851 - 55), IV, 185.

من الأبحاث الفرعية الشائقة عن اقتصاديات الفتح ما رواه أوفييدو. وقد قدرت القيمة الكلية لفدية أتاهوبا بـ ١ر٣٢٦ر٥٣٩ بيسو قيمة الذهب مضافا اليها ٥١ر٦١٠ ماركو من الفضة. ومن الأمثلة على تضخم الأثمان الناجمة عن قوة الفاتحين الشرائية التى ازدادت فجأة: حصان بيع بمبلغ يتراوح بين ٢٥٠٠، ٣٥ر٠٠٠ بيسو ذهبا، دن من النبيذ ٦٠ بيسو، لفاع فلمنكي من ١٠٠ ـ ١٢٠ بيسو، سيف من ٤٠ ـ ٥٠ بيسو، فص من الثوم بنصف بيسو

Ibid., pp. 200 - 01.

(٢) من المرجح أن أحسن تاريخ من جزء واحد كتب عن الفتح هو:

F. A. Kirkpatrick, «The Spanish Conquistadores» (London, 1934).

وعن التحليل الشائق لأخلاق ودوافع الفاتحين انظر:

Rufino Blanco Fombona, «El Conquistador Espanol del Siglo XVI» (Madrid, 1922) especially pp. 15, 201, 241 - 44, 263 - 64.

(٣) يخبرنا أوفييدو عن مصير الجماعة الكبيرة التى خرجت الى البرزخ مع بدرارياس. كثير منهم مات فى الاغارات ضد الهنود. «هذا القنص وهذه المطاردة الشيطانية» وفى مدينة سانتا ماريا دل أنتجوا دى دارين التى تطل على البحر والتى أنشأها بالبو سقط كثير منهم فى الشوارع جوعا. ومات من خمسة عشر الى عشرين يوميا فى المدينة التعسة حتى هلك أكثر من ٥٠٠ فى فترة وجيزة.

Op. cit., III, 37.

(٤) طبقا لرواية أولروخ شميدل الجندى الألمانى الذى كان واحدا ممن بقوا أحياء، حينما أخذ خوان دى أيولاس الباقين من قوة مندوثا فى الرحلة نحو منابع النهر.

«Viaje al Rio de la Plata» (tr. from the German, Buenos Aires, 1942), pp. 22, 23.

فى وقت لاحق ضرب أيولاس حتى الموت فى حملة طويلة الى الغرب من نهر باراجواى، ومعه ٨٠ اسبانيا، قتله هنود كانوا قد أكدوا له صداقتهم.

(٥) من الجنود المتمردين الذين قتلوا باستيداس ابن للعالم فى اللغة والانسانيات أنطونيو دى لبريخا · وقد أطلق أوفييدو على الخزى الذى لحق بابيه « الشيء الفظيع الذى ينم عن العار » ·

Op. Cit., II. 343.

(٦) (لقد كان رجلا لا مثيل له مطلقا فى جميع تاريخات الفتح · ولكن لولا نكسة من سوء الحظ والعداوة التى جلبها على نفسه بحمايته الهنود لسجل التاريخ اسمه فى مقدمة الشخصيات من بين جميع الفاتحين » ·

Robert Bontine Cunninghame Graham. «The Conquest of the River Plate» (New York, 1924), P. 5.

See also ibid., P. 158.

وعن مسيرته البرية من الساحل البرازيلى الى نهر باراجواى كتب أوفييدو : « فى هذه الرحلة الطويلة لم يفقد رجلا واحدا ولم يحارب هنود هذه الأرجاء ، ولذلك فقد وصل بقوته سالمين الى أسونثيون » ·

Op. Cit., ii, 189.

وطبقا لرواية هيريرا ، « اهتم الثارنونييث اهتماما خاصا بالاحتفاظ برضاء الهنود ··· فقد كان على معرفة جيدة بطبيعة المتوحشين » ·

(٧) « وهؤلاء الرواد الذين كشفوا بلادا جديدة أنهكوا أنفسهم بطيشهم وحروبهم الأهلية » ·

Peter Martyr (Pietro Martire d'Anghiera), «De Orbe Novo» (tr. from the Latin, 2 vols., New York, 1912), I. P. 217.

« ولولا تحاسد الاسبانيين الذين لا يستطيعون الاتفاق فيما بينهم ·· لكانت كل هذه الأرجاء قد خضعت للفتح ··· فكل منهم عدو علنى لرفاقه فى هذا العراك العكر من أجل الطموح ، والذى يغشى أبصارهم » . Ibid., P. 340. · أما فيما يتعلق بالحرب الأهلية الثلاثية فى أمريكا الوسطى بين كريستوبال دى أوليد وجيل جنثاليث دافيلا وضباط بدراریاس فيقول : « ان الاسبانيين الذين لا يستطيعون تحمل العمل متعاونين يقتل بعضهم بعضا بمجرد أن يلتقوا ·· II, 413

(٨) كتب سير والتر رالى الذى لقى صعابا كثيرة فى الأورينوكو يقول : « ولا أنا مغرم كثيرا بحب هذا المسكن ، والترقب ، والهم ، والخطر ، والأمراض ، والروائح الكريهة ، والطعام الردىء ، وكثير من الشرور الأخرى التى تلازم هذه الرحلات ، لكى أقدم على واحدة منها بعد ذلك ، لو لم أتأكد من أن الشمس لا تضىء على ثروة ضخمة تعدلها فى أية جهة أخرى فوق سطح الأرض ·

In Habluyt, «Voyages» (Everyman's Library). VII, 327.

(٩) بعد اعدامه ، « حزن جميع الهنود قائلين ان ألماجرو كان ضابطا كفئا وكانوا يلقون منه دائما معاملة حسنة ٠ »

Cieza de Leon, «The War of Las Salinas,» ou. cit, P. 222.

وقال سييثا عن جنشـالو بثارو : « كان دائما عـادلا وميالا الى الرحمة ، فلم يأمر باعدام أى شخص دون محاكمة ٠ وعند ما عاد الى ليمـا سن بعض قوانين عظيمة لحماية الهنود ٠ واعترف جاسكا (الذى أعدمه) أن جنشالو بثارو كان حاكما عظيما » ٠

«The War of Quito», op. cit., P. 158.

(١٠) عندما مات لورنثر دى ألدانا ، وهو من الفـاتحين المفضلين الذين فتحوا بيرو فى ١٥٧١ ترك كل ثروته لكى تستثمر لدفع الجـزية أو ضريبة الرأس التى فرضهـا الملك على الهنود الذين كانوا يعيشون فى ضياعه ٠

Ibid., P. 74

(١١) قال دون كيخوتى : « ان الحـرب مدرسـة فيهـا يصبـح الجشعون أحرارا والأحرار سفهاء ، وان وجدت جنديا يده مغلولة الى عنقه فتلك احدى الأعاجيب التى لا تحدث الا نادرا » ٠

(١٢) « تلك الصورة والتمثال الذى يمثل الشمس (وهو مصنوع من لوح من الذهب) وقع عند أخذ الاسبانيين لتلك المدينة الامبراطورية من نصيب رائد شجاع اسمه مانسيو سييرا ليجيسامو ٠ ويقولون انه كان مقامرا كبيرا ، فقامر بها وخسرها ذات ليلة مما أدى الى القول المـأثور : يقامر بالشمس قبل شروقهـا » ٠

Vazquez de Espinosa, op. cit., P. 561.

(١٣) كتب برنال دياث عن مصاعب الفاتحين المالية يقول : « كثرت بين جنود جيشنا عقود ديون ثقيلة ، فقد بيع قوس باثنى عشر جنيها ونصف ، وكانت البندقية تقدر بخمسة وعشرين جنيها ، والحصـان بمائتى جنيه بل أكثر ، واحتفظت جميع الأشياء الأخرى بارتفاع مماثل فى الأسعار ٠ ثم ان جراحا اسمه ميستر خوان رفع أجره ، كما فعل طبيب اسمه مورسيا وكان صيدليا وحلاقا ٠ وبجانب هذا فتحت أبواب أخرى لابتزاز النقود كان يلزم الانفاق فيها من أنصبتنا » ٠

Ibid., P. 365.

(١٤) In Charles C. Griffin, «Concerning Latin American Culture» (New York, 1940), P. 53.

كانت روح الفاتح تجمع بين الجرأة والجشع ، وبين الاعتقاد فى الخرافات والقسوة ، وبين زهو الشريف الاسبانى وتقشف الناسك ،

وبين الفردية الشديدة والتلهف على المجد بايمان ثابت فى عظمة مصيره الشخصى » .

Francisco Garcia Calderon : «Latin America; Its Rise and Progress» (tr. from the French, London, 1915). P. 45.

(١٥) « كان لزاما على قائد الفاتحين أن يكون ، فوق كل شىء ، رجل أعمال له رأس مال وائتمان ومشروعات » .

Carlos Pereyra, «Las Huellas de los Conquistadores» (Madrid, n. d.), P. 89.

وقد أطلق سير آرثر هلبس على كورتيس «رجل أعمال بلغ حد الكمال»

«The Spanish Conquest in America» (4 vols. London, 1855), III, 10.

ويدون جرمان أرسنييجاس كشفا « بأصحاب رءوس الأموال » الآتى ذكرهم بين المستكشفين والفاتحين الأوائل : دييجو فيلا سكيث الذى تركه كورتيس فى مازق فى كوبا ، وباستيداس وفيرنانديث دى لوجو فى شمال القارة ، وبدرو دى مندوثا فى نهر بلات ، والاخوة بنثون ظهراء وزملاء كولمبس ، وصاحب التزام شارل الخامس الألمانى .

«El Estndiante de la Mesa Redonda» (Santiago, Chile, 1936), P. 93.

وبعد أن صرف خوان دى فاديو ٥٠٫٠٠٠ بيسو ذهبا فى تجهيز حملته الى داخل كولومبيا تركه رجاله عند كالى لينضموا الى بنالكاثار ، واستمر هو متجها الى بيرو ليجرب حظه من جديد » .

Op. Cit., II. 462.

(١٦) كانت درع الكانو تتكون من كرة منقوش عليها عبارة « أنت أول من أتم رحلة حولى » . وقد عبر دييجو منديث ، بعد أن تحطمت سفينة كولمبس على ساحل جاميكا الى هسبانيولا فى زورق من زوارق الهنود ، ثم سار من ساحلها الغربى الى مدينة سانتو دومنجو يطلب النجدة للأميرال . « ومكافأة له على ولائه أعطاه الملك درعا منقوشا عليها نفس الزورق » .

Op. Cit., IV, 384 - 5.

(١٧) انظر جارسيلاسو دى لا فيجا .

«Historia General» op. cit., II, 378. Pereyra op, cit., pp. 266 - 7 — Charles Edward Chapman, «Hispanic America : Colonial and Republican (New York, 1937) P. 32.

يدون أوفييدو كشفا بأسماء وموطن ٥٤ رجلا هم أول من نزل الى الأمزون • فمن استريما دورا جاء أوريانا وثلاثة غيره من تروخيو وهى مسقط رأس الاخوة بثارو ، وجاء اثنان من باراخوث ، واثنان من جهة ميديين وكان هناك ثمانية من الركن الجنوبى الغربى للأندلس ، منهم ثلاثة من بالوس وأربعة من موجير • وجاء ثلاثة من الباسك وثلاثة من أستورياس واثنان من غاليسيا واثنان من البرتغال •

Op., cit., IV, 384 - 5.

(١٨) كتب كورتيس عن حصاره لعاصمة الأزانقة يقول : « ولما رأيت الناس فى المدينة تغمرهم روح الثورة ، وبدوا مصممين على الموت كما لم يفعل شعب من قبل ، لم أعرف أى طريقة أسلك ••• لأتجنب تدمير مدينتهم كلية وهى التى كانت أجمل شىء فى الوجود » •

Ibod., II, 107.

(١٩) فلو أن جواينكابا (هواينا كاباك) هذا كان على قيد الحياة عندما دخلنا نحن الاسبانيين البلاد ، لكان من المستحيل علينا أن نأخذها لأنه كان محبوبا جدا من جميع اتباعه • »

Pedro Pizarro, «Relation of the Discovery and Conquest of the Kingdom of Peru» (tr. from the Spanish, 2 vols., New York, 1921), I, 199.

(٢٠) قتل خوان دى لا كوسا وسبعون أو ثمانون من رجاله بالأسهم المسممة عند تورباكو على خليج أورابا • وأصيب ايضا ألونسو أوخيدا وهو من أشجع الفاتحين الأوائل بسهم مسمم ، واستخدمت قطع الحديد المتوهج على الجرح لكيه •

Pereyra, op. cit., P. 170.

وأخيرا مات أوخيدا ، وهو المشهور ببسالته الجسمية ، فى هسبانيولا من جروحه ومتاعبه والشدائد التى انتابته • « وعندما عرف أنه سيموت ، تدثر فى عباءة راهب فرانسسكانى منهكا ومريضا وحانقا على كل المحن والحظ العاثر الذى أصابه » •

Oviedo, op. cit., II, 423.

(٢١) ترك كورتيس فى رحلته الى هسبانيولا حصانا أعرج بين هنود شمال جواتيمالا • « وعامل الاتثا الحصان كأنه اله ، وقدموا له الدجاج واللحم وأكاليل الزهور مما أدى الى موت الحصان على هذا اللون من الطعام • وانتاب الذعر الاتثا عند موت الاله على أيديهم ، فنحتوا صنما من الحجر على شكل الحصان وعبدوه لكى يبرهنوا على أنهم كانوا غير مسئولين عن موته » • وعثر قسيس على التمثال فى ١٦١٨ فحطمه لأنه عده دنسا •

Sylvanus G, Morley «The Ancient Maya» (Stanford University, California, 1946), P. 123.

(٢٢) « ربما كان أعظم عمل جرىء يسجله التاريخ هو القبض على مونتسوما فى وسط بلاطه وحمله الى المعسكرات الأسبانية ، وهو أجراء مذهل فى تصوره ، ولا يمكن تصديقه فى تنفيذه بحيث لا شىء ينقله من مجال الخرافة الى مجال التاريخ سوى الجم الغفير من الشاهدين الذين تتفق رواياتهم عن هذه الحادثة ٠

F. A. Mc. Nutt, introduction, Letters of Cortés, op. cit., I, 34.

وكتب برنال دياث يقول : « الآن فلندع الفضوليين يتأملون فيما تمنا به من أعمال بطولية : أولا فى تدمير سفننا وبذلك فقدنا كل أمل فى التقهقر ، وثانيا فى دخولنا مدينة المكسيك بعد التحذيرات المرجفة التى جاءتنا ، وثالثا فى جرأتنا فى أخذ مونتسوما العظيم أسيرا ، ملك كل تلك البلاد ، وفى وسط قصره يحيط به حرسه الكثير العدد ، ورابعا فى اعدام ضباطه حرقا علنا أمام قصره وتكبيل الملك بالحديد أثناء الاعدام»

Op. cit pp. 191 - 2.

وانتشرت شهرة المهارة التى أبداها كورتيس فى سائر أنحاء العالم الجديد ٠ وفى رأى سييثادى ليون فى بيرو : « أنه كان مرآة للحكام والضباط فى الهند الغربية » ٠

«The War of Chupas», op., P. 370.

(٢٣) فى حملتـه الجريئة فى أدغال جنوب المكسيك والجزء الشمالى من أمريكا الوسطى كانت حاشيته الخاصة مكونة من « خادم ، وصراف وأمين للأدوات المنزلية ، ورئيس ادارة المنزل ، وكبير الخدم ، وصانع الحلوى ، وحاجب ، وطبيب ، وجراح ، وعدد من الأتباع ، واثنين من حملة الدروع ، وثمانية من ساسة الخيل ، واثنين من مربى البزاة ، وخمسة موسيقيين ، وراقص على المسرح ، ومشعوذ ، ولاعب عرائس ، ومعلم خيل ، وثلاثة بغالين اسبانيين » ٠

Bernal Diaz, op. cit., P. 439.

ومات الراقص تعبا وقد أنهكه المشى ٠ وكتب برنال دياث يقول : « أما بالنسبة الى موسيقيينا المساكين بالاتهم ، الأبواق والسناطير ، فقد شعروا أنهم افتقدوا ولائم أفراح وحفلات قشتالة ، فعند ذاك توقف عزفهم الا واحدا فقط تعود الجنود أن يسبوه كلما أخذ فى الأداء قائلين انها الذرة لا الموسيقى تلك التى يريدونها » ٠

Ibid., P. 444.

(٢٤) جارسيلاسودى لا فيجا

«Historia General», op. cit., III, 103, 157.

ادعى هيرنانديث جيرون انه كان يملك قوى خارقة للطبيعة لكى تشتد سيطرته على الرجال الذين يعتقدون فى الخرافات ٠ وكان من بين حاشيته شخص اسمه فياداريس زعم أنه يقرأ « نزوع » الناس بالنظر الى وجوههم وسيماهم ، وأوركيثو وكان يحمل معه « عجلة فيثاغورس مصورة على قطعة من الورق ، وكان يسخر بها على الناس ، ولوسيا المغربية ساحرة كبيرة ادعت أن الوحى ينزل عليها » وبيسرا الكاهنة التى كانت تجيب عن كل سؤال ، وفاسكيث القس الذى كان منجما وعرافا ، وكان أيضا قارئا للكف وادعى أنه يتنبأ بالمستقبل « بعلامات فى اليـد » ٠

«The War of Chupas», op. cit., P. 280. (٢٥)

كتب سييثا عن الليلة السابقة لموقعة لاس ساليناس يقول :

« عندما حل الليل بقى الجميع تحت السلاح تساورهم الآمال والمخاوف التى قد يتخيلها القارىء ، ولكن لم يحدث أبدا أن بدا من أحد الجانبين أى اقتراح لمشروع صلح ٠ وهكذا كان الحقد الذى يدفع سلوكهم » ٠

«The War of Las Salinas», op. cit., P. 196.

ويقتبس سييثا ملاحظة شيشيرون أنه « لم يعرف أبدا سلاما سيئا ، بل ان سلاما سيئا أفضل من حرب جيـدة » ٠

«The War of Chupas», op. Cit., P. 254.

ويضيف أن للسلام قوة فائقة وفريدة لدرجة أن العـالم يتوقف عن الوجود بدون سلام » ٠

«The War of Las Salinas», op. cit., P. 1.

وفى مكان آخر يقول : « لا يجب أن يقضى الفاتحون والمستعمرون لهذه الأرجاء وقتهم فى خوض المعارك والحملات يصيد فيها بعضهم بعضا، ولكن فى الغرس والزرع ، فهما أكثر فائدة » ٠

«Travels,» op. cit., P. 402.

(٢٦) لقد امتاز وانتصر على الذين ظنوا أنهم يستطيعون السيطرة عليه ، فلم يحدث أبدا حتى فى الأيام التى بلغت قوته فيها الذروة ، أن أظهر مثل تلك السيطرة والوقار والحضرة المهيبة كما بدا يوم سجنه »٠

Garcilaso de la Vega, «Historia General» op. cit. II. 261. See ibid, pp. 88, 98. 133, 200, 268.

(٢٧) « لقد شرحت لجلالتكم انقيصرية الحاجة الى النباتات من كل صنف ، ذلك لأن كل نوع من الزراعة قـد يزدهر هنا ، ولكن شيئا لم تمدونا به بعد ٠ وأكرر رجائى الى جلالتكم أن تامروا بالمؤن من بيت

التجارة فى اشبيلية فلا يسمح لسفينة أن تقلع دون أن تجىء بعدد معين من النباتات التى تؤدى فضلا للسكان وتسبب رفاهية للبلاد » .

Cortés, «Letters», op. cit., II, 218.

(٢٨)

Garcilaso de la Vega, «Comentarios de los Incas (2 vols., Buenos Aires, 1943), II, 267.

نشرت « المذكرات » لأول مرة فى لشبونة فى ١٦٠٩ . وأدخلت أشجار الزيتون فى بيرو فى ١٥٦٠ ، أدخلها أنطونيو دى ريفيرا أحد مؤسسى ليما . أحضر ثلاث أشجار بذرية من أسبانيا وغرسها فى حدائقه التى كان يبيع منها العنب والتين والقاوون والرمان والبرتقال والليمون وفواكه وخضراوات أخرى أسبانية فى سوق ليما بما قيمته ٢٠٠ر٠٠٠ بيسو سنويا . وكان يستخدم العبيد الزنوج ورتلا من الكلاب لحراسة أشجار الزيتون ، ولكن على الرغم من كل احتياطاته سرقت احدى الأشجار ونقلت الى تشيلى ، وهناك أخذت منها براعم للغرس . وبعد ثلاث سنوات أعيدت الى ليما وغرست سرا فى حدائق ريفيرا . ويقول جارسيلاسو انه فى الأيام الأولى كان يحتفى بكل ضيف يحل فى منزل ريفيرا وتقدم له ثلاث زيتونات . Ibid., P. 271. ويروى جارسيلاسو كيف أن جارسيادى ميلو أمين الخزانة الملكى فى كثكو أرسل ذات مرة ثلاثة جذوع من كشك الماز هدية لوالده . كتب يقول : « أمر أبى امعانا فى تبجيل هذا الصنف من الخضراوات الاسبانية بأن يطهى على موقده فى مسكنه أمام سبعة أو ثمانية من السادة الذين كانوا يتناولون معه الغذاء . وعندما تم طهى كشك الماز جىء بالزيت والخل ، وصار جارسيلاسو أبى يمرر الجذعين الكبيرين يعطى كل ضيف منهما قطعة ، واحتفظ لنفسه بالثالث مستسمحا اياهم أن يكون له نصيب الأسد هذه المرة لأن الجذوع كانت شيئا أتى من اسبانيا ، وهكذا أكلوا كشك الماز بتهلل وابتهاج أكثر من تناولهم طائر العنقاء . ومع أنى كنت أخدم على المائدة وأحضرت عناصر الصلصة فانى لم أتذوق شيئا منه» .

Ibid., P. 277.

(٢٩) كان جارسيا دىليرما واحدا من أسوأ الحكام الأوائل ، وقد ألصق به أوفييدو صفة « الظالم ذى السمعة السيئة والذى لا يطاق » ، وقد كان يضفى على شخصه أبهة الأمير العظيم . وقد حوكم أمام

محكمة العدل فى سانتو دومنجو على الجرائم التى ارتكبها فى أثناء ادارته ، ومات قبل انتهاء « التمحيص ، أو بحث فترة حكمـه • وكان جبانا ، كما كان محبا للمال ، فلم يحترمه الهنود الذين كانوا يسمونه « جالينا » أى فرخـة •

op. cit., II, 351.

الفصل الخامس

الزنجى

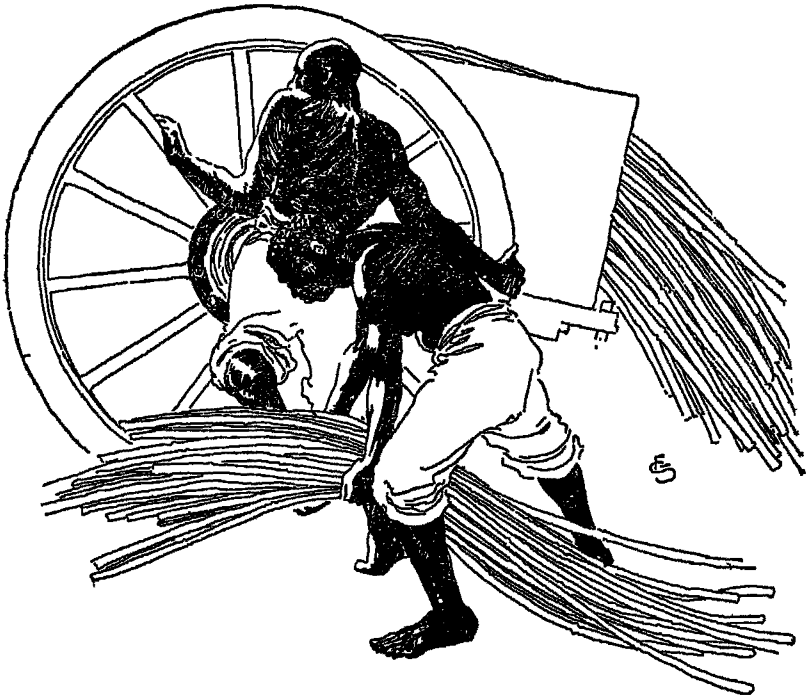

جاء الزنوج فرادى إلى العالم الجديد، كعبيد أو خدم، مع أول فوج من الفاتحين. وقد صحب زنجى، هو انيوفيو دى أولانو، بالبو عند ما كشف المحيط الهادى. ويقال إن زنجياً آخر كان فى فريق نارڤايث هو الذى أدخل الجدرى إلى المكسيك. ويحكى برنال دياث عن زنجى فيقول عنه: «إنه شخص مضحك، رقص وصاح فرحا بعد أن هزم كورتيس نارفايث: أين هم الرومان الذين أحرزوا مثل هذا النصر المجيد بمثل هذه الأعداد؟»، وعندما قام فرانسسكو بثارو يستطلع شمال بيرو ترك زنجيا مع الهنود فى تومبيس، ومعه جندى إسبانى وخنزيرة وديك وفرخة. وفى وقت لاحق، عندما قطع رأس دييجو دى الماجرو، زميل بثارو، فى أثناء الحروب الأهلية فى بيرو، كان زنجى هو الذى أخذ جثته إلى الكنيسة للدفن. وكان يصحب ألفار نونييث كابيثا دى ڤاكا فى رحلته الطويلة فيما هو الآن الجزء الجنوبى من الولايات المتحدة زنجى اسمه استيفانيكو أو «ستيف الصغير»، الذى

خدم فيما بعد كترجمان للراهب ماركوس دى نيثا رسول حملة كورونادو إلى الجنوب الغربى .

وكان الزنوج فى أثناء الفتح يستخدمون كجلادين(*) ، وكان يصحب كارباخال « شيطان الأنديز » ثلاثة أو أربعة من « هؤلاء الجنود الإثيوبيين » واستخدمهم لذلك الغرض ، وشغل دومنجو ، وهو زنجى ، وظيفة مزدوجة : جلاداً ومنادياً لمدينة سانتياجو فى أيام فالدفيا . وبعد ذلك بزمن طويل ، عند ما كان همبولدت فى فنثويلا كان السياف العمومى فى كومانا زنجيا(١) .

وفى الدور الأخير للحروب بين الفاتحين فى الأنديز كون فرانسسكو هيرنانديث جيرون جماعة موالية للحكومة يزيد عدد أفرادها على ثلاثمائة جندى جمعهم من بيوت ومزارع سادتهم .

تجارة الرقيق

كانت تجارة الرقيق أهم بكثير من هذه الحالات المتفرقة ، وكان الرقيق يجلبون إلى الهند الغربية كعمال فى المناجم وفى المزارع وقد بدأت هذه الحركة حوالى سنة ١٥٠٢ ، أى بعد عشر سنوات فقط من الكشف . وكان الإسبانيون قد زال وهمهم بالنسبة إلى قيمة السكان الأصليين كقوة عاملة ، وأوصى الرهبان الدومنيكان ، تحت ستار حماية الهنود ، باستيراد العبيد الزنوج كأخف الأثمين . ومنح تصريح فى بادىء الأمر باستيراد العبيد المولودين فى أوروبا إلى الأنتيل فى سنة ١٥٠١ فى حكم أوباندو وفى سنة ١٥١١ أحضر خمسون عبدا من إفريقية مباشرة . وبعد شىء من التردد من جانب السلطات فى إسبانيا بخصوص لياقة الإجراء ، فتحت الأبواب على مصاريعها لاستجلاب الزنوج فى سنة ١٥١٧ . وفى ذلك الوقت منحت اتفاقية احتكار(**) لفلمنكى لاستجلاب ٤٠٠٠ من الرقيق سنويا ، على أن يكون ثلثهم من النساء لأغراض الإنجاب .

وفى فترة ما كان احتكار جلب الرقيق إلى المستعمرات الإسبانية فى

(*) Verdugos : عشماوى .

(**) Asiento

أيدى أهالى جنوة وفلاندرز والبرتغال وهولندة وانجلترا ، وكان هناك فى كل الأوقات تهريب جسيم للعبيد ، وكثيرا ما كان الموظفون الإسبانيون يتغاضون عنه . يقول هاكلويت عن رحلة هوكنز سنة ١٥٦٢ : « ولما تأكد ، ضمن تفصيلات أخرى ، أن الزنوج تجارة رائجة فى هسبانيولا ، وأن ذلك المورد من الزنوج يمكن أخذه بسهولة على ساحل غينيا ، فقد صمم (هو) أن يحاول هناك » . وتبين من المغامرة أنها مربحة جدا ، وفى رحلته الثالثة باع هوكنز مائتى زنجى فى ليلة واحدة فى ريو دى لا هاشا على السواحل الشمالية لأمريكا الجنوبية ، وقال : « كان السكان الإسبانيون فى كل الأماكن الأخرى التى تاجرنا فيها مسرورين منا ، وتاجروا معنا عن طيب خاطر » وفى سنة ١٥٩١ استولى كريستوفر نيوپورت ، وهو قرصان آخر من قراصنة البحار فى عصر اليزابث ، على سفينة نخاسة برتغالية أبحرت من غينيا لكارتاخينا وفوقها ثلاثمائة زنجى ، باعهم فيما بعد بنقود إسبانية من فئة الثمانية الريالات (*) . وعندما رسا وليم دامبير ، القرصان الأديب ، فى ميناء جواياكيل رأى ثلاث سفن إسبانية فى النهر وعليها ألف عبد « جميعهم شبان وشابات أشداء » ، ولم يندم إلا لأن طاقمه من الملاحين ليس بالقوة الكافية ليأخذهم عنوة إلى دارين للعمل من أجل الذهب .

وفى الوقت الذى كشفت فيه أمريكا ، كانت تجارة الرقيق الزنوج موجودة فى البرتغال منذ نصف قرن ، فقد أحضر أنطونيو جنسالفيس أول فوج من العبيد إلى لشبونة فى سنة ١٤٤١ أو سنة ١٤٤٢ ، وتكونت شركة بعد ذلك بمدة قصيرة لتمضى فى هذه التجارة مع الساحل الغربى لإفريقية . وفى مقاطعة الجارفيس إلى الجنوب من نهر تاخو (**) ، حيث كان يغلب لفترة طويلة الدم المغربى ، أدى تدفق الزنوج فى وقت لاحق إلى تغير فى المظهر الثقافى واللونى للسكان . وتأثرت لشبونة نفسها بطابع لم تفقده حتى الآن ، وهو أنها المدينة الأوروبية الوحيدة التى نرى بين سكانها عنصرا زنجيا ضخما .

(*) pieces of eight

(**) التاجة .

ووجد البرتغاليون سوقا مشترية للعبيد فى جنوب إسبانيا ، وكانت أشبيلية لفترة مركزا لهذه التجارة . وإنه لمن هذا المورد من العبيد أن الزنوج الأول نقلوا إلى العالم الجديد ومع ذلك فلم يتأصل الرق أبدا فى إسبانيا رغم أن الإسبانيين تعودوا أن يسترقوا الشعوب البيضاء . وكان فك الرقاب تطوعا أمرا شائعا ، وبدأ تحرر الزنوج المولدين من وقت مبكر يظهر فى كشوف الأشخاص المرخص لهم من « بيت التجارة »(*) ، الذى كان يشرف على التجارة والسفر إلى العالم الجديد ، بالذهاب إلى المستعمرات . ومن أمثلة هؤلاء فرانسسكو الذى استقل سفينة إلى سانتو دومنجو فى سنة ١٥١٠ . وفى سنه ١٥١٢ حصلت المولدة خوانا ، التى أعلنت أنها ابنة فرانسسكو مارتن دى كاتلا ، وأنها امرأة حرة ، واسمها كريستينا ، مع ابنتها البالغة من العمر ثلاث سنوات ، على تراخيص بالسفر إلى الجزر . ويتضمن سجل المسافرين فى السنة التالية أسماء ستة حرروا من ربقة اللون . وفى سنة ١٥٢٧ عبر الأطلنطى عبد كبير أساقفة تاراجونا مع زوجته فرانسسكا . وفى سنة ١٥٣٦ تسلم « السيد خورجى » مع زوجته ماريا لوبيث وابنهما خيرونيمو تصريحاً بالعودة إلى سانتو دومنجو حيث كان عبداً للأسقف .

وكان البرتغاليون أكثر تراخيا من الإسبانيين فى كتابة التقارير وتدوين الوثائق عن مشروعاتهم فيما وراء البحار ، حتى إن تآريخ قليلة عرفت عن جلب الرقيق إلى البرازيل فى أول الأمر . أضف إلى ذلك أنه فى فترة تحرير العبيد فى سنة ١٨٨٨ دمر أنصار تحرير العبيد جميع السجلات الموجودة عن تجارة الرقيق التى أمكنهم العثور عليها فى باهيا وريو . وأول عبيد جلبوا من إفريقية رأسا وصلوا إلى البرازيل فى سنة ١٥٣٨ ، حيث أثار ذلك احتجاجات الأب نوبريجا المشهور . وطبقا لرواية زميله اليسوعى الأب أنشيتا كان هناك أكثر من ١٤٬٠٠٠ عبد فى البرازيل عند حلول سنة ١٥٨٥ ، وهى السنة التى بلغ فيها عدد السكان غير الهنود فى المستعمرة حوالى

(*) Casade Contratacion

٥٧ر٠٠٠ . ومنذ ذلك الوقت نمت التجارة بانتظام حتى توقفت بالأمر العالى الإمبراطورى فى سنة ١٨٥٠ . وفى الأربعين السنة بين ١٧٥٩ و ١٨٠٣ جلب ٦٤٢ر٠٠٠ زنجى من أنجولا وحدها . وفى ذلك الوقت كان سكان البرازيل الملونون يعدون بالملايين ، وكانوا يكونون أكبر تجمع للسود فى نصف الكرة الغربى .

وجاء العبيد من المراكز التجارية البرتغالية التى امتدت من فورتى دى إل مينا وساو جاو دى أجودا (هوايدا) على ساحل غينيا، ثم حول الرأس (كيب) إلى موزمبيق . وإذا أخذنا الناحية العددية فى الاعتبار كان المورد الأساسى للعبيد هو سلالة البانتو الشاسعة الانتشار فى وسط وجنوب إفريقية — فى الكنغو وأنجولا وموزمبيق حيث كانوا يسمون بأسماء الأقاليم التى كانت مسقط رأسهم(*) ونظراً إلى ما تحلوا به من الوداعة والأمانة كانوا يطلبون بصفة خاصة للعمل فى الحقول . وكان عليهم طلب شديد فى برنامبوكو(**) ومارانيا وريو. وكانت بائيا تفضل دائما الزنوج الجائين من السودان الغربى ، إلا إذا كان المطلوب أن يؤدى العبد خدمات عادية ، أو من القبائل فى الأراضى الداخلية لساحل غينيا . وكان زنوج هذه المساحة الشاملة أكثر ملاحة وذكاء من عبيد البانتو . ومع ذلك فقد كانوا عادة أصعب انقياداً. وبعضهم كقبائل الهوسا والفولانى(***) المتعالين لا يمكن أن يؤخذوا أبداً قضية مسلمة ، ومن باب أولى تساء معاملتهم . وكان البرتغاليون فى بائيا يفضلون بصفة خاصة قبائل اليوروبا السودانيين الذين اشتهروا بالعمل الجدى وكانوا أحسن مزاجا من معظم الشعوب

(*) Congos; Angolas; Mozambiques.

(**) الآن رسيفى .

(***) يلاحظ أن الفولانى قبائل حامية بيضاء . ولعل المؤلف قد التبس عليه الأمر فضمهم الى الهوسا زنوج نيجيريا المشهورين .

الأخرى فى ذلك الجزء من القارة الذى كان يشمل الأشانتى والداهومى وكذلك الماندنجو المسلمين .

وبحلول سنة ١٦٠٠ كان العبيد الزنوج العامل الأساسى فى الاقتصاد الاستعمارى فى مساحات كبيرة(٢) . وكانت هذه حقيقة تتجلى بصفة خاصة فى الأقاليم التى تغلب عليها الأحوال المدارية . فحيث كان ينمو قصب السكر ، كما فى شمال البرازيل ، وفى أودية الساحل البيروفى التى ترويها الأنهار ، وفى أرضى المكسيك الحارة(*) ، وفى سانتودومنجو ، كانوا هم الأيدى العاملة التى لا يمكن الاستغناء عنها . وفى كوبا كان الزنجى عاملا جنسيا على درجة بالغة الأهمية . ولما كانت كوبا آخر مستعمرة إسبانية نالت استقلالها فقد تحصنت لفترة طويلة ضد المؤثرات التحررية التى أفاد منها الرجل الملون فى الجمهوريات . ولما كان أساس اقتصادياتها هو السكر فقد كان اعتماده غير العادى على الأيدى العاملة الزنجية . وفى وقت لاحق عندما ثبت أن الأيدى العاملة التى يمكن الحصول عليها محليا لا تتكافأ وحاجة الصناعة العظيمة ، فقد استلزم ذلك جلب السكان من هايتى إلى البلاد أثناء فصل جنى محصول القصب(**) .

ولا يميل الهندى ، وينطبق ذلك على الإسبانى بدرجة أكبر ، إلى الركون إلى العمل المضنى فى حقول القصب . وفى السهل الساحلى لشمال بيرو ، ومنه صعوداً فى الأودية التى تتخلل سفوح الأنديز ، حل الزنجى من قديم محل السكان الهنود الأصليين ، كما فعل ذلك لفترة طويلة سابقة فى الجزر . وعلى الرغم من أن الزنجى كان خارج عنصره الطبيعى فى المناخ

(*) Tierra Caliente أى الأراضى المنخفضة التى تزداد حرارتها تبعا لذلك . وتسمى أيضاً الأراضى ذات المحصولات المدارية .

(**) Zafra

البارد الذى يميز الجبال العالية ، فإن كثيراً منهم استخدموا فى المناجم ، وخصوصاً فى كولومبيا .

وبينما كان للزنجى فى كل الأوقات أنصار من بين رجال الدين ، وحتى من بين العلمانيين ، كانت الفرق الدينية مؤلفة من بين كبار سادة العبيد . وفى القرن السابع عشر قام توماس جيدج ، الدومنيكانى الإنجليزى، بزيارة ممتلكات كبيرة تابعة لإحدى الفرق فى إقليم شياپاس فى جنوب المكسيك حيث كان يعمل « ما يقرب من مائتى زنجى » فى حقول القصب وطواحين الغلال . وبالقرب من بويبلا رأى عددا مماثلا من الزنوج فى ضيعة تنتمى إلى فرقته . وتلاقت سفينة إنجليزية باثنتين برتغاليتين تبحران من مصب نهر بلات فى سنة ١٥٨٧ ، وتحملان معا ثمانين عبداً زنجياً يساوون فى ذلك الوقت ٤٠٠ دوكات(*) للواحد فى بيرو ، وحمولة كبيرة من كتب دينية وأدوات أخرى وأربعة أو خمسة رهبان ، منهم راهب أيرلندى وأربع نساء برتغاليات . وكانت السفينتان والحمولة قد اشتراها عميل لأسقف توكومان فى البرازيل ، وكان فى ذلك الوقت يدعى ديرا . وكتب الأب جرفاسونى اليسوعى تقريراً فحواه أنه فى سنة ١٧٢٩ كانت الكلية التابعة لفرقته فى بوينس أيريس بها أكثر من ٣٠٠ عبد . وقدر أنه فى ذلك الوقت كان ثلث سكان المدينة البالغ عددهم ٢٤٫٠٠٠ من العبيد الزنوج . وفى السنوات الأخيرة من نفس القرن كتب كشكولوركورڤو « الإنكا » المتجول أنه شاهد فى كوردوبا مزادا لألفى شخص أسود من ضيعتين تابعتين لكليتين دينيتين ، وكانوا يباعون أسراً أسراً . ومنهم كان يوجد كثير من الموسيقيين وآخرون ذوو مهارات خاصة . وكان لراهبات سانتا تيريزا مزرعة مجاورة فيها ٣٠٠ عبد . وكانت بعض الأسر تمتلك ثلاثين أو أربعين عبداً يخدمون

(*) Ducat عملة أوربية قديمة ذهبية تعادل ما يقرب من نصف جنيه . وكانت فى إيطاليا دوكات فضية ذات قيمة أقل .

فى داخل المنازل . ويضيف الهندى اللوذعى تلميحا إلى أن النساء العبيد اشتهرن بغسل الملابس . وكتب سارمينتو ، وكان ضد الكهنوت ، بعد ذلك بفترة طويلة يقول عن نفس المحلة : «كان لكل دير ومنسك للعبادة ملك ملاصق ، فيه يربى ثمانمائة عبد تابعين للفرقة من الزنوج والثامبو(*) والمولدين» . وقد وصف الرئيس الأرجنتينى الوقح النساء المولدات الصغيرات السن قائلا : «عيون زرق ، وشعر أشقر ، وحركة متثاقلة ، وأرجل ملمعة كالرخام ، شركسيات(**) والله ، وهبن كل المحاسن التى تلهب العواطف البشرية ، كل ذلك للشرف العظيم والفائدة التى يجنيها الدير الذى تنتمى إليه هؤلاء الحوريات» .

وفى العقود الأخيرة للعصر الاستعمارى قام بعض المراقبين الأجانب والأوروبيين بعمل إحصاء للتركيب الجنسى للسكان ، ويظهر أنهم انتهوا إلى تقديرات موثوق بها عن العناصر التى يتألفون منها . وفى بدء القرن التاسع عشر كانت غالبية سكان البرازيل وكوبا وسانتو دومنجو زنوجا أومولدين. وفى ذلك الوقت قدر العبيد فى فنثويلا بـ ٧٢ر٠٠٠ والمولدون بـ ٤٠٠ر٠٠٠ أو حوالى ٧٤٪ من سكان منطقة الحاكم العام . وكان فى البرازيل فى سنة ١٧٩٨ ، ٣ر٢٥٠ر٠٠٠ منهم ٤٠٦ر٠٠٠ محررين ، ١ر٥٨٢ر٠٠٠ عبيداً ، ومن هؤلاء ٢١١ر٠٠٠ مولدين ومن تقرير رسمى عمل بعد ذلك بعشرين سنة تبين أن مجموع السكان بلغ ٣ر٨١٧ر٠٠٠ ، وعدد المحررين ٥٨٥ر٠٠٠ والعبيد ١ر٩٣٠ر٠٠٠ ، ويشمل هؤلاء ٢٠٢ر٠٠٠ مولدين . وتناقص عدد الأشخاص المقيدين تحت بند «مولدين» يمثل نزوع المولدين الذين فى دمهم ثمن الصفات الزنجية،(***) والمولدين الأكثر بياضا الذين فى دمهم ربع

(*) Zambo : مولد من أب زنجى وأم هندية أو العكس .

(**) نسبة إلى بلاد الشركس (الجركس) غرب القوقاز .

(***) Octoroons (octaroons)

الصفات الزنجية(*) إلى الاختفاء تحت بنـــد البيض . وهذه عملية تتزايد باستمرار بالسيولة الإثنوجرافية التى يتصف بها سكان البرازيل . وقد قدر الكسندر فون همبولدت ، الذى أمضى بضع سنوات فى أمريكا الإسبانية فى هذه الفترة ، السكان السود فى جزر الهند الغربية بـ ١ر١٣٠ر٠٠٠ شخص منهم ٢٣٠ر٠٠٠ كانوا عبيداً فى كوبا . وعلى أساس البيانات التى قدمت إلى برلمان قادس يقدر همبولدت عدد ١١٤ر٠٠٠ للسكان الأحرار «الملونين» فى تلك الجزيرة . ومع ذلك فلم تكن نسب الدم الزنجى ذات بال فى تشيلى وكستاريكا وباراجواى ، ولا فى المدن الجبلية مثل بوجوتا وكيتو وكشكو وبوتوسى . أما فى المدن الساحلية من فيرا كروث ، ثم بتقوس ماربكارتا خينا وباهيا وريو دى جانيرو وبوينس أيريس وليما وجوايا كيل إلى بنما ، فكان السكان الزنوج والمولدون أغلبية فى كل مكان فيما عدا فالباراييسو .

الزنجى فى البرازيل

ليس هناك مكان ما ، اللهم إلا الطرف الغربى لهسبانيولا ، أثر فيه الزنجى على شكل الحضارة تأثيراً عميقا كما حدث فى شمال البرازيل . ولم يكن هذا بسبب ضغط أعداده فقط ، بل أيضا إلى قوة التقبل التى يتصف بها سادته البرتغاليون . فالبرتغاليون ، بخلاف الإسبانيين كانوا من أكثر الشعوب مرونة تشكيل .

وفى الوقت الذى تكفلت فيه البرتغال باستعمار البرازيل كانت قد نشرت القسم الأنشط من سكانها القليلين ، بكثافة قليلة ، فوق مساحة شاسعة فى مغامراتها فى آسيا . وكان معدل الوفيات فى التوسع الاستعمارى البحرى

(*) Quadroons . وإلى القارىء طبيعة عملية التهجين : أبيض + زنجى = مولد / أبيض + مولد = كوادرون / أبيض + كوادرون = أوكتورون .

عاليا جداً . وشعر البرتغاليون وقتئذ بالحاجة إلى الحفاظ على قوتهم البشرية المتداعية . وبعبارة موجزة كان هدفهم التقليل من الظروف التى تعرضهم للأخطار الحتمية التى تستلزمها الريادة المدارية . وبوصف كونهم متعهدى أعمال فى نظام إنتاج المزارع المدارية الكبير ، كان عليهم أن يبحثوا عن أيد عاملة رخيصة ومتوافرة . وقد تأكدوا من قبل من عدم لياقة هنود الغابة لغرضهم هذا ، وعلى ذلك فقد اتجهوا إلى العبد الزنجى الذى كان مألوفا عندهم فى البرتغال .

وعمل الزنجى فى حقول القصب ومعامل السكر . وعمل حداداً ، ونجاراً ، وميكانيكيا عاما فى جماعة «المنزل الكبير» المكتفية ذاتيا . وكان مجال أعماله فى المدن التى نمت على طوال الساحل يشمل جميع الحرف اليدوية تقريبا ، الحقيرة والحاذقة ، من حمال ومتعهد شحن وتفريغ سفن ، إلى خياط وحلاق . وكان يرتدى الملابس المزركشة وبذلك كان يكون جزءا من حاشية سيده فى جيئاته وروحاته حول باهيا وأولندا . وتكاثرت فى بيوت الوسية جماعة صاخبة ثرثارة من النسوة السود العبيد فى ترتيب هرمى مفكك من ناحية الأعمار والمهارات والمسئوليات ، مع الطباخة والخادمة الخصوصية «لسيدة البيت»(*) فى أعلى مراتب النفوذ والهيبة . وكان أطفالهن العراة ، والذين لا رادع لهم ، يتسللون باستمرار دخولا وخروجا ليزيدوا من الطنين والفوضى – والسرور – التى كانت تصدر من خدم المنزل العاجزين والمتزايدين العدد باستمرار .

ويرى البيض أن من أكثر أطوار الرق إفسادا للآداب الطور الذى كان يمثله فى البرازيل «العبد المتكسب» ، والذى كان له أيضا نظير فى مدن المستعمرات الإسبانية . وهذا العبد كان يؤدى شتات الأعمال فى المدينة .

(*) Donna de Casa

فى بعض الأحيان إذا كان العبد عاملا غير حاذق فلربما عمل حمالا أو عمل فى تحميل وتفريغ السفن أو حتى فى أعمال الخدم الحقيرة . وفى بعض الأحيان قد يكون على قدر مطلوب من المهارة ، وبذلك تزداد مكاسبه بالتالى . وفى كلتا الحالتين كان يطلب منه أن يسلم سيده مبلغا ثابتا فى نهاية كل يوم ، فإذا جاء بفائض فوق هذه « الحصة » فقد كان هذا الفائض من نصيبه هو عادة . وكثير من مواطنى باهيا وبرنامبوكو (*) ممن كان فى مقدورهم تدبير رأس مال كاف لشراء عبد أو أكثر عاشوا فى بطالة على دخلهم من هذا المورد . ومن بين هذه الطبقة من سادة العبيد الصغار زنوج كانوا عبيداً من قبل .

وعلى الرغم من أن كثيراً من مظاهر مجتمع الرقيق هذا يشبه النظام الذى كان سائدا فى جنوب الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية فإن الاختلافات كانت كثيرة وعظيمة الأثر . ومن المؤكد أن حظ الزنجى فى البرازيل كان أحسن بكثير . فلم توجد جهة فى العالم ، حيث كان السود يعملون كعبيد ، فيها كانوا يعاملون بقدر أكبر من الشفقة أو تنتهك الروابط فيها بأقل قدر (٣) فقد كان المزارع البرتغالى بصفة عامة متراخيا لدرجة لا يمكنه معها أن يكون قاسيا . وكانت العلاقة الشخصية بين السيد والعبد وثيقة جداً ، لا يشوبها زهو الجنس ولا التعصب اللونى . لأن البرتغالى كان قد هيأ نفسه ضد التعصب الجنسى لمدة قرون من التجارب بمعيشته مع الشعوب الدكناء . وكان البرتغاليون الجنوبيون وبصفة خاصة سكان الجارفيس والميتيجو مولدين بدرجة واضحة من ممارسة التزاوج المختلط مع المغاربة فى العصور الوسطى . وفى القرن السابق لاستعمار البرازيل أضاف العبيد الزنوج عنصرا إثنوجرافيا آخر إلى التهجين الموجود ليمتصه مجرى الدم ومجتمع البرتغال الزائد الترحيب . وفى غضون تلك الأثناء كانت

(*) رسيفى

مغامرات البرتغاليين في الشرق قد وسعت اتصالاتهم بالشعوب الملونة الذين أظهروا نحوهم نفس سعة الصدر وسماحة الكاثوليكية، سواء أكانوا من التاميل الغبش الذين يقطنون ساحل ملبار، أم الملايو السمر الذين يقطنون الجزر.

واستمرت عملية التهجين في البرازيل لا تعوقها تحاريم أخلاقية أو تقاليد اجتماعية لانبثاق جنس جديد (٤). وساعد على هذه العملية مجموعة من الظروف: شدة العاطفة عند الذكران البرتغاليين، الإثارة التي يسببها المناخ المداري، حرية المجتمع الجديد الذي صاغ هو له قواعد السلوك، النقص في عدد النساء من بني قومه بين المستعمرين الأول، الفتور النسبي الذي اتصفت به المرأة البرتغالية المكبوتة والمحجوبة إلى درجة زائدة، الامتثال السهل ـ أو الاستسلام ـ من جانب الزنوج، الإغراء العاطفي للكوادرون والأوكترون الذين تميل بشرتهم إلى البياض كلما توالت مراحل التهجين للإسراع من فورة خلق جنس شيئاً فشيئاً. وكانت الأداة المفضلة في عملية التهجين هي المرأة «الزرزور» (*) الجائية من السودان، بسنائها وذكائها وكفايتها وتوددها، في دورها المزدوج الذي كانت تقوم به كسيدة ومدبرة شئون المنزل لكثير من رجال وشبان المستعمرة العزاب (٥) وكذلك النساء الأدنى مرتبة الجائيات من الكنغو وأنجولا، فقد ساهمن كثيراً في طهو «التورلي» (**) الذي كان يشكل منه الشعب البرازيلي.

وقد أدى الاختلاط الكبير خدمة غير مقصودة لفن السياسة، لأنه خلق شعباً حيث لم يكن هناك شعب (٦) وبدت الحاجة ماسة إلى عدد من السكان أكبر من طاقة البرتغال ان توردة لملء الفراغ السكاني

(*) Mina (minah, myna) طائر

(**) Olla podrida

فى الفيافى البرازيلية . وكان خصب المرأة الزنجية ، وساعد الرجل الزنجى القوى ، وقوة احتماله وصبره ، هى التى ساعدت البرتغال على البقاء والنهوض بشمال البرازيل والسهل الساحلى الذى منع الاتصال بالمرتفعات الداخلية من البحر فى جنوب المستعمرة الشاسعة . فلولاهما ربما تمكن الفرنسيون والهولنديون من أخذ البرازيل من البرتغاليين .

وواءم الزنجى نفسه بسرعة لمطالب حياته فى البرازيل . فقد كان فى وطنه فى وهج الشمس⁽٧⁾ وكان طعامه بسيطا، وعلى الرغم مما كان ينقصه من تنوع ، فقد كان غذاء أفضل مما كان يتناوله سيده . ومن وجهة النظر الفيزيقية نجده قد ترعرع فى بيئته الجديدة . فقد تخلص من ربقة أصوله الثقافية فى إفريقية ولقد باعه بنو قومه أنفسهم كعبد رقيق ، وكم قاسى من محنة عبوره المحيط فى عنابر سفن العبيد المكتظة . فلا عجب إذا بدا فى بعض الأحيان مفكرا مكتئبا . ولكن روحه كانت بطبيعتها مرنة إلى درجة أنه فور شفائه من آثار « المعبر الوسيط . » (*) وفور مضيه فى نغم وروتين وجوده الجديد ، كان على استعداد للانتفاع إلى أقصى حد من بلاد بعيدة عن كونها أردأ ما يمكن من بلاد . وحيثما كان ، فقد أشع روحا مرحة للحياة على حافة الغابة العظيمة (٨) . واستسلم البرتغالى للكآبة العاطفية ، فجاء الزنجى وأخرجه من كآبته العابسة بضحكه وأغانيه . ولا يزال تأثيره ينفذ من موسيقى البرازيل التى تختلف اختلافا كثيراً عن الأنغام الحزينة التى تتميز بها الموسيقى الشعبية البرتغالية ووضع نمط الاحتفالات للبرازيل ، وعلى الرغم من المهرجين (**) والراقصات (***) بين الطبقة الارستقراطية من المحتفلين ، فإن مهرجان ريو ، وهو أعظم مهرجانات العالم ، من صنع خلاعته الهمجية .

Central Passage (*)
Pierrots (**)
Columbines (***)

ومع أنه جاء إلى العالم الجديد وليس عليه سوى سروال من قماش ، فقد أحضر معه فى رأسه الأسود جميع المدخر من أساطيره الشعبية ومجموعته من الخرافات وأحاديث الجن وطقوس الغابة الدينية . وكما فعلت الثقافات المتماثلة فى الشمال : الفودون أو الفودو فى هايتى والنانييجو فى كوبا ، أعطت الماكومبا أو الكاندومبلى فى البرازيل شكلا ومعنى مألوفين لارتباطاته بالقوى الخارقة للطبيعة التى ملأت زوايا عقله البدائى . واختلط «بخرافاته» الخاصة به ما اقتبسه من عبادة الهندى للطبيعة وأساطيره الزاخرة . وأحضر الهوسا وقبائل أخرى من السودان الجنوبى معهم عقيدتهم الإسلامية ومعرفتهم بالقرآن الكريم .

وقبل الزنجى الدخول فى المسيحية رضا كما فعل الهندى . وتقبل منها ، كما تقبل الهندى ، ما كان فى مقدوره فهمه وما كان يلائم روحه البسيطة — المسيح (*) ، السيدة مريم (**) ، القديسين ، الطقوس الدينية البهيجة التى تتصف بها الكنيسة الكاثوليكية وتعلم أصول الدين بالأسئلة والإجابة عنها ، ولكن لم يكن فى وسعه فهم علم اللاهوت . وكانت الكنيسة تهتم كثيرا بإقباله على الدين ، وشجعه سادته البرتغاليون على تعلم مبادىء العقيدة الأولية . ولم يتوقع أى إنسان منه سواء أكان قسيسا أم سيداً أكثر من ذلك . وكان معظم اهتمام الجزويت ، وهم قوة كبيرة فى المستعمرة ، ينحصر فى تخليص الهندى . أما الخدمات التى كانت تؤدى للزنجى فقد تركت للقسيس الذى كان يرعى «البيت الكبير» ، والذى لم يكن قابلا لأن يصبح عالما متضلعا أو مستمسكا بالتعاليم . وفى هذا المجتمع الذى اتخذه دينه بالسهولة التى قبل بها حقائق الاختلاف الجنسى أضاف الزنجى إلى مسيحية البرتغال الوديعة دفئا وحسية خاصين به . وفى وقت لاحق أخذ يلطف من مراعاة

(*) the Bom Jesus

(**) المادونا: The Madonna

العقيدة و يقربها من الوثنية ، وقد اتصفت من قبل باللين والتسامح اللذين فاقا كل المذاهب الأخرى فى البلاد المسيحية .

وكان تحرير العبيد فى البرازيل فى تزايد(٩) . ولم يحدث وسط شغب ولم تصحبه حرب أهلية وما يتبعها من عقاب و تأديب كما حدث فى الولايات المتحدة . ففك الرقاب كان صفة أصيلة فى طبيعة الرق البرازيلى ، وكانت عملية التحرير فى الواقع معاصرة لتاريخ النظام نفسه . فقد كان الباب إلى الحرية نصف مفتوح دائما أمام العبد ، وكانت هناك مناسبات وحجج كثيرة أساسها العرف والقانون الإنسانيان ، لفتحه على مصراعيه .

وكان السيد عادة يحرر أطفاله المولدين إذا لم يكن فى أبوتهم أى شك . وقد جرت العادة كذلك أن يحرر عبدا محبوبا لديه فى احتفالات عائلية خاصة ، كالاحتفال بميلاد ، أو تعميد ، أو عقد قران ، أو عيد ميلاد السيد أو إجازة دينية(١٠) . وكان فى استطاعة العبد شراء حريته بأن يقدم لسيده الثمن الذى اشترى به فى الأصل ، أو يسترجع حريته فى بعض الأحيان بدفعه على أقساط . وكان الأطفال الذين يولدون من عبد زنجى وامرأة محررة يولدون أحراراً ، وأى عبد ذكرا كان أم أنثى له عشرة أطفال ، أو حتى أقل من عشرة أطفال ، يمكن أن يكون حراً . ولم يكن من العسير على عبد يعيش فى المدينة ويكون مجدا ولديه قدر من المهارة أن يدخر ما يساوى الثمن الأصلى الذى اشترى به . وبجانب أيام الآحاد كان هناك من الأيام ما يقدر بأربعة وثمانين يوما إجازة ، دينية ورسمية ، كان وقته فيها ملكا له . وإلى هذا الحد ، ربما كان للرق فى البرازيل نظام العبودية بالاتفاق الذى كان سائداً فى المستعمرات الإنجليزية ، وبمقتضاه كان الخادم الأبيض يعمل بما [illegible]

بعض الوقت فى المزرعة ، أو ينتهوا باستقرارهم هناك على الدوام ، ولا يزورون المدينة إلا إذا لم يكن لديهم غير هذا يؤدونه .

ولم تقو بعد فئة مزارعى الطبقة الوسطى بدرجة كافية أو تصبح لها أهمية عددية لتكون عاملا أساسيا فى المجتمع الريفى . ولهذا العنصر المرتقب مناطق راسخة فى « المستعمرات »(*) الأرجنتينية ، وفى بعض أودية المكسيك ، وفى المناطق التى أدخل فيها نظام الرى حديثا على الساحل البيروفى ، وفى مساحات واسعة فى البرازيل ، وبين طبقة ملاك المزارع (**) فى الأقطار « المعتدلة » التى تزرع البن حول البحر الكاريبى . وإن التقدم خطوة فى سبيل تعميمها قد يكون أقوى ضمان لتحسين المستوى الاجتماعى والاقتصادى فى الحياة الريفية فى أمريكا اللاتينية .

وهناك طور للمشكلة عموما أصعب بكثير من مجرد مواجهة المدينة للريف ، وهى المشكلة التى تتمثل فى ملايين الزراع الذين ينتجون لكفايتهم الذاتية . ويختلف مستواهم اختلافا كثيرا ، ولكن يجمع غالبيتهم عامل مشترك هو الفقر . وكثير منهم يعيشون خارج النظام الاقتصادى التقليدى كلية .

فالمسألة ذات أهمية أساسية كبرى ، لأن عددا كبيرا منهم يمثلون مشكلة إصلاح بشرى عظمى . وبعبارة أخرى يجب أولا إنقاذهم من المرض والجهل ، ومن حياة التنقل المزمنة ، ومن لعنة طرق الزراعة البدائية . ومع ذلك قلما كان هناك عدد كبير منهم ، ولما كانوا من عنصر طيب ، فهم جديرون بأية رعاية ومجهودات قد تلزم لإنقاذهم من التخلف .

وما ذكر إنما هو بعض العوامل التى تحيط بمحاولة إيجاد توازن أفضل

Coeonias (*)

finquero (**)

بين المدينة والريف فى جانبي حضارة أمريكا اللاتينية . وهناك عوامل أخرى هى مد طرق أكثر ، وإنشاء مدارس أكثر ، وتعميم الشبكات الكهربائية فى الريف ، وإنشاء عيادات صحية عامة .

وقد خلق نمو سكان المدن السريع الزائد على الحد مشكلات عويصة لهذه المدن . فكثيراً ما تجد المرافق العامة أن مطالب الصناعة والاستخدامات المنزلية فوق ما تقدمه طاقتها الفعلية أو إمكاناتها الذاتية من تسهيلات ، وكان من نتيجة ذلك أن الماء والكهرباء يوزعان بالبطاقات ، ويمكن الحصول عليهما فى ساعات معينة من اليوم ليس إلا . ويميل النقص فيهما إلى أن يصبح إحدى مضايقات المعيشة فى مدن أمريكا اللاتينية . ثم إن ارتفاع الأسعار الذى يبدأ عادة بإيجارات المساكن ، ثم يمتد إلى المواد الغذائية والملابس ، عادة ما يصحب أى نزوح كبير ومستمر من السكان القادمين من الداخل . وقد تضاعف كثيراً عمل موظفى الحكومة الاجتماعيين بما فيهم رجال الشرطة والمؤسسات الخيرية . أما سكان الأقاليم كالهنود الذين ينزحون إلى ليما من الجبال فيجلبون معهم الجراثيم الخاصة بهم ويصبحون بؤرا للعدوى مما يضيف أعباء على أعباء مصلحة الصحة العامة . وهناك أيضا مشكلات متلازمة شبيهة تؤثر فى الحكومات الأهلية . فمثلا أى تخلخل فى سكان الريف وإيواؤهم فى العاصمة يقلل من مقدار الغذاء الذى يمكن الحصول عليه فى البلاد بنسبة نزوحهم عن الريف ، لأن كل منتج سابق للغذاء يصبح مستهلكا للأشياء التى كان ينتجها من قبل ليس إلا . وبنفس الطريقة قد تزيد مطالب المدن على موارد الطعام العادية ، وفى بعض الأحيان الموارد المزعزعة . وهو خطر يتفاقم أحيانا كما فى حالة ريو لفشل وسائل النقل التى ينقل بها الطعام محليا .

المدينة فى حضارة أمريكا اللاتينية

إحساس المرء بالانتماء إلى المدينة فى أمريكا اللاتينية ، كما هو الشأن فى إسبانيا ، هو مسألة زهو يحس به سكان المدن . وهو يتخذ صورة الولاء لمدينة ، والرغبة فى تمجيدها وتجميلها أما الأمة فلا تثير نفس هذا التعلق العاطفى ، لأن تزعزع ثقة الناس بالحكومة الأهلية منتشر ومتأصل .

فالجمهورية وحدة جديدة وصناعية إلى حد ما ، أنشئت بطريقة تعسفية تقريبا برسم خطوط معلومة على خريطة ، ثم حذر الأجانب ليبقوا خارج الحدود ولكى تكتمل العملية لابد أن يكون هناك علم ونشيد قد لا يغنيه شخص ما من تلقاء نفسه ، وجيش ، ودستور ورئيس .

وأنشئت المدن من زمن بعيد ، لأن الإسبانى كان عرضة لأن يصبح غير سعيد بدونها ، كما كان مواطن باراجواى بدون شجرة البرتقال التى غرسها ، أو الريفى فى تشيلى بدون شجرة التين وقد نمت المدن لأنها حققت الأطماح العميقة فى قرارة نفسه ، فكانت تمثل تقليداً لم ينقطع ، استمر يقاوم الحروب والجائحات الطبيعية وانهيار الحكومات . وكانت ذات حجم تحيط به العين بسهولة أو يمضى أى شخص عبره بوسيلة نقل يملكها فإن منظر ريو من قمع السكر (*) ، أو كوركوفادو (**) ، أو من نقطة تهيىء الفرصة لرؤية طريق تيوكا . أو عبر الخليج ، وأيضا منظر سانتياجو عند الغروب من جبل سانتا لوسيا ، أو المستوى الأعلى لسان كريستوبال ، أو منظر مدينة المكسيك من ممرات الجبال التى تحيط بها — كل ذلك يكفى لرفع معنويات من يسلك هنالك . ففى استطاعته بسهولة أن يحيى مدينته بنفس الرهبة والتبجيل كما كان يفعل رعايا الإنكا عند ما كانوا يدخلون كشكو

(*) "Sugar Loaf" : تل ارتفاعه ١٢٦٠ قدما يشرف على المدينة.

(**) معناها « الأحدب » .

ويحنون أمام العاصمة الإمبراطورية ويكررون الصلاة لآلهتها الحارسة . فالمواطن يعد المدينة ملكا له ، أما القطر فهو ملك للحكومة . وعادة ما يكون القطر كبيراً إلى درجة زائدة ، وأرجاء كثيرة منه تنزع إلى أن تصبح كريهة ومعادية . وهناك جبال كثيرة العدد، وجهات صحراوية وغابية كثيرة ، أو فراغ كبير كما فى البمبا حيث لا يوجد ما تتعلق به عاطفة المرء . وليس هناك ما هو محبوب لديه كميدان فى مدينة من صنع يديه نفسه . ويعرف المواطن العادى فى أمريكا اللاتينية جيداً شيئا قليلا عن بلاده فيما وراء الأفق المباشر وبعيداً عن الطرق المألوفة . والطرق المألوفة تميل إلى القصر، وضيقة ، وغير مريحة ، فينتهى الأمر به إلى أن يبقى فى مدينته . ذلك لأن مدينته شىء أليف وعزيز عليه ، يشعر نحوه بالحب ، ويعتز بما يقدمه لها من إنجازات . فلا غرو إذا كانت المدينة يكاد يسودها كلها حكم أفضل مما تحكم به الدولة .

ويحيى المواطنون بمظاهر الأبهة أعياد مدنهم المئوية . وكثير من هذه الأعياد أعياداً لمدن مضى عليها أربعة قرون من حياة المجتمع التعاونية . وهم يحيون ذكرى معالم تاريخهم بالمظاهر والخطابة ، ويؤلف علماؤهم كتبا جميلة تذكارا لعظمة المدينة كما كتب دانيل سامبر أورتيجا عن بوجوتا . وقد تنشر البلدية سجلات مجالس المدن(*) فى عهد الاستعمار لتحفظ للأجيال القادمة التمثيلية البشرية المتحركة لسجلاتها التى استحقت التدوين كما فعلت ليما(١٨).

ولذلك تكافح المدن دائما من أجل قدر أكبر من التجمل والتميز . وتحقيقا لهذا الغرض المشترك فإن قادتها الإداريين ورجال الفن والمعماريين والمهندسين فيها يوحدون جهودهم فى تخطيط المدينة . ويجعل الرؤساء

(*) cabildos

والعمد ، مثل بيريرا پاسوس ، عمدة ريو العظيم ، طموحهم الخاص فى أن يتركوا المدينة شيئا أكثر مهابة وفخامة عما وجدوها . فإذا كان الذى خلفوه شاهدا لهم ، وربما كان شاهدا على غرورهم الفردى ، فإن ثمار ما غرسوه تجنيها المدينة ومواطنوها . فقلما يتعدى خيلاؤهم الشخصى نطاق أنفسهم ، على الرغم من أن حاجات أخرى ماسة فى البلاد قد تضحى لكى تشق العاصمة الهامة الطرق الواسعة ، وتقام التماثيل والأبنية العامة الضخمة والمرافق العملية اللازمة لحياتها اليومية ، كالأسواق وعمليات المياه والمجارى .

عمارة المدن

تغير منظر المدن الكبرى تغيراً أساسياً فى كثير من الأحيان ، وأحيانا بدرجات متفاوتة وبطريقة مهوشة ، كما حدث بالنسبة إلى مدينة المكسيك . وأحيانا يجدد منظر المدينة العتيقة بخفة كما حدث فى بوجوتا ، أو تغير شهوة التجديد قلب المدينة كما يجرى الآن فى كاراكس . أما معظم التغيير الذى طرأ على بوينس أيريس فيبدو أنه وفق خطة منظمة ، ولكن نمو ساوباولو حدث عارض له صفة جوهريه وعالمية تبدو كما لو تتخطى كل تخطيط يصنعه الإنسان . وعلى الرغم من أن أربعا من عواصم الكاريبى — سانتودومنجو ومدينة جواتيمالا وماناجوا ، وسان سلفادر — هدم معظمها أو تقوضت أبنيتها من جراء الزلازل أو العواصف فى القرن الحالى ، فإن نمط تجديدها مقيد اضطراريا بالحدود المتواضعة للموارد المتاحة لهذا الغرض .

وخاض منظر الأبنية العامة فى أمريكا اللاتينية غمار طور يمتد من نمط مدرسة هيريرا (*) الكلاسيكى ، خلال فن الباروك (**) ، ثم العودة إلى الكلاسيكية من جديد ، وأخيرا إلى نمط مقلد للباروك أو نمط « سوق

(*) الأب والابن : من رسامى القرن السابع عشر .

(**) نمط معمارى مسرف فى الزخرف.

العالم » فى العمارة الذى يمثله قصر مونرو فى ريو و « الفنون الجميلة » فى المكسيك(١٩) أما فى الوقت الحاضر فأهم التطورات الإنشائية تشاهد فى معجزات مبانى « المسلح » والزجاج المصنوع بالأساليب العملية الحديثة. وبرهن بعض مصممى أمريكا اللاتينية ، مثل نيمير فى البرازيل ، على أنهم جديرون بأنهم تلاميذ لوكوربوزييه وغيره من رجال المذهب المعمارى القويم وقد كان التأثير الفرنسى كبيرا فى بوينس ايريس لدرجة أن كثيراً من مبانيها باريسى جدا فى منظرها . وإذا استثنينا حالات قليلة وبعض تفاصيل زخرفية ضئيلة لم يترك الهنود أثرا فى العمارة الغالبة فى أمريكا اللاتينية حتى وقتنا هذا . ومن جهة أخرى كان تأثير عرب إسبانيا(*) فى عهود الاستعمار الأولى واضحا أحيانا فى أعمال المعماريين الأندلسيين الذين ذهبوا إلى العالم الجديد ولما كانت معظم العمارة أكليركية فقد كانت الكنيسة هى النمط النموذجى لفن المعمارى ، وعليها كانت تنصب مهارة وخيال المصممين بسخاء . وإذا استثنينا بضع حالات كأعمال البيادينو فى أورو بريتو والواجهات المميزة للكنائس اليسوعية المسرفة فى الزخرفة(**) ، فإننا نجد أن عمارة البرازيل فى عهد الاستعمار لاتستحق التنويه . وكما قد نتوقع فإن عدم التناسق فى الأبنية العامة فى المدينة الكبيرة العادية مثل مدينة المكسيك لايزيد على عدم التناسق الموجود فى لندن أو نيويورك . ومن فوق آثار العهود القديمة فى ساوباولو يبدو منظر المدينة بارزة منه فى جهات متناثرة ناطحات السحاب العالية .

وأحضر الإسبانيون معهم فن عمارتهم السكنية إلى العالم الجديد فى القرن السادس عشر كما أحضروا جميع ثقافاتهم وأشياء أكثر قد يحتاجون

(*) mudéiare

(**) باروك

إليها . ورأى خلفاؤهم والقادمون المتأخرون أن ليس هناك سبب معقول لتغييرها كثيرا جدا حتى العصور الحديثة ، فقد كانت تبدو من الخارج بسيطة ومتينة ، وكانت من الداخل تقدم لهم الخلوة والحماية لحياة الأسرة . وكان المسكن مكونا من طابق واحد ، ولو أنه فى حالة كبر حجم الأسرة ويسارها بدرجة كافية ، قد يكون مكونا من طابقين . وفى جميع أرجاء أمريكا اللاتينية لا يزال هناك مئات الأميال تصطف على جوانبها مثل هذه المنازل . ويستطيع المرء أن يشاهدها الآن فى سيلايا أو تونيا ، أو سولتا أو أولندا ، أو فى آلاف المدن الأخرى أو ، لهذا الغرض ، فى هافانا وبوجوتا وليما ، لأنها أبنية متينة جدا . فقد كانت الجدران تبنى عادة من اللبن ، والسقف من القراميد الحمراء تحرق فى الجهات المجاورة . وكان الحائط الأمامى يطلى باللون الأبيض وينساب مع الممشى الجانبى الذى كان يرصف ببلاط ثقيل من الحجر واعتادت نساء المنزل أن يضطجعن على الوسائد فى الشبابيك الأمامية يشاهدن العالم المحلى يسير أمامهن . فإذا كانت الشبابيك مسيجة بالقضبان فإن شباب البلدة كانوا يتقدمون لخطبة عرائسهم(*) من خلال شمسية الشبابيك(**) ، كما كان يفعل آباؤهم وأجدادهم فى إسبانيا . وكان باب الشارع سميكا وثقيلا ، وعندما كان يغلق بالمفتاح الكبير لا يستطيع أن يزعج أمن من فى البيت سوى آلة لهدم الأسوار . فإذا كان المنزل مكونا من طابقين فغالبا ما كانت له شرفة أو اثنتان . وكان بعض هذه الشرفات مجرد بروزات فى الشارع من حجرات النوم العليا ويقيها حاجز « درابزين » . وكان الطراز فى ليما وكشكو أن تبنى شرفات كبيرة مقفلة من الخشب المزخرف الجميل ، فتستطيع النساء أن يشاهدن المارة فى الشارع إلى أسفل دون أن يرين تماما ، كما كان يستطيع

(*) novias

(**) rega

المرء ذلك من وراء حصير نوافذ البندقية وأقطار البحر المتوسط الشرقى(*) ويمكن مشاهدة بقايا هذه الظاهرة المميزة فى العمارة فى بيرو إبان عهد الاستعمار فى الأحياء القديمة من ليما . ومن أحسن أمثلة طراز المبانى هذا دار تورى — تاجى(**) ، وهى تستخدم الآن مقراً لوزارة الخارجية . وقد احتفظ المعماريون الحديثون بهذا العنصر المميز فى كثير من المبانى الجديد بما فى ذلك قاعة المدينة(***) فى ميدان الأسلحة .

ومن خلف المدخل الأمامى ، ومن دون ردهة معترضة ، كان يوجد صحن الدار أو « الحوش » ، وهو مهم للغاية . واختلف حجم ونظام هذا الصحن باختلاف موارد ومركز صاحب الدار . فلقد كان شيئا إسبانيا صميما ، له أصول رومانية : وجعل من الدار أو المنزل(+) بيتا(++) . وعكست زينته والعناية به الذوق السليم والطباع العائلية لأجيال الزوجات والأمهات المتعاقبة . ففيه ، عندما يكون الجو جميلا ، كانت الأسرة تقضى معظم وقتها . وجميعه ، أو بعض منه ، كان يرصف باللون الأحمر الصقول أو القيشانى المنقوش بالصور كما فى الأفنية الجميلة فى أشبيلية . بل قد تقام فية نافورة إذا كان الماء متوافرا . وكانت هناك أزهار ومنبت شجيرات وطيور تغريد وببغاء لتسلية الأطفال بسيل لا ينقطع من الثرثرة وربما فأرغسال شق أو حيوان صغير أليف من البرية للتدليل . وكثيراً ما كانت هناك أشجار البرتقال أو أشجار فاكهة أخرى لتضيف إلى جمال المكان وبهجته . وأحيانا ، إلى الخلف من المطبخ ومكان الخدم ، وربما

(*) levant : الليفانت .

(**) Casa Torre - Togle

(***) ayuntamiento

(+) Casa

(++) bogar

وجد فناء ثان بمماش ومقاعد لطيفة بين ظلال الأشجار والأعشاب المزدهرة ، كما كانت الحال فى دار ساو باولو فى كاراكس . أما غرفات المنزل فكانت أبوابها تطل على الفناء الرئيسى ، وإذا كان هناك طابق ثان فقد كان يحيط به رواق مكشوف يصعد إليه بسلم .

وعاش كثير من هذه المساكن الجميلة فى الأرجاء القديمة من المدن التى كانت مراكز الأرستقراطية الاستعمارية كما فى بوتافوجو ولارانجيراس فى ريو ، وفى بوجوتا وبلاد هادئة قديمة مثل كيتو ، وتروخيو ، واريكيبا ولكن المعماريين توقفوا عن إقامتها الآن ، لأن الإنشاءات السكنية انتابها ما انتاب الأبنية الأخرى . وعلى كل حال فقد كانت « البيوت الكبيرة » تبنى لعصر كان فيه وقت كاف لفنون المعيشة الأولية . وكانت تصمم لتكون مقرا لطريقة أبوية من الحياة التى أضفت قيمة كبيرة على الفسحة والراحة ووقت الفراغ . ولذلك فقد اختفى الفناء من رسوم المعماريين الحديثين ، لأن يشغل مساحة من الأرض أكثر من اللازم . وهناك عوامل أخرى ساعدت على التحول هى : ضغط ارتفاع قيمة أراضى البناء ، وتكاليف المبانى المتزايدة ، وظهور طبقات جديدة حصلت على الأموال لم يعرفوا أبدا شيئا عن سحر منازل « السادة » القديمة ، وظهور « مشكلة الخدم » فى أمريكا اللاتينية ، الرغبة الجامحة فى الحصول على الأدوات الكهربية التى لم تكن لتلائم بسهولة المساكن الفسيحة التى أقيمت لتلائم عصرا غير آلى ، ومنافسة السيارة والنشاطات الخارجية التى قللت من أهمية المنازل بالنسبة إلى ما كانت عليه فيما مضى ، والرغبة فى تقاليد أساليب المعيشة عند الأجانب .

وتتجه العمارة السكنية الآن نحو « الفيلا » و « الشاليه » ونحو منازل الشقق التى تشبه منازل بمباى أو القاهرة أو استكهولم أو بروكلن . وهناك ضواح جديدة و « تقسيمات » و « تطورات » إسكانية كما فى لوماس دى شابولتيبك والبدريجال فى المكسيك، وسان ايسيدرو ولوس انجليس فى ليما ،

وجارديم أمريكا فى ساوباولو فهى تشتمل على منازل بفضاء حولها لا يجلس فيه أحد كما يبدو، بدلا من الأفنية الداخلية التى كان الناس فيه يجلسون ويسترخون طول الوقت . وعلى الرغم من الثورة التى طرأت على فنون المعيشة فإن سكان أمريكا اللاتينية لا يستطيعون أن يعودوا أنفسهم أن يفعلوا ما يروق لهم على مرأى من الجمهور . ولذلك فقد يقيمون جدرانا عالية حول فضاء منازلهم لكى يحصلوا على الخلوة التى كان يقدمها لهم الفناء الداخلى فيما مضى . والمنازل ملأى بالميسرات الحديثة ، فهناك وفرة من الأجهزة الأوروبية الكهربية ، والسباكة آخر ما وصل إليه التقدم حتى شملت ظاهرة « البيديه » الأوروبية . غير أن مسيل الماء قد ينقطع فى الساعة السادسة بعد الظهر ، وإلا فقد لا توجد قطرة ماء بعد حلول الظلام أو فى أيام الخميس . وكثير من هذه المنازل تتصف بفرط الأناقة والفخامة ، ورسمها وتخطيطها يقدمان دائما يوم دراسة ميدانية للمعماريين ، ويعد هؤلاء هم الفنانين المتفوقين فى بعض الأماكن ، مثل ليما . فهم ينغمسون فى إجراء تجارب لا حد لها بالمواد والعناصر الزخرفية ، وأحيانا يصلون إلى نتائج باهرة ، ودائما إلى مجموعة مختلفة من الآثار .

الشوارع والميادين

احتاجت المدن الاستعمارية إلى طريق رئيسى واسع أكثر من اللازم حيث كان فى مقدور افراد الطبقة الأرستقراطية المحليين أن يعرضوا أنفسهم وزينتهم وبطانتهم فى أحسن ما يروق لهم . ولم تصبح الطرق الفسيحة ولا التى تصطف على جوانبها الأشجار حاجة ماسة حتى جاءت السيارة ووضعت قوة حصان مضاعفة فى أيدى سكان أمريكا اللاتينية المتحمسين ، فخلقوا بذلك مشكلة مرور كبرى . وتعقدت المشكلة بعد ذلك ببقاء شبكة من الشوارع الضيقة والأزقة التى سدت مطالب العربات التى تجرها الثيران والتى تجرها الخيول وأرتال البغال . وتفاقمت بمقاومة شعب يتصف بالفردية

لأية قيود على حقوقه أن تضيع أو يضيعها أحد . وعلى كل حال ، فلكي تكون هناك مدينة ، لا قرية نمت منذ عهد الاستعمار نموا زائدا ، كان يلزم أن توجد نسخة من الطريق الخامس(*) أو الشانزاليزيه ، أو هما معاً على وجه التفضيل .

لذلك شرعت المدن فى تجديد شوارعها الواسعة القديمة أو شق طرق واسعة جديدة ومتفاخرة أعطيت أسماء خرستوف كولمبس ، وسيمون بوليفر ، وودرو ولسن ، و . ف . د . روزفلت ، وفرق البحرية الأمريكية ، وعدد غفير من المشاهير المحليين ، أمثال برناردو ، أوهيجنز ، وخوسيه ارتيجاس . وقد اجتثت الأشجار من طريق ريو برانكو المتسع فى حى الأعمال فى ريو دى جانيرو ، لا لتسهيل سيل الحركة فقط ، ولكن كذلك ليسمح بدورة الهواء من وراء الخليج إلى المدينة الحارة . أما طريق بيرا مار بحدائقه ، وهو أفخم طريق شاطئ (**) ، فيتبع ثنيات شاطئ الخليج الطويلة لأميال كثيرة إلى ما دون التلال الحجرية الواطئة التى تحجب معظم مدينة ريو المنبسط عن البحر ، ثم يظهر ثانية باسم طريق اتلانتيكا وامتداداته . وفى بوينس أيريس يتبع طريق مايو كثيراً من النمط الباريسى نفسه كطريق ريو برانكو . وشقت الحكومة فى وقت لاحق طريقين فسيحين — خوليو روكا وساينث بينيا — ويتجهان نحو قلب المدينة فى ميدان مايو . ويعترض طريق مايو فى اتجاه من الشرق إلى الغرب ساحة فسيحة مكشوفة هى طريق ٩ يوليو ، ومن المحتمل أن يكون هذا الطريق أوسع شارع فى العالم ، وعبوره اختبار لتوقيت المترجل واستخدام قدميه . ومن أجمل الشوارع طريق الإصلاح (***) الذى تصطف فيه الأشجار ،

(*) Fifth Avenue

(**) كورنيش

(***) Avenida de la Reforma

وهو يصل بين حى الأعمال فى مدينة المكسيك ومتنزه شابولتيبك . أما الأثر الأكبر الذى تركه دافع جوادا لاخارا للتجديد فهو طريق خواريث البهى الذى أزال كثيراً من معالم المدينة القديمة .

وليس هناك دور من أدوار التغيير الذى طرأ على جوادا لاخارا عولج بذوق سليم أكثر من المعالجة الحاذقة للميدان المرصوف امام الكاتيدرائية ، والتى جعلتها واحدة من أعظم البقاع انطباعا فى أية مدينة فى نصف الكرة الغربى . وأشهر متنزهات وميادين مدينة المكسيك هى جميعا جزء لا يتجزأ من تاريخ المكان القديم . وحتى الأشجار فى شابولتيبك قديمة جداً ، وكانت الألميدا متنزها محبوبا فى عهد الاستعمار . وكان الثوكالو هو المقر الأصلى للمعبد الحرمى (*) لدى الأزاتقة ، أو معبد القرابين . ومن الميدان الكبير حكم نواب الملك إسبانيا الجديدة فترة طويلة . وكثير من ألوف المتنزهات والميادين الأخرى فى أمريكا اللاتينية تعد أماكن بديعة وبهيجة مثل جارديم دا لوز الصغير فى ساوباولو . وبعضها كبير ومتنوع من حيث جاذبيته مثل بالرمو والحديقة الوسطى فى بوينس أيريس ، وينتاب المرء نحوها شعور بسر بدائى مثل لوس كاوبوس ، وهو غيضة كاركس الشماء من أشجار الموجنى العملاقة . وبعضها لا يزيد على أركان هادئة صغيرة فى مدينة كبيرة حيث يتوقف الناس للاستراحة على المقاعد . وبعضها مراكز تغص بالحركة تتفرع منها خطوط المواصلات إلى أطراف المدينة كما هى الحال فى ميدان سان مارتن فى ليما . وبعضها أماكن من الجمال النادر ، مليئة بالذكريات القديمة مثل اكروبول (**) سانتا لوسيا المشجر فى سانتياجو . وأحيانا نجدها محاطة بمواقف و « أكشاك » تجار المدينة الصغار وبائعى

(*) Teocalli [Teoth = God—Calli = dwelling] : مسكن الرب .

(**) نسبة إلى قلعة أثينا القديمة .

الطعام للفقراء كما فى القرى المكسيكية . وكثير منها عبارة عن أماكن مكشوفة متواضعة تتخلل الشوارع والمساكن المزدحمة حيث يصطلى الناس فى الشمس فى الأيام الباردة ، أو يجلسون فى الظل فى الأيام القائظة ، وحيث تصطف الأسر حول المكان فى المساء . وفى هذه الأثناء ربما تعزف فرقة موسيقيه أنغام الفالس أو ألحان السير العسكرية تعلو على حديث الناس الهادىء حتى يأووا إلى المنازل ليناموا ، وهى مصدر مستمر للمباهج البسيطة التى ترضى حاجة ماسة فى حياة السكان ، شأن الفناء الذى أخذ يندثر فى البيوت القديمة .

وعادة ما تتخلل الآثار الحدائق والميادين، والمتنزهات(*) والبرارى(**) إحياء لذكرى شىء ما أو شخص ما . لأن سكان أمريكا اللاتينية يفضلون التماثيل الممتطية لإقامتها فى الخلاء ، ولو أن الشخص منهم لم يكن فى حياته شغوفا بالخيل أو كان يتجنبها كالوباء فربما كان حصانا أهدته حكومة أجنبية وأضيف إلى مجموعة التحف الأثرية الثمينة الكبيرة الحجم . وأشهر تمثال فى أمريكا اللاتينية التمثال المسمى « الحصان الصغير » (***) المقام عند التقاء طريق خواريث والإصلاح فى مدينة المكسيك . ويحمل الحصان فوق ظهره العريض التمثال اللابطولى لشارل الرابع الملك قبل الأخير من ملوك إسبانيا فى النظام الاستعمارى . وعلى الرغم من أن المكسيكيين قد انتزعوا كل آثار الملكية من النظام الجمهورى فمن سخريات القدر أنهم احتفظوا برمز الملكية المضحك هذا بين ظهرانيهم . وهناك كثير من تماثيل الفرسان المتبخترين أو المتهيجين ، بما فيهم بثارو برباشه الذى ظل مقاما فترة طويلة أمام الكاندرائية فى ليما ، وغاريبالدى المندفع ، وأوهجنز الحرون

(*) Paseos

(**) Prdos

(***) Cadatito

فى بوينس ايريس . وأحيانا نجد أن هناك تحفظاً ووقاراً كبيرين فى فكرة هذه التماثيل كما فى سان مارتن الذى يعتريه التعب فى ليما ، وهو تمثال من أحسن الآثار التى نحتت لمحررى أمريكا الجنوبيـة العظيمين . وقليل من المجموعات المنحوتة ذات صفة أو ميزة خاصة . ومن بين هـذه : التمثال الإسبانى ، والذى فيه شيء من الزهو ، فى شارع ألفيار فى بوينس أيريس . ومن بين مختلف الآثار الأخرى التى تميل إلى الضخامة الموريلوس ، وهو التمثال الحديث فى جزيرة خانتشيو فى بحيرة باتشكوارو المكسيكية ، والمسيح المنفرد فوق كوركوفادو فى ريو ، ومنارة كولمبس الكبيرة فى سانتو دومنجو ، وقد أقامها القائد العام تروخيو ، وتمثال السرير العملاق المقام لذكرى الثورة المكسيكية ، و « المسلة » فى بوينس ايريس . وربما كانت أعجب مجموعة مختلطة من التماثيل فى مكان واحد على وجه الأرض هى فى مدافن بوينس ايريس المسماة لاريكوليتا (*) . فهناك مقابر أكثر عظماء ارجنتينا. وبالإضافة إلى ممر فى غابة شابولتيبك يتمشى فيه الطلبة بعد العصر توجد نافورة صغيرة تستهوى النفوس تكسوها القراميد المزدانة بالصور وعلى جوانبها نضد للكتب أقيمت لإحياء ذكرى ميجيل دى سرفانتيس مؤلف «دون كيخوت» — وهو شىء لا ينسى فى نمطه الخاص ، كما لا ينسى « الحصان الصغير » سواء بسواء .

وكما هو الشأن فى جميع الأماكن التى يصر الناس فيها أن يعيشوا فى حشد ، هناك أحياء وبيئة فى مدن أمريكا اللاتينية . فمثلا إلى الخلف من واجهات المكسيك ، وبعيداً عن طرق السياح الموجودة فى العاصمة هناك حظائر بشرية — طبقات وصفوف لا نوافذ لها وتشبه الصوامع ، تطل على منور عميق وضيق . وفوق سحر ريو قامت الأكواخ السكنية (**)

(*) الذكرى

(**) Favellas

متشبثة بالتلال الجرانيتية الجرداء فوق أرض المدينة لا تصل إليها أنابيب المياه ولا المجارى . ويقاوم سكانها جميع الجهود التى تبذلها السلطات البلدية لتوطينهم فى جهات أخرى ، وهم فى فقرهم يؤلفون أغانى مرحة للكاريوكا ليغنوها فى أوقات الأعياد ، كما كان يفعل رعاع باريس فى العصور الوسطى الذين صورهم فيلون (*) فى شعره . وفى ليما ينشر الضالون من الناس الذين يتكدسون فى التراب والقذارة فى سان كوسميه عدوى جرائمهم وأمراضهم فى المدينة وعلى الرغم من أن مشروعات إسكان ضخمة قد أنجزتها الحكومات وهى على علم بهذه الأحوال وقلقة على تحسينها ، فإن المشكلة تبدو أحيانا على درجة كبيرة من الضخامة لكى تحل بأية طريقة سريعة ، أو حتى لتخفيف وطأتها بمجهودات إنسانية من جانب الأفراد أو المنظمات .

وبينما تختلف المدن فى أمريكا اللاتينية الآن كثيراً فى نقاوة هوائها فإن الوباء والبلاء فى صورة أمراض الكوليرا والجدرى والحمى الصفراء كانت تصيب الكثيرين فى الماضى . وفى البلاد الهندية ، حيث كانت التربة والمياه السطحية عرضة للتلوث دون انقطاع ، ومواد الطعام معرضة للفساد كانت أمراض الزحار (**) متوطنة ، كما كانت الأمراض المعوية كالتيفود . وعلى الرغم من أن مرض الملاريا قل كثيراً فى المدن حيث أمكن صرف المياه عمليا ، ففى أماكن أخرى مثل ماناجوا ومناوس وجوايا كيل لم تجد أية وسائل للسيطرة عليها . ونظراً إلى ارتباط الظروف المناخية والمعيشية التى تساعد على العدوى فإن معدل الإصابة بالسل فى مدينة عادية فى أمريكا اللاتينية مرتفع إلى درجة غير عادية . أما المدن المدارية التى كانت مكامن للوباء مثل ريو وسانتوس وهافان وبنما وجوايا كيل فقد طهرت أحيانا بواسطة أخصائيين فى الصحة العامة من المواطنين مثل الدكتور أوسوالدو

(*) Villon (فرانسوا) — القرن الخامس عشر .

(**) الدوسنطاريا .

كروز فى البرازيل ، ومن بعض النواحى تعد نماذج من المدن الصحية . واختفى البعوض فعلا ، كما فى ريو ، أو يعيش لفترة محدودة . أما البزاة التى كانت فى وقت ما منتشرة فى كل مكان – النسر الأسود فى البرازيل وصقر المكسيك – والتى كانت فيما مضى عاملا مساعدا فى خدمة الصحة العامة ، بل إن القانون فى فيرا كروث يحميها من تحرش الناس فى الشوارع ، فتشغل الآن مركز العراف (*) وفى ربع القرن الأخير حدث تقدم هائل ، ولو أنه غير متساو ، بانتشار جميع وسائل الرعاية الصحية الآلية – موارد المياه ، والتفتيش على توزيع الطعام ، والمستشفيات والعيادات والمستوصفات ، والتسهيلات التى تقدمها المؤسسات للتدريب المهنى ، واعتماد الأموال اللازمة من جانب الحكومة . أما كمية المياه التى تمد مدينة المكسيك ، ويبلغ عدد سكانها أربعة ملايين (**) ، فلا تزال مزعزعة . ولو أن مونتسوما رأى اليوم بعض أسواقها العامة لاحمر وجهه خجلا .

ولا تعبر المدن عن الصفات الفريدة التى تتميز بها الأخلاق القومية فقط ، ولكن على خلاف المراكز المدنية فى الأقطار ذات الصفات المعيارية المتقاربة ، نجد أن كل مدينة لها شخصيتها التى تنفرد بها ، حتى إن الأجنبى الذى لديه قوة ملاحظة ويرى نفسه فجأة فيها قد لا يتعرض لأن يخطئها بمدينة أخرى . فالمقومات المتنوعة لشخصيتها قد تحتوى على وضع طبيعى غير عادى ، كما فى حالة ريو دى جانيرو ، أو عزلة نسبية من المؤثرات الخارجية ، كما فى بوجوتا ، أو الظروف الخاصة التى مر بها تاريخها وتطورها الاجتماعى ، كما فى ليما ، أو الدمج البشرى الذى انتاب تكوين سكانها ، كما فى مدينة المكسيك – أو مركب بنسب مختلفة من بضعة عناصر من هذه العناصر .

(*) أو الطبيب الساحر .

(**) تقدير سنة ١٩٦٥

مدينة المكسيك

يسمى المكسيكيون عاصمتهم مخيكو . أما لعلم الجغرافية ومصلحة البريد فهى مكسيكو د . ف (*) ، وللأزاتقة تينو شتتلان بمضمونها الرمزى الممثل فى نسر ، وثعبان ، وصبار صبغى (**) ، وصخرة . أما لكورتيس ورجاله فكانت باختصار كولوا . ومنذ ذلك الوقت أصبحت لبقية العالم مدينة المكسيك .

وهى الآن رابع مدينة فى نصف الكرة الغربى . ويبلغ عدد سكانها أكثر من ٤٬٠٠٠٬٠٠٠ نسمة (***) أو حوالى عشرة أمثال عدد سكانها فى أوائل هذا القرن . وفى مائة السنين الماضية تضاعف عدد سكانها بل زاد على الضعف قليلا . وكانت الزيادة غير منتظمة وغير سليمة . فقد نمت المدينة إلى ما دون حدودها الاقتصادية . ومع أن تطور مدينة المكسيك الاقتصادى كان تطوراً مشهوداً فى السنوات الأخيرة ، فإن الأساس المتين الكامن وراء المظاهر التى تثير الإعجاب والقبول لا يزال واهنا جداً لكى يساند مثل هذه المدينة الكبيرة بالأسلوب الذى تستطيعه الأرجاء الأخرى من البلاد . ومن الأدلة على توقيت تطورها الخاط الملط وجود الحفر العميقة فى الطرق الجانبية ذات الحركة الكثيفة والهيا كل الصلب للعمارات التى بدىء فى تشييدها منذ سنوات طوال ولم تكتمل أبداً بعد ، والحالة المنتشرة فى كل مكان من مظاهر عدم الإصلاح ، والتهدم فى بعض أحياء المدينة جنباً إلى جنب مع الفنادق التى تعد آخر صيحة فى التطور ، وغيرها من دلائل الثروة والترف المتفاخرة والانتصارات المعمارية الخيالية وتخطيط المناظر السطحية كالمدينة الجامعية الجديدة والنهضة السكنية فى البدريجال .

(*) Distrito Federal أو Federal District

(**) الصبار الذى تعيش عليه حشرة اللعل · napal cactus

(***) تقدير سنة ١٩٦٥ .

وعلى الرغم من أن عاصمة الثورة الحديثة حديثة النعمة فإن حاسة فطرية تقدر الجمال والذوق السليم يتصف بها الشعب تستطيع أن تقيها من مظاهر الإسراف فى وصمة الفجاجة .

وهى أولى مدن أمريكا اللاتينية من ناحية الأهمية المحضة ، كما أن البلاد أولى الجمهوريات أهمية . وهى ليست مدينة سهلة لكى نتفهمها أو نتراضى معها ، ولو أنها توحى فى النفس الإعجاب والإحساس بالدهشة . وهى مدينة لا يمكن التكهن بما سيكون من أمزجتها ، وثورية وغير رصينة . وتحت هدوئها الظاهرى وأدب سكانها فقد يصبح مزاجها غاضبا وعنيفا . ومن هذه الوجهة نجدها مكسيكية صميمة ، وليست ، بأى حال من الأحوال ، عاصمة عالمية مزيفة . فهى ذات أطراف خشنة قدت من السبج . وفى صميمها إقليمية جداً ، وتكن للأجانب بغضا شديدا ، لأن جذورها ممتدة إلى أعماق بعيدة فى ماضى أنا هواك المضطرب ، ولم تقترض من الثقافات الأخرى إلا غضبا . وهناك يجرى فى نسيجها الدرامى خيط دموى له ذكريات كثيرة مثل الشدائد والمعارك . ونظراً إلى أنها تقع على مرآى من البراكين الهادئة ، فإن ذلك له أهمية أكبر من أن تكون عرضية . فإن الرئيس الذى يحكم البلاد من القصر القديم فى الثوكالو لا يجلس فى مقعد نواب الملك فقط ، بل فى مقعد «الأباطرة» الأزاتقة ، ولا تزال النغمات الهاتفة الحزينة هندية ، ولو أنها الآن تخص المولدين ، وقد يستمر ذلك إلى الأبد كما خصت الإسبانيين لقرون من قبل .

بوينس ايريس

بوينس أيريس هى وحدها المدينة العالمية الحقيقية فى أمريكا اللاتينية . وليست المسألة مسألة حجم نسبي ، لأن شيكاغو وبرلين أكبر ، ولكنها مسألة جو أو نزوع لا يمكن تعريفه نحو العالمية ، تختص به العواصم الكبرى

على سطح هذا الكوكب . فهى فى الواقع مدينة عظيمة وبديعة كما قد كان يسعدها ملك إسبانيا لو أنها بقيت ملكا له يشرفها ويصدر أوامره منها . كما أنها ليست مدينة أرجنتينية بالمعنى الذى فيه كوردوبا وتوكومان . ولا هى مدينة تنتهى إلى أمريكا الإسبانية ، ولكنها مدينة أوروبية . فوجوه الناس ولغاتهم آتية من أماكن كثيرة — أقطار البحر المتوسط ، أقطار شمال أوروبا المسماة بالآرية ، العالم السلافى ، أقطار الليفانت . ومن شتى الأشياء التى يشترك سكانها فيها إيمانهم العميق المتعصب فى مستقبلها . والناس أنفسهم « أجانب » ونظراً لذلك لا يسيئون الظن بالأجنبي كما يفعل المكسيكيون .

وعلى عكس ريو ومدينة المكسيك لا تدين بشىء من فخامتها أو تطورها المتوقع إلى موقعها الذى لا ميزة له ، كما هو الشأن فى موقع كلكتا أو هوستن . ولكنها تدين بكثير من أهميتها إلى مركزها كممر — ومنتفع كبير — لثروات البمبا التى تستمد منها مكوسا ضخمة للخدمات التى تؤديها كوسيط . فهى مدينة للثراء العظيم ويعيش أهلها عيشة رغدة وينغمسون بحرية فى حدود ما يسمح به القانون فى جميع ميسرات الحياة المتمدنة . وهى مركز كبير للنشر ، وتتوافر فيها كل زخارف الثقافة المقننة ، ولكن الخدمات الأصلية التى تؤديها إلى ذخيرة الإنسانية الفكرية والفنية قليلة . «فرجال الميناء»(*) زمرة يملؤهم الزهو والغطرسة ، ويقدمون على المشروعات العظيمة ، وذوو دهاء ، ويدركون فى غلواء إمكانيات بلادهم الكامنة . وهم ليسوا جنسا ، إذ ليس هناك جنس أرجنتينى ، كما يوجد جنس برازيلى أو جنس تشيلى . ولقد كان هناك جنس أرجنتينى قبل أن يغرق تدفق المهاجرين الأوروبيين السلالة الأصلية ويخفف من دمها وحضارتها . وهناك جنس فى دور

(*) Portenos

التكوين ، ولكن على الرغم من الدعاية الرسمية لإدماج السكان فى قومية ارجنتينية (*) فإن العناصر التى تدخل فى تكوينها لا تزال بعيدة عن إدماجها فى نمط جنسى معلوم ومع أن اهالى الجمهورية الأرجنتينية شعب ممتاز من وجهات كثيرة فإنهم ينزعون إلى أن يصبحوا ضحية لا حول لها لمكايد السياسيين المتآمرين ، إذ ليس لديهم تقليد مشترك أو «روح» قومية يتجمعون حولها . وكثير من توكيد شخصيتهم ومن « شعورهم بالأهمية » ، وكثيراً ما يكون هذا أمراً شاقاً على الأجانب الذين يميلون للخير ، هو بدون شك تغطية لا شعورية لاضطراب معلوم فى التفكير والحاجة إلى الثقة بالنفس .

وليست بوينس أيريس مدينة مرحة ولا خفيفة الروح كما قد تشتهر بذلك شهرة عالمية أحيانا . وهى « باريس أمريكا الجنوبية » من الناحية المعمارية ليس إلا . وهى تميل إلى أن تأخذ مباهجها جديا وبمهابة ، وبدون الخلاعه والتلقائية اللتين تمارس بهما ريو وترتكب زلاتها وكثير من مواطنيها أولاد بلد شداد . يقضون الليالى فى بيوتهم وهمهم ما يحصلون عليه من بيسو والسياسة .

ساو باولو

ساو باولو فريدة ومنقطعة النظير من بين المدن الكبرى فى أمريكا اللاتينية فهى مدينة إقليمية مستنفرة لا طابع لها . أما المدن الأخرى ، فمهما يكن لطابعها من خصائص مميزة ، فهى جميعا ذات علائم تشير إلى نفس الأرومة الإسبانية . وهى واثقة بنفسها ، وإيجابية ومتفاخرة وقوية العزيمة وتتيه بأنها سوف تتفوق على بوينس أيريس فى بضع سنين . وهى تشبه شاؤول ملك طرطوس (**) ، وقد سميت من أجله ، فى أنها مدينة تفكر بالمنطق أكثر مما تفكر بالعاطفة، ولا يمكن « تقويمها تقويما » سليما إلا بلغة الإحصاءات فأهلها رجال أعمال وغير عاطفيين إلا فيما يمس مصالحهم. وهم لا ينزلقون إلى انفعالات وشطط المدن المراهقة ، بل ينزعون إلى أن يروا

(*) Argentinidad

(**) أول ملك اليهود

فى السكاريوكا فى ريو أناسا طائشين انغمسوا فى إغراء نور القمر وأماكن إرضاء الجسد وفى الواقع أن ساوباولو تحقر من شأن اخواتها المدن الراكدة فى جميع أرجاء البرازيل، وتنفرج أسارير رجال الأعمال الأمريكيين الذين يزورون البلاد تقديرا وتفاهما عند ما يراقبون الناس وهم يندفعون رائحين جائين وراء الكروزيرو والكونتو (*) وهم يجدون قلة الثرثرة والكلام الدخيل الذى لا جدوى منه، فرجة مخففة لبروتوكول الأعمال الشرقى الطابع المنتشر فى جهات آخرى .

وترجع ديناميكية ساوباولو إلى أقدم عهودها . فقد أسست منذ أربعمائة سنة على وجه التحديد كمركز تبشيرى يسوعى للقديس بول بيراتينينجا . وبينما كان القساوسة يتجولون فى أرض فسيحة ونائية بحثا عن نفوس التوبى كى يهدوها سواء السبيل ، كان العلمانيوز من البرتغاليين والمولدون الذين أقاموا حولهم فوق الهضبة أكثر مخاطرة وإقداما فى اصطياد نفوس الهنود وبيعهم رقيقا . وكما فعل المستكشفون البرتغاليون ، توغلوا فى شجاعة فى الفيافى الواقعة إلى الغرب فيما وراء نهر بارانا واندفعوا إلى الشمال الغربى فوق خط تقسيم المياه المنخفض إلى حوض نهر ماديرا ، بل أبعد من ذلك إلى فراغ البرازيل الشاسع ؛ فقد كانوا رجال حدود حقيقيين كالرواد الأوائل الذين ارتادوا إقليم الغرب عبر جبال اليجانى . ولم يقنع أهالى ساوباولو أبدا بأن يقعدوا بلداء بما جنوه ، ولكنهم تحركوا دون انقطاع ليحصلوا على المزيد ولم يكن تبرمهم أو نشاطهم راجعا إلى وجود أى عنصر أجنبى فى السكان — ألمانى أو إيطالى — ولو أن الأجانب كانوا يتحمسون لو أنهم دخلوا فى جو المكان الذى يحصلون منه على أشياء . فلقد عرفوا

(*) عملة برتغالية وبرازيلية : الكونتو ١٠٠٠ كروزير او إسكودو .

المكان عندما كان لا يزيد على قرية فى بلاد هندية ، وكان الأجانب الوحيدون من البرتغاليين .

وظلت مدة طويلة مجرد بلدة مستعمرة ولو أنه كان يرجى من مواردها الكامنة أكثر مما كان يرجى من غيرها . ثم جاء القرن الأخير وأصبحت مركز البن فى العالم ، وبدأت تنمو بقوة مع الولاية التى تقع خلفها ووصلت صعودا إلى ميناس ، وغربا إلى ماتوجروسو ، وجنوبا إلى بارانا لتضيف إلى نشاطها الاقتصادى . وبنيت مصادفة وبدون خطة واعية حول تلالها المتدحرجة الواطئة وأخاديدها العميقة . وجاءت الأعمال الاقتصادية الكبيرة لتستقر فى شوارع « المثلث » المشهور ، فى حين انتشرت العمليات إلى الجهات الصناعية الغاصة فى المدينة الضخمة وهى لا تدعى تفوقا ثقافيا ، وقد استثناء من أن يلصق بها تهمة الغباء (*) من جانب الاثينيين العصريين الذين يسكنون جهات يهتم الناس فيها بقراءة الكتب مثل بوجوتا فلديها أشياء كثيرة بدرجة زائدة على الحد لتكون «مدينة مباهج» (**) أو مركزا للمغريات التى تقدم للسياح . فهى بالنسبة للأجانب الذين يبحثون عن المتعة مكان كئيب حقا .

ريو

إذا توخينا أغراض الشهرة الرسمية نجد أن ريو دى جانيرو هى « المدينة العجيبة » (***) . ولقد أخطأ استاسيو دى سا الذى أقلع بسفينته بين نتوءات مدخلها العملاقة فى صبيحة مديدة ليوم من أيام شهر يناير فحسب خليج جوانابارا مصبا مستطيلا لنهر ، وأطلق عليه نهر يناير

(*) Boetianism : نسبة الى بيؤونيا فى اليونان اشتهر أهلها بالغباء والبلادة .

(**) ville de plaisir

(***) Cidade Marvilhosa

(ريو دى جانيرو) . فهو ليس نهراً ، ولكنه تعريجة ساحلية مقفلة فى ساحل تحف به الجبال مثل أكابولكو ولم تكن هناك شىء حول خضرتها الدائمة يوحى بمنتصف الشتاء فى نصف الكرة الشمالى . فهى مرفأ الكرة الأرضية الذى لايقارن، ولكن يجب أن تكون ميناء الفردوس. وإن جمالها الطبيعى الفائق فوق كل مغالاة ، وأية دعاية عنها هى دون الحقيقة ، وهناك قصيد كثير يوحى به موقعها لدرجة أنه لا يخدم غرضاً بشريا فقد يصلح لأن يكون مقراً لسلالة من المثاليين ، ولكن روعته تجعل منهم أقزاماً . إذ يجب أن تكون عاصمة المباهج العالمية ، ولا وظيفة أخرى لها سوى توزيع المباهج على الجنس البشرى .

إنها سيبارس (*) نصف الكرة الجنوبى ، وابنة عم كورنث والإسكندرية البطلمية — مدينة تعبد اللذة ، ومكان للاستجمام والهوى ، ميولها دائما نحو الحفلات والرعونة . ويجب أن يحال عملها إلى إدارة ساوباولو القديرة وأن تنقل حكومة البرازيل الفيدرالية من جوها الأوركيدى إلى بقعة تبعث على التأمل والتفكير (**) وعلى الرغم من تمثال المسيح الذى يبعث فى النفس الشجن . والذى يطل على المدينة ، وجميع أولئك الذين باسم القديس بطرس وجون كالفن ومارتن لوثر يدرسون إنجيله لشعبه ، فإن هناك فتورا فى مسائل العقيدة المقدسة لدى الكاريوكا ، ولا يستطيع المرء أن يتصور إحراق الضالين فى أرجاء مدينتهم بسهولة كما لو حدث فى المدن الإسبانية . فهم وادعون فى قرارة أنفسهم ، والراحة يحبون بهيج الامتثال إلى الرب الأبوى والغفار كما صوره العهد الجديد . ومهما يكن الأمر ، فقد يكون الرب واحداً منهم ، لأنهم يقولون إن « الله برازيلى » ، ويدللون على ذلك بأن يداً إلهية هى وحدها التى تقيهم من عواقب ما يرتكبونه من أخطاء وحماقات .

(*) Sybaris مدينة اغريقية فى جنوب ايطاليا كان أهلها يعيشون عيشة ترف .

(**) نقلت العاصمة الفيدرالية الى برازيليا فى الداخل كما ذكر آنفا.

وريو أكبر مدينة واقعة فى النطاق الواسع من الأرض بين مدارى السرطان والجدى . وهناك حوالى مليونين من الكاريوكا يتشبثون بجوانب التلال الصخرية والحافة الجبلية الضيقة التى تحف بالخليج والبحر ، أو يتكدسون على المسطحات التى تمتد إلى الخارج نحو الشمال الغربى على طول السكك الحديدية حتى مستنقع البيشادا . وقد حاول الناس أن يستغلوا الجمال المنتشر حولهم إلى أقصى حد ، ولكن أعمالهم ، على أحسن تقدير ، تعد مجهودا ضئيلا فربما كان التحدى كبيرا لا يستطيعه أى شعب . وعلى الرغم من أنه قد يتفق أن يأتى رئيس للمدينة فيندفع بالإنجازات المبتغاة من عظمتها الطبيعية ، فإن البهاء الصناعى يبدو أحيانا كالحا ورثا . وأحيانا تساء إدارة الشئون العملية فى هذه المدينة الفاتنة فتحتد أمزجة سكانها العاطفيين . وتتوقف السكك الحديدية الوسطى بين آونة وأخرى فتترك المدينة منعزلة عن مصادر طعامها الغض الطازج من خلفيتها المرتفعة. وليس هناك ماء كاف فوق التلال المحيطة بها لإنشاء محطات لتوليد الكهرباء. ويفيض ماء المجارى من شقق المنازل المكتظة والفنادق فى كوبا كابانا نحو الشاطىء المزدحم ، إذ ليس هناك مكان آخر ينصرف إليه ، وعلى كل حال فإن من يعيشون فى ركن من أرجاء جنات عدن لا ينبغى أن يشغلوا أنفسهم بمثل هذه الأمور الدنيوية .

الفصل التاسع

(١) « فى أمريكا أيضا نجد أن المدينة فى كل الأرجاء هى التى تميز توسع اسبانيا ··· فالمدن هى أعظم ممثل حقيقى ، والاسبانى الصميم ، من بين جميع النظم الكبيرة · والمدينة بميدانها وكنيستها وقصر بلديتها هى المركز العصبى للمجتمع · فهى الرمز المجسم للسيطرة الاسبانية فى أمريكا · وثبوتها دليل على قوتها وحيويتها » ·

Richard F. Pattee, «'Essai sur l'Evolution Historique de l'Amerique Espagnole» (Port-au-Prince, 1944), P. 17.

وقال مانويل جالفيث ، كاتب القصص الأرجنتينى ، ان الثقافات قد تعرف بالمدن التى تخلقها · فقد كتب يقول : « المدينة هى التعبير المادى لمكونات الشعب ولثقافته الاجتماعية والشخصية » · وقد اطلق على ثقافة بلاده هو « مادية كريهة » · ووردت هذه العبارة فى

William Rex Crawford, «A Century of Latin American Thought» (Cambridge, Mass., 1944), P. 150.

(٢) قال توماس جيدج انه فى سنة ١٦٢٥ ، أى بعد حوالى قرن من تأسيسها الأول بلغ عدد سكانها حوالى ٣٠٠٠ · وكتب يقول : « ان عدم توافر الوسائل الصحية فى المدينة هو سبب ندرة السكان » · وفى ذلك الوقت كان يوجد فى المدينة بضعة تجار تتراوح رءوس الأموال التى يمتلكونها بين ٢٠٠ر٠٠٠ ــ ٤٠٠ر٠٠٠ دوكات ·

«A New Survey of the West Indies, 1648» (New York 1929), P. 35.

(٣) من المدن الأخرى التى انتقلت من مواقعها الأصلية بنما وجواتيمالا وهافانا وليون فى نيكاراجوا ·

(٤) « اننا لا نجد هذا مذكورا فى وثيقة التأسيس ، لأنه لم يستمر أياما كثيرة ··· وبمجرد أن أعلن عن تأسيس المدينة عين موظفو البلدية وأقيمت المشنقة والحناك · وعندما فرغ من هذا الأمر صمم الحاكم (الماجرو) على أن يستشير ضباطه وأناسا آخرين فيما يجب عمله بعد ذلك » ·

Pedro de Cieza de Léon, «The War of Las Salinas», P. 106

(٥) عن مدن المـايا أنظر

Sylvanus G. Morley, «The Ancient Maya» (Stanford University, California, 1946), passim.

(٦) عن أسواق عاصمة الأزاتقة الواسعة أنظر

Cortés, «Letters», I, 257 - 58.

وايضـا

Bernal Diaz del Castillo, «True History», pp. 175 - 77.

الخاص بحى الفنانين والذهب ـ وصائغى الفضة فى أتكابيتثالكو وحدائق قصر مونتسوما والأسواق العامة • كتب برنال دياث يقول : لقد دهشنا عند رؤية جموع الناس والانتظام الذى كان سائدا ، وكذلك مقادير التجارة الضخمة ••• وكان لكل صنف مكانه الخاص وتميزه علامة • وكانت السلع تشمل الذهب والفضة والمجوهرات والرياش والعبى والشوكولاته والجلود المدبوغة وغير المدبوغة والأحذية المكشوفة (الصنادل) وسلعا أخرى مصنوعة من جذور وألياف « النيكين » وأعدادا كثيرة من العبيد ذكرانا واناثا بعضهم كانوا مطوقين فى أعناقهم ومربوطين فى أعمدة طويلة • ومونت سوق اللحم بالدجاج والحيوانات والكلاب • وكانت هناك أيضا تباع الخضراوات والفواكه والأطعمة المهيأة والملح والخبز والشهد والفطائر الحلوة • وخصصت أماكن أخرى فى الميدان لبيع الآنية الفخارية وأثاث المنازل المصنوع من الخشب ••• وأخشاب القواء والورق والقصبات الحلوة مملوءة بالمطباق المختلط بصمغ العنبر والبلطات النحاسية وأدوات الشغل والآنية الخشبية كثيرة الزركشة • وكان هناك فئات من النساء يبعن الأسماك » •

(٧) « كانت الممالك الجديدة فى الواقع تطعيمات أجرتها اسبانيا فى جذع الشجرة الهندية • فقد كانت مدينة المكسيك وليما وكارتاخينا والمدن الأخرى فى شمال القارة مدنا اسبانية بجو من العالم الجديد مرجعه الى الروح المحلية التى تميز الأقطار المختلفة ، وكذلك الى طباع الشعوب التى تطورت هذه المدن بين ظهرانيهم • ولربما كانت مدينة

الهند الغربية التى تمثل هـذا التطور خير تمثيل هى كثكو العجيبـة ، أو بابلون الانكا ، التى بنى الاسبانيون فوق جدرانها العملاقة سلامانكا ذات صفات قشتالية محضة »

Salvador de Madariaga, «Cuadro Historico de las Indias» (Buenos Aires, 1945), P. 47.

(٨)
«Peru : Incidents of Travel and Exploration in the Lands of the Incas» (New York, 1877), P. 25.

كتب جيمس برايس الذى كان فى ليما فى أوائل هذا القرن يقول : « تحتفظ مدينة الملوك بتلك البهجة الخفيفة الروح وموهبة المتعة الاجتماعيـة اللتين اشتهرت بهما فى الأزمنة الماضية • فلم تطغ على روح السرور حتى الخطوب السياسية ولا الثورات التى فاق عـددها عدد الهزات الأرضـية » •

(٩) الاحصاءات المذكورة مأخوذة من

Juan Bromley José Barbagelata, «Evolucion Urbana de la Ciudad de Lima» (Lima, 1945).

ويورد هـذا الكتاب أيضا مجموعة من الخرائط توضح اتسـاع رقعـة المدينة من أيام الاستعمار الأولى حتى الوقت الحاضر •

(١٠) قدر همبولدت عدد سكان مدينة المكسيك فى سنة ١٨٠٣ ب ١٣٧٫٠٠٠ شخص اعتمادا على استنتاجاته الزيادة المحتملة فى عدد السكان منـذ أن حدده احصاء نائب الملك ريفياجيجيدو فى سنة ١٧٩٠ ب ١١٢٫٩٢٦ • وقـد صنف المجموع الكلى كالآتى :

أوربيين بيض ٢٫٥٠٠ ، أوربيـين مولودين فى أمريكا ٦٥٫٠٠٠ ، هنود ٣٣٫٠٠٠ ، مولودين من بيض وهنود ٢٦٫٥٠٠ ، مولودين من بيض وزنوج ١٠٫٠٠٠

«Essays Politico» op. cit., II, 219.

وقال الأب فاثكيث دى اسبينوسا الذى كان فى مدينة المكسيك فى سنة ١٦١٢ انه يسكن المدينة والضواحى القريبـة اكثر من ١٥٫٠٠٠ اسبانى ٨٠٫٠٠٠ هندى ، ٥٠٫٠٠٠ زنجى ومولد

Compendium and Description of the West Indies» (tr. from the Spanish, Washington D.C., 1942), P. 156.

وطبقا لرواية ثاديوس هينكي الذى كان فى شمال أرجنتينا فى أواخر القرن الثامن عشر بلغ عدد السكان فى أربع مدن فى تلك المساحة كالآتى :

المدينة	المجموع	اسبانيون	مولدون من بيض وهنود (مستيسو)	هنود	زنوج	مولدون من بيض وزنوج (مولاتو)
كاخا ماركا	٢٠,٣٩٠	٥,٩٠٠	٤,٩٠٠	٦١٠	٨٣٤	٨,١٤٦
خوخوى	١٩,٢٦٦	٩٢٢	٣,٥٠٠	١٣,٥٧٠	٥٠٥	٧٨٦
سولتا	٢٢,٣٨٩	٥,٣٨٦	٤,٤٣٦	٧,٦٢٠	٢,٦٤٠	٢,٣١٠
توكومان	٢٢,٨٠٩	٥,٨٠٠	٧,٢٠١	٦,٥٠٨	٦٠٠	٢٧٠

(١١) « كان يسر ملوك اسبانيا أن يمنحوا هذه الأسرة ألقاب الشرف والمزايا عنوانا على صفاتها العظيمة ، كما رغبت أسر بارزة فى المدينة التزاوج منها » .

Jorge Juan and Antonio de Ulloa, op. cit., II, 53.

(١٢) عن المولدين من بيض وهنود (مستيسو) فى أمريكا اللاتينية انظر

Jahn Gillin, «Mestizo America», in Ralph Linton, ed., «Most of the World: The Peoples of Africa, Latin America and the East Today» (New York, 1949).

(١٣) من بين بضع الطبعات التى صدرت من هذا المؤلف ربما كان أحسنها الأجزاء الستة الموضحة بالصور والتى نشرت فى أسبانيا فى سنة ١٩٣٠ . وترجم هاريت دى أونيس مجموعة مختارة من القصص الى الانجليزية تحت عنوان

«Knights of the Cape» (New York, 1945).

وكان لبالما فرصة للحصول على مصادر خطية كثيرة عن تاريخ ليما وبيرو بوصفه كان أمينا للمكتبة الأهلية لسنوات عدة ، فنهل منها حرفيا للمادة المتعلقة بالموضوع و « اللون المحلى » لقصصه .

(١٤) كتب E. G. Squier الذى كان فى بيرو فى منتصف القرن الماضى يصف كثكو : « ان منظر المكان ... وهو منظر مدينة هندية تماما . ويكاد لا يوجد شيء يمكن أن يسمى مجتمعا ، ولو أن افراد

الطبقة الراقية يتصفون بالكرم وعدم التصنع ، وأكثر صراحة وبساطه فى سلوكهم من أفراد الطبقة المماثلة فى بلدان الساحل حيث نبذ الناس العادات الأهلية فى محاولة يشوبها الغرور لتقليد المظاهر والشمائل الأجنبية · وتعيش بعض الأسر على نمط فضفاض ، وبيوتهم مهيأة بأناقة حقيقية » · ودهش سكوير عند رؤيته المعازف الضخمه (البيانو) والمرايا الفرنسية التى نقلت من الساحل · وقد كان هذا قبل أن تمد السكة الحديدية الجنوبية بين مويندو وكتكو ·

«Peru : Incidents of Travel and Exploration in the Land of the Incas» (New York, 1877), P. 455.

(١٥)

«Exploration of the Valley of the Amazon» (2 vols. Washington, D. C., 1854), II, 161 - 63.

قارن بالصورة الشاعرية التى أوردها توماس جيدج عن ليون فى نيكاراجوا قبل ذلك بقرنين من الزمان : « كانت البهجة الكبرى التى ينشدها السكان هى فى بيوتهم ، وفى السرور الذى يملأ قلوب الناس فى البلاد المتاخمة ، وفى وفرة الأشياء التى يحتاج اليها الانسان أكثر من بهجتهم بالثراء الزائد الذىينشده الناس كثيرا للتمتع كما كانت الحال فى أرجاء أخرى من أمريكا · فقد كانوا راضين بالحدائق الجميلة ومجموعات متنوعة من الطيور المغردة والببغاوات ، وبوفرة من السمك واللحم ، وقد كان هذا رخيصا ، وبالمنازل البهيجة ، وبذلك عاشوا عيشة لذيذة متراخية تافهة ، لا يتوقون كثيرا الى ممارسة التجارة والحركة ··· وبسبب البهجة التى كانت تتصف بها هذه المدينة بصفة خاصة أطلق الاسبانيون على ولاية نيكاراجوا جميعها جنة الله فى الأرض » ·

«A New Survey of the West Indies, 1648» (New York, 1929), P. 340.

(١٦) « على الرغم من الطقس الجميل والسناء الدائم اللذين يسودان اليمانى فى معظم الأحيان » فهناك شىء غير لائق ومفجع حول هذه المدينة · انى أتخيل الهنود جالسين حول خراب الهضبة يلقون بأبصارهم من أعلى نحوها كالنسور يترقبون اندثارها » ·

Christopher Isherwood, «The Condor and the Cows : A South American Travel Diary» (New York, 1949), P. 174.

(١٧) أنظر

Frederich Boyle, «A Ride Across a Continent : A Personal Narrative of Wanderings through Nicaragua and Costa Rica» (2 vols., London, 1868), II, 179.

(١٨) فى خلال عصر الاستعمار كان مجلس المدينة (كابلدو) الملجأ الأخير الوحيد للديمقراطية فى ظل نظام سياسى يتصف بالحكم المطلق ٠ وعندما كانت تتأزم الأمور أحيانا فى شئون المدينة ينعقد مجلس مفتوح (Cabildo Abierto) أو اجتماع حاشد للمواطنين الاسبانيين لمعالجة الأزمة ٠ ولا تزال هذه العادة التى تذكرنا باجتماع المدينة فى نيو انجلند تمارس فى جهات من أمريكا اللاتينية ٠

(١٩) هناك فصول مختصرة فائقة فى وصف تطور العمارة فى مختلف الجمهوريات فى طبعة

Earl Parker Hanson, «New World Guides to Latin America» (3 vols., New York, 1945).

وعن العمارة المكسيكية أنظر

Trent Elwood Sanford, «The Story of Architecture in Mexico» (New York, 1947).

(٢٠) « يخرج ظرفاء هذه المدينة يوميا ، بعضهم على ظهور الخيل، ومعظمهم فى مركبات كبيرة حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر فى متنزه ظليل بهيج يسمى لا الاميدا ، تكثر فيه الأشجار والطرقات حيث تلتقى فعلا ٠٠٠ حوالى ٢٠٠٠ عربة مملوءة بالسادة والسيدات والمواطنين ليشاهدوا ويشاهدوا ويطارحوا الغرام ويطارحوا الغرام ٠ ويصحب السادة حاشياتهم من العبيد الزنوج ، وبلغت حاشية بعضهم اثنى عشر عبدا ٠ وكان لبعضهم ستة يخدمونهم ، مرتدين حللا أخاذة لطيفة مثقلة بخيوط الذهب والفضة ويلبسون فى أرجلهم السوداء جوارب حريرية وورودا مرصعة بها اقدامهم ، والسيوف مدلاة على جوانبهم »

Thomas Gage, op. cit., P. 91.

(٢١) الى وقت متأخر كسنة ١٧٧٩ ، مات اكثر من ٩٠٠٠ شخص من انتشار الجدرى فى مدينة المكسيك • وطبقا لرواية همبولدت ، «هلك عدد كبير من شباب المكسيك فى تلك السنة المشئومة » OP. cit., II, 51 وقد منع التطعيم الذى ادخله دون توماس ميرق فى سنة ١٨٠٤ تكرار حدوث مثل هذه الأوبئة المنكبة • ونتيجة لقصور انتاج الطعام فى المكسيك ، خصوصا فى سنوات الجدب ، كان الموت جوعا يعد احيانا كارثة كبرى تصيب جموع الناس كأوبئة الأمراض • ففى مركز التعدين فى جواناخواتو مات اكثر من ٨٠٠٠ شخص من الجوع ومن الأمراض الناتجة عنه فى سنة ١٧٨٤ •

Ibid., P. 57.

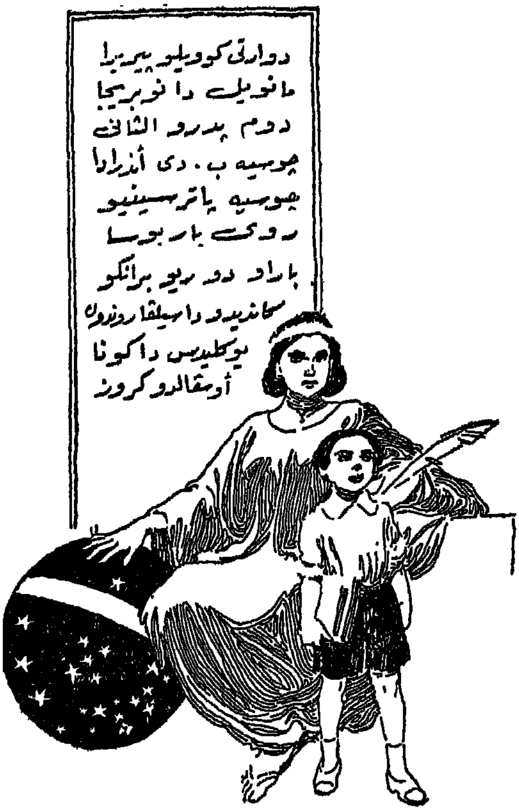
دوارتى كوويليو بيريرا
مانويل دا نوبريجا
دوم بدرو الثانى
جوسيه ب. دى أندرادا
جوسيه باترسينيو
روى باربوسا
باراو دو ريو برانكو
سانديدو داسيلفا روندون
يوكليدس دا كونا
أوسفالدو كروز

الفصل العاشر

البرازيلى

لم يكن البرازيليون (*) الأوائل الذين نعرفهم فى العصور الحديثة سوى جماعين للخشب البرازيلى والصبغة التى إذا ماعرضت للشمس اكتسبت لون قطع الفحم المتوهجة (**) . وقليلا ما كانت تعد هذه البلاد مهمة إلى درجة تكفى لإعطائها اسما خاصا بها ، والأسماء الدينية التى سميت بها على

Brasileiros (*)

brasas (**)

التوالى لم تثبت ألبتة ، ولذلك فقد أصبحت البرازيل وأصبح شعبها البرازيليين .

وعرف تاريخ البرازيل المبكر مصادفة واتفاقاً (١) . ولما كانت قلة ضئيلة ممن اشتركوا بنصيب فيه كتابا ، فنحن نعرف قليلا عن كثير مما حدث على طول ساحلها الذى يبدو لا نهائيا . أضف إلى ذلك أنه لما كانت البرتغال تدرك ضعفها من ناحية عدد سكانها فإنها لم تستسلم إلى الإعلان الملأ عما كانت تحكمه حكما مزعزعا . فقد كان لديها عمل آخر — ويعود بربح أكبر — تهتم به فى بلاد الشرق قبل أن تولى اهتمامها لتنمية الفيافى المدارية الشاسعة التى كانت البرازيل . وعندما ولى بدرو ألفاريس كابرال وجهته شطر الهند مقتفيا أثر فاسكو دا جاما رأى نفسه مصادفة أمام البرازيل فى آخر عام من القرن الخامس عشر . فقد كان متجها فى رحلة عملاقة نحو الغرب، محاولا تجنب ظروف الملاحة الصعبة أمام ساحل غينيا ، وبعد أداء احتفال متكلف ادعى فيه حق امتلاك « جزيرة فيرا كروث » استمر فى طريقه إلى الهند . ومضى وقت طويل قبل أن تضم البرازيل إلى مجال مشروعات البرتغال فيما وراء البحار . وقد كانت مشغولة من قبل بمغامراتها التى تبهر الأبصار فى آسيا (٢) وحدث فى هذه الأثناء أن سادة متفرقين من ربابنة السفن التجارية البرتغالية قاموا بسياحات بقصد الحصول على الخشب البرازيلى وحمولات إضافية كالببغاوات الزاهية الرياش والببغاوات الأمريكية الطويلة الذيل والقردة اللعوب ذات القبعات ، وهى تجارة قلما كانت تجذب اهتمام الأمة وتحولها عن التوابل والأقمشة والجواهر التى كانت تجىء بها أساطيل الغلايين (*) إلى لشبونه من جزر الهند الشرقية . وفى الفترات التى كانت تنقضى بين المقايضة مع الهنود

(*) جمع غليون: السفينة الشراعية الكبيرة

وتسلية أنفسهم مع نسائهم المضيافات حاول التجار البرتغاليون أن يطردوا الدخلاء الشاردين من الفرنسيين الذين بدأوا فى وقت مبكر القيام برحلات إلى البرازيل من موانىء بريتانى ونورماندى .

وكان الفرنسيون يصرون فى محاولاتهم على إنشاء «فرنسا قطبية جنوبية» فى البرازيل ، وأقاموا مستعمرات متناثرة على طول الساحل من جزيرة ماراجو عند مصب الآمزون نحو الجنوب إلى خليج ريو . غير أن فرنسا كانت لديها دائما مشاغل كثيرة فى جهات أخرى من العالم لتركز على عملياتها ضد جبهة ضعيفة من البرتغاليين الذين «تشبثوا كما يتشبث سرطان البحر» بساحل البرازيل ، كما قال الأب فيسنتى دو سلفادور . وعلى الرغم من أن البرتغاليين كانوا دائما يبدون غير متحمسين واعتباطيين فى عملياتهم فى البرازيل ، فقد كانت لديهم طريقة ليهبوا لملاقاة الظرف الذى منه تهدد مستعمرتهم تهديداً جدياً ، ولذلك فعلى الرغم من إغارات الفرنسيين والهولنديين ، بقيت البرازيل لهم أكثر من ثلاثة قرون ، أو إلى أن كان السكان أنفسهم على استعداد لتولى حكمها .

وبعد انقضاء أكثر من ثلاثين عاما اتخذت الحكومة البرتغالية أولى الخطوات لاحتلال البلاد . ولهذا الغرض منحت تراخيص إقليمية وسياسية مترابطة لعدد من الأعيان وذوى الشهامة الموسرين الذين كلفوا باستعمار أراضى قوادهم على حسابهم الخاص وتعد سلسلة المستعمرات مثل أولندا - رسيفى وباهيا وساوفيسنتى - سانتوس التى أسست نتيجة لهذه التنظيمات النواة الأولى للبرازيل الحديثة ، وازدهر بعضها أكثر من البعض الآخر ، بالنسبة إلى المزايا الطبيعية التى اختصت بها المنطقة ، وإلى أخلاق صاحب الالتزام (*) . وكانت قلة منهم ، مثل دوراتى كوويلو رئيس پرنامبوكو

(*) donatorio

رجالا أقوياء اكتسبوا حذقا من تجاربهم فى التعامل فى بيئه مدارية فى جزر الهند الشرقية . وكان ينقص بعضهم رأس المال اللازم أو صفات الزعامة ، فأصاب مستعمراتهم الفتور خلال العصر الاستعمارى .

وكانت أكبر المشكلات فى تأسيس البرازيل هى الحجم، والمسافة، وتطرفات الطبيعة ، وتطور قاعدة اقتصادية للمستعمرة ، والخطط التى كان يرسمها منافسون ذوو عقلية امبراطورية ولم يكن على البرتغاليين أن ينازعوا دولا حربية منظمة كما فعل الإسبانيون فى المكسيك وبيرو . فقد كان التوبى جنسا تربط بين أفراده وشائج القربى ، وكان على درجة أكثر انخفاضا على سلم المدنية من الازاتقة ورعايا الإنكا ، وعلى الرغم من أن القبائل البرازيلية كانوا يحبون القتال فى علاقاتهم بعضهم ببعض ، فقد عجزوا عن أن يكونوا جبهة متحدة ضد البرتغاليين . وحدث بعض القتال المتقطع ، ولكن البرتغاليين جاءوا ليقوموا بدور المستعمرين بدلا من أن يجيئوا فاتحين ، فتجنبوا العداوات الصريحة ما استطاعوا .

وعندما جاء البرتغاليون كانت البرازيل مجرد فراغ شاسع . فلم يكن لديهم فكرة عن كم هى شاسعة حتى خرج مستكشفو الأرجاء الداخلية من ساوباولو إلى الغرب الأقصى من القارة المكشوفة . وكان البابا بورجيا قد حدد من قبل خطا تحكميا لتوسعاتهم زحزح فيما بعد بمعاهدة تورديسياس فى سنة ١٤٩٤ . وفيما دون خط التقسيم بكثير وطد الإسبانيون مركزهم فى الاندز، وبدوا راضين بالبقاء هناك بعد عدة انتكاسات خطرة فى اختراق غابة الأمزون . ومنذ ذلك الوقت لم يهتموا إلا قليلا ببرية الأمزون إلى الشرق من الجبال ، أو بالميل إلى تحدى عمليات البرتغاليين التى كانت أقرب إلى رحلات الكشف منها إلى مجهودات يبذلونها لاستعمار مناطق الحدود . وأول الجهود البرتغالية فى هذا الصدد بذله وحده مخاطر اسمه اليكسو جارسيا مع قوة كبيرة من هنود الجوارانى ، وقد وصل

إلى الأطراف المسكونة من امبراطورية الإنكا من قبل أن تطأ قدم بثارو ساحل بيرو . وكانت أقرب المستعمرات الإسبانية إلى الساحل البرازيلى هى عند سانتا كروث دى لا سيرا فى سهول شرق بوليفيا واسونثيون على نهر باراجواى . أما محاولات البرتغاليين لإقامة مركز على نهر بلات فقد أحبطها الإسبانيون نهائيا من الجانب الآخر من النهر . ولم يكشف الاتصال من الشرق إلى الغرب مع المستعمرات الإسبانية فى بيرو عن طريق الأمزون من ناحية البرازيل حتى سنة ١٨٣٨ ، عندما صعد بدرو تيشيرا النهر إلى إقليم كيتو وقد حدث هذا مباشرة قبل نهاية الستين عاما التى مكثها « الأسر الإسبانى » للبرتغال ، وفيها توقف كل جدال حول الحدود وبمرور الوقت أصبح الحد الطويل للبعثات التبشيرية اليسوعية من أراضى نهر بلات إلى الأمزون الأعلى يكون مصدا محايدا لأية محاولة ممكنة عند اعتداء دولة على الأراضى الخلفية للدولة الأخرى فى داخل القارة .

ولم يحدث أبدا أن عمرت البرازيل ، كما هو الشأن بالنسبة إلى كثير من أرجائها إلا بعد انقضاء أربعة قرون على احتلالها . ومن بادىء الأمر كان هناك دافع شديد للتجول فى البلاد . فلم تكن هناك جبال شاهقة تسد الطريق على المتقدمين ، ولم يكن هناك من العوائق الأخرى مالا يمكن التغلب عليه . ولما كانت معظم الأنهار الصالحة للملاحة فى البرازيل تتجه فى مجاريها من الشمال إلى الجنوب فإنها لم تكن ذات أهمية كبرى كطرق مؤدية إلى الداخل كما كان منتظرا ، ولو أن نهر ساو فرانسسكو كان حلقة اتصال عظيمة القيمة بين الشمال الشرقى ومرتفعات ميناس .

وكان الهندى على الدوام جوالا يبحث عن الطعام أو ملجأ يقيه من الأعداء الغرباء . وكان الكابوكاو أو المملوكو (*) ، وهو مهجن من

Oaboclo or Mameluco (*)

هندية ، ورجل الحدود البرتغالى الذى أصبح « هنديا » (*) ، قد اكتسبا عادات التجوال التى كان يمارسها السكان الأصليون . وكذلك انطبعت حالة من القلق فى نفس البرازيلى الذى يعيش فى الأقاليم ، ولا تزال تميزه ، ومن الصعب أن تجعله يستقر فى مكان واحد . وفى ذلك الوقت ، كما هى الحال الآن ، كان يشعر أن الأمور ربما تتحسن بمرور الزمن ، ولذلك فقد كان الأفق يتحداه دائما . ثم إن المناخ ونمط زراعة الحريق (**) ساعداه وشجعاه على حياة التنقل ومعيشته الراكدة ولذلك فقد كان مجتمعا يبدو عند حافاته مجتمعا يغص بالحركة الدائمة .

سكان البرازيل

كانت المستعمرات متباعدة كثيرا بعضها عن بعض ، حتى إن الناس كانوا يقومون برحلات برية طويلة . ولم تكن المواصلات بالبحر آمنة دائما ، وكانت الرياح السائدة على الساحل الشمالى تجعل الملاحة صعبة فى اتجاه واحد . وكان موزعو البريد الذين يحملون الرسالات الرسمية بين مدن السواحل يلتزمون الشواطىء الطويلة كلما أمكنهم ذلك . وكانت الماشية التى تمد المستعمرات بالحاجات كثيرا ما تساق مسافات طويلة من المزارع فى الجنوب القاصى فى خلفية البرية (†) . أما فى البلاد الخلفية التى تقع على الطرق القديمة فلا يزال المرء على دراية بحداة الماشية (††) وأرتال البغال المجلجلة التى ظلت دائما مظهرا من مظاهر الحياة البرازيلية . وكذلك سكان باهيا الذى يعبرون جوياز أو ميناس بحثا وراء الألماس أو الذهب فى قيعان الأنهار ، هم أيضا جزء من عادة التشرد القديمة . غير أن أكثر الناس تجوالا من بين جميع البرازيليين هم سكان ولاية سيارا (***) ،

(*) tapuyado = Indianised

(**) roça نوع من الزراعه المتنقلة يحرق الزراع فيها الأرض بعد جنى المحصول ثم ينتقلون الى أرض جديدة .

(†) Sertao

(††) boiados

(***) فى شمال البرازيل

وهم المولدون الأشداء فى تلك الولاية الجدباء الذين توغلوا إلى المنافذ البعيدة لوادى الأمزون ، وفى السنوات الأخيرة ينزحون إلى الجهات الصناعية فى الجنوب . وكثير من التجوال الذى لا ينقطع فى البرازيل يمارسه الناس على أقدامهم . فليس هناك سكة حديدية تربط الأقاليم الشمالية بالجنوبية لهذه البلاد العملاقة وطريق العربات بين ريو ومدن الشمال الشرقى عبر تيوفيلو أوتونى لا يعد طريقا ملكيا (*) ممهدا فى كل الأجواء .

ولم يكن هناك عدد متوافر من البرتغاليين المطلوبين لفتح البلاد وتبوئها مركزها . وإنه لمعجزة أنهم استطاعوا أن يحتفظوا بها على وجه الإطلاق فقد كان هناك عدد قليل جدا منهم . فأولا كانت البرتغال أمة صغيرة للغاية ، واستنفدت المغامرات الشرقية عدداً كبيراً من سكانها . فكان السكان الباقون فى منتصف القرن السادس عشر قد انتشروا فى كثافة خفيفة جدا فى العالم ليحتفظوا بأى شىء ضد عدو قوى عنيد . ولذلك فقد كان عليها أن تقتصد من نزر مواردها البشرية الخاصة وتبحث عن موارد أخرى من الرجال ، خصوصا من الأيدى العاملة المتوافرة العدد والذين يعتمد عليهم لنظام المزارع الذى كان قد راودها . وبدا الهندى هو المورد المنطق للحصول على العمال . ولكن الهندى لم يكن لديه ميل للعمل المنتظم ولم يشعر بالسعادة فى المزرعة التى كان يحس فيها أنه شبه أسير . وفى زمن مبكر صرف المزارعون البرتغاليون النظر عنه كعامل على الأرض ، وإذا كانوا قد استطاعوا أن يمنعوه من التجول بعيدا فى الغابات فقد استخدموه فى أغراض مجالها أقل تقييداً ، وله ميل طبيعى إليها ، كأن يعمل ملاح زورق وصيادا . أما الرقيق الزنوج ، وقد كانت لهم تجارب طويلة معهم من قبل فى وطنهم ، فقد برهنوا على أنهم الحل السليم لمشكلتهم فى

(*) Camino real

الحصول على العمال وكان الزنجى من الناحية الجسمية مهيأ لمطالب المعيشة فى وطن مدارى ، وما يتصف به مزاجه يساعده على تقبل أعباء الخدمة دون أن يشعر باليأس المحقق أو روح التمرد الكئيبة التى يكنها الهندى فى نفسه إن صنع البرازيل لم يكن ممكنا بدون الخدمات التى أداها جسمه وروحه .

وبالاختلاط المفرط بين دم البرتغاليين أنفسهم ودم كل من الهندى والزنجى، شارك البرتغاليون أيضاً فى حل مشكلة السكان فى البرازيل ولم يكن التهجين الجنسى شيئا جديدا عليهم ، فقد كان البرتغاليون فى جنوب نهر التاجة (٭) بصفة خاصة شعبا مختلطا ، فلم يكن عندهم عقبات تمنع طغيان أى لون منهما على حدود اللون الآخر أو تصرفاته أو الفارق الاجتماعى . وقبل أن يبدأ احتلال البلاد المنتظم رهن ثلة متناثرون من البحارة البرتغاليين الذين جنحت سفنهم أو اختاروا من تلقاء أنفسهم المعيشة مع الأهالى إمكانات الاختلاط على نطاق واسع . وأشهر طلائع عملاء الاستعمار البرتغالى هؤلاء كاناديوجو ألفاريس ، وأشهر ما يعرف به اسمه كاراموررو أو « صانع النار » ، وجوياو رامالو . وقد استقر أولهما فى الأراضى الغنية حول خليج سلفادور حيث نشأت مدينة باهيا فى وقت لاحق أما مسرح أعمال الآخر فقد كان نائيا فى إقليم سانتا كاتارينا . وكلاهما أصبح زعيما من نوع ما ، ورجلا مهما مهيبا بين القبائل التى تبنياها ؛ زد على ذلك أنهما أنجبا نسلا كثيرا ووضعا نمطا للخلط ساعد كثيرا على ملء الفراغ التناسلى فى البرازيل وفى وقت لاحق جاء رواد الشمال الشرقى العظام ، مثل جارسيا دافيلا وجيرونيمو دى ألبوكيرك ، ليصبحوا أرباب أسر غزيرى الإنجاب فى البلاد ؛ ولقد استمرت هذه العادة حتى يومنا هذا دليلا على

(٭) تاخو

السيادة والمسئولية ، وكعامل هام مساعد على تبييض بشرة السكان الذين يغزر فى دمهم التهجين فى تلك الجهات المدارية من البرازيل .

وفى وقت مبكر بدأت المستعمرة تجد فى السكر أساسا هاما فى اقتصادها. فقد كانت السهول الساحلية المنخفضة ملائمة كثيرا لزراعة القصب ، ولما كانت موارد السكر فى أوروبا قليلة ، ظل السكر فترة طويلة للغاية محصولا مربحا ، ولو أن سكر جزر الهند الغربية كان فى النهاية منافسا خطرا قلل من أرباح صناعة السكر البرازيلية . وأمد الطباق الذى زرع فى المنطقة المحيطة بباهيا والقطن الذى زرع فى المنطقة الجافة إلى الشمال من برنامبوكو (*) حتى مارانياو السكان بمحصولين ثانويين قيمين .

نظام المزارع

كانت حياة المزرعة تدور إلى حد كبير حول المزارع الكبيرة ومهما يكن فيها من قصور فإن الزراعة المدارية لم تمارس بذلك القدر من النجاح فى أية مستعمرات أوروبية أخرى فى ذلك الوقت فقد كان أفراد الطبقة الارستقراطية من المزارعين الذين يستخدمون الرقيق هم حكام البرازيل الفعليين . وكان إقدامهم الشخصى مهما كل الأهمية بالنسبة إلى مركزهم . وكانوا عادة رجالا حاذقين أقوياء العزيمة ولكنهم كانوا كرماء فى معاملتهم لجموعهم الغفيرة المختلفى الألوان من الأتباع أحرارا كانوا أم عبيدا ، وانغمسوا فى كثير من المظاهر الخشنة خصوصا عند زيارتهم للمدينة تصحبهم أسرهم وبطاناتهم . وفى هذه الأثناء كان قواد الجيوش فى باهيا ، ثم فى وقت لاحق نواب الملك فى ريو ، رموزا مثيرة للعواطف للسلطة البرتغالية . وعلى الرغم من أن بعضهم كانوا ذوى كفاية وموظفين ملكيين ذوى ضمير فقد بقيت السلطة كلها أخيرا فى أيدى أصحاب الأراضى

(*) رسيفى

الكبار . ومن حسن الحظ الذى ساعد على نجاح إدارة هذا النظام المتراخى أن الحكومة كانت أبعد كثيرا وأقل تدخلا فى حياة المستعمرين منها فى الجو السياسى الصارم الذى كان يسود المستعمرات الإسبانية .

وكان ينقص المستعمرة ، حتى فى المدن ، جو من التهذيب الاجتماعى . ففى بادىء الأمر كانت مجتمعا للذكور ، إذ كانت هناك قلة من نسائهم ليشاركنهم فيها . وحتى عندما جاء النساء من البرتغال ، قبعن فى عقر ديارهن ثانية . ولم يكن لهن على ما يبدو تأثير خارج جناح الحريم (*) فى « البيت الكبير » ، بل إن هذا التأثير كان قليلا بسبب نشاط رجالهن الأشداء فيما وراء الأسوار . ولذلك فإن نساءهن الشاحبات قليلا لم يكن فى مركز يؤدين منه للمستعمرة مسحة من اللطافة الرشيقة التى كانت تستحقها نتيجة ثرائها ومركزها فى العالم الخارجى . فقد كان المستوى الاجتماعى الحقيقى للمستعمرة مستوى الأبيقورية القروية فقد كانت المستعمرة تلبس حلة مزخرفة فى المواكب وتتبختر وتؤدى حركات التعارف والمجاملة كأحسن ما تؤدى به فى لشبونة وملئت المنازل بمختلف أنواع الكماليات الشرقية . ولكن أقدامها كان يعلوها الطين ، وشعرها كان يكسوه النقع (**) ، لأنها عاشت ملتصقة بالأرض رغم كل ادعاء ووقفة مصطنعة ، وفى صميمها كانت تحت تأثير دافع ريفى عام نحو المباهج والمسرات الغريزية .

الثقافة الاستعمارية

كانت اهتماماتها الفكرية على مستوى منخفض كمستواها الاجتماعى . فلم ينغمس المستعمرون فى قراءة الكتب ، ولم تنشر أية كتب فى البرازيل فى العصر الاستعمارى إلا متأخرا (٣) . ولم تكن هناك جامعة كما كانت

(*) zenana : زنانة ، كما تسمى فى إيران والهند ـ زانا امرأة بالايرانية .

(**) الغبـــار .

الحال فى المدن الإسبانية مثل ليما ومدينة المكسيك لتقدم سترا من لوذعية وحذلقة العالم القديم على لجاجاتها الحيوية والثائرة . وكان يحدث أحيانا أن مزارعا غنيا يرسل ابنا مرجوا من أبنائه عبر البحار إلى كويمبرا ليجعل منه عالما و « دكتورا » ، ولكن معظم ما كان موجودا من نشاط عقلى عاطل فى المستعمرة كان مرجعه إلى اليسوعيين أو يهود شبه جزيرة أيبيريا الذين كانت لديهم تقاليد فكرية قوية خاصة بهم .

وكانت أدوات الثقافة العالية فى أغلب الأحيان فى أيدى اليسوعيين القديرة . ولكن اليسوعيين لم يتفقوا مع استقراطية المزارعين على أشياء كثيرة سواء أ كانت ذات طابع روحى أم دنيوى . أضف إلى ذلك أنهم كانوا منهمكين جدا فى محاولتهم حماية من فى عهدتهم من الهنود من نهم الفريق العلمانى وتمدينهم على طريقتهم الفريدة لدرجة لا يودون معها إزعاج أنفسهم كثيرا برفع مستوى المستعمرين الفكرى . ومع ذلك فبعض زعمائهم مثل الآباء انشيتا ونوريجا وكارديم وفييرا كانوا رجالا ذوى مقدرة عظيمة وأخلاق نبيلة تركوا أثرا لا يمحى على مر السنين فى تاريخ البرازيل المبكر .

ووقعت معظم مسئولية تأدية الخدمات الدينية لفريق السكان العلمانيين على عاتق قساوسة الابروشيات من الفرق الأخرى وعلى رعاة « البيوت الكبيرة » وكانوا ، بصفة عامة ، زمرة متكاسلة يعظون مسيحية منزلية وبسيطة ، وفى ظل النظام الهرمى الذى ارتضاه المجتمع أظهروا تجلة لائقة وانقيادا للسادة ملاك الأراضى الذين كثيرا ما كانوا يدعونهم إلى موائدهم المضيافة . وفى المزارع تعودوا العمل أيضا كمدرسين فى نظام يقارب مرحلة أولية من التعليم الابتدائى كانت سائدة فى ذلك الوقت . وكانوا يقومون بالخدمة الدينية فى رفق أثناء الاحتفالات الدينية المتكررة . وفيها كان القديسون يندمجون كالآلهة الإغريقية فى العصور القديمة مع

عبادهم فى جو من الأنس البهيج . ولم يكونوا صارمين فى أمور العقيدة ، وتغاضوا عن البدع الدخيلة غير الضارة التى أحضرها معه الهندى والزنجى إلى أشد المذاهب الكاثوليكية كثلكة .

ذلك أن الثقافة الشعبية الخصبة لكل من هذين الجنسين عمرت العالم الخفى الذى تصوروه فى مخيلتهم بجيش من العفاريت وشياطين الجو ومخلوقات أخرى خيالية . وخرج من غابة البرازيل العظيمة وأنهارها خليط من الحيوانات الكاريكاتورية مثل سلحفاة الماء (*) ، والتمساح(**) ، والدرفيل الوردى اللعوب(***) الذى يشتهر به الأمزون ، والتى كان الأهالى يعتقدون أن لها تأثيرا فى حياة الناس ، سواء أكان خيراً أم شراً . وعلى الرغم من أن رجال الدين لم يوافقوا على هذا التيه من الخرافات المتزاحمة على عقائد الكنيسة ، والتى تخالط الأمر فى عقول الرعايا البسيطة ، فإن هذه الخرافات كانت متأصلة فى غريزة الشعب بدرجة لم تخضع معها للمنطق أو اللوم . فقد أصبحت جوهر خرافات البرازيل الوافرة والدائمة ، وفيها تقوم الحيوانات غير العادية بدور هام جدا . فهى جزء من الميراث القصصى لجميع أطفال البرازيل ، ويستمد منها كبارهم مادة لتشخيص أوهامهم مثل جيكا تاتو ، وجوسيه كاريوكا — جو الببغاء — فى فيلم والت ديزنى « الفرسان الثلاثة »

ومن جميع التأثيرات التطورية التى كانت تعمل فى العناصر الخام للأمة البرازيلية . التكوين الجنسى ، عمل القوى الطبيعية (الشمس والمطر والغابة والمرتفعات وعظم مساحة الأرض نفسها) ، عملية التغير التاريخى نشأ بمرور الوقت جنس مختلف عن الجنس البرتغالى الأصلى ، ولكن الأساس

(*) Jaboti

(**) jacaré بالأحرى فصيلة من التماسيح alligators

(***) boto

بقى لوسيتانيا (*) . وكانت البرازيل شاسعة الأطراف ، وظلت أرجاؤها زمنا طويلة متباعدة بعضها عن بعض لدرجة أنه ، كما هى الحال فى الولايات المتحدة ، أصبحت هناك عدة فروق إقليمية تختلف عن النمط الأصلى . ولكن جنسا برازيليا كان طول الوقت فى طريق التكوين له صفة مميزة خاصة به ، بصرف النظر عن الاختلافات بين مواطن من ساوپاولو ومواطن من الشمال الشرقى ، أو بين مواطن من ميناس جيرايس أو جوشو .

البرتغاليون

لم يكن البرتغاليون جميعا كالإسبانيين ، ولو أنهم كانوا أقرب شبها منهم من كونهم أبعد شبها (٤) . واشتركوا مع بعض الإسبانيين فى صفات كثيرة كأهالى أستورياس وغاليسيا أكثر مما كان بينهم وبين سكان أراجون وقشتالة من صفات . واتصفت جميع شعوب شبه الجزيرة الفردية ، ولكن البرتغاليين كانوا بصفة عامة أكثر استعدادا للمصالحة أو الخضوع من الإسبانيين ذوى الخيلاء ، لأنهم كانوا عمليين أكثر ، ولم يهتموا كثيرا بالمظهر اهتمامهم بجوهر الأشياء . فإن بدا منهم العناد عندما يدفعهم أحد أكثر من اللازم ، أو عوملوا معاملة جافة ، فقد كان ذلك أيضا دليلا على أخلاقهم الريفية فى الأساس . وكانوا بصفة عامة واقعيين أكثر من الإسبانيين ، ومع ذلك فى مناسبات يستطيعون أن يكونوا كيخوتيين مثلهم ، كما بدا من بعض مغامراتهم الصليبية الخيالية فى إفريقية . وكانوا عاطفيين أكثر من الإسبانيين ، كما أن البرازيليين أرق عاطفة من أهالى تشيلى أو أوروجواى . وانساقوا فى حالات نفسية تسودها الكآبة قد تجد متنفسا فى غناء الأناشيد الشعبية الحزينة (**) التى يغنونها فى الريف . وعلى النقيض

(*) نسبة إلى Os Iusiadea البرتغال

(**) Fados

من ذلك قد ينغمسون فى مزاح ولهو استعراضى (*) ، فقد كانوا أناسا دنيويين وسذجا اتخذ لهوهم ناحية الجسد أكثر من ناحية الفكر . وكان تفكيرهم فى الحرب أقل من الشعوب الإسبانية ، ولو أنهم لا يقلون عنهم شجاعة فى المعارك إذا كانوا يحاربون عن إيمان ، فإذا لم يكن ذلك فقد كانوا ينزعون إلى إظهار شعور قوى بالمحافظة على الحياة ولما كانوا شعبا معتدلا بطبيعتهم فقد كانوا أبطأ فى اللجوء إلى العنف من القشتاليين المحبين للقتال . كما لم يميلوا إلى المفخفخة الزائدة والأبهة ، لأنهم كانوا على علم بأنهم ينتمون إلى بلاد صغيرة وليس لديهم أطماح لأن يلبسوا ثياب الأقوياء . وكان حبهم للربح شديدا ويجلون المال وكانوا على وجه العموم رجال أعمال ومال أفضل من معظم السلالات الإسبانية ، ويخرج من بينهم أمناء مخازن وتجار أقوياء ومحفظون . واستمرت أعداد غفيرة منهم تهاجر إلى البرازيل ، وهناك رغم أنهم هدف للسخرية والنكات ، يرحب بهم لجدهم وصفاتهم الجوهرية الأخرى ، كما يرحب بأهالى غاليسيا (**) المثابرين والمجدين فى كوبا . واعترافا بقيمتهم فى تطوير البلاد أعفوا من حصة القيود التى فرضها قانون الهجرة الفيدرالى .

الولايات البرازيلية وسكانها

تنقسم البرازيل كلها إلى خمسة أجزاء . وإذا ضممنا وادى الأمزون كجهة منفصلة تصبح ستة أجزاء . أما الأجزاء الخمسة فهى :

١ — الشمال الشرقى .
٢ — ولاية ميناس جيرايس
٣ — الإقليم الفيدرالى .
٤ — ولاية ساوباولو .
٥ — ولاية ريو جراندى دوسول . وهى تمثل عند البرازيليين النماذج

(*) فى الأصل Bruegel- like : نسبة إلى رسام هولندى مشهور بلوحاته الزاهية .
(**) Callegos.

البشرية الآتية على الترتيب : نورد ستينو ، مينيرو ، كاريوكا ، بوليستا ، جوشو . وليست الحدود بينها ثابتة ، لا من ناحية اصطلاحات علم الجغرافية، ولا من ناحية ثقافاتهم الإقليمية المميزة . فلا تزال البرازيل بلادا للريادة ، وأحيانا تبدو الهجرة الخارجية التى يقوم بها الناس من المنطقة الساحلية القديمة المطلة على المحيط نحو الأراضى الداخلية كما لو كانت بدأت مؤخرا ليس إلا . فحيثما وجدت سكك حديدية أو طرق يسلكها الناس وأرض غير مأهولة للاستعمار ، فإن تيارات الهجرة لا تلبث أن تبدأ نحو الداخل كما فى حوض نهر توكانتنس فى جوياز فى القطاع المتسع على طول السكك الحديدية الشمالية الغربية فى جنوب ماتو جروسو ، أو منطقة البن الجديدة فى جنوب غربى ساوباولو ، والركن الشمالى الغربى لبارانا . وقد تكون أغلبية المهاجرين من أهالى سيارا هاربين من فترات القحط التى تنتاب ولايتهم المعرضة للجدب، أو من سكان باهيا (*) ينزحون غربا عبر مجرى نهر ساو فرانسسكو ، أو من أهالى ميناس أو ساوباولو بحثا وراء فرص جديدة لإنتاج البن أو الرز أو تربية الماشية . وبعد ذلك تصبح الأرض المستعمرة حديثا ، من ناحية ، ملحقا للإقليم الذى جاءت منه أغلبية المستعمرين .

والشمال الشرقى هو البرازيل القديمة للرقيق والسكر . ومساحته شاسعة ، تمتد من حدود ولاية بارا، ثم جنوبا مارة « ببروز » أمريكا الجنوبية حتى مدينة ريو دى جانيرو تقريبا . ويمتد غربا عبر البرية (**) حتى يلتقى بغابة الأمزون . والبرية معظمها شبه صحراء تنمو فيها «الكاتنجا» أو الأشجار القزمية والأعشاب التى يميل لونها إلى البياض . وأحيانا كما فى مارانياو وبيوهى — توجد مساحات شاسعة من النخيل (***) . وهناك

(*) Bahianos

(**) Sertão

(***) Palmeiras

أيضا جهات تصلح أرضها الغنية لإقامة المزارع بالقرب من الشاطىء . وفى الجزء الجنوبى بين نهر كونتاس فى بائيبا ونهر دوسى فى اسبيريتوسانتو توجد مساحة شاسعة تنمو فيها غابة مدارية مطيرة تكاد تكون خاوية من السكان . والشمال الشرقى هو الإقليم المفضل للشعوب المختلطة التى هى مركب من البرتغاليين والهنود والزنوج . ويتصف الناس فى النطاق الساحلى بطلاقة اللسان وسعة الأفق والتودد . ومعظم خطباء البرازيل المفضلين وشعراء الأناشيد ، مثل روى باربوسا وكونسالفيس دياس ، جاءوا من سلالته الخصيبة المزدهرة . أما الشخص الذى يعيش فى البرية الهزيلة والأراضى الخلفية فمعجم ألفاظه فقير ، كما هو فقير فى طعامه وبنيته وفى قرارة نفسه ضغط شديد من التصوف وكان من أنصار أنطونيو كونسلير وفى كانودوس ويتبع القساوسة الذين يبرئون الأمراض ويظهرون أحيانا فى البرية ليثيروا سكانها البسطاء إلى جنون التعصب . ونظرا إلى أنه عديم الثقة بالسلطة نجده قد انساق إلى عبادة الأبطال الذين يتحدون القانون مثل لامبياو او « البرق » قاطع الطريق .

وأهالى ميناس جيرايس جبليون ، ولهم الصفات التى يمتاز بها سكان الجبال وهناك نحو تسعة ملايين معظمهم يعيشون فى قرى فى الوديان المرتفعة أو فى مزارع صغيرة وقد نظموا حياتهم بأساليبهم الخاصة ، ويمكنهم أن يقولوا القليل فى كلمات كثيرة ، فى حين ينتظرون أجنبيا ليتمم حديثه ويومىء بيديه وهم محافظون ومتحفظون ، ولذلك فهم عجلة البرازيل المنظمة . والكاريوكا هم سكان ريو دى جانيرو الأصليون ، أو سكان الإقليم الفيدرالى (*) وضواحى المدينة الكبيرة ، وهم قوم يحبون التزين والاستعراض إلى حدما ، ويتصفون بالحصافة ، وسلاطة السلطان ،

(*) نقلت العاصمة الفيدرالية إلى برازيليا كما تقدم، وأصبحت ريو دى جانيرو عاصمة ولاية .

والنزوات ، والتقلب ، والعبوس ، والتهكم ، ويعدون « معرض » الحياة أعظم ما يجذبهم فيها ، ولا يسبقه فى هذا إلا احتفالهم السنوى .

وفى ميناس جيرايس توجد العجلة المنظمة فى الآلة البرازيلية ، كما أن ولاية ساوپاولو هى المحرك . وأهالى ساوپاولو ديناميكيون وأقوياء العزيمة ويحبون التملك . وهم يفكرون بعقلية المال والتنمية . وقد أحضروا الثورة الصناعية إلى البرازيل وأداروها للعمل لمصلحتهم ، وبطريق عارض لمصلحة البلاد ومنفعتها . ويمتد تأثيرهم ونطاق زعامتهم عبر حدود الولاية إلى پارانا وماتوجروسو و « مثلث » ميناس والأرجاء الملاصقة من ولاية ريو . ولما كانوا عماد الاقتصاد البرازيلى فهم يتكلمون بصوت أغلبية حملة الأسهم ، وتعودوا أن يستمع الناس إليهم . وأصبحت ولايتهم تنزع إلى الظهور بمظهر السيادة ، ولما لم تسر الأمور وفق هواها ثارت مرتين فى وجه الحكومة الفيدرالية .

والجوشو هم شعب ريو جراندى دوسول ، الولاية الواقعة فى أقصى جنوب الجمهورية . وتحدها من جانبين أراض إسبانية ، وتعكس آثارها فى كثير من الأمور بما فى ذلك الاسم المحلى لشعبها . فالجوشو أقرب فى مزاجه إلى أهالى أوروجواى منه إلى مواطن باثيا الموجودة فى بلاده هو . فهو أكثر من البرازيليين الآخرين فى كونه « يخرج إلى العراء » ، كما أنه أشد عنفا و « حيوية » ، وفى مكانه الطبيعى عندما يمتطى جوادا ، وهو حيوان قد يكون غريبا كلية على مواج الكاريوكا ، وقد يفضل مواطن ميناس جيرايس كثيرا بغلا ثابت الأقدام كوسيلة للنقل البرى .

الاخلاق البرازيلية

البرازيليون هم صينيو العالم الجديد . وهم شعب حديث إذا اعتبرنا الناحية التاريخية ، أما من الناحية الروحية فهم جنس قديم له جذور فى

مكان ما فى التاريخ . وليس التوازى بطبيعة الحال كاملا ، فالصينيون ، من بين أشياء أخرى، شعب نفعى أكثر من البرازيليين . ومع ذلك فصفة الشرقية فى نواح معينة من الحضارة البرازيلية واضحة تماما ، وهناك مجالات للفكر والسلوك فيها ينزع كل من الشعبين إلى أن يتصرف تصرفاً واحداً . وهذه حقيقة فى الصفات الصينية الدائمة — قبل وبعد النظام الشيوعى — وهى القيم والعادات التى تحلى بها الجنس ، والتى تأثرت تأثرا ضئيلا إثر التغير السياسى .

فهناك شعور متبادل بين البرازيليين والصينيين على حد سواء ، وروابط الدم هى الحلقة الرابطة الوحيدة (٦) ، وكلاهما يتجه إلى ألا يكون له أثر سياسى ، وفى النهاية هناك قوى أخرى غير الإجبار الحكومى تمسك الأمتين معا وتحفظهما من أن يطوح بهما فى فضاء سياسى ، والأخلاق والوسائل فى إدارة الأعمال لابد أن يتحد كل منهما مع الآخر .

والبرازيليون والصينيون يمقتون الحرب بشدة كمضيعة للوقت والمال ، اللذين يمكن أن يخصصا لما هو أنفع ، وإجراء لا يحل شيئا فى النهاية سوى مصير أولئك الذين لاقوا حتفهم . وكل منهما يتصف بالمرح الشديد ، ويصيبهم كثير من أمور الحياة فيرون فيها أشياء توجب الضحك والاستهزاء ، والشعبان يحبان الكلام ، ووهبوا الثرثرة كنوع من التسلية .

وما يسميه البرازيليون « دقة الإحساس » (*) هو مفتاح أخلاقهم القومية (٧) . وهى ليست « سرعة التأثر » ، ولا هى « قوة الإدراك » ، ولكنها أقرب إلى حدة العاطفة ، ومن ناحية الدافع ، تعنى سيطرة الشعور على الذكاء . وبعبارة أخرى يميل البرازيلى إلى أن يفكر بقلبه أكثر مما

(*) sensibilidade

يفكر برأسه فيما يختص بأمل معلق على عمل معين يقوم به . والتفكير ووجهات النظر تميل إلى أن تصبح شخصية أكثر منها موضوعية ، لأن الحياة أمر شخصى إلى درجة فائقة ، مكونة من علاقات بين الأفراد . أما المبادىء العامة مثل « الواجب » و « العفة » فهى عبارات خداعة وفى الحديث الجدى قد تصبح ذات فائدة كنقط تجميع لأفكار أبسط ، ولكنها صعبة عندما يراد تحويلها إلى تطبيق عملى فيما يمس أفعال واهتمامات الشخص الخاصة فالناس إما ظرفاء (*) وإما ثقلاء (**) ، فإذا كانوا ظرفاء فأنت تحبهم ، وإن لم يكونوا كذلك فأنت تكرههم (٨) . وتتخذ الصداقة (***) أهمية لا تعرفها أمزجة الشعوب الشمالية الباردة ويمكن تصنيف الناس إلى أصدقاء (+) أو أعداء (٩) (++) .

وسلطان الاعتبارات المؤثرة أو العاطفية يعقد مسلك الأمور الجدية ويجعل من الصعب حل المسائل بما تستحقه . وله تأثير ملحوظ فيما يؤديه العزيمة من عمل . وكما هو الشأن فى اندفاعه (****) مواطن أمريكا الإسبانية يميل الناس إلى أن يتصرفوا تبعا للدافع وفق انعكاساتهم العاطفية . وقد تكون هذه البواعث أو الدوافع الداخلية عنيفة جدا فى شدتها حتى ولو قصرت مدتها . فالجرائم عادة أعمال انفعالية ترتكب لفورها دون خطة أو تفكير سابق .

ويزيد من خطورة عدم إمكان التنبؤ ، وما هو عند الحريصين من الناس صفة التقلب وفق الأهواء ، وهما الصفتان المتضمنتان فى هذا الجو

(*) simpotico
(**) antipatico
(***) amizade
(+) amigos
(++) inimigos
(****) gana

الشخصى ، إيقاع غير منتظم للمجهود الذى يشترك فيه البرازيليون ومواطنو أمريكا الإسبانية . وكما هى الحال فى تكون الضغوط الجوية فى منطقة عاصفة حتى نقطة الانفجار ، فإن هذه قد تكون مقدمات طويلة نسبيا استعدادا لاتخاذ إجراء . أما التراخى الذى يحدث فى أثناء العملية فهو مما يلائم الطبيعة البرازيلية حتى ولو كانت ظروف الحياة الفعلية لا تناسب الانغماس . والتمتع بالتراخى دليل على السمو فوق المستلزمات الاقتصادية. كما أن الأيدى البيضاء الرحيمة دليل على مرتبة اجتماعية . وفى كثير من أرجاء البلاد نجده أيضا ورد فعل دفاعى ضد المناخ ، ولذلك فهو يمثل اقتصادا فى القوى أكثر من أن يمثل تكاسلا صريحا ، أو ميوعة فى الأخلاق . ومن جهة أخرى لا يوجد هناك نظام تقليدى يحث على العمل الشاق ، ويعبر عن الفلسفة الشعبية تعبيرا واضحا بملاحظة أبداها مواطن برازيلى وهى أن « التراخى الموقر يبدو دائما أسمى ، بل أشرف من كفاح فيه رعونة يصرفه المرء لكسب قوت يومه » . ونظرا إلى أن البرازيلى يهمه الحاضر أكثر مما يهمه المستقبل البعيد فإن البرازيليين يبدون بمستوياتنا التى نعهدها ، شعبا عديم الفطنة . ويرغبون ، وهم فى الطريق إلى أى مصير يقودهم إليه المستقبل ، أن يجدوا فسحة من الوقت يستمتعون فيها بالمباهج البسيطة والملذات التى هى على جانبى الطريق .

وفى هذه الأثناء لا ينتظر أحد أو يبغى أن يصبح غنيا نتيجة عمل شاق . والعاقبة السعيدة لابد أن تعتمد إما على الحظ وإما على نوع من الإقدام الفائق الذى يغامر به الفرد . ويعتقد البرازيليون اعتقادا راسخا فى الحظ(*) ونظرا إلى أنهم جنس من المقامرين أو المضاربين العتاة فهم دائما يأملون أن يربحوا الجائزة الكبرى فى اليانصيب أو لعبة البيشو «البرغوثة»(**)،

(*) sorte

(**) «bicho»

وهى تقابل لعبة « الأعداد » فى ريو ، وفيها يقامر المرء على حشرة مألوفة أو « برغوث » (بيشو) . ولقد قاومت « البيشو » جميع المجهودات الهوجاء التى تبذلها الحكومة بين حين وآخر لمنعها ، وأفلحت فى إبقاء الطبقات الدنيا فى ريو فى حالة مزمنة من الترقب والإفلاس . وعند ما يسوء الحظ ونزواته يركن المرء إلى نفسه ، كما يقولون ، ويكسب المال بممارسة نوع من الدهاء . ولذلك فالشغل ليس شغلا ، إنما الشغل لعبة . ويفسر الاتجاه المسبق نحو مجىء الحظ الباهر الخدعة التى ينتظرها المرء من عملية تجارية برازيلية . وربما لا يعنى ذلك نقصا متعمدا من ناحية الأمانة ، ولكنه أقرب إلى تحد فى معركة من الذكاء لأنه إذا استثنينا حوادث النشل البسيطة المنتشرة بين أفراد الطبقات الدنيا فى شتى أرجاء أمريكا اللاتينية ، والتى تعد ظاهرة اقتصادية بقدر ما هى ظاهرة خلقية ، فإن مستويات البرازيلى من ناحية الأمانة الشخصية ربما تضارع فى سموها مستويات شعوب أخرى فى حالة مماثلة من التطور .

والآثار « المعادية للنظام الاجتماعى » التى يمكن أن تترتب على توكيد البرازيليين على العاطفة يخففها وجود صفات معلومة أخرى فى الأخلاق القومية وإحدى هذه الصفات هى طيبة القلب (*) . فهناك إنسانية عميقة فى الناس ، دينية فى صميمها وعندهم حساسية تجاه ما يقاسيه الغير من آلام ، وينزعون إلى البذل والكرم إلى أولئك الذين يعيشون فى محيطهم ويحتاجون إلى عون . وإذا كانوا كالإسبانيين يميلون إلى ألا يكترثوا لتعاسات من لا يعرفونهم فليس ذلك ابدا نتيجة قسوة القلب ، ولكنهم يدركون حدود مقدرتهم ليقوموا بدور السامرى (**) . وفى الأراضى الخلفية لا يزال

(*) bondade

(**) A good Samaritan نسبة إلى السامرية فى فلسطين — يوصف به من يقدم العون للمحتاجين .

هناك كثير من الجود القديم الذى تتصف به أقاليم الحدود . ومع ذلك ففى ميناس تحفظ كثير بالنسبة إلى وجهة النظر نحو الغرباء . فليس لدى المواطن هناك ، بصفة عامة ، فائض من « السلع العالمية » ، وعلى ذلك ، فإذا بدا منه من أول وهلة عدم الترحيب والشح ، فلأنه يشعر بكل فطنة أنه يجب عليه أن يتمسك بالقليل الذى بين يديه . ويخامره قدر معلوم من سوء الظن(*) نحو الغريب المفاجىء ، وهو بقية من بقايا القرن الثامن عشر المضطرب عند ما كان المغامرون السفلة يجوبون الجبال بحثا عن الذهب .

ويتصل بطيبة القلب الأساسية عند البرازيلى نفوره من الإجراءات أو الحلول المتطرفة أو العنيفة . فإذا لم يكن هناك ، فى ظرف معين ، بديل لاستخدام القسر أو القوة البدنية ، ينزع الناس إلى استخدامها فى صورة رحيمة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فمثلا عقوبة الإعدام ، إنها لم تحرم فقط ، بل إن النظام التأديبى عموما يتجنب العقوبات العنيفة أو اللاإنسانية(١١). وكذلك يفضل البرازيليون أن يخرجوا من سجال معضل بالكلام على اللجوء إلى نزاع تستخدم فيه العضلات . وإن الشهرة القومية فى الحذق فى المفاوضة الدبلوماسية مبنية على أسس قوية وعلى نزوع البرازيلى الشديد إلى التراضى فى الشئون الدولية . وفى الحديث العادى يكرهون استخدام ألفاظ أو عبارات جافة أو سيئة دون ما لزوم . ومن جهة أخرى انساق البرازيليون إلى استخدام ألفاظ التصغير والتنابذ بالألقاب والاسم الأول أو الشخصى(**)، وهو الذى يرفع التكليف فى العلاقات الإنسانية . أما المحادثة بين أفراد الأسرة والأصدقاء فتنمق بالنمنمة المشهورة التى تدل على المحبة : « نه » أو « انيا » . وهكذا جرت العادة أن يخاطب المرء أمه (***) بلفظ « مايزينيا » (+)

(*) desconfiança

(**) Christian name

(***) mae

(+) maezinha وتنطق مايزينيا

أو يشير إلى الجد بلفظ « أفوزينو » وليست كل الأسماء التهكمية دليلا على استهزاء أو حط من الكرامة ، ولو أنها مجونية ، وغالبا ما تلمح إلى ظاهرة جسمية أو مزاج فى الشخص ولكن بدون ضغينة .

وعادة الإشارة إلى الأشخاص بأسمائهم الأولى أو الشخصية شائعة فى البرازيل . فأولا أخذ البرتغاليون كثيراً من اللغات الأجنبية وصاروا ينقبون فى ميادين الوهم والتاريخ عن الأسماء الأولى . والتنوع كبير لدرجة أن الشخص كثيراً ما تعرف شخصيته باسم فريد ، بل ربما يظهر فى ترتيبه الأبجدى بدلا من اسم الأسرة فى دليل الهاتف . ومن أمثلة هذه العادة الشائعة اسم « أوجيتوليو » أو « الجتيوليو » . وهو الاسم الذى أطلقه البرازيليون الوقحاء على الرئيس جيتوليو فارجاس .

وهذه الأوضاع المشخصة تشخيصاً كاملا تجعل المسائل ذات الأهمية القصوى كيسرات للوظائف الاجتماعية . ومن المرجح أنه لا توجد بلاد على سطح الأرض فيها قانون الآداب أكثر إتقانا أو أحسن مراعاة . وليس هناك بلاد تحرز فيها الابتسامة كسبا أكبر ولا العبوسة خسارة أعظم . وينقاد البرازيليون بسهولة إذا لجأ القائد إلى العاطفة ، ومن الصعب قيادتهم غصبا . والتوكيد على الأمور الشخصية متأصل إلى درجة أنه أحيانا يؤدى إلى إلغاء القوانين التى يظهر منها أنها لا تتفق مع العلاقات الإنسانية المقررة . فالقوانين والقواعد لا تسرى على الأصدقاء ، ولكنها صيغت للمعاملة مع الأجانب والغرباء .

وتتضمن القيود الأخرى على الأوضاع التى قد تؤدى ، فى ظروف أخرى ، إلى فوضى بهيجة فى المجتمع البرازيلى ، الحاسة القوية الديمقراطية ، وهى الميراث المتأصل لشعب الحدود ، وروح المرح المنهجية ، وعدم المبالاة بالأشياء التى لا تؤثر فى صميم سعادة الشخص . فبتذويب الفوارق بين الناس

على الأقل من الناحية الفلسفية ، بصرف النظر عن مركزهم المادى بعضهم بالنسبة إلى بعض، يمتنع عدم المساواة عن أن تكون مصدراً كبيراً للشقاق بين أفراد المجتمع ، وذلك بتقليل الفرصة لكل من الاستغلال والحقد . واستعداد البرازيلى للضحك على ما يضحك يلين التوترات فى العلاقات الشخصية . ومع ذلك فأحيانا يشوب مزاجه إضمار الخبث (*) ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون ذلك ضغينة ، بل ملعنة ، أو صفة من صفات المكر ، ولو أن إغراء إطلاق النكتة على شخص آخر جعل نفسه موضعا للتنكيت قد يكون شديداً إلى درجة لا تقاوم . وعلى الرغم من روح البرازيلى المرحة والسهولة التى يضحك بها فإنه ينساق إلى حالات انقباض النفس . فكثير من مشكلاته — ومشكلات بلاده — لم تجد لها حلا بعد ، وقد تأتى أوقات تبدو له فيها أنها لن تحل ونظراً إلى حساسيته فهو معرض لدرجة غير عادية لتأثير الانفعالات التى تثار من حوله . وفى الأجزاء المدارية من بلاده تثبط الطبيعة بإفراطها وسيطرتها الزائدة من عزيمته وتضغط على همته .

وهنالك أيضاً روح عدم الاكتراث فى طبيعة البرازيلى ، والتى قد تمنعه من أخذ أى شىء جدياً إلى درجة زائدة ما دام لا يهدد هذا الشىء نظام حياته الذى ارتضاه تهديدا مباشرا . وهذا هو مسلك اللامبالاة ، وهو أن لا شىء يهم كثيرا شريطة أن يظل المرء مستمتعا بالأشياء التى تجلب له السعادة . وهو ينزع إلى أن يجعل من الأيسر التغاضى عن الإساءات البسيطة وتقصير عمر الضغائن . وهناك قليل من التعبيرات التى كثيرا ما يسمعها المرء فى البرازيل مثل « ليس فى هذا ضرر » أو « إن هذا لا يهم » (**) . وهناك تعبير آخر يحتوى على معنى مختلف من هذه القدرية غير العابثة ،

(*) malicia

(**) "Nào faz mal" or "Nào importa"

أو قل الاستسلام ، وهو : « اتركه وشأنه حتى نستطيع أن نرى ما سيصير إليه (*) .

ثقافة البرازيل

العقل البرازيلى أداة حادة . وفى وسعه البت فى الأمور بسهولة ووضوح ، ولو أنه إذا تعمق كثيرا فى ميادين الفكر فقد يشعر بالتعب سريعا أو بالملل . وتمتاز آثاره بالبساطة والجمال ، ولكنه عقل ذو بعدين ، ويجنح إلى الافتقار إلى العمق والمثابرة وإلى الشعور بالإتقان والدقة . ويغلو فى توكيد النشاط والتألق العقليين ، وينزع إلى إعطاء قيمة أكبر لثمرات الإلهام والبديهة أكثر مما يقدره للثمرات الأساسية للعمل الكادح والجهد العامد وعند البرازيلى ، خصوصا مواطن الشمال الشرقى فيض مدارى من الخيال يمد عقله بجناحين ولو أنهما قد يكونان جناحى عصفور الجنة أو إوزة برية . وعنده كذلك بصفة عامة طلاقة تعبير الكوبى والميل إلى التنكيت والدعابة اللذين يمدان الحديث بالحيوية .

والثقافة بالبرازيل دليل الطائفية . وبهذه الصفة نجدها مسألة اجتماعية بقدر ما هى مسألة فكرية ؛ وإذا أخذنا فى الاعتبار النسب المئوية لمن يعرفون القراءة والكتابة والمسجلين فى المدارس نجد أن البرازيليين شعب غير متعلم(١٣) ولا يترك المدرسة الابتدائية ليلتحق بمرحلة أعلى سوى جزء صغير من السكان ، وبالمقابلة هناك عدد قليل من الخريجين فى المدارس العليا (**) ؛ ولذلك فعدد المؤهلين للالتحاق بالجامعات لا يعتد به .

وكما هو الشأن فى معظم البلاد الإسبانية نجد أن الحصيلة النهائية لهذه

(*) "Deixa-o como està, fara ver como fica."

(**) الليسيه lycea

«الغربلاء» المتتالية هى وجود أرستقراطيه ثقافية ، وأفرادها «دكاترة»(*) . والامتياز الفكرى يقاس بالدرجات ، والدبلومات ، وشهادات الجدارة ، وألقاب الشرف ونشر الرسائل ، وجميع أوسمة العلم الظاهرة الأخرى . فهى مكونة من الأشخاص الذين يقرأون الكتب ، وغالبا لأنهم يرون فى ذلك متعة، ولكن أحيانا بسبب أنه إذا أريد أن يعترف بالشخص رجلا مهذبا فعليه أن يقرأ الكتب، ويكون قادراً على الاقتباس منها . ويحرز كثيرون مجموعات ضخمة إلى حد الإثارة من المعلومات المختلفة وغير المترابطة ، هى نتيجة كثرة القراءة المتناثرة كأهالى بوجوتا الذين يشبهون البومة والذين يعرفون محليا « بأثينيي أمريكا الجنوبية » . ولقد تطوروا ثقافيا إلى مستوى أعلى بكثير من مستوى قراءة الجرائد ، والذى يشمل قراءة خريج المدرسة الابتدائية ، وأعلى من مستوى المجلات المحلية بما فيها النسخة البرتغالية من « المختار » ، والتى تكون المجال الحدى الجديد للعقلية العامة . ويستطيعون سرد فقرات بطلاقة من سارتر وفاليرى ومورياك ، كما كان آباؤهم يستعرضون براعتهم فى الاقتباس من كومت وتين وجوبينو .

وأحيانا يؤلفون كتبا موثوقا بها ، بل ممتازة . وحصيلتهم من الكتابة الجديدة ذات القيمة تفوق كتابة أية جمهورية من الجمهوريات الأخرى ، فمثلا ليس هناك شعب آخر فى أمريكا اللاتينية قام بدراسة تحليلية لأنفسهم بكفاية وأمانة ، كما فعل جلبرتو فريرى ، وفرناند ودى ازيفيدو ، والسواموروسو ليما، وادوارد وبرادو، وكثير غيرهم، مثل هرنانى تافاريس دى سا . وإذا كانت الحصيلة الكلية للابتكار العلمى الأصيل تبدو صغيرة ، كما هو الشأن فى جميع أرجاء أمريكا اللاتينية ، فمرجع ذلك إلى الجمهور المحدود نسبيا الذى يستطيع قراءة الكتب باللغة البرتغالية، ويستطيع شراءها

(*) doutores

والكتابة فى البرازيل ليست مهنة مكتفية اكتفاء ذاتيا حتى بالنسبة إلى أولئك الذين استقوا من السوق الخارجية للترجمة من كتب أجنبية . وعلى ذلك فعلى المؤلف أن يكون له مورد دخل آخر لتحمل تكاليف التأليف مثل دخله من المحاماة ، أو الصحافة ، أو وظيفة فى الإدارة البيروقراطية ، أو إيرادات من الممتلكات العائلية . ولا يميل البرازيليون كثيرا إلى التفكير الفلسفى أو البحث العلمى — وهما ميدانا العلم اللذان يحتاجان إلى مجهود مثابر وتدريب — أكثر مما تميل جمهرتهم إلى قبوله . وهم يتفوقون أكثر فى النقد والتحليل الأدبى والاجتماعى ، كما يتفوقون فى القصص الطويلة وكتابة التاريخ . وهناك كتب تؤكد على الذوق الفنى الأدبى فى الأسلوب واللغة أكثر من توكيدها على المادة الفكرية . وهذا يشبه الأهمية التى يضيفها البرازيليون على المظهرية (*) — وهى البراعة أو الفطنة لعمل الشىء فى أسلوب من العظمة رغم أن المناسبة قد لا تكون ذات أهمية كبيرة فى حد ذاتها .

Geito (*)

هوامش الفصل العاشر

(١) لم يكتب تاريخ واف مختصر عن البرازيل بالانجليزية • ولا تغطى الرحلة الجبرية المشهورة التى قام بها الشاعر الانجليزى روبرت سوذى عصرى الامبراطورية والجمهورية

Robert Southey, «History of Brazil» (3 vols., London, 1810 - 19).

أما مؤلف Joao Pandia Calogeras وزير المالية اليونانى البرازيلى ، والكتاب من جزء واحد فمكتوب بأسلوب وزير مالية •

«A History of Brazil» (tr. from the Portugueses and edited by Percy Alvin Martin, Chapel Hill, N. C., 1939).

أما المؤلف الممتاز بقلم كايو برادو الصغير

(Caio Prado Junior).

وعنوانه

«Formaçâo do Brasil Contemporaneo».

والذى صدر فى ساو باولو فى سنة ١٩٤٢ فلم يكمل بعد ، ولم يترجم حتى الآن الجزء الأول الذى يعالج عصر الاستعمار • ومن الكتب المفيدة الأخرى التى تعالج الأصول البرازيلية

Sergio Buarque de Holanda, «Raizes do Brasil» (Sâo Paulo, 1948).

وهناك مادة سليمة عن تاريخ البرازيل فى

Mary Wilhelmine Williams, «The People and Politics of Latin America» (rev. ed., Boston, 1945) PP. 92 - 101, 143 - 48, 245 - 75, 319 - 23, 753 - 802.

ومن المؤلفات الأخرى الممتازة عن البرازيل :

Roy Nash, «The Conquest of Brazil» (New York, 1926) ; Gilberto Freyre, «Brazil : Interpretation» New York 1945).

T. Lynn Smith, «Brazil : People and Institutions» (Baton Rouge, La., 1946) ;

Lawrence F Hill, ed., «Brazil» (Berkeley, 1947) ;
T. Lynn Smith and Alexander Marchant, eds., «Brazil : Portrait of Half a Continent» (New York, 1951).

(٢) عن مشروعات البرازيل فى الشرق انظر

Edgar Prestage, «The Portuguese Pioneers» (London, 1933).

(٣) لم تجد ماريا جريهام التى كانت فى البرازيل فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر أية مكتبة فى رسيفى ، وعلى الرغم من أنه كان يوجد اثنان من بائعى الكتب فى باثيا ، فقد كانت أثمان الكتب « مرتفعة بدرجة غير عادية ».

«Journal of a Voyage to Brazil, and Residence there, During Part of the Years 1821, 1822, 1823» (London, 1824) pp. 111, 138.

وقالت عن ريسفى : « هنا تكاد أسماء الآداب والعلوم نفسها لا تعرف » وعلقت على البرازيل بصفة عامة بقولها : « ان حالة التعليم العام منحطة الى درجة أنه للحصول على أى قدر منه يحتاج المرء الى ذكاء يفوق الذكاء العادى والرغبة فى تحصيل العلم »
Ibid., P. 147.

(٤) عن تاريخ البرتغال أنظر

Henry Morse Stephens, «The Story of Portugal» (New York, 1891) ;

وأيضا

H. V. Livermore, «A History of Portugal» (Cambridge, England, 1947) ;

وانظر أيضا

Aubrey F.G. Bell, «Portugal of the Portuguese» (London 1915).

ويقول جلبرتو فريرى عن المستعمر البرتغالى الأنموذجى فى القرن السادس عشر انه كان « كاسبانى بدون الأورثوذكسية الحربية ، وكانجليزى بدون حدوده البيوريتانية (الحنبلية) • فقد كان جريئا ، مثابرا ، كفئا ، ولكن قلما كانت تعوقه مبادىء جامدة ، وهكذا كان أكثر مرونة من الاسبانى أو الانجليزى •• مشهورا بقدرة معلومة من التهيئة للظروف والتمثيل جعلته فى مركز فريد دون سائر الأوربيين فى عصره » •

«Some Aspects of the Social Development of Portuguese America «in Charles C. Griffin ed.,» (Concerning Latin American Culture» (New York, 1940), P. 82.

(٥) يميز تافاريس دى سا هذه النماذج بالعبارات الآتية : « النوردستينو » ـ كثيرا ما يعيشون على الأمجاد الماضية وكشف الرواتب العام ، وكثيرا ما يسوون مركزهم المالى على صفحات الجرائد ، كما يتصفون بزلاقة اللسان ، والسرعة ، والعقول اللماحة • «المينيرو» حب التناسب ، التأنى ، حسن الادراك • « الكاريوكا » ـ الفتنة ، سرعة الخاطر ، التراخى التقلب ، روح العالمية ، الاستسلام للنكات الخبيثة malicia ، السامبا ـ الاحتفال • « البوليستا » ـ أوغاد عظماء ، شديدو المراس فى القتال ، الشراهة ، المرونة ، العناد ، الديناميكية ، الاجتهاد ، الجد فى العمس ، العجلة • « الجوشو » ـ المرح ، الصخب ، حب المشاجرة ، الشغف بركوب الخيل •

Hernane Tavares de Sà, «Brasileiros» in «Americas», May, 1949.

(٦) ان الروابط العائلية هنا جميلة جدا • فهى متينة وطابعها الاخلاص ، كالروابط التى تسود بين البطون الاسكتلندية » •

Maria Graham, op. cit., P. 226.

وطبقا لرواية مسز جريهام كان الشعور بالأسرة قويا فى البرازيل لدرجة أنه عاق تكوين علاقات أخرى بين الأشخاص • ويكتب روى ناش عن « الشعور بالتماسك الذى يربط بين أشد الأقرباء تباعا ، والشفقة التى ينالها الطفل غير الشرعى وأمه ، وهذا هو عين المسيحية ، والبيئة التى فيها قلما يساء الى الأطفال أو يجبرون على اطاعة الأوامر ، والاحترام الأبوى ، وهو شىء جميل حتى ولو كان فى غير محله »

Op. cit., P. 313.

« ففى تفكير البرازيليين الأسرة هى الوحـدة الأسمى والتى تستحق أعظم وقار »

Tavares de Sà, op. cit., P. 633.

أنظر أيضـا

T. Lynn Smith, op. cit., P. 633.

(٧) أنظر

Fernando de Azevedo, «A Cultura Brasileira» (Rio de Janeiro, 1943).

وقد ترجم هـذا المؤلف الى الانجليزية ونشر بعنوان
«Brazilian Culture : An Introduction to the Study of Culture in Brazil» (New York, 1950).

ويحتوى على أتم تحليل للأخلاق البرازيلية وصورهـا الاقليمية لا مثيل له فى مؤلف آخر .

(٨) « يقيم (المرء) باعتباره شخصية . أما مركزه اللاحق ، حتى ولو كان هـذا رسميـا ، فيتوقف الى حـد كبير عمـا اذا كان دمث الأخلاق . »

Konrad Guenther, «A Naturalist in Brazil» (tr. from the German, Boston and New York, 1931), P. 359.

(٩) « نحن لا تغرينـا القوة ، ولا المـال ، ولا الأعداد ، ولكنـا نلبى نداء العطف ولطف الشمائل ، ونغيث الملهوف . وفضلا عمـا يتصف به البرازيلى من قوة العزيمـة والذكاء وحـدة الطبع فهو رجل عاطفى . وان مدنيتنـا أقل اعتمادا على السيطرة أو الطاعة أو المبادىء الفلسفية أو التنظيمات الاجتماعية أو التقاليد الجامدة أو الايديولوجية المحكمة منها على مبدأ الصداقة الرهيف والمقدس ، ويكرس شعب البرازيل كأفراد وكأمة للصداقة أحسن طاقاتنا » .

Alceu Amoroso Lima, in «Tomorrow», (March, 1943), P. 36.

(١٠) يرى تافاريس دى سا معلقا على العبـارة البرازيلية
«Fazer minha independencia»

أى « انى أصنع استقلالى » أن ليس هنـاك تعبير يعـادل فى لغـة

البرازيليين التعبير الأمريكى «to make money» أى « يربى ثروة » فقد يفزع البرازيلى من فكرة أنه قد يضطر الى تكريس سنين كثيرة ليصنع استقلاله ، كما لا يقبل مطلقا عن قصد على حياة كلها عمل حتى ولو كانت لتدر عليه الثراء ، فهو دائما يقع فيه كرها أو بخدعة » ٠

Op. cit., P. 137.

(١١) « أعتقد أن القانون البرازيلى معتدل ورحيم ، وانى واثق من أنه يطبق بروح الشفقة ٠ ولدى البرازيليين ما أتصور أن يكون الفزع الحقيقى من أخذ الحياة قضائيا ٠ فهم لا يخافون الحرب ، ويدفعهم الغضب والغيرة المفاجئان سريعا الى القتل ٠

William Lewis Herndon and Lardner Gibbon, «Exploration of the Valley of the Amazon (2 vols., Washington, D.C., 1854), II, 340.

وكتب رتشارد بيرتن عن الأحوال فى ميناس يقول : « ان نسبة الجريمة الى عدد السكان تافهة ٠٠٠ وان مرآة أخلاق الميتيرو المحبة للقانون ، أو بالأصح اللطيفة رغم حدتها ، هى حالة الشرطة ٠ فبمثل هذه القوة الضابطة وصغر عددها ربما كانت معظم البلاد الأوربية تصبح غير صالحة للسكنى »

Op. cit., I, 403.

« لم يحدث فى تاريخ البلاد أن اغتيل نائب ملك فى البرازيل ، ولا ملك ، ولا امبراطور ، ولا رئيس ، ولا أسقف » ٠

Gilberto Freyre, «Brazil : An Interpretation» P. 159.

(٢) دأب الأجانب على التعليق على دماثة سلوك البرازيليين « اينما التقيت بالبرازيليين ، من أعظمهم شأنا الى أقلهم منزلة ، أرانى مضطرة الى القول انى لاقيت دائما أعلى درجات الأدب » ٠

Maria Graham, op. cit., P. 265.

وعن « لطف السلوك المطرد الذى يتحلى به جميع الناس » قال كونراد جنثر : « هذه صفة يتفوق فيها البرازيلى على الأوربى دون اعتراض » ٠

«A Naturalist in Brazil» (tr. from the German, Boston and New York, 1931), P. 360.

« يسود أدب عام بين جميع الطبقات والالوان » ٠

Henry Walter Bates, «The Naturalist in the Amazons» (Everyman edition, 1910), P. 49.

وقد قضى بيتس أحد عشر عاما فى وادى الأمزون (١٨٤٨ ـ ١٨٥٩)٠

(١٣) « حتى فى ايامنـا هـذه ربمـا كان أكثر من ثلثى مجمـوع البرازيليين أميين

T. Lynn Smith, op. cit., p. 665.

وقال هيرنانى تافاريس دى سا انه فى سنة ١٩٤٧ كان معـدل الأمية يزيد الثلث على الاقل على التقدير الرسمى وان ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ طفل بين السابعة والحادية عشرة لم يكن لهم مدارس يتعلمون فيهـا ٠

Op. cit., pp. 64-65.

(١٤) عن آداب اللغة البرازيلية انظر

Isaac Goldberg, «Brazilian Literature» (New York, 1922, Ronald de Carvalho, «Historia da Literatura Brasileira» (Rio de Janeiro),

Erico Verissimo, «Brazilian Literature : An Outline» (tr. from the Portuguese, New York, 1945) ;

Harriet de Onis, ed., «The Golden Land : An Anthology of Latin Amencan Folklore in Literature» (New York. 1948) ;

Samuel Putman, «Marvelous Journey : A Survey of Four Centuries of Brazilian Writing» (New York, 1948) ;

Arturo Jorres Tioseco, «New World Literature : Tradition and Revolt in Latin America» (Berkeley and Los Angeles 1949), passim;

Pedro Henrique Urena, «Literary Currents in Hispanic America» (Cambridge, Mass., 1945).

خاتمة

توجد فى أمريكا اللاتينية عشرون أمة . وجميعها حاليا جمهوريات ، ولو أن ثلاثا منها كانت ملكية فى أثناء أعمارها القصيرة . وهى تنزع بطبيعتها إلى النوع الجمهورى من الحكومة ، رغم أن الديمقراطية قد لا تكون جزءاً من صميم حياتها السياسية .

وربما كان ينبغى ألا يزيد عدد الجمهوريات على أربع عشرة ، لأن شعور المرء بوجوده فى أمة مشروع باهظ التكاليف ، ولا تستطيع الجمهوريات الأخرى ، أو لا تبرر ، الترف الذى يستلزمه مركز دولة مستقلة وذات سيادة . وست منها فى الحقيقة مجرد ولايات سارت فى معمعة شعورها بأنها أمم ، ولا تقصد تحقيق هدف معين خلاف المضى فى خطأ أساسى . وواحدة منها ، لو أرادت ، قد تصبح إحدى القوى الكبرى فى العالم ، ولكنها لا تهتم بذلك لمصلحتها الشخصية .

وعلى الرغم من السمعة الخاصة التى التصقت بهذه الأمم العشرين بأنها مثيرة للشغب ، فإنها فى الواقع تكون أكبر مجموعة دولية محبة للسلام فى العالم ، وقد طورت أكفأ جهاز لمجموعة من الدول لحسم خلافاتها . ومع أن هناك مشاحنات وضغائن وتوترات سطحية ، فإنها ليست قديمة أو متأصلة كما هى الحال بين دول أوربا . واستطاعت هذه الأمم أن تعيش بعضها مع بعض فى تناسق ملحوظ . ونظراً إلى أنها بصفة عامة تسلك مسلكا حسنا ، ولها أثر ضئيل كدول « مقلقة » من الناحية الدولية ، فإننا ننزع إلى التغاضى عنها لنهتم بشعوب أكثر مجلبة للمتاعب يقلقون راحة بالنا . وهم ينسجمون فيما كان يسمى بلطيف العبارة « اتحاد الأمم » ، ودون أن يتسببوا فى أى نزاع .

وفى خلال هذه الأثناء لا يهتمون بالطريقة التى تدير بها الدول القديمة شئون العالم ويتجهون إلى الانطواء لحماية أنفسهم . وإذا ما سجلوا مبادئهم السلبية فى دساتيرهم فهم مخلصون فى عملهم هذا .

والقوات المسلحة التى يملكونها ، وهى صغيرة نسبيا إذا قورنت بالجيوش الضخمة الحديثة الأساليب، إنما هى أحيانا أكبر قليلا من جماعات لها رؤساء ومن المحتمل أن دورها ، وهى على هذا الشكل، أهم كجماعة حاسمة لها وزن فى السياسة الداخلية القومية أكثر من كونها أداة فى العلاقات الأجنبية . وفى سنة ١٩٥٣ كان حوالى نصف رؤساء جمهوريات أمريكا اللاتينية رجالا حربيين وهناك اتجاه فى الجمهوريات الصغيرة حول الكاريبى لاستبعاد الجيش القائم كلية أو ، على الأقل ، تقليله حتى يصبح تنظيما هيكليا صغيرا يمكن أن يستخدم كنواة للتعبئة القومية فى حالة طارىء دولى . وبدلا من ذلك فقد ألقيت مسئولية حفظ النظام الداخلى وصد أى غزو محلى من أرجاء البلاد على قوة « كونستابلات » أو على الشرطة الأهلية ، وقد تكون فى طبيعتها قوة أشد خطراً فى القتال من جيش الدولة

وهذه ثقافات انتقالية . وبينما تختلف فى درجة تطورها ، فليس منها ما وصل إلى حالة من الكمال أو التمام الذى قد نشاهده فى أوروبا وآسيا ، فهى مجتمعات فى دور التكوين ، وقد يظن المرء أحيانا أن العملية لم تبدأ إلا مؤخرا . ولا يرجع هذا فقط إلى أنها من الناحية التاريخية حديثة العهد نسبيا ، ولم يتسع لديها الوقت بعد لتنمية بناء نضجها القومى الكامل . فالسبب الرئيسى هو أن اختلاف العناصر الاثنوجرافية التى تدخل فى تكوينها لم تندمج بعد . فكثيراً ما تتركب حضارة واحدة من ثقافتين أو ربما ثلاث أو أربع . والمعادلة التى يتم بها الدمج هى : إسبانى (أو برتغالى) هندى (أو زنجى) ؛ أو مولد من هندى أو زنجى ، أو خليط من كل هؤلاء = الجنس الجديد . وقد لا يكون هو « الجنس الكونى » الذى كتب

عنه جوسيه فاسكنسيلوس ، ولكن النتيجة ستكون شعبا لا يشبه أيا من عناصره المتفرقة .

ونظراً إلى أن الثقافات المؤتلفة تمثل توترات متراكمة فى علاقاتها بعضها ببعض ، فإنها لا تستطيع أن تعيش إلى الأبد جنباً إلى جنب فى توافق إذا مالت إلى هذا الجانب أو إلى الجانب الآخر . وهذه التوترات هى ميراث ذكريات من أخطاء الماضى ، ومن أساليب الحكم ، والمصالح الاقتصادية المقررة ، والاضطرابات الثورية وفى هذه الأثناء ، ونظراً إلى عدم وجود نظام اجتماعى ديمقراطى ، فإن قبول مبدأ المساواة ، وهو شرط لازم للتعايش المتسق لثقافات متفاوتة ، يصبح أمراً مستحيلا ولذلك فلا يمكن أن يكون هناك طوية قومية واحدة من أى من هذه البلاد حتى تتم عملية التهجين ، وتختفى العوائق الموجودة فى سبيل الوحدة الثقافية مع أسبابها الاجتماعية . وهذا هو حل متطرف ، ولكنه فى النهاية يضع حدا فعالا للمشكلة ، كما ادرك البرازيليون أخيراً . فلو أن حدة الضغط الذى يسببه كفاح الطبقات والتنافر الدولى خفت عما هى عليه الآن ، فقد يكون هناك حل ممكن آخر ، دون أن تذهب بعيدا فنهدم منزلا أقامه بضعة بنائين ، لكل منهم آراؤه ، ثم نعيد بناءه من جديد بنفس المواد وفى هذه الأثناء لا تكون البوادر البيولوجية اللازمة لتكوين شعب واحد يضم المجتمعات المختلطة قد تمت بعد فى جميع الأرجاء تقريبا . وحتى ذلك الوقت ، فإن معظم الثقافات القومية ستظل « شخصيات منقسمة » ، ولا تتكلم بصوت واحد ، ولكن أهدافها كثيرا ما تتضارب .

ويختلف مستوى الاستيعاب المتبادل للعناصر الجنسية المختلفة للسكان كثيراً من قطر إلى آخر . وتتوقف قوة الطبقة الوسطى ، وهى التى تقوم بدور العامل الوسيط الأساسى فى عملية التطور الاجتماعى ، على نسبة أعداد البيض أو الجماعات المولدة الفاتحة البشرة من السكان . فإذا غلب

وجود إحداهما ، كما فى أوروجواى ، كان هناك سلام اجتماعى نسبى وشعور بأناس قد وصلوا إلى حافة مصيرهم القومى ، أى إلى حضارة تشبع الحاجات والأطماح الأساسية . وتسود مثل هذه الظروف بعض الشىء بين سكان باراجواى الذين ينتمون إلى أصل مولد من قديم ، على الرغم من مستواهم المعيشى المنخفض ومركزهم السياسى المتخلف . أما فى أرجنتينا فمع تفوق طبيعة السكان الجوهرية فهى منقسمة نفسيا بشق يفصل بين العنصر الإسبانى الأصلى ومطالب القادمين الجدد من أوروبا إلى البلاد . وكانت النتيجة أن « الأرجنتينى النموذجى » ، كما يسمى ، هو تهجين ناقص بين شخصيتين متباعدتين وستكون الروح القومية لهذا الشعب المرجو هى حصيلة التراضى بين مطالب كل من الفريقين بالاعتراف الواجب لكل من فرديتهما الخاصتين . أما فى تشيلى ، فيهىء التفوق المتزايد لطبقة وسطى تتصف بالحيوية والذكاء ، وتجذب أفرادها من أعلى ومن أسفل على السلم الاجتماعى لنظام الطبقات الهرمى التقليدى ، الفرصة المرجوة لتطور هادىء لمجتمع قومى متوازن خال من التوترات والإجهادات الناكبة .

والعملية التطورية أكثر تعقيدا فى الأقطار التى كان من نصيبها ميراث كبير من السكان الهنود . فقد بقى فى هذه الأقطار نوع من المجتمع الأرستقراطى مؤسس على قبول الهنود لسيادة البيض منذ أيام الاستعمار . ولاتزال الطبقة الوسطى صغيرة وضعيفة ، وينزع أفرادها إلى أن يكونوا أتباعا للطبقة العليا الحاكمة . وحيث يكون الهنود كتلة عديدة ومتماسكة من الأهالى ، ويكونون أغلبية السكان فوق مساحة كبيرة ، فإنهم يميلون إلى أن يصبحوا جامدين ، ويقاومون أية عروض أو اقتراحات لاندماج أكمل فى الثقافة القومية . وفى هذه الأثناء يصبح همهم الوحيد أن يتركوا وشأنهم ويتمسكوا بما تبقى من حضارتهم التى استطاعوا أن ينقذوها من التدمير الذى أصاب استقلالهم السياسى منذ أمد بعيد .

والعنصر الأبيض فى بوليفيا صغير جدا وعديم الأثر ، وقاعدته الاقتصادية مزعزعة للغاية لكى يقوم بالدور الذى يناط به عادة فى عملية التطوير . فطبقة المولدين ، هم مؤهلون تأهيلا سيئا لتحمل المسئولية بسبب ما اتصفوا به من مزاج وبسبب خلفيتهم ، ووجود أغلبية هندية منفصلة بدرجة غير معهودة عن تأثيرات المدنية الغربية ، هما عاملان رئيسيان فيما يبدو من تجمع ظروف ميئوس منها .

والنموذج الكلاسيكى للشعوب المختلفة موجود فى بيرو . فهناك أرستقراطية متأصلة فى البلاد يغلب فيها الدم الأوروبى ، ولو أن فيها اختلاطاً كبيراً من مولدين من عنصر متفوق . وهذه الأرستقراطية تسيطر على البلاد وعلى حياتها بقوة العادة المتناهية القدم ، ونقص أوضعف أى تحد لنفوذها . واحتفاظها بموهبة قومية معلومة للسيطرة . وفى عليين ، وبمعزل فى الأنديز ؛ توجد المجموعة الضخمة غير واضحة الألفاظ من ورثة امبراطورية الإنكا الذين حرموا ميراثها . وعلى الأعراف (*) بين المنطقتين تتحرك كتل المولدين من السكان فى اضطراب ومضض ، فريسة لمركبات النقص التى يعانون منها ، ولتوسلات المسيحيين المخلصين الذين لم يجرؤوا أبدا على التفكير من خلال أناجيلهم الاجتماعية فى النتائج المنطقية لمقدماتهم . فالهندى لا يرغب إلا أن يعيش هنديا . وقد يمضى وقت طويل قبل أن يرضى أن يصبح مواطنا بيروفيا لحما ودما بتلك المزايا والمسئوليات التى قد تتضمنها هذه المنزلة . ومع ذلك فما دام راضيا أن يبقى عنصراً سلبيا فى السكان فلن يكون عائقا لأية حركة يقصد منها تطوير اجتماعى وسياسى للأمة . ويعتمد أى برنامج للتطوير من هذا النوع على استغلال أتم لكل نشاط وذكاء طبقة المولدين ، حتى ولو أدى ذلك إلى الحد من سلطة حكم الخاصة فى الشئون القومية .

(*) In the Limbo « Limbus, limbo » الأماكن الخارجة عن جهنم والمخصصة لغير المعمدين (الصالحين الذين عاشوا قبل المسيح والأطفال) .

وكما يليق بشعب منساق إلى التطرف ، فقد حسم المكسيكيون بالعنف والثورة المسلحة مرحلة أساسية من المشكلة الخاصة بالشكل الذى يتخذه نظامهم الاجتماعى نهائيا ، إذ فقدت حكومة الخاصة من ملاك الأراضى والعقارات مركز سيادتها التقليدى القديم، الذى تحول إلى سادة المكسيك الجدد من المولدين الذين وجدوا أمامهم أكبر فرصة لإظهار كفايتهم التى التزمت بها طبقتهم فى العالم الجديد . وعلى الرغم من أن الهندى نودى به أصلا أنه أهم منتفع حرر من ربق نظام المزارع ، فهو لايزال يكون طبقة وحدها فى المكسيك . وهناك كثيرون من قومه ، وشعوب متفرقة كثيرة — أزاتقة ، تابوتك ، مايا ، تاراسكان ،أوتومى ، والقبائل الصغيرة مثل اليا كى . وهو ينطوى على نفسه ، على الأقل داخليا ، كلما استطاع ذلك ، كما يحفظ السر الذى يفضى إليه به ولم يتحدد بعد مركزه النهائى فى التخطيط المكسيكى .

والمشكلة الخاصة بمستقبل البرازيل معقدة بسبب ضرورة التوفيق بين كل من واجهات الثقافة الإقليمية والتنوع الاثنوجرافى للسكان . فلا تختلف أساليب مواطن بائيا فى كثير من النواحى عن أساليب مواطن ساوباولو أو مواطن ميناس فحسب ، بل إن هناك كل أنواع الاختلاط التى يمكن تصورها بين الأجناس البيضاء والحمراء والسوداء ، بما فى ذلك نزحة من الجنس الأصفر . وتجمع الظروف هذا قد يمثل عقبة تكاد تكون مستحيلة فى طريق وعى قومى حقيقى ، ونمط ثقافى موحد فى التركيب الاجتماعى الصارم للأقطار الإسبانية .

وإن سماحة الروح والإنسانية العميقة فى الشعب البرازيلى ، والنزعة العامة فى أن يعيش المرء ، ويدع غيره يعيش ، رغم أنها عاطفة سلبية قائمة على اللامبالاة ، والرقة غير العادية والحرارة فى العلاقات الشخصية الحميمة، والنفور من الحلول المتطرفة ، والتقليد القديم لنظام أبوى متهاون فى

الأراضى الخلفية — كل آثار الأخلاق القومية هذه ، مما يلين التوترات العادية للعيشة الجماعية، وتقدم(فى حالة عدم التحلى عمليا بحب الخير وحسن الجوار) إطاراً مناسباً يبنى فيه المجتمع البرازيلى النهائى وفى الدور البطىء الذى تمثل فيه العناصر التى تتضمنها هذه الحضارة المركبة هناك نزوع إلى قبول اختلافات وجهة النظر والرأى ، فلا إصرار على المماثلة ما روعيت الأساسيات التى تميز البرازيليين عن غيرهم من الشعوب وهناك قليل من التعاظم فى الأرستقراطى البرازيلى ، وهو رستقراطى من نوع مختلف ،(*) كما لا توجد هناك قسوة فى رجـــل الريف (**) ولذلك فهناك ديمقراطية اجتماعية حقيقية لتخفى التوترات التى لابد أن تعترى الامتيازات الطبقية لأى مجتمع معقد . وفى هذه الأثناء نشط التهجين بدون عائق من قانون أو عادة كشىء أساسى ملازم لعملية التطوير .

سوف يتوقف مصير أمريكا اللاتينية وأقسامها العشرين التى تتألف منها ، من جهة ، على عوامـــل أخرى غير الاستيعاب الناجح للعناصر الاثنوجرافية التى يتكون منها السكان . وبعض هذه العناصر ، مثل مشكلة هنود بيرو ، ليست سهلة الحل . فهناك ضغائن راسخة ، كما أن هناك مصالح مقررة ، تجترح لاستمرار الأمور على ما هى عليه وعلى الرغم من أن الميراث الإسبانى المشترك يعد بمثابة ملطف لتسوية الفوارق فى المعادلة ، فإن قوته غير متساوية فى مختلف الجمهوريات . وقد تتبلور فى النهاية بضع جماعات قومية تصبح فى صميمها شيئا أقرب إلى الهندية منها إلى الأوروبية ، حتى ولو بدت الحضارة فى ثياب أوروبية . ذلك لأنه مهما اتخذت « روح » الشعوب المختلطة من شكل أو اتجاه فى النهاية ، فإن تلك الأمم، بسبب موقعها وظروف ماضيها القريب تتصل « بالغرب » الذى أشار إليه ارنولد توينبى المؤرخ المعاصر .

---

granfino (*)
Caboclo (**)

واتجاه مستقبلها مشروط بالحقائق والعادات الاقتصادية والسياسية . وبعض هذه العوامل محدود فى الطبيعة نفسها ، ولذلك فهناك حد لإمكانات تطورها . وقد تضطر إلى المعيشة فى فقر لأنها لا تملك من الموارد الطبيعية ما يجعلها تعيش عيشة مخالفة ومن المحتمل أن بعض الشعوب كالتشيليين سوف يتغلبون على العائق الذى يعترضهم بأخلاقهم الفائقة ، وبعضهم يعيش فى أراض ممتازة ، تجود بالخير العميم من ناحيتى الزراعة والتعدين على حد سواء ، يستغلها سكانها ، فينتجون فائضا من الأشياء التى تؤدى إلى والحياة الرغدة ، وما يتبعها من مشتملات ثقافية .

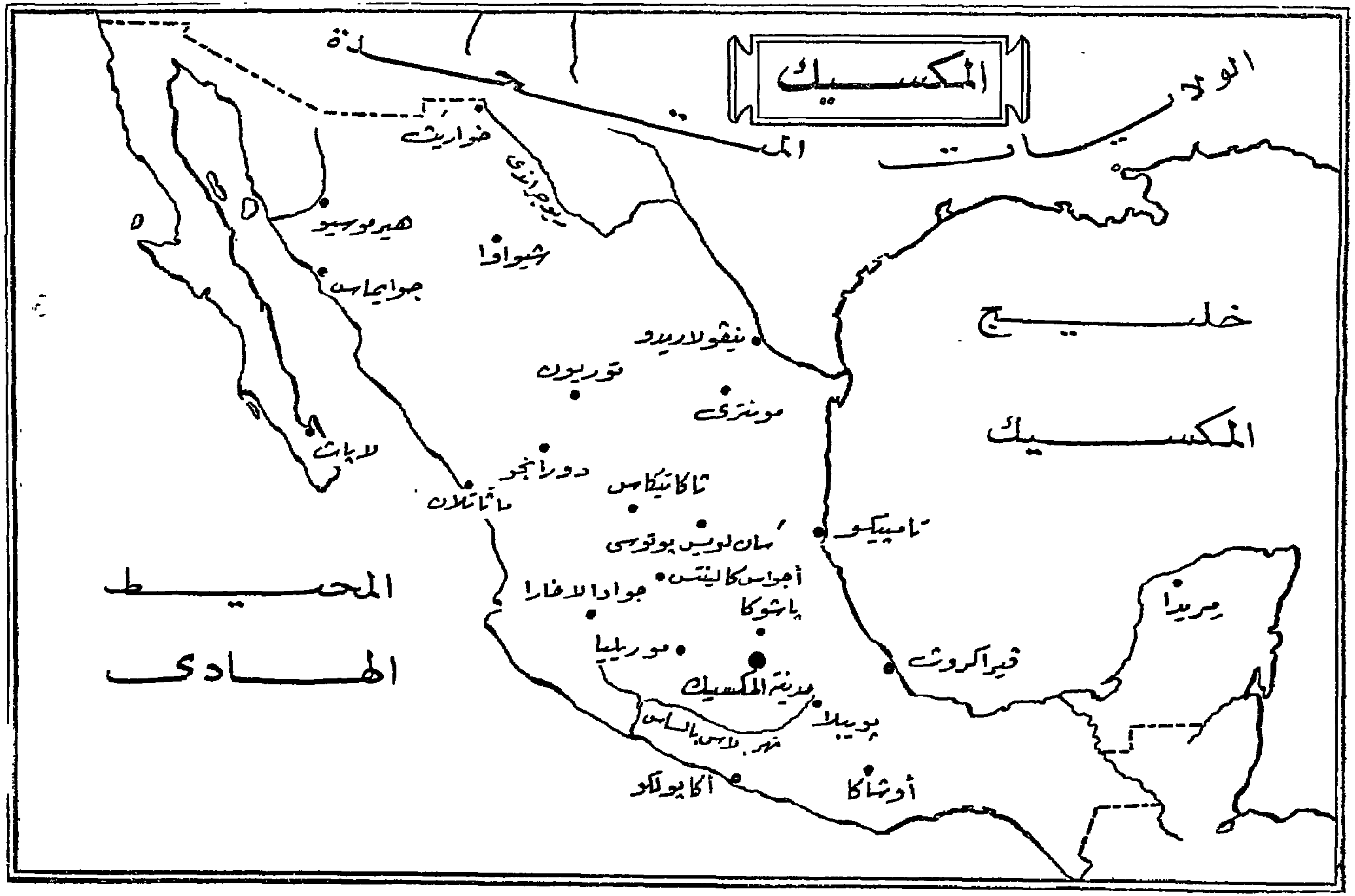
المكسيك
الولايات المتحدة
خوارث
ريوجرانزى
هيرموسيو
شيواوا
جوايماس
نيقولاريدو
توريون
مونترى
لاباث
دورانجو
ماثاتلان
تاكاتيكاس
سان لويس بوتوسى
تامبيكو
أجواس كاليتس
جوادالاخارا
باشوكا
موريليا
مدينة المكسيك
فيراكروث
بويبلا
نهر لاس بالساس
أكابولكو
أوشاكا
مريدا
خليج المكسيك
المحيط الهادى

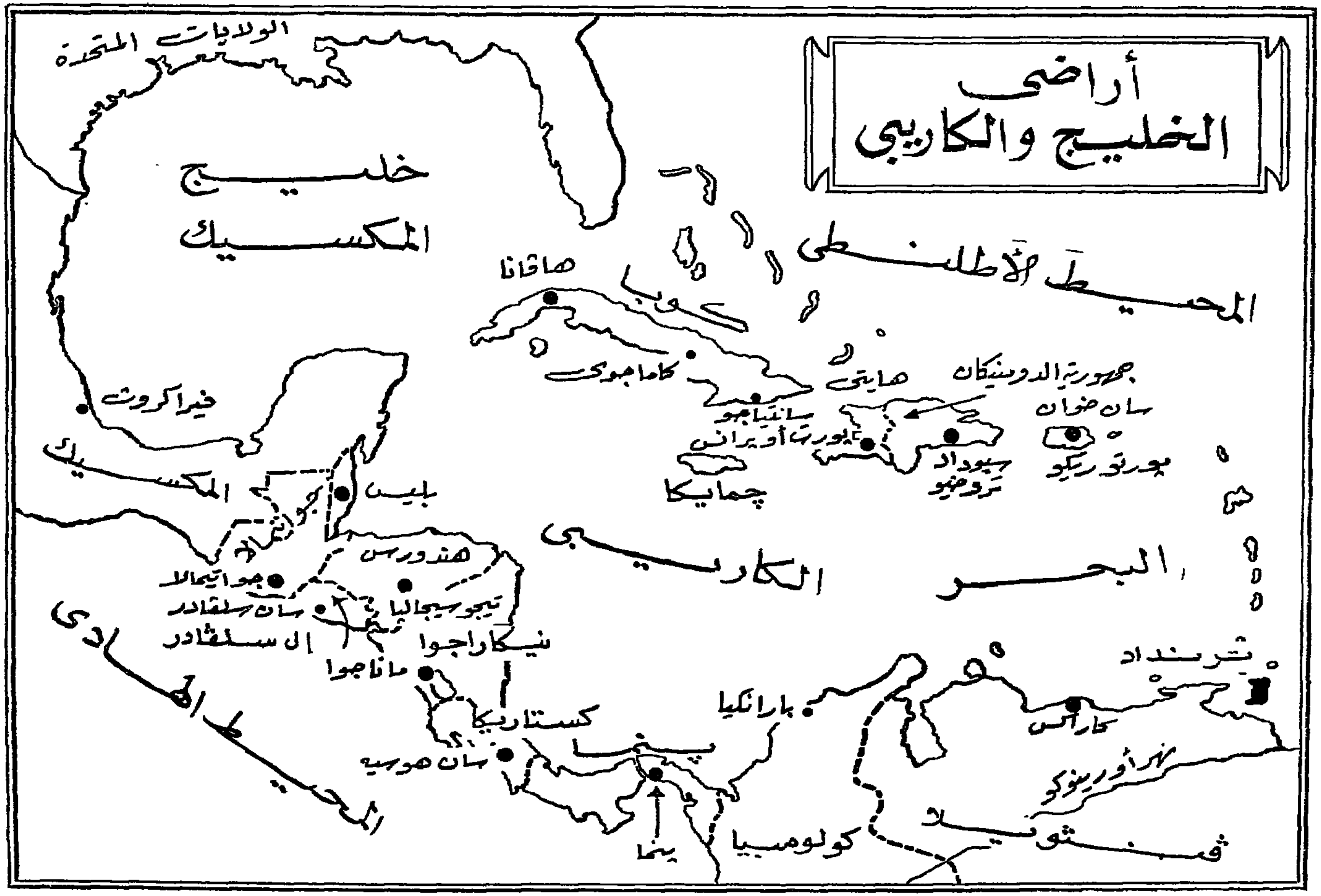

أراضي
الخليج والكاريبي

الولايات المتحدة
خليج المكسيك
فيراكروث
المكسيك
بليس
جواتيمالا
جواتيمالا
هندوراس
تيجوسيجالبا
سان سلفادور
ال سلفادور
نيكاراجوا
ماناجوا
كستاريكا
سان هوسيه
پنما
پنما
كولومبيا
بارانكيا
كاراكس
نهر أورينوكو
فنزويلا
ترنداد
البحر الكاريبي
المحيط الهادى
المحيط الأطلنطى
كوبا
هافانا
كاماجوى
سانتياجو
جمايكا
هايتى
بورت أو پرانس
جمهورية الدومنيكان
سيوداد تروخيو
سان خوان
بورتو ريكو

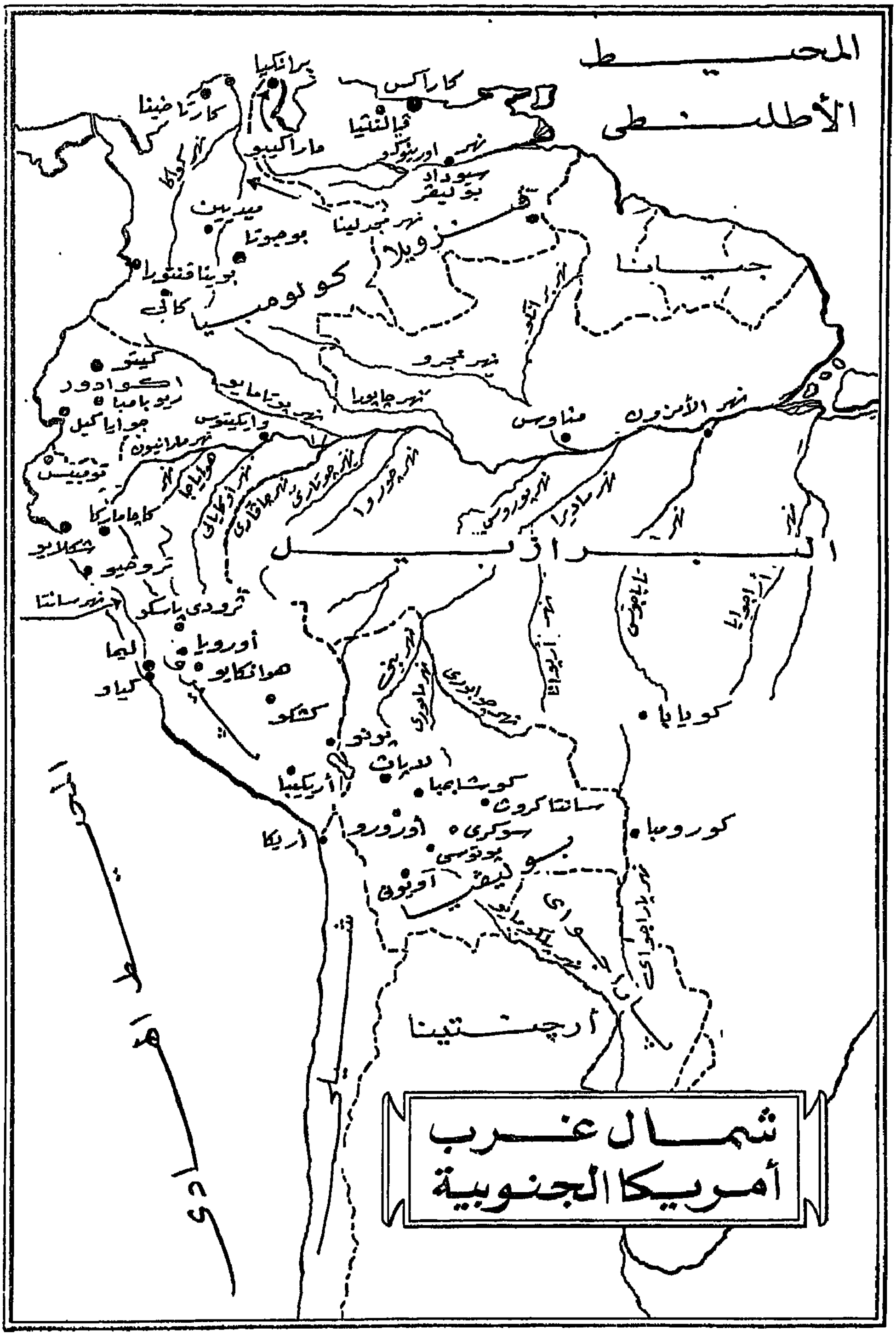
المحيط الأطلنطى
كاراكس
فالنثيا
ماراكيبو
بورانكيا
كارتاخينا
نهر أورينوكو
سيوداد بوليفر
ميديين
بوجوتا
بويناڤنتورا
كولومبيا
نهر مجدلينا
فنزويلا
جيانا
كيتو
اكوادور
ريوبامبا
جواياكيل
تومبيس
كاخاماركا
تروخيلو
نهر سانتا
لیما
كياو
اوروبا
هوانكايو
كوزكو
بونو
تيتيكاكا
أريكيبا
أريكا
كوشابمبا
سانتاكروز
سوكرى
أورورو
بوتوسى
بوليفيا
أرجنتينا
البرازيل
ماناوس
نهر الأمزون
نهر مادیرا
كويابا
كورومبا
نهر نجرو
نهر بوتومايو
المحيط الهادى

شمال غرب
أمريكا الجنوبية

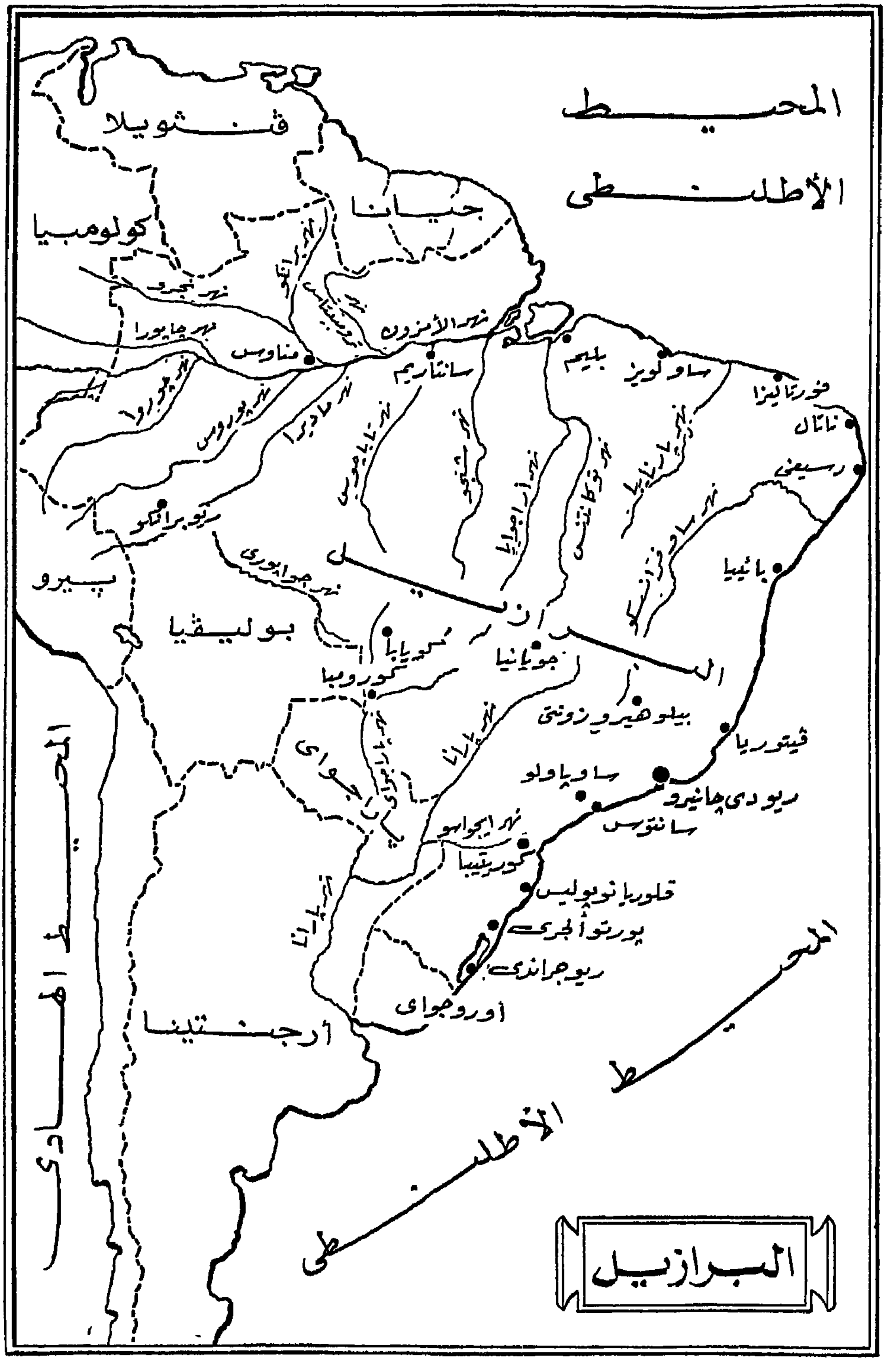
المحيط الأطلنطى
فنزويلا
كولومبيا
جيانا
نهر برانكو
نهر نيجرو
نهر الأمزون
نهر جابورا
مناوس
بليم
ساو لويز
فورتاليزا
ناتال
رسيفى
سانتاريم
نهر تاباجوس
نهر شنجو
نهر أراجوايا
نهر توكانتنس
نهر بارنايبا
نهر ساو فرنسسكو
نهر ماديرا
نهر بوروس
نهر جوروا
ريو برانكو
نهر جوابورى
پيرو
بوليفيا
البرازيل
باهيا
كويابا
جويانيا
كورومبا
بيلو هوريزونتى
ڤيتوريا
نهر بارانا
باراجواى
نهر باراجواى
ساو باولو
ريو دى جانيرو
سانتوس
نهر ايجواسو
كوريتيبا
فلوريانوبوليس
بورتو أليجرى
ريو جراندى
نهر أوراجواى
أوروجواى
أرجنتينا
المحيط الهادى
المحيط الأطلنطى
البرازيل

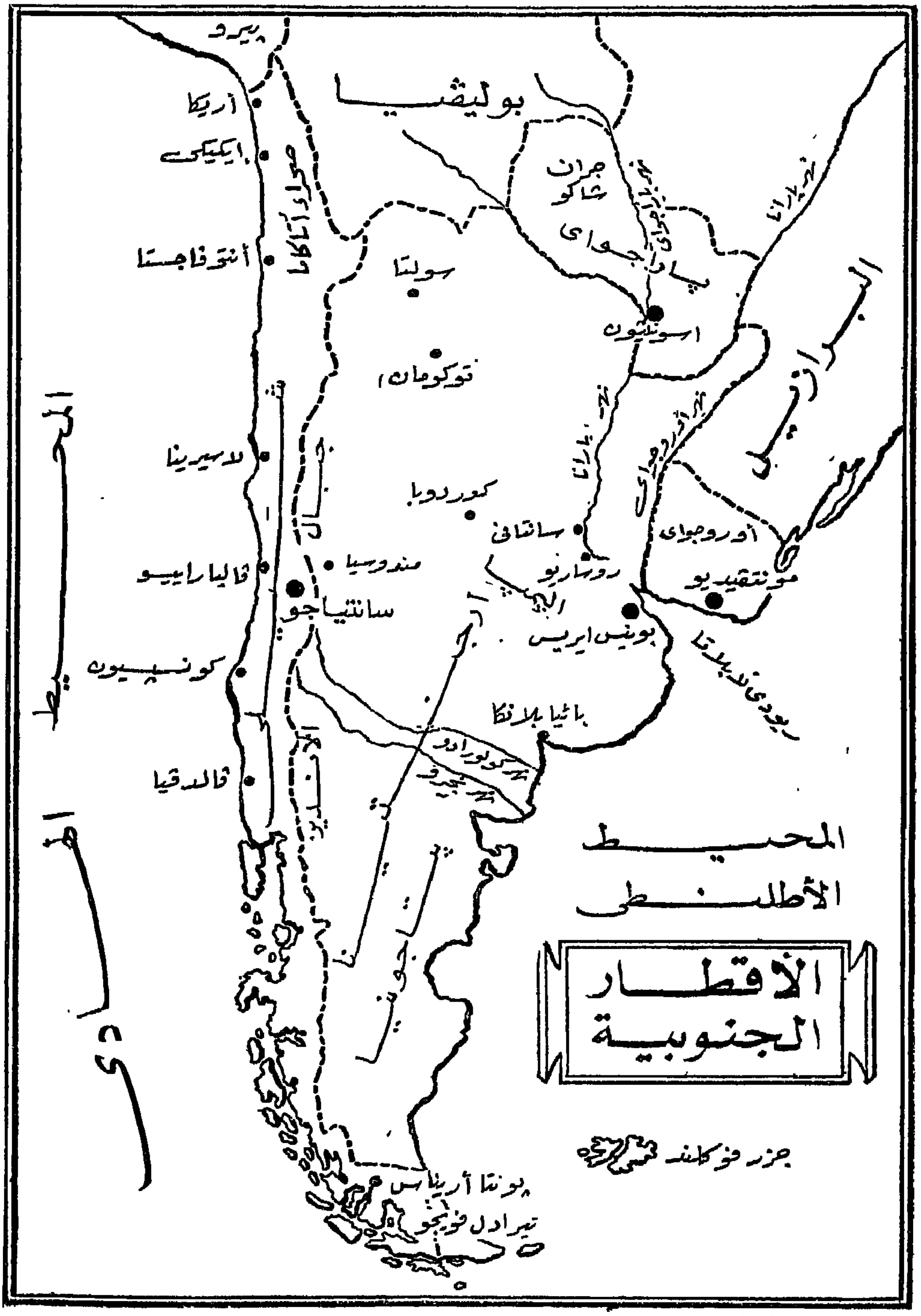
بيرو
بوليفيا
أريكا
ايكيكي
انتوفاجستا
صحراء أتاكاما
جران شاكو
نهر بيلكومايو
نهر بارانا
باراجواي
اسونسيون
البرازيل
سولتا
توكومان
لاسيرينا
جبال الأنديز
كوردوبا
سانتافي
نهر باراجواي
نهر أوروجواي
أوروجواي
مونتفيديو
روزاريو
البمپا
مندوسا
فالباريسو
سانتياجو
بوينس ايريس
ريو دي لابلاتا
كونسيبسيون
باهيا بلانكا
نهر كولورادو
نهر نيجرو
فالدفيا
بتاجونيا
المحيط الأطلنطي
المحيط الهادي
الأقطار الجنوبية
جزر فوكلاند
بونتا أريناس
تيرا دل فويجو

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

[illegible] الكتابة
ملك الأستاذ الدكتور
فوزي زكي الحسيني

هذا الكتاب

ما هى جمهوريات أمريكا اللاتينية ؟ ما هى العناصر التى تكونت منها ؟ كيف أصبحت كل جمهورية فيها بهذه الأخلاق وهذه العادات ؟ هذا الكتاب تناول « مفصل » لهذه الجمهوريات والعناصر المختلفة التى ساعدت على تشكيل كل منها · والكتاب يتكلم عن ضرورة التفاهم الدولى بين هذه الجمهوريات ·

ان هذا الكتاب حصيلة جهد كبير متصل لمدة سنوات طوال ، وقد أدى هذا الجهد الى ذخيرة من المعلومات جمعت بمهارة ، ودراسة مستفيضة قام بها مؤرخ لامع وخبير بهذه الأقطار التى تشتمل عليها أمريكا اللاتينية ·

ويعرض المؤلف للأجناس المختلفة ليبين اثر هذه الأجناس فى أعماق الانسان فى أمريكا اللاتينية · ويمتاز المؤلف بأنه استطاع أن يخلص نفسه من أى غرض أو نظرة دعائية ليبقى نظرته عميقة مجردة بريئة الا من محاولة الوصول الى الحقيقة العملية وحدها ·

قال هيوبرت هيرنج حين قرأ هذا الكتاب ان مؤلفه يستطيع أن يشيع المحبة البعيدة عن الخيال ، وأن يكشف الأشرار دون أن يصفح عنهم أو يحرجهم ، كما تستطيع بصيرته النفوذ الى الحياة المضطربة التى تحياها جمهوريات أمريكا اللاتينية العشرون ·· انه كتاب لا بد ان يقرأ ·

Bibliotheca Alexandrina
0356398

سنة ٩٧٠